

المسيحيون واليهود في التاريخ الإسلامي العربي والتركي

تأليف: فيليب فارغ
يوسف كرجاج

ترجمة: بشير السباعي

2147



يبدو الإسلام، عند النظر إليه من شمال البحر المتوسط،
مهيمنا بلا منازع على مجتمعات جنوب البحر. ولكن، هل
يرجع التجانس الواضح إلى ليل الأزمنة؟
لقد دامت عملية إقرار الإسلام في الشرق العربي تسعة
قرون. ولم يكن ذلك الزمن، بالمرّة، زمن إكراه وأعمال
عنف متصلة. فهنا وهناك، تسنى للمسيحية ولاليهودية البقاء،
بل الازدهار، أكثر من مرة. وقد ترافقت عمليات تسارع
اضمحلال الجماعات المسيحية المحلية مع غزوات أوروبا
المسيحية. ووجدت كل مواجهة امتداداً لها في عودة
للأصولية الإسلامية: تطهيرة الموحدين والانتصارات الأولى
للاسترداد الإسباني، التشدد المملوكي والحروب الصليبية،
نزعة الجامعة الإسلامية التي روج لها السلطان عبد الحميد
الثاني والإذلالات التي تعرضت لها الإمبراطورية العثمانية
في المغرب والبلقان، الصعود الحالي لأصولية إسلامية جديدة
 وإنشاء إسرائيل. وجميع هذه الاندفاعات لتشدد الدولة
والمجتمع تترافق مع انكفاء للأقليات. على أن فترة طويلة،
هي القرون العثمانية الأربعة، تشهد وثبة للأقليات في إثر
الاضمحلال، في تركيا والشرق العربي.
فهل يقدم تاريخ ذلك التعايش الطائفي علامات لتخيل
المستقبل؟

المسيحيون واليهود

فى التاريخ الإسلامى العربى والتركي

المركز القومي للترجمة
تأسس في أكتوبر ٢٠٠٦ تحت إشراف: جابر عصفور

إشراف: كاميليا صبحي

- العدد: 2147
- المسيحيون واليهود في التاريخ الإسلامي العربي والتركى
- فيليب فارغ، ويوسف كراج
- بشير السباعي
- اللغة: الفرنسية
- الطبعة الأولى 2013

هذه ترجمة كتاب:

Chrétiens et Juifs dans L'Islam Arabe et Turc

Par: Youssef Courbage et Philippe Fargues

Copyright © Librairie Arthème Fayard, 1992

Arabic Translation © 2013, National Center for Translation

All Rights Reserved

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمركز القومي للترجمة
ش.ع الجبلية بالأوبرا- الجزيرة- القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.
E-mail: egyptcouncil@yahoo.com Tel: 27354524 Fax: 27354554

المسيحيون واليهود

فى التاريخ الإسلامى العربى والتركي

تأليف : فيليب فارغ

يوسف كرجاج

ترجمة : بشير السباعى



2013

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

فارح؛ فليلب

المسحيون واليهود فى التاريخ الإسلامى العربى والتركى
تأليف: فليلب فارح - يوسف كريباج: ترجمة: بشير السباعى
القاهرة: المركز القومى للترجمة، ٢٠١٣

٣٢٤ ص: ٢٤ سم

١- المسيحية والديانات الأخرى

٢- الإسلام والديانات الأخرى

(أ) كريباج، يوسف (مؤلف مشارك)

(ب) السباعى، بشير (مترجم)

(ج) العنوان

٢٧٦، ١٢

رقم الإيداع ٢٠١٢/١٥٩٨٩

الترقيم الدولى 8-036-718-977-978 I.S.B.N.

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المركز القومى للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربى وتعريفه بها، والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافتهم، ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز.

كلمة من المترجم

على مدار السنوات السبع عشرة الماضية، شكّل هذا الكتاب المصدر الرئيسي لباحثين ديموغرافيين عرب جادين، لكنه، خاصة مع نفاذه، تعرض لانتحالات غريبة من جانب سياسيين وإيديولوجيين تافهين قدموا أنفسهم في صورة باحثين(!)، وقاموا - في سياق الانتحال - باحتراءات وتفسيرات مريبة لا تكشف إلا عن تحيزاتهم المشبوهة.

وبالنظر إلى هذا الواقع المحزن، من ناحية، وإلى أهمية توافر الكتاب من جديد أمام جمهور قارئ جديد لم يسبق له الاطلاع عليه، من ناحية أخرى، فإن صدور طبعة جديدة منه إنما يمثل خطوة في الاتجاه الصحيح لا أملك سوى التوجه بالشكر إلى المركز القومي للترجمة على اتخاذه لها.

بشير السباعي

31 أكتوبر 2011

إلى القارىء

يمثل هذا البحث المهم أول محاولة علمية لتناول مجمل التاريخ الديموغرافى للمسيحيين واليهود فى عالم الإسلام العربى والتركى منذ بدايات الدعوة المصمديّة وحتى الآن .

ويكشف هذا التاريخ عن ديناميات ازدهار واهتمحال المسيحيين واليهود على خلفية تاريخ ازدهار واهتمحال الدول التى عرفها عالم الإسلام العربى والتركى ومستويات ضغط الغرب على هذا العالم .

والواقع أن هذا البحث إنما يمثل فى الوقت نفسه محاولة لتناول تاريخ انتشار الجماعة الإسلامية على مدار زمن طويل . وهو يشكل إسهاماً مهماً من هذه الزاوية كذلك .

ويكشف البحث عن تعرجات تاريخ الجماعات المسيحية واليهودية والمسلمة تبعاً للتحولات التاريخية السياسية والاجتماعية - الاقتصادية والإيديولوجية التى أثرت على تطور عالم الإسلام العربى والتركى.

ويبين مسار هذه التحولات ونتائجها أسباب تباين وتداخل مصائر هذه الجماعات على مستويات عديدة.

وتظل رسالة هذا البحث الضمنية هى أن ازدهار الجماعات السكانية المكونة لعالم العرب والأتراك إنما يتوقف على اقتحام ساحة تاريخية جديدة أساسها الإنصاف والإخاء بين البشر؛ وهى رسالة ما أحوجنا إلى بذل كل جهد من أجل تحويلها إلى واقع.

القاهرة، ٢٧ مارس ١٩٩٣ .

بشير السباعي

إهداء الترجمة

إلى زملائي السابقين في مدرسة الفرنسيين في
الذين لا أدرى ماذا فعلت بهم الأقدار:

جميل ... المسيحى،

إيوار... اليهودى،

محمد طلعت، الذى تقاسمت معه تحسس غيابهما بسبب

درس الدين

ب. س.

تهييد

يبدو أن مواجهة قديمة ذات تفجرات متكررة، تنبعث من جديد منذ الإطاحة بالأسرة الحاكمة اليهودية في إيران (١٩٧٩) وصحوة إسلام سياسى يجاوز القوميات. فمن جديد، تبدو كثلتان: المسيحية والإسلامية، عصيتين على التصالح. وإسلام البحر المتوسط، منظوراً إليه من الشمال، يبدو أيضاً مهيمناً، بلا منازع، على مجتمعات الجنوب. ولكن هل يرجع كل هذا التجانس وكل هذا الدوام إلى ليل الأزمنة؟

إن إنسان أوروبا اللاتينية المذهب، المغفور في الحاضر، يتصور التوسع الإسلامى بوصفه فتحاً خاطف السرعة للسلطة السياسية وللمعتقدات الدينية على حد سواء. لكن الأمر يتطلب قرابة ألف عام حتى يتسنى للإسلام الفوز تدريجياً بولاء السكان الذين ينتمون إليه اليوم. وهذه الأعوام كانت بعيدة عن أن تكون زمن إكراه وعنف متواصلين. كما أن الأسلمة لم تكن قط شاملة. إن سلسلة من الطوائف غير المسلمة تواصل الحياة والحوار، بل وتزدهر في الشرق العربى.

والواقع أن الفاتحين الذين سوف يخرجون من شبه الجزيرة العربية في القرن السابع سوف يصوغون تصوراً عن العالم يقسمه إلى عالمين. ففي البلدان التى سيجتلبونها، سوف يمنحون أهل الكتاب وضعية المحميين. أما باقى العالم فهو يعتبر ساحة الحرب الممكنة. وأولئك الذين ينزلون منه غزاةً، مسيحيين كانوا أم يهوداً، يصبحون أعداء للإسلام. وهكذا فإن توسيع الاراضى المفتوحة ونشر الدين فيها يخضعان لمنطقين مختلفين. والواقع أن المهمة الاولى وحدها هى التى تعبى جميع الطاقات. وسوف تتساند آلة الحرب والأنوات الحقوقية للتنابش الطائفى فى بلاد الإسلام. فلا شك أن مال الفلاح القبطى والراهب اليعقوبى والحرفى اليهودى الملزمين بأداء ضريبة رأس، إن كانوا يريدون التمسك بديانتهم، كان حيواً لتوسيع ولتوطيد أركان الإمبراطورية. لكن الدين الجديد يكسب الأذهان والسكان شيئاً فشيئاً.

عبر أية آليات؟ عمليات التحول إلى اعتناق الدين الجديد، أولاً، والتى سوف تمتد على مدار الأعوام الألف الاولى. فالسكان سوف يتأسلمون بفضل الفرص على نحو أكثر بما لا يقاس مما بفضل الإكراه. وكان هناك ثانياً الزواج، وهو تعاقد سلمى بامتياز: فهو يؤدي إلى

انتشار الإسلام الذى تنتمى إليه، بحكم الشريعة، ثمار زواج مسلم من كاتبة. وأخيراً، فإن الديموغرافيا التفاضلية للطوائف تدخل إلى المسرح فى مستهل القرن العشرين. وفى أيامنا، فإنها وحدها تواصل العمل لمصلحة الإسلام فى المجتمعات المتعددة الطوائف فى الشرق. ونرى من هذا التعداد للآليات أن المذابح والترحيلات الإجبارية لا تظهر بينها. ومن المؤكد أنها تحدث فى هذا المكان أو ذاك، لكن أياً منها لن يتميز باتساع جد كبير قبل مولد تركيا الحديثة.

وقد استغرق إقرار الإسلام فى الشرق العربى (الفصل الأول) تسعة قرون: من الهجرة إلى سقوط المالك. وفى بادئ الأمر، كانت عدة قبائل مسلحة قد تمكنت من بحر أقوى دولتين آنذاك: بيزنطة وفارس. ولما كان عدد رجالها قليلاً بشكل يدعو إلى السخرية قياساً إلى الجماهير التى سوف يحكمونها، فقد كان عليهم الفوز باعترافها بهم. وقد أتاحت النزاعات الدينية التى مزقت صفوف المسيحيين أرضية مؤاتية للفاتحين الجدد. وقد أدت الوضعية التى سوف يخصصونها للمسيحيين واليهود فى أن واحد إلى تقنين العلاقات فيما بين الطوائف. وهذه الوضعية، المزبوجة فى آثارها، تسمح للطوائف الدينية بتكريس نفسها، لكنها تشجع فى الوقت نفسه عمليات التحول إلى الدين الجديد. وسوف يتكشف أن النواة التى تواصل العيش غير قابلة للمحاء. وكان يمكن للتاريخ أن يدور بشكل مماثل فى الغرب، لكن أفريقيا الشمالية، خلافاً لذلك، سوف تنزع عنها طابعها المسيحى بشكل تام (الفصل الثانى). فالغرب، البعيد عن القلب الجغرافى للإسلام، سرعان ما سوف ينقسم إلى كيانات صغيرة لها صبغات أمم أولية، ومن ثم قادرة على تحقيق التجانس. وهو باجترائه على أوروبا، يصبح شاهد وقوة الصدام الأمامى الكبير الأول مع الجماعة المسيحية اللاتينية لزمناً إعادة الفتح (الإسبانية). وعندئذ تنتقل بقايا المسيحيين المحليين إلى الإسلام.

والواقع أن الجماعتين المسيحيتين، اللاتينية والعربية، سوف تتجاوران لأول مرة خلال الحروب الصليبية (الفصل الثالث). أما تحفظات الجماعة المسيحية العربية تجاه الجماعة المسيحية اللاتينية، والإزعاجات التى كانت معرضة لها من جانب الجماعة المسيحية اللاتينية، والتى كان من المفترض مع ذلك أن تمتد لها يد العون، فإنها سوف تسمح باجتياز هذا الصدام الثانى بون قطيعة مع الإسلام الذى أصبح دين الغالبية. على أن الحدث ينتهى بالمحنة التى يفرضها على الجماعة المسيحية الشرقية إسلام أصولى، فيختزل عدد المسيحيين ونفوذهم. أما المواجهة الثالثة والأخيرة بين الإسلام والجماعة المسيحية اللاتينية فسوف يكون مسرحها هو المغرب الكولونى (الفصل الرابع). والواقع أن الاستعمار الفرنسى، وهو هيمنة أخرى كبيرة

على الإسلام فى أرخه، سوف يكون له حضور أقل استمرارية بكثير من حضور الممالك اللاتينية. على أنه، خلافاً لهذه الأخيرة، سوف يترك بصمة ثقافية ولغوية تزداد عمقاً، بعد ثلاثين عاماً من زواله.

وعندما يجتاح العثمانيون الشرق العربى بعد فتحهم البلقان، فإنهم سوف يكونون مزودين بخبرة فى مجال الحوار بين الطوائف، وسوف يسمحون بنهوض للجماعة المسيحية العربية غير مسبوق ومثير على حد سواء (الفصل الخامس). ولما كانوا مؤسسين لإمبراطورية، فإنهم سيسعون إلى السيطرة، لا إلى الامتلاك، أو إلى تجريد الأمور مما استوت عليه طبائعها. فمعذ دخولهم القسطنطينية، سوف يعترفون بوجود جماعى للأقليات الطائفية، برفعها البعض إثر البعض الآخر إلى مصاف «الأمم» (الملل)، ويمنحها استقلالاً ذاتياً لتصريف شؤونها الدينية والحقوقية والثقافية والصحية. ولأول مرة منذ بيزنطة، تجد هذه الأقليات نفسها موحدة ضمن عالم تبادلات واحد. وفى تركيا (الفصل السادس) سوف يعيد العثمانيون صوغ بلد كانت أربعة قرون من القوضى قد أدت إلى ضعضة المسيحيين فيه. وجنباً إلى جنب اليهودية، فى ظل المبدئية السنية السلطانية، تشهد الجماعة المسيحية نهوضاً مساوياً فى اتساعه لنهوضها فى الشرق العربى، لكن الدولة القومية التى سوف تنهض على أنقاض الإمبراطورية سوف تحسم مصيرها فى الأناضول حسماً سريعاً، فالأمة التى يتصورها محركوها يجب لها أن توجد جماعات سكانية متماثلة إلى أقصى حد ممكن. وفى غضون عقد ماساوى سوف تختفى الجماعتان المسيحيتان التاريخيتان، الأرمنية واليونانية.

وعلى أنقاض هذه الإمبراطورية نفسها، فى اتجاه الجنوب، وبعد ذلك بوقت قصير، سوف تؤسس جماعات يهودية دولة قومية أخرى. ولما كانت هذه الجماعات قادمة من جهات أخرى، من أوروبا المسيحية ومن عدد من بلدان الإسلام، فإنها سوف تذكر بالاختراقين السابقين، الصليبي والاستعماري. وفى وجه إسرائيل، سوف يجد المسلمون والمسيحيون الفلسطينيون أنفسهم كتحاً لكف لمواجهة الهجرة بالديموغرافيا (الفصل السابع). ومن أدنى أجزاء إسرائيل إلى أقصاها، يستقطب اليوم محوران التنوع الطائفى. وعلى طول النيل وعلى منافذ الشام البحرية، تمس المسيحية العربية منذ ذلك الحين منحنى دائرتها الهابط (الفصل الثامن). فالنقدات الاجتماعية التى سبق لها أن رفعتها إلى أعلى تكبحها، بعد أن أصبحت الأسرة المحدودة العدد سمة من سماتها. ومع اتساع التحول الحضري، تحد الجغرافيا من مجالها، لكن الاقتصاد يوسع.

نحوذ من الحرب المالباء الابل



البحر



نسبة غير المسلمين في البلدان العربية وتركيا

وهذا التاريخ ليس مجرد تاريخ لتعاقب ديانات تدعو إلى وحدانية الرب، فهو أيضاً تاريخ سلسلة من الاختراقات الصاخبة أو الصامتة. فمن فرسان الإسلام يبدو شبه الجزيرة العربية إلى الصليبيين، ومن المغول إلى الأتراك، ومن الأوروبيين - اللاتينيين إلى (اليهود) الأشكنازيين، تقدم جميع هذه الأحداث شعباً غريباً فى استهلالها. فالقادم الجديد، الذى يشكو دائماً من بونية ديموغرافية جسيمة، يستولى على السلطة، والموجة التالية تسلك طرقاً جد مختلفة. وتصبح بعض الأقليات الأغلبية، أو الكافة ببساطة تماماً، بحكم توسع ثقافى، وليس ديموغرافياً. فمن هو التونسي الذى يحس اليوم أنه غير عربى؟ ومن هو الأناضولى إن لم يكن تركيا؟ وسوف ينوب بعضها الآخر من الناحية السوسولوجية فى الجماهير التى كان قد أخضعها من الناحية السياسية. والبعض الثالث، أخيراً، سوف ينزح أو يهلك. وكلهم، مع تباين طفيف فى الظلال، يصلون مسلحين بدين وبلغة.

ومع احتمال تلقى الإرث الثقافى للشعوب المفتوحة، سوف ينشر العرب والأتراك الاثنين. أما الأوروبيون، الصليبيون والكلون، فإنهم لن يفكروا فى ذلك، أو لن ينجحوا فى تحقيقه، بحيث إنهم سوف يحتفظون بهذه وتلك لأنفسهم. والانفصال هو الثمن. وفى نهاية المطاف سوف يجرى رفضهم. والتجربة الثالثة لرفض الامتزاج لا يزيد عمرها عن خمسين عاماً. فهى جد قصيرة بحيث يتعذر تأمل مستقبلها، لكنها كافية لرصد ما تتطوى عليه من مستجدات. فالصليبيون والكلون ظلوا أقلية فى الأرض التى يحكمونها، فى حين أن اليهود يتمتعون بأغلبية كبيرة فى داخل حدود إسرائيل المعترف بها. ومن ثم فإن الحوار المتصور سوف يتكشف أنه حوار علاقات بين قوميات بأكثر مما هو حوار علاقات بين طوائف.

أما الجماعة المسيحية المحلية التى كانت من قبل أغلبية فهى تصبح أقلية تواصل البقاء فى هذا المكان أو ذاك، بينما تتلاشى فى أماكن أخرى. وليست المسألة مسألة مصير محدد بشكل لا فكاك منه، بل هى بالأحرى مسألة توليفات فريدة من عدة عناصر ثابتة. فالانتماء إلى الأرض قد خلع على هؤلاء المسيحيين من زمن ما قبل الإسلام انغراساً لا تستطيع الجماعة المسيحية المستوردة الاعتزاز به. وسرعان ما سوف يؤدى تقارب أساليب الحياة والأعراف الاجتماعية إلى تعميم التعايش. وكان تبنى لغة الفاتح، العربى أو التركى، حاسماً بالنسبة للتبادل. ومن المترجم النسطورى إلى الموسوعى المارونى، ما أكثر المواهب التى سوف تشهد على الاحترام المتبادل بين اللغة التى حملت الإسلام، العربية، والديانة التى وجعتها: المسيحية! وسوف يكون الولاء للدولة ورفض الولاء للأجانبى رصيذاً مهماً آخر. والطوائف لا تقى كلها ودائماً بهذه الشروط المتنوعة.

وصحيح أن الأقليات الطائفية لن تكون لها الهيمنة التامة على مصيرها. فالتسارعات العظيمة لانحدار الجماعات المسيحية المحلية سوف تتبع كلها اقتحاماً قوياً من جانب أوروبا، على الرغم من غياب تحالف أكيد. وسوف تجد كل مواجهة امتداداً لها على شكل تجديد للأصولية الإسلامية. تطهيرية الموحنين والانتصارات الأولى لإعادة الفتح (الاسبانية)، التشدد الملوكي ومغامرة الحملات الصليبية، جامعة السلطان عبد الحميد الإسلامية وإذلال الإمبراطورية في المغرب والبلقان، الصعود الحالي لأصولية إسلامية جديدة وإنشاء إسرائيل: فبعد فترة من الكمون، يعقب ردُّ الفعلِ الفعل. وسوف تترافق هذه الاندفاعات لتجذر الدولة والمجتمع كلها، بشكل أو بآخر، مع تراجع للأقليات المسيحية. على أن التاريخ أثبت مرة، خلال القرون العثمانية الأربعة، أن الوثوب يمكن أن يتلو التراجع. ومن ثم فإن الانكماش الذي تعرفه الجماعات المسيحية العربية منذ تقسيم الشرق إلى أمم قد لا يكون هو الآخر غير كسوف مؤقت.

شكر وتقدير

يشكر الكاتبان المعهد الوطني للدراسات الديموغرافية ومركز الوثائق التابع له اللذين أتاحا لهما إمكانية كتابة هذا الكتاب.

ويشكر الكاتبان والمترجمُ السيد سعد القدرى الترجمان على ما قدمه من ملاحظات مفيدة.

الفصل الأول

قيام الإسلام في الشرق العربي

«بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان: أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم، ولكنائسهم وصلبانهم، وسقيمها وبريئتها وسائر ملتها؛ أنه لا تُسكن كنائسهم ولا تُهدم، ولا يُنتقص منها ولا من حيزها، ولا من صليبهم. ولا من شيء من أموالهم، ولا يكرهون على دينهم، ولا يضار أحد منهم. ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود، وعلى أهل إيلياء أن يعطوا الجزية كما يُعطى أهل المدائن، وعليهم أن يخرجوا منها الروم واللصوت؛ فمن خرج منهم فإنه آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم؛ ومن أقام منهم فهو آمن؛ وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية، ومن أحب من أهل إيلياء أن يسير بنفسه وماله مع الروم ويخلى بينهم وصلبهم فإنهم آمنون على أنفسهم وعلى بيعهم وصلبهم، حتى يبلغوا مأمنهم، ومن كان بها من أهل الأرض قبل مقتل فلان، فمن شاء منهم قعدوا عليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية».

مقتطف من معاهدة استسلام القدس (٦٣٣)، التي لونها الطبري، تاريخ الرسل والملوك (٩٢٣) (١).

كانت مكة تضم على الأكثر بضعة آلاف من السكان حين جاء الوحي إلى محمد هناك.

وعلى امتداد مئات من الكيلو مترات حولها، كانت الصحراء تعزل المدينة، مرغمة إياها على اجتياز أفق من الكثبان الرملية، وعلى دفع قوافلها فى بحث دائم عن أسواق ثانية. وقد سلك النبى هذه الطرق نفسها، ولكن سعياً وراء تحقيق مطمح آخر: توحيد جماعة البشر. وإذا كان قد عاش بما يكفى لإرساء أسس دولة دينية، فإنه لم يتح له الوقت لد سلطتها إلى خارج شبه الجزيرة العربية.

وغداة موته (٦٣٢)، سوف يشيد خلفاؤه، «الخلفاء»، إمبراطورية ذات مقاييس عالمية تمتد من نهر الإنديس إلى المحيط الأطلسى. وقد تم ذلك على أيدي حفنات قليلة من المحاربين البدو. وكان الضعف الديموغرافى البالغ لقاعدة انطلاقهم مصدر قوة لهم. ففى فرضهم لسلطة الإسلام على جماعات سكانية أوفر عدداً بكثير، كانوا مضطرين إلى الاستناد إلى السكان المحليين بدلاً من النخول فى صدام سافر معهم، ومن ثم كانوا مضطرين إلى التصالح مع أفكار مختلفة عن أفكارهم.

ومن بين هذه السمات الحضارية الأجنبية، كان الدين هو السمة الأعمق تأصلاً فى هوية المجتمعات المفتوحة. ومنذ الاختراقات العسكرية الأولى، كان على محمد العثور على طريقة للتعايش الطائفى مع اليهود والمسيحيين الذين صادفهم. والواقع أن المبادئ المقررة فى حياته سوف تصبح قواعد يلتزم بها الفاتحون وقادة الدولة المسلمون، بجرعة متغيرة من الوفاء.

وبعد إخراجه من مكة، أقام النبى فى المدينة، حيث حاول فى البداية تدشين المساواة التامة بين رفاقه والجماعة التى استقبلته: «لليهود دينهم وللمسلمين دينهم». لكن تهكمات اليهود على الوحي القرأنى سرعان ما سوف تتحول إلى عداوة سافرة، ويطردهم محمد من المدينة، التى تصبح منذ ذلك الحين مسلمة.

وعندما يدخل النبى من جديد فى اتصال مع أهل الكتاب، فإنه يدخل فيه بوصفه محارباً وغالباً لهم فى نهاية الأمر. وقبل شن الهجوم، كان من عادته أن يعرض عليهم اختيار مخرج من بين ثلاثة مخارج: التحول إلى اعتناق الإسلام، أو دفع جزية أو الحرب حتى الموت. وفى الحالة الأولى، يتزايد عدد المؤمنين على الفور. وفى الحاليتين الأخريين، يصدر عهداً (معاهدة)، أكان ذلك فى موقع المعركة أو بعدها، يحدد شروط إنعان المسيحيين واليهود، وهم غير المسلمين الوحيديين المسموح لهم آنذاك بالاحتفاظ بديانتهم. وهذه المعاهدات، المصاغة وفق نموذج واحد، تفرض على الذميين، «محميى» الإسلام، عدداً معيناً من الالتزامات. وعلى مر الأجيال، سوف تنشئ العدد الأكبر عن الاحتفاظ بديانته.

ومن الأقصر إلى الإسكندرية، ومن عكا إلى حلب، يرسم محوران الخط الذي ما يزال ينبض فيه قلب جماعة مسيحية عربية. فهذه الجماعة المسيحية، المتمردة منذ زمن غابر الزمان على إملات الكنائس الأم النائية، روما ثم بيزنطة، تدين بالبقاء للحوار الذي تمكنت في أغلب الأحيان من إقامته مع الدولة الإسلامية، وإلى قدرتها الحاذقة على التوفيق بين الولاء القومي والإخلاص لدينها. على أن طوائفها المحلية سوف تجتاز مفازات التاريخ الشاسعة منعزلة بعضها عن البعض الآخر. وهكذا تتشكل الخصوصيات العديدة لكنائس الشرق ولأتباعها. وعلى ضفاف النيل كما على ضفاف نهر العاصي، يحمل الجميع بصمة محلة ريفية أو مدينة. وغالباً ما كان البلدان مرتبطين، مصر بوصفها صاحبة السيادة وسوريا بوصفها تابعة. ومن فراعنة الإمبراطورية الجديدة إلى الرئيس جمال عبد الناصر، صاغت تقارباتهما عدداً من أعظم لحظات التاريخ.

وخلال إحدى هذه اللحظات تأسس الفكر الداعي إلى وحدانية الرب: الديانة المابرة والمبشرة بما سوف يكون في آن واحد والتى دعا إليها إخناتون الثاقب البصر، ثم اليهودية^(٢). أما القرون التسعة التي تفصل بين الفتحين العربي والعثماني، فهي أطول هذه الفترات التي تعرف فيها مصر وسوريا مصائر، إن لم تكن مترابطة، فهي متوازية على الأقل. فمنذ الشطر الثاني للقرن التاسع، وسط ملكوت خلافة العباسيين الواسع، تتشكل أرض تربط النيل بالفرات وتضع الأماكن المقدسة في فلسطين تحت سلطة مصر. والأجانب هم الذين ينجزن ذلك الاتحاد؛ فأحمد بن طولون (٨٦٨ - ٨٨٤)، وهو ابن عبد تركي، جند هو نفسه في جيش الخليفة، يمد سلطة مصر إلى تخوم قيليقيا. والمنشقون القادمون من أفريقية (تونس)، الفاطميون (٩٠٩ - ١١٧١)، يجنون التركة ويخلفون لمصر عاصمة، هي القاهرة، وللبنان نصف شخصيته: الطائفة الدرزية. ثم يجيء إليهما موحد ثالث من العراق، هو الكردي صلاح الدين (١١٧١ - ١١٩٣)، غالب الفرنجة إلى حين. أما المماليك (١٢٥٠ - ١٥١٧) أخيراً، وهم سلالة حاكمة غربية بلا نسب، تتحدر من أجناد عبيد تم شراؤهم في أسواق وسط آسيا، فسوف يعيدون تكوين الإمبراطورية.

وهذه الحوادث التوحيدية لاتمحور خصائص البلدين جد التمايزين اللذين نعرفهما اليوم. على أنها قد أعطتهما على الأقل طابعاً مشتركاً، فريداً بين جبال أطلس وجبال الهيمالايا: تداخل الديانتين اللتين تتواجهان في كل مكان آخر على جانبي الحدود.

حالة الجماعات المسيحية عند وصول العرب

كانت بيزنطة وفارس تحتلان جزءاً كبيراً من الشرق الأوسط، فقد كانت الأولى تحتل مصر وسواحل سوريا، وكانت الثانية تحتل بلاد الرافدين، أما سوريا الداخلية، المشتهاة من جانب الإمبراطوريتين، فهي تنتقل تارة تحت سلطة إحدهما وتارة تحت سلطة الأخرى. وكذلك الحال بالنسبة للقدس. وكان جوستينيان (٥٢٧ - ٥٦٥) قد أعاد المدينة المقدسة إلى حضن روما. ثم فتحها الملك الساساني كسرى الثاني في عام ٦١٤، وحرّمها من أعلى نخر لديها، الصليب الحقيقي، الذي سوف يعيده إليها البيزنطي هيراكليوس عندما يسترد هو نفسه المدينة (٦٢٩).

وكانت الجماعات السكانية لهذه الأقاليم، أكانت خاضعة لسلطة بيزنطة أم لسلطة فارس، مسيحية، مع أقلية يهودية تافهة^(٣). وكانت الغالبية تعتنق مسيحية هرطوقية. فالواقع أن الإمبراطور ثيودوس، الذي جعل في آن واحد من المسيحية الديانة الإلزامية ومن القسطنطينية عاصمة الدولة، العاصمة الثانية للكنيسة، كان قد فرض منذ زمن غابر عقيدة جامدة : ففي نيقية (٣٢٥) جرى إعلان وحدة جوهر الأب والابن، حيث يكتسب هذا الأخير طبيعة مزوجة، بشرية وإلهية. وعلى امتداد الأصقاع المترامية الأطراف للإمبراطورية البيزنطية، كان رجال الدين ملزمين أينما كانوا بالتسليم بهذا المذهب الرسمي. وتصبح المناقشة اللاهوتية، بطبيعة الحال، وسيلة لتأكيد بعض التطلعات إلى الاستقلال الذاتي السياسي.

وهكذا، ففي مستهل القرن الخامس، يرى نسطوريوس، أسقف أنطاكية، أن المسيح كان بشراً قبل أن يكون إلهاً، بينما على النقيض من ذلك يعلن أساقفة الإسكندرية طبيعة المسيح الإلهية بشكل حصري (مذهب واحدة طبيعة المسيح). ويفصل مجمع إفسس (٤٣١) النساطرة بينما يفصل مجمع خلقدونية (٤٥١) القائلين بواحدة طبيعة المسيح. وفي العراق، سوف يصبح السكان نساطرة، في غالبيتهم العظمى على ما يبدو^(٤). وفي مصر وفي سوريا، سوف يتبنى قسم كبير من السكان مذهب واحدة طبيعة المسيح، القبطي في البلد الأول، واليعقوبي في البلد الثاني. وتحفظ الكنيسة اليونانية بجزء من أتباعها، سوف يسمى في العربية بـ «الملكيين»، أي أتباع «ملك» بيزنطة. وفي هذا التنوع المتشابك للشيع، سوف يتلون الجدل بذكريات شرك جلية. والحال أن الإسلام المسلح بدعوة وحدانية إلهية بسيطة ومطلقة، سرعان ما سوف يحرز تقدماً وسرعان ما سوف يتمكن من فرض جاذبيته، بتحقيقه للسكينة.

أنذاك كان يهيمن على تخوم الإمبراطوريتين وضع مشوش. فالفساسنة والخصميون، وهم قبائل عربية تابعة لبيزنطة في الغرب وفارس في الشرق، كانوا يسكنون الجزيرة السورية الحالية وشمال شبه الجزيرة العربية. وكان قد جرى تحويل الأوائل إلى مسيحيين واعترفت بيزنطة بزعيمهم فيلاركا، «قائداً». وفي الجنوب، في الصحراء، لم تكن الإمبراطوريتان تمارسان بعد أية سلطة.

والواقع أن المسيحية لم تخترق هذه الأقاليم إلا بشكل بالغ السطحية. والإمبراطور الوحيد الذي قدمه العرب لروما، فيليب الثاني، المسمى بـ «العربي» (٢٤٤ - ٢٤٩)، والثوئي في نظر رعاياه، يقال إنه قد تحول إلى اعتناق المسيحية سرّاً. وكانت إرساليات نسطورية قادمة من سوريا ومن العراق قد قامت بعمل تبشيري لكنها، إذ تسلك الطرق التجارية، تمس بوجه خاص أطراف الصحراء: في الشمال، مشارف وديان الفرات والعاصى والأردن وفي الشرق، ضفاف الخليج والمحيط الهندي، حيث يظهر عدد من الأساقفة في عُمان في عام ٤٢٤ وفي البحرين في عامي ٥٧٥ و٦٧٦ وفي الجنوب، جبال عسير واليمن. وفي هذا البلد الأخير، في عام ٥٢٣، قام ملك تحول إلى اعتناق اليهودية بإيادة الجماعة المسيحية إبادة واسعة^(٥).

وفي قلب شبه الجزيرة، لم تكن نجد والحجاز تضمان غير عدد قليل من المسيحيين، يتألف من عبيد أقباط بين آخرين، لن يتوصلوا أبداً إلى تشكيل طوائف حقيقية. واحة نجران الصغيرة وحدها، التي ترجع شهرتها إلى المعاهدة التي عقدتها محمد مع سكانها، هي التي كانت مسيحية منذ نحو عام ٥٠٠^(٦). أما اليهودية فقد كانت لها بالمقابل أهمية معينة في شبه الجزيرة العربية قبل الإسلامية، تشهد عليها بوجه محدد المعاهدات المعقودة مع الفاتح المسلم. على أن مما لا مراء فيه البتة أن الغالبية العظمى من سكان شبه الجزيرة كانت ماتزال بمنأى عن كل من الديانتين القائلتين بوحدانية الرب.

وعندما طلع الإسلام على هذه الشعوب، كم كان عدد المسيحيين وكم كان عدد اليهود الذين سوف يقابلهم^(٨)؟ إن بعض الشواهد، وأحياناً بعض الوثائق الحسابية التي ترجع إلى زمن الخلفاء الأوائل، تسمح بتقدير السكان في هذه الفترة القلقة التي تسبق مجيء العرب.

والفاتحون وريثه. وإذا كانوا يقهرون، فذلك بوجه عام سعيّاً إلى الاستحواذ لا إلى التدمير. وفي مصر، سوف يكونون خلفاء ثلاثة آلاف سنة من تراث المركزة. والإدارة، كما لو كانت قد هجعت في طمي أقدم دولة في العالم، تستأنف السير منذ استسلام البلد أمام جيش

القائد عمرو بن العاص. فالجبايات الضريبية الأولى تسجل على أوراق البردى التى تبين المبلغ الإجمالى للإيرادات السنوية للجزية، ضريبة الرأس المفروضة على غير المسلمين: ١٢ مليوناً من الدراهم غداة الفتح (٦٤١). وتشير شواهد متباينة إلى مبلغها بالنسبة للفرد: ٢٤ درهماً مصرياً. ولما كان دافع الضريبة يمثل فى المتوسط أسرة من خمسة أفراد، فلا بد أن مصر كانت مأهولة آنذاك بنحو ٢ مليون من السكان^(٩)، كلهم غير مسلمين.

وقد يبدو العدد مزيلاً يدعو إلى السخرية، وذلك بقدر ما أن هذه الأرض، هبة النيل، تستحضر صورة وفرة الخيرات الغذائية والبشر^(١٠). ففى عام ٦٦ قبل يسوع المسيح، نجد أن هيرود أجريباً، ملك اليهود، سوف يدمش، وقد تأثر بحجم إيراداتها الضريبية، من أنها «تضم سبعة ملايين وخمسمائة ألف نفس، خارج الإسكندرية»^(١١). ويجتاز الرقم القرون. وعلى مر العصور، تثير الإسكندرية الخيال. ويكتب الفريد بتلر، المؤرخ البريطانى للفتح العربى: «لقد ازدهى عمرو بتتويج غزوه بالاستيلاء على قصور الإسكندرية التى يصل عددها إلى أربعة آلاف، وعلى مسارحها التى يصل عددها إلى أربعمائة، وعلى حماماتها العامة التى يصل عددها إلى أربعة آلاف، وعلى يهودها الأغنياء الدافعين للجزية والذين يصل عددهم إلى أربعين ألفاً من عدد إجمالى للسكان يقدر بـ ٦٠٠٠٠٠ إنسان، لا يشمل النساء والأطفال»^(١٢). وهذه مبالغة، دون شك؛ فالمساحة المنزرعة وغلال الأزمنة قبل الصناعية، الخالدة خلود النيل، يمكنها، فى حدتها الأقصى، إعاشة ما بين ٦ ملايين من الأشخاص. والحال أن مصر، فى ذلك العصر، لا تطعم فقط سكانها بل تصدر فائضاً كبيراً إلى روما؛ ومن ثم فإن رقم الـ ٥ ملايين من السكان نحو العام صفر يبدو تقديراً معقولاً. ويشير بيان للإنتاج الزراعى فى عهد ديوكليتيان (٢٨٤ - ٣٠٥) إلى هبوط ممكن إلى ٣٢ مليون من السكان. وفيما بعد سوف يؤدى طاعون ٥٤٢ - ٦٠٠ الكبير إلى حرمان البلد من خمس عدد سكانه. وربما كان ذلك هو السبب فى أن العرب لن يواجهوا هناك غير مقاومة جد طفيفة، خارج الإسكندرية، التى سوف يواصل البيزنطيون الاحتفاظ بها لبضع سنوات.

أما سوريا (إسرائيل، الأردن، لبنان وسوريا الحالية) المتمردة بالنسبة إلى مصر، والعصية منذ زمن على فرض السلطة عليها، فيبدو أنها لا تملك أى نوع من البيانات التى يمكنها إطلاعنا على حالة سكانها. وتشير الوثيقة الوحيدة المتاحة إلى الضريبة المجبة فى مدينة حمص: ٨٥٠٠٠ دينار فى السنة. وكان كل رجل ملزماً بأداء ضريبة من دينار واحد وكان الرجال البالغون يشكلون ربع السكان، وهو ما يعنى أن المدينة والإقليم المحيط بها ربما

كانا يثمان ٢٤٠٠٠٠ فرد . ولما كانت حمص تمثل نحو جزء من اثني عشرة جزءاً من سكان البلد، فقد كانت سوريا مأهولة بأربعة ملايين من السكان. ومن شأن قياس مماثل أن يحدد عدد سكان بلاد الرافدين بـ ٩١ مليون نسمة عند مجيء الخلافة، وذلك على أرض تتطابق اليوم مع العراق وتركيا الجنوبية الشرقية (١٣).

ومن ثم، ففي لحظة الوحي الإسلامي كانت الأرض التي تشكل اليوم المشرق العربي تضم، بموجب هذه التقديرات، ما يزيد قليلاً عن ١٥ مليوناً من المسيحيين، وأقل من ٢٠٠٠٠٠ يهودي (الجدول I.1).

سبعة قرون من الأسلمة

لقد تقدم الفتح العسكري الإسلامي بالسرعة التي نعرفها. فعند موت النبي، كانت شبه الجزيرة العربية وحدها الخاضعة. وبعد ذلك باثني عشرة عاماً، خضع مجمل ما يشكل اليوم المشرق العربي. ولم يكن بوسع الفتح الروحي أن يساير هذه المسيرة الجامحة. ويعتقد بعض المؤرخين أن سكان الإمبراطورية قد ظلوا في غالبيتهم غير مسلمين حتى الحروب الصليبية (١٤) والواقع أن الإسلام قد انتشر بشكل متفاوت: فبعض السكان سوف يتبنونه منذ البداية، في حين أن البعض الآخر، في مجموعهم أو على شكل فصائل، سوف يحتفظون بمعتقداتهم القديمة على مدار عدة قرون.

تحقيق التجانس الديني لشبه الجزيرة العربية

«لا يجب لديانتين التعايش في شبه الجزيرة العربية». هذا العهد الذي تورده السنة يقال أنه صدر عن النبي وهو على فراش موته. والواقع أنه يبدو تماماً أن عمر الأول، الخليفة الثاني، قد قام في عام ٦٤٠ بطرد اليهود من الحجاز والمسيحيين من نجران، ناقضاً بذلك المعاهدة التي كان محمد قد عقدها معهم، والتي كفّل لهم بموجب شروطها نواصم إقامتهم على هذه الأرض (١٥). فهل سوف يصبح وسط شبه الجزيرة العربية برمته، من ثم، خالياً دائماً من أية طائفة يهودية أو مسيحية، كما سوف يسجل ذلك، بعد مائتي سنة، كبار مؤرخي الإسلام؟

يبدو أن ذلك غير صحيح إذا ما حكمنا على الأمور بتراكم عدد من الشواهد: ذلك أن مسيحياً من المدينة، صحيح أنه عبد، هو الذى اغتال عمراً. وفى عهد معاوية، مؤسس السلالة الحاكمة الأموية، كانت قوة من مائتى رجل مسيحى هى التى تشكل شرطة المدينة. وأخيراً، فإن كان النبى قد أمر حقاً بطرد المسيحيين واليهود، فهل كان يمكن لهذا الأمر أن يغيب عن بال أبى بكر خليفته الأول، وأن ينتظر عمر إلى أواخر خلافته حتى يشرع فى تنفيذه؟^(١٦)

وإذا كان قد بقى عدد من غير المسلمين فى شبه الجزيرة العربية، فإن ذلك لن يكون بعد إلا بأعداد تافهة فى جزئها الأوسط، ومما لا مراء فيه أنه لا يوجد بعد هناك مسيحيون خارج الجماعة الصغيرة التى يستمر رصدها فى نجران بعد ثلاثة قرون من الوحى. وفى المقابل، نجد أن الطوائف اليهودية سوف تستمر فى أطرافها. وقد ذكر رحالة القرون الوسطى عدة عشرات من الأسر فى حضرموت. وفى القرن الثانى عشر، يذكر بنيامين بن توبيل أن ٥٠٠ من اليهود كانوا يعيشون فى قيس وأن ٥٠٠٠ منهم كانوا يعيشون فى القطيفة، فى أرخبيل البحرين^(١٧). والمبالغة الواضحة للرحالة اليهودى تشهد على الانطباع القوى الذى خلفته هذه الطائفة فى نفسه. ومن جهة أخرى، تظل اليمن بؤرة هامة لليهودية العربية حتى إنشاء إسرائيل. وتسمح أهمية اليهود فى بداية هذا القرن (٢٪ إلى ٣٪ من السكان) بتخيل أنهم سوف يشكلون بلا انقطاع مكوناً غير تافه من مكونات اليمنيين. والواقع أن عدن، حيث سوف يشهدون أعظم ازدهار لهم فى القرن الثانى عشر، كانت مازال تضم ٧٠٠٠ رجل يهودى من دافعى الجزية فى مستهل الفترة العثمانية^(١٨)، أى نحو ٣٠٠٠٠ نسمة.

العراق من الهجرة إلى المغول

إن العراق، الذى كان يركز الكتلة الديموغرافية للمنطقة، قد ترك لنا المؤشرات الأكثر ترتیباً. ولا مراء فى أنه يجب تمييز بلاد الرافدين الجنوبية عن جبال وسهول الشمال، المناطق الشيعية اليوم، عن المناطق، السنية، التى توجد فيها أقلية مسيحية. وفى الشمال، فى ظل الخلفاء الأوائل، تظل النمطورية حيوية بما يكفى لإرسال بعثات تبشيرية إلى الشرق الأقصى، وتشهد على ذلك نقوش جنانزية فى سيان - فو (الصين) وعلى ساحل مالابار (الهند). ويتواصل نموها الفكرى: فبفضل الترجمات التى يقوم بها النساطرة، سوف ينقلون إلى العرب الفلسفة اليونانية. وفى الجنوب، فى المقابل، يمتد الإسلام بسرعة بالغة. والبرهان على ذلك هو

انهيار إيرادات خريبة الرأس: ففى عهد الخليفة عمر الأول، تصل إلى ما بين ١٠٠ مليون و١٢٠ مليوناً من الدراهم؛ بينما لا يجمع الأمويون منها بعد غير ٤٠ مليوناً من الدراهم فى عهد عبد الملك (٦٨٥ - ٧٠٥) ^(١٩). وهذه الأرقام توضح اتساع عمليات التحول إلى اعتناق الإسلام: إن ثلثى إجمالى السكان يقرران الانتماء إلى الإسلام منذ النصف الأول للقرن. وإذا ما سلمنا بأن العراق (بمفهوم جغرافى واسع) كان يضم نحو عام ٧٠٠ زهاء ٩ ملايين من السكان، فبالإمكان توزيع هؤلاء إلى ٦ ملايين من المسلمين حديثى الاعتناق للإسلام و٢ ملايين من المسيحيين.

ويذهب بعض المؤرخين إلى أن عمليات التحول إلى اعتناق الإسلام قد جرت بإيقاع ابطأ إلى حد ما وإلى أن المصريين والفرس والآراميين الذين تحولوا إلى اعتناق الإسلام فى الأزمنة الأولى للخلافة العباسية (٧٥٠ - ١٢٥٨) هم وحدهم الذين سوف يتجاوزون المسلمين ذوى الأصل العربى من حيث العدد ^(٢٠). والحال أن العرب، الذين كانوا قد أصبحوا كلهم مسلمين بحلول ذلك الزمن، يبدو أنهم لم يكونوا يزيديون عن مليونين. والتأكيد على أن المسلمين غير العرب، فى هذا الكيان المأهول بنحو عشرين مليوناً من السكان (مصر وفارس وسوريا)، كانوا أيضاً، مليونين، إنما يعنى أن نسبة ١٠٪ بالكاد من السكان الخاضعين، بعد قرن من الفتح، هى التى اعتنقت الدين الجديد.

ويبدو هذا قليلاً جداً، خاصة إذا ما أولينا شيئاً من الاعتبار لتقدير آخر ذى أصل عسكرى. ففى ٧٤٢ - ٧٤٣، تمكن الجيش «السورى»، أى إجمالى الرجال (السوريين أو غير السوريين) الذين يقودهم خليفة دمشق من حشد ٥٣٠٥٠٠ رجل ^(٢١)، كلهم على دين الإسلام، فيما عدا استثناءات قليلة. وربما مست التعب، التى كانت ماتزال قوية خلال فترة التوسع السياسى هذه، ربع الرجال الذين هم فى عمر القدرة على حمل السلاح، والذين يمثلون هم أنفسهم نسبة ٢٥٪ من إجمالى السكان. وهذه التقديرات تتفق على نحو أحسن مع ما نعرفه عن عهد عمر الثانى (٧١٧ - ٧٢٠)، أحد آخر الأمويين، السلالة الحاكمة التى تتلو الخلفاء الشرعيين الأربعة الأوائل.

والواقع أن عمر الثانى الشديد التقوى والودع سوف يفرض قيوداً تعجل بعمليات تحول إلى اعتناق الإسلام فى جميع ممتلكات الخلافة؛ وتوضح ذلك حوايات تاريخية كثيرة. وتصل إلينا رسالة مسيحية، ترجع إلى القرن الأول للهجرة، يعرب فيها عن الاستياء من السرعة التى

سمح بها سكان الإمبراطورية الساسانية السابقة لأنفسهم بالاستجابة لإغراء الإسلام دون أننى محاولة لدرة ذلك: «إلى أين انتقل شعب مرو»^(٢٣) العظيم هذا الذى لم يسبق له قط الصبر على السيف أو النار أو التعذيب لكنه تحول، تحت غواية إلههم، تحول بهلوان، عن جادة الحق، لكى يلقى بنفسه مطاطىء الرأس فى المعصية، فى الدمار الأبدى؟ فمن بين هذه الآلاف المؤلفة التى كانت تحمل أسماء مسيحية، لا يوجد شهيد واحد قدم دمه للرب قرباناً للدين الحق^(٢٣).

ومنذ الخلفاء الأمويين، يعرف العراق الجنوبي إشعاعاً تجارياً^(٢٤) وثقافياً عظيماً. وسوف يؤدى نقل العباسيين الخلافة إلى بغداد إلى مزيد من نموه. ولاشك أن ذلك يفسر الانتشار البالغ السرعة للدين الجديد. ففى بداية الأمر، كانت الكوفة والبصرة ومدن بلاد الرافدين الأخرى مجرد مدن حاميات، تهيمن من بعيد على سكان لا تحيا فى تواصل معهم. لكنها سوف تصبح مراكز نشاط إقليمي وولى كثيف وسوف تجتذب الناس من شتى الأنفاق. والجماعات السكانية التى كانت حتى ذلك الحين بمنأى عن حكامها الجدد سوف تدخل هناك فى اتصال مع الدين الإسلامى ومع اللغة العربية، وسوف تتبنى الأول والثانية، ثم سوف تنتشرانهما.

فهل تترافق هذه الفترة من فترات الازدهار الاقتصادى والأسلمة السريعة مع نهوض ديموغرافى؟ إن ذلك غير مؤكد لأن الضرائب على الأرض تتزايد، بعد وقت قصير من الفتح، وتحفز نزوح الريفيين. وتتكمش المساحة المنزرعة فى الوقت الذى يتزايد فيه عدد المستهلكين المدنيين. ويبدأ فى القرن العاشر انحدار طويل لأسعار الحبوب، بما يدل على أن إيقاع انكماش السكان يتجاوز أيضاً إيقاع هجر الأراضى. ويترجم هبوط إيرادات ضريبة الأراضى فى العراق الجنوبي انحداراً عاماً للنشاط: فمن ١٠٣ ملايين من الدينارات الذهبية فى عهد عمر الثانى، سوف تنتقل إلى ٩٦ ملايين فى أواخر القرن السابع، وإلى ٦٧ ملايين عند مجيء هارون الرشيد (٧٨٦)، وإلى ٤٥ ملايين عند موته (٨٠٩)، وسوف تنحدر إلى ١٥ مليون فى عام ٩١٨/٢٥. وسوف يكون عدد سكان بغداد فى عام ٩٥٦ أقل عشر مرات مما كان فى زمن المقتدر (٩٠٨ - ٩٣٢).

ولم يكن أمام العراق وقت للنهوض. إن سلسلة لا تنتهى من القلاقل تؤذن بتفكك الخلافة العباسية، ثم بالفزو المغولى (١٢٥٨)، الذى سوف يفرق البلد فى فوضى مقيمة. وعندما يهيمن المغول على البلد، لن يكون فيه غير ٥ ملايين من السكان على الأكثر^(٢٦). ويشهد

هذا الانحطاط الطويل انسحاب المسيحية من بلاد الرافدين الشمالية، التي كانت حتى ذلك الحين مركزها الرئيسي في أرض الإسلام^(٣٧). فمعصائر الكنيسة النسطورية والخلافة الإسلامية واحدة بشكل يدعو إلى العجب، حيث يكون انحدار إحداها صدئ لانحدار الأخرى.

فعند وصولهم، سوف يشجع المغول الجماعة المسيحية. والواقع أن هولاء، زعيمهم، قد اتخذ لنفسه زوجة مسيحية ويقال إنه هو نفسه قد تحول سراً إلى اعتناق المسيحية. وربما لهذا السبب، يختار الخليفة نسطورياً، هو البطريك ماشيشا الثاني، للتفاوض على استسلام بغداد. وخلال نهب المدينة الذي يقع بالرغم من ذلك (الاستسلام)، لاشك أن عدد الضحايا سوف يصل إلى عشرات الآلاف^(٣٨)، لكن الأحياء المسيحية سوف تعفى من الدمار. على أن القدر يرتد بشكل لا فرار منه ضد النساطرة، عندما يتحول الخان، الذي يعتلى العرش المغولي، إلى اعتناق الإسلام رسمياً (١٢٩٦). وسوف يواجه المسيحيون العداوة شبه الدائمة من جانب السكان الأكراد، والتي تقترب، أكثر من مرة، من حد المذبحة^(٣٩). وسوف يواصل «بروتستانتيو الشرق»^(٤٠) هؤلاء تقديم شخصيات فنية أو علمية رائعة، لكنهم سوف يكفون عن أن يكون لهم وزن هام في الديموغرافيا. ففي القرن السادس عشر، لاشك أن العراق لن يضم سوى النسبة التي تتراوح بين ٢٪ و ٣٪ وهي نسبة المسيحيين التي سوف يجدها العثمانيون بعد مائتي سنة.

تعايش المعتقدات في الشام

كان تاريخ سوريا مختلفاً تماماً، فقد عاد على جماعتها المسيحية بالاحتفاظ حتى أيامنا بمكانة مرموقة في لبنان وفلسطين وسوريا نفسها. وكان الأمويون قد نقلوا العاصمة من المدينة إلى دمشق. وهي لن تبقى مركزاً للإمبراطورية إلا على مدار قرن واحد (٦٥٦ - ٧٥٠)، وهو بالضبط الوقت الذي احتاج إليه الخلفاء لرسم الخريطة شبه النهائية لدار الإسلام، الأرض التي يحكمها الإسلام، أي لرسم الحدود، بهذه اللمسات الجديدة أو تلك، التي تحتوي السكان الذين سوف يصبحون بالتدريج مسلمين.

وهي فترة حاسمة في تاريخ البشرية سوف تجتازها المدينة الأموية، وخاصة سوريا الداخلية مع الحفاظ على ملامح بلد مسيحي، وهو أمر يدعو إلى العجب^(٤١). وبالفعل، كان

الاستيلاء على دمشق رمزياً. ويقال إن المسلمين قد اخترقوها عبر بابين، حيث أبدى الباب الأول مقاومة بينما أثر الباب الآخر الاستسلام. وفي منتصف الطريق، جرى من ثم تقسيم كاتدرائية القديس يوحنا إلى قسمين: محراب للمسلمين ومحراب للمسيحيين. وهكذا تم إنشاء مسجد الأمويين على مئوى نصف الكاتدرائية وواصل المؤمنون بالديانتين الصلاة زمناً طويلاً في مكانين متلاصقين. وفي حمص، سوف تكون الكنيسة الكبيرة أيضاً على مدار أربعة قرون مكاناً لأداء طقوس الديانتين. وكان لابد من الحروب الصليبية ومن أذيال الشكوك التي جرتها حتى تتلاشى هذه الممارسة التي شهدت على تسامح أصيل عظيم^(٣٢).

وبعد قرن من الفتح، كان عدد العرب المسلمين مايزال ٢٠٠٠٠٠ نسمة، يضاف إليهم بضع آلاف من الموالي (المتحولين إلى اعتناق الإسلام) نوى الأصل السوري^(٣٣). وهو رقم لا مراء في أنه رمزى، فهو يتطابق بشكل بالغ الغرابة مع الرقم الذي يسوقه كتاب الحوليات والمؤرخون بالنسبة لفتوحات بنوية أخرى: قالهالليون الذين سوف يفزون أفريقيا الشمالية في القرن التاسع سوف يكون عددهم ٢٠٠٠٠٠ أيضاً، شائعهم في ذلك شأن الأتراك السلاجقة الذين سوف يهبطون في الأناضول في القرن الحادى عشر. لكنه يوحى تماماً بانفراس الإسلام وسط جماهير الجماعة المسيحية السورية؛ فمن بين ٤ ملايين من الأشخاص، ربما نجد ربع مليون من المسلمين، أى نسبة ١/٦ من السكان. والحال أن العدد الإجمالى لهؤلاء السكان لن يكون مصيره التغير كثيراً في غضون قرن؛ فقد كان خاضعاً لمؤثرات متعارضة: نزوح المسيحيين إلى بيزنطة مع وصول قبائل من شبه الجزيرة العربية، تواتر الطاعون الديبلى مع تدفق الثروات على مركز الخلافة، إغلاق أسواق العالم اليونانى مع فتح أسواق الهند والشرق الأقصى، التي أصبحت في متناول تجار دمشق مع تجاوز حاجز فارس الساسانية، التي استوعبتها هي نفسها الإمبراطورية الإسلامية.

والواقع أن الفتح الذى يبدأ سياسياً، يصبح روحياً بحفز من الخليفة عمر الثانى. فبعد انتصار الدولة الإسلامية، يلوح في الأفق من ثم انتصار الدين الإسلامى. والسلطة المركزية التى انتزعها العباسيون بالجوء إلى العنف، تهجر سوريا إلى العراق، تاركة الأولى في أيدي حاميات أجنبية، بعضها استبدادية. وإذا يفرض الإسلام نفسه بفضل التعزيق السياسى، والإكراه الممارس في عهد الخليفة المتوكل (٨٤٧ - ٨٦١)، فإنه يفوز عندئذ بجانب من السكان.

القبائل أولاً. فمنذ زمن بعيد، منذ زمن الفتح، كان الجيش الإسلامى قد اضطر إلى

تقديم بعض التنازلات حتى يحرز تقدماً؛ فقد جرى السماح لعدة قبائل مسيحية بالاحتفاظ بديانتها في مقابل الخدمات العسكرية التي أدتها في فارس إلى جانب جنود الإسلام. وبمرور الوقت، تتزايد صعوبة اعتراف الدولة بإمكانية تجنب العرب الأصلاء اعتناق الإسلام. والواقع أن الخليفة المهدي هو الذي سوف يلجأ، في عام ٧٧٩، إلى إكراه إحدى آخر القبائل المسيحية، تنوخية إقليم حلب، على اعتناق الإسلام. ويذكر بان هيريابوس، المؤرخ اليعقوبي في العصر الوسيط، أن «مائة ألف إنسان قد ارتدوا» (عن المسيحية) (٣٤).

وتأسلم المدن بعد ذلك. ففيها أقامت الدولة إدارتها وجاور السكان الدين الجديد. وسوف تتبناه مدن الداخل بشكل أسرع وبشكل أكثر كثافة من مدن ساحل البحر المتوسط، لأن «العرب يخافون البحر» (٣٥) ولأن بيزنطة تحتفظ بعلاقات تجارية وكنسية عديدة مع الموانئ التي تمتد أبصارها صوب اليونان. أما القرى فسوف تبقى لزمن أطول بمنأى عن الحركة، خاصة في الجبال. «إن لبنان، الملاذ الأبدي للقضايا الخاسرة (...)، سوف يظل مسيحياً في عقيدته وسريانياً في لفته على مدار قرون. والمواجهة المادية هي وحدها التي يضع الفتح حداً لها. أما المواجهة الدينية والعرقية والاجتماعية وخاصة اللغوية فهي تبدأ للتو» (٣٦).

ويبدو أن سوريا في مجموعها سوف تحتفظ بغالبية مسيحية حتى أواخر القرن الثالث الهجري. بل إن بوسع اليعاقبة الاستفادة من الهزيمة الساسانية لإرسال بعثات تبشيرية إلى الشرق الأقصى، الذي كان حتى ذلك الحين حكراً لنشاط النساطرة التبشيرية. ويستند هذا الحماس التبشيري إلى حيوية ديموغرافية معينة، يقدم عنها الكاتب الجاحظ (القرن التاسع) شهادة ثاقبة النظر، فهو يلاحظ أن المسيحيين الذين لا يتزوجون إلا من امرأة واحدة، والذين يعتبرون أكثر تكاثراً من المسلمين الذين يتزوجون من أكثر من امرأة واحدة، «يملكون الأرض» (٣٧). ونحو عام ٩٠٠، نجد أن العدد الإجمالي لسكان سوريا، والذي لا مرء في أنه لم يتغير كثيراً منذ الفتح (٣٨)، لابد أنه كان يتألف من مليونين من المسيحيين ومليونين من المسلمين.

وفي الأعوام الخمسمائة التي تسبق الحروب الصليبية، تتحدد الجغرافيا الطائفية للشرق الأدنى المعاصر. وبحسب اللحظات التاريخية، يصبح الجبل ملاذ جزء من الجماعة المسيحية أو موقعها الحصين. والواقع أن الموارنة، وهم جماعة ظلت مخلصاً لقرارات مجمع خلقدونية، كانوا هدفاً للتيارات السائدة داخل الجماعة المسيحية الشرقية. فمن حيث كونهم

قاتلين بواحدية طبيعة المسيح، رفضوا العقيدة الجامدة السائدة، ومن حيث كونهم ملكانيين، رفضوا طقوسها. وفي عام ٦٩٤، سوف ينهب البيزنطيون أديرتهم، وسوف يذبحون، فيما يقال، خمسمائة من رهبانهم^(٣٩). وعندئذ يبدأ الموارنة في مغادرة سهل العاصي للإقامة على الذرى الشمالية للبنان، في وادي قديشه.

وسرعان ما سوف ينضم إليهم مسيحيون آخرون، يسمون بـ «المردة»^(٤٠) (المتمردين)، منذ زمن ثورتهم على بيزنطة. وهم يسكنون ساعتها جبل أمانوس، قرب أنطاكية، حيث كانت جُرجمة، عاصمتهم، قد دكت من جانب فرسان الخليفة بما يشكل انتهاكاً لميثاق قديم عقد في عام ٦٣٩ عند استيلاء جنود الإسلام على أنطاكية. والواقع أن المسلمين، لكي ينتزعوا المدينة من البيزنطيين، كانوا قد وقعوا مع المردة اتفاقية تجعل من هؤلاء المحاربين الأشداء جواسيس لهم، وتسمح لهم بأن يظلوا مسيحيين دون إجبارهم على أداء الجزية؛ وعلى الرغم من كونهم «كفاراً»، فإنهم سوف يخدمون في الجيش الإسلامي وسوف تكون لهم كافة حقوق الجندي، بما في ذلك حق اقتسام الغنيمة^(٤١). وإذا يستقرون في لبنان، فسوف يتبنون ملة مضييفهم. وهذه القوة الزمنية تدعم ركيزة الطائفة المارونية.

وبعد ذلك بخمسمائة سنة، سوف يؤدي قرب ممالك الفرنجة إلى توطيد الوجود الماروني في شمال لبنان. لكن وجود الموارنة سوف يتعزز في الجبل بفضل الصراعات فيما بين المسلمين، نحو أواخر العصر الوسيط. فسوف يحتلون آنذاك هذا «البلد المسيحي» الذي سوف يجربون فيه أيضاً الانكفاء على أنفسهم خلال الحرب الأهلية اللبنانية بين عامي ١٩٧٥ و١٩٩٠. والواقع أن الدولة الملوكية كانت قد قررت إخماد الانشقاقات في ولايتها السورية والقصاص من التعاطفات مع الفرنجة: ففي عام ١٢٠٥، سوف تطرد إلى أقصى الشمال، في مؤخرة اللاتقية، العلويين (الشييعين الغلاة) الذين يسكنون وسط لبنان، وتوقف توسع الدروز (وهم غلاة آخرون منبثقون عن الشيعة) والمتأولة (شيعة اثني عشرية)^(٤٢) في كسروان. ومما يدعو إلى العجب أن المماليك، عديمي التسامح إلى أبعد حد في الشأن الديني، قد فتحوا فرجات سوف يتجه الموارنة إلى ملئها. والواقع أنهم قد غرسوا بذلك، دون أن يدروا، بذور هيمنة مسيحية في لبنان^(٤٣).

وفي ظل المماليك أيضاً سوف تتفتح بيروت، التي ستصبح في القرن التاسع عشر الحاضرة المسيحية الكبرى، على الغرب. فعكا وصور وطرابلس لا تنهض من رماد الحروب الصليبية. وخرابها هو الرضيد الأول للميناء اللبناني، أما قرب قبرص فهو رصيده الثاني. فمنذ أن خسرت أوروبا مواقعها على الساحل السوري، أصبحت الجزيرة، «ملتقى رجال

الأعمال الغربيةين»، بؤرة حقيقية للتجارة الدولية. وقبل أن تؤول إلى البندقية، كانت قبرص قد قضت بضع سنوات تحت سيادة ممالك مصر (١٤٢٦ - ١٤٧٢). وحرصاً منهم على تنمية علاقاتهم التجارية مع أوروبا، سوف يستفيد سلاطين القاهرة من الفاصل الزمني لتشجيع تجارة ترانزيت سوف تكون بيروت منفذاً طبيعياً. وعندئذ سوف يحصل اللوسينان، وهم أرستقراطية قبرصية من أصل فرنسي، على حق امتلاك بنايات مختلفة في هذه المدينة - محال تجارية، منازل، كنائس. ومن العلامات المحددة بهذا الشكل تولد فيما بعد، مع سليمان القانوني وفرانسوا الأول، العلاقات المتميزة لمسيحي الشرق مع غرب الرينسانس (النهضة).

وسوف يميز تناوب الانحدارات الديموغرافية العميقة والاستئنافات المترددة للسير إلى الامام تاريخ سوريا في العصر الوسيط. وكانت الحروب الصليبية قد سبقها سبات طويل يجد ترجمة له في منحنى أسعار المواد الغذائية: فانخفاض السكان وحده هو الذى يمكنه أن يجر في سقوطه المتواصل الطلب والأسعار^(٤٤). وما سوف يغزوه الفرنجة هو بلد خال من قواه الحية: ٢٧ مليون من السكان عند الحملة الصليبية الأولى^(٤٥). وسوف تؤدى المواجهة التى تنوم قرنين مع الجماعة المسيحية الغربية إلى إنهاكه.

وكما فى مصر، يبدو أن الديموغرافيا تنهض فى ظل الممالك الأولى: فلا بد أن آثار نشاط تجارى رائع فى أغلب الأحوال سوف تنقلب على آثار الحروب العنيفة ضد المغول. لكن سوريا لا تضم بعد فى عام ١٣٤٢ غير ١٢ مليون من السكان^(٤٦). فالواقع أن السلطة المملوكية تجند فى صيدا وفى بيروت وفى البقاع جندياً من بين كل ٢٥٠ من السكان؛ وهذه المناطق تقدم ٥٠٠ جندي، وهو ما يعنى أن ١٢٥٠٠ شخص يسكنونها. ومع طرابلس، بوسع لبنان أن يضم ١٥٠٠٠ من السكان وتضم سوريا كلها ما يزيد عن هذا العدد بثمانى مرات. ورغم إيجاز هذا التقدير، فإنه يتفق على نحو جد ممتاز مع نتائج التعداد الأول الذى سوف يجريه العثمانيون فى عام ١٥٨٠: ١٤ مليون من السكان فى ولايات^(٤٧) حلب ودمشق وطرابلس. ويحدث آنذاك الطاعون الأسود لعامى ١٣٤٨ و١٣٤٩، والذى يميت ٢٠٠٠٠٠ شخص على الأقل، وربما أكثر من ذلك بكثير^(٤٨). ولا تضم سوريا بعد غير مليون من السكان على أقصى تقدير، ربما كان ١٠٠٠٠٠ منهم مسيحيين. ولابد أن هؤلاء الأخيرين يمثلون هناك نسبة قريبة من النسبة التى تشير إليها البيانات العثمانية لأن التحولات الكبرى الأخيرة إلى اعتناق الإسلام قد حدثت فى ظل الممالك الأولى. وفى ظل هذه السلالة الحاكمة اقترت الجماعة المسيحية فى الشام أكثر فأكثر من التلاشى (الجدول 2 . I). وكان ذلك هو حال

اليهودية أيضاً: ففي أواخر القرن الخامس عشر، يذكر الرحالة ميشوللام نو فواتيراً أن بمشق تضم أربعمئة إلى خمسمئة أسرة يهودية^(٤٩)، أى ما بين ٢٠٠٠ و ٢٥٠٠ شخص. ولعل البلد برمته لم يكن يضم من اليهود غير أقل من ١٠٠٠٠ شخص.

الانتشار السريع للإسلام في مصر

كان مصير مصر فريداً. فهذا البلد الذي تم فتحه بسهولة منذ الساعة الأولى، يبدو أنه كان موعوداً بأسلمة سريعة وتامة. لكن هذا البلد الأمل تمرداً والأقرب، خلافاً للمغرب، سوف يكون مع ذلك البلد الوحيد في أفريقيا الذي لا يفقد أبداً جميع مسيحييه.

إن البلد الذي يهبط عليه القائد عمرو ابن العاص من منفذ سيناء هو بلد منخفض السكان إصابه الوبن. ومن المؤكد أن فرسان عمرو الذين يصل عددهم إلى أربعة آلاف لا يكفون للمهمة البتة، لكن العشرين ألفاً الذين يطلبهم لمساعدته من شبه الجزيرة العربية سوف ينجزونها دون أن يقابلوا مقاومة حقيقية، خارج الإسكندرية. ويذكر المؤرخ عزيز عطية، مؤسس معهد الدراسات القبطية في القاهرة، أن المدينة، التي يدافع عنها خمسون ألف رجل والمنفتحة على المؤخرات البيزنطية «كان بوسعها الصمود إلى أجل غير مسمى، لولا ازديادية سيروس^(٥٠)». وقد اضطر سيروس، الذي اقترفت بيؤنطه خطأ تعيينه في أن واحد بطريقاً ووالياً، أى ممثلاً للمؤسستين المكروهتين، الدين الرسمي وإدارة الضرائب، إلى مواجهة عداوة قوية من جانب الأقباط، وهو يتفاوض على استسلام يجر إلى تسليم رهائن من بين صفوف السكان المدنيين.

ومنذ عام ٦٤١، تستقر إدارة ضرائب الدولة الجديدة. وتقدم لنا الجزية، ضريبة الرأس، عدد غير المسلمين، ويقدم الخراج، ضريبة الأرض المحصلة من ملاك الأرض الملتحقين إلى الطائفتين، عدد السكان الريفيين. وعند إضافة المدنيين، الذين يشكلون آنذاك نحو ١٠٪ من السكان، نصل إلى العدد الإجمالي للسكان. والواقع أن هذه الأعداد، التقريبية بالتأكيد، تقدم لنا عدة نقاط لتتبع تاريخ طويل ووعر (الجدول ٣ . I، الشكل 1 . I). ولكن ما أبلغها! فالجزية تهبط، بينما يحافظ الخراج على مركزه، بما يشير إلى انهيار الجماعة المسيحية بالرغم من الاستقرار الديموغرافي المحيط. وبعبارة أخرى، فإن الإسلام سوف ينتشر بالقصى سرعة تحت تأثير التحولات إلى اعتناق المسيحية وحده. إن أكثر من نصف الأقباط سوف يتحولون إلى اعتناق الإسلام في أقل من أربعين سنة: ٢٦٪ بين عامي ٦٤٤ و ٦٦١، ثم ٣٣٪ في عهد معاوية وحده، بين عامي ٦٦١ و ٦٨٠.

ويشك عزيز عطية، وهو مرجع فى التاريخ القبطى، أن هذه الجماعة كان يمكن أن تنحدر بهذه السرعة. وإذا كان الأقباط، كما يتفق على الاعتراف بذلك جميع كتاب الحوالات، سوف يستقبلون ببإلغ التسامح الفاتحين الذين يحدونهم من اضطهاد بيزنطة، فإن ذلك لن يكون من أجل التخلّى بهذه السهولة عن العقيدة التى تمسكوا بها رغم أنف الملاحظات. فهل تكون الجزية عندئذ شاهداً زائفاً على عدد الدافعين لها؟ من الممكن أنها قد خضعت لتقلبات أخرى غير تقلبات السكان الخاضعين، كتقلبات الدخول مثلاً.

والواقع أن العرب لم يجيئوا طغاة كما أنهم يدركون قيمة المياه. ومعاهدة الاستسلام التى سوف يفرضونها فى بابلين (القاهرة القديمة) تنص على «التزام سكان مصر بدفع جزية من خمسين مليوناً فور وصول فيضان نهرهم إلى منتهاه. (...) وإذا لم يصل النهر لحظة الفيضان إلى مستواه العادى، فسوف يجرى تخفيف عبء الجزية عنهم بما يتناسب مع ذلك»^(٥١). وفى سنوات معينة، كان بالإمكان من ثم أن ينجم انحدار الجزية عن هبوط لمياه النيل. ونون أن تكون الديموغرافيا سبباً لأى منهما، فإن من شأن تدهور للزراعة أو إعادة تقييم للدينار أيضاً تفسير هذا التطور للإيرادات فى جانب منه^(٥٢).

على أن وإلى مصر، الذى يشهد انهيار إيرادات الدولة، ينزعج من جهة أخرى من مثل هذا النجاح. ونجد أنفسنا أمام مفارقة قصوى، فسعيًا إلى الحفاظ على مستوى الموارد العامة، يحدث ممثل الدولة المسلمة نفسه الأقباط على التمسك بديانتهم^(٥٣) لكن تدابير أخرى تثنيهم عن ذلك: مثال ذلك التدبير الذى يفرض العربية كلفة إدارية ويختزل القبطية إلى الاستخدام الشعائرى والمنزلى (٧٠٥). والحال أن التفسير، الرومانسى، لأحد المؤرخين البريطانيين الأوائل للكنيسة القبطية، وهو بوتشر، يسقط أمام البرهان الضريبي. فهو يظن أن التبحر الصوفى كان السبب الحقيقى لأفول الجماعة المسيحية فى مصر، ويرصد بطل العملية: فتمشياً مع تراث رهبانية القديس أنطوان، لابد أن نزعات رهبانية جد عديدة قد أخذت فى ظل الإسلام بعد رفض جماعى لإنجاب ذرية، بما يشكل «انتحار أمة»^(٥٤)، حقيقياً. ونحو عام ٨٠٠، لم تكن مصر تضم بالفعل غير ٢٢٪ من المسيحيين إلى جانب ٧٧٪ من المسلمين و١٪ من اليهود؛ وهو ما يسمح بتأكيد الدراية، فى أن واحد، بمبالغ ضريبة الرأس وضريبة الأرض. ثم تتوقف بيانات الجزية بعد ذلك. ومن القرن التاسع إلى القرن التاسع عشر، يمكننا تتبع المراحل الكبرى للديموغرافيا المصرية، لكننا لا نستطيع تتبع المراحل الكبرى للتوزيع الطائفى.

ومن المؤكد أن الجماعة المسيحية تواصل مسيرتها المنحدرة: ففي غضون أحد عشر قرناً، بين عامى ٨٠٠ و١٨٨٢، سوف تنتقل من نسبة ٢٢٪ إلى نسبة ٨٪ من السكان.

والواقع أن الفتح العربى لم يكن مؤاتياً للديموغرافيا المصرية بالدرجة التى يمكن تخيلها. ومن المؤكد أن توسيع أسواق الزراعة المصرية ومدها إلى الأقطار المجاورة فى الإمبراطورية وإلى المدن التى تتشكل حول الإدارة الجديدة، يشجع النمو السكانى بلاشك. لكن أزمت الإنتاج المتكررة سوف تحول دون أى نهوض دائم. والفلاحون، الذين وُضعوا بسرعة تحت نير طبقة عسكرية لها جبروتها، يخضعون خضوعاً بالغ القوة لسلوك هذه الطبقة: فعندما تنفخ قدرتها التنظيمية، وهو ما يحدث مراراً بعد انقضاء الساعات المجيدة لغداة الفتح، تسقط قنوات الرى فى الإهمال وينحدر الإنتاج. ويتأثر السكان بذلك. والارتفاعات والانخفاضات تؤثر على الجميع، دون تمييز بين الطوائف. وتشير جميع الدلائل إلى أن الجماعة المسيحية تحتفظ من ثم بثقلها الديموغرافى النسبى حتى زمن الفاطميين الأوائل، الذين سوف يؤيدون تراث الوفاق الطائفى. وسوف يدشنون، على سبيل المثال، ما سوف يصبح عادةً بتصعيدهم الأقباط إلى الإدارة العليا للدولة. وإلى ذلك الزمن يرجع شبه احتكار إدارة الشؤون المالية الذى سوف يحتفظ به الأقباط حتى القرن التاسع عشر. لكنه وضع حرج من جهة أخرى، فسوف يعرضهم أكثر من مرة للضغط الشعبى: «إن بوسع المرء تكوين فكرة عن عددهم ونفوذهم فى كافة العصور من الشكاوى المتواصلة من انعدام نزاهة الموظفين المسيحيين»^(٥٥).

لكن السلالة الحاكمة الفاطمية سوف تنتهى مع واحد من أكبر الانهيارات فى التاريخ الديموغرافى للبلد، فى ظل الخليفة الحاكم بأمر الله (٩٩٦ - ١٠٢١). والمستنصر (١٠٣٦ - ١٠٩٤) فجنون الأول يفرق البلد فى الفوضى ويجره إلى الحقد الطائفى واتساع المجاعة التى منحها الثانى اسمه ينتهى بإغراقه. وفي غضون قرن، تفقد مصر ثلث سكانها، فى فيضان مواز تماماً لفيضان مياه النهر: من عام ١٠٢٢ إلى عام ١١٢١، يسجل مقياس النيل فى القاهرة عجزاً متصلاً. وكانت الجماعة المسيحية كبش الغداء الذى أرسلته الأقدار فى هذه السنوات القلقة.

لم تكن الحملات الصليبية الأولى قد مست مصر، وديموغرافيتها تستأنف النمو. وربما لهذا السبب سوف يحرز جيشها النصر عندما يزحف الفرنجة عليها. على أن مناخ التوتر الطائفى الذى خلقته هذه الحملات فى الشرق الأوسط سوف يخرق مصر مع صلاح الدين.

ففى مستهل عهده، سوف يدفع الأقباط ثمن تقاسمهم مع الفرنجة ديانة واحدة. على أنهم لم يكونوا قد قدموا لهم قط أدنى مساندة. وسوف يجرى إذلالهم فى حياتهم اليومية، لكنهم لن يتعرضوا للملاحقة، وسوف تؤدى تحولات جديدة إلى اعتناق الإسلام، جماعية على ما يبدو^(٥٦)، إلى اختزال عدد جماعتهم.

وسرعان ما يؤدى استرداد القدس فى عام ١١٨٧ إلى تهدئة المناخ ويكسب الأقباط ود صلاح الدين بل إنهم سوف يقدمون إليه المهندس المعمارى الذى سيبنى قلعة المقطم. وفى تلك اللحظة بالتحديد، يبدأ البلد فى العثور فى اقتصاد العالم على المكانة التى سوف يحرمه منها طريق رأس الرجاء الصالح إلى أن تعيدها له القناة المحفورة فى برزخ السويس. إن مصر، التى تربط بين البحر المتوسط والمحيط الهندى، وهما منطقتان لهما ثروات يكمل بعضها البعض لكنهما جد بعيدتان إحداهما عن الأخرى بحيث يتعذر عليهما ممارسة التبادل بشكل مباشر، سوف تصبح قوة تجارية. والإسكندرية، التى كان بريقها قد انطفأ عندما أدارت ظهرها للعالم اليونانى، تولد مرة أخرى من التجارة مع الشرق الأقصى.

ثم تعرف مصر فترتين مملوكيتين، متعارضتين فى كثير من النواحي، سوف تتجاوب خلالها السياسة والاقتصاد والديموغرافيا تجاوباً تاماً. والواقع أن المماليك، حرفياً «المملوكين»، كانوا فى الأصل عبيداً مشترين من أسواق تركيا لتدريبهم على فنون الحرب. وترجع هذه الممارسة إلى زمن العباسيين. وهؤلاء العبيد، الذين شكلوا فى البداية فئة خاصة، يفوزون بسلطة متعاطفة على الجيش، إلى حد الاستيلاء على الدولة نفسها. والصلالين الأوائل الذين ينبثقون من صفوفهم يعرفون باسم المماليك «البحرية» (١٢٥٠ - ١٣٨١). وهذا الاسم ليس اسم عائلة لأن السلالة الحاكمة المؤلفة من هؤلاء «المخصيين السياسيين»، فى بداياتها على الأقل، لا تتكاثر بالنسب. إنه مجرد اسم مكان، حيث كانت تكثرتهم على ضفة النهر، البحر^(٥٧). وسوف يرد المماليك البحرية إلى مصر عظمتها، الضائعة منذ العصر القديم. ووصفهم الغالبين الحاسمين للصليبيين، فسوف يتمكنون من تعميق العلاقات التجارية مع من كانوا أعداء لهم بالأمس، أهل جنوة والبندقية والقطاونيين. وتتبع الديموغرافيا المنحنى الصاعد للثروات: ففى عام ١٣١٥، كانت مصر قد تجاوزت من جديد رقم الـ ٤ مليون من السكان. ويقال إن طاعون عام ١٣٤٨ الكبير قد أفنى آنذاك ثلث السكان.

وسوف يغير المماليك بعد ذلك ليس فقط اسمهم باختيار مقر لهم فى القلعة، البرج، فيصبحون بذلك «برجية» (١٣٨٢ - ١٥١٧)، وإنما أيضاً أصلهم العرقى، الذى يصبح منذ ذلك

الحين شركسياً، وخاصة سياستهم. فالدولة، بتدخلها فى اللعبة الاقتصادية، ويفرضها لضرائب لا تحمل، تجعل من نفسها نهائياً. وتدخل البلاد فترة دسائس قصور ومحنة اجتماعية سوف تعيد رسم ملامحها، بعد قرن، كتابات المقرئى (٥٨): فمراجعة ١٤٠٣ - ١٤٠٤ الكبرى تشهد فناء نصف السكان. وقد أدى الطاعون والقحط إلى ضعفة الجيش المملوكى، الذى سوف يتقهقر أمام تيمورلنك فى دمشق (١٤٠٠)، ثم أمام البرتغاليين فى البحر الأحمر (١٥٠٠)، قبل أن يستسلم للأتراك العثمانيين (١٥١٧). والواقع أن سكان القاهرة، الذين كانوا قد تضاعفوا منذ القرن الحادى عشر، سوف يهبط عددهم من ٦٠.٠٠٠٠ ساكن نحو عام ١٣٤٠ إلى ٤٣.٠٠٠ فى أواخر عهد السلالة الحاكمة (٥٩). وربما كانت القاهرة المعاصرة. مدينة الزحام غير المألوف، تجعلنا نقدر مدينة الماضى بأكثر مما كانت عليه. لكن ليون الأفريقى (٦٠)، الذى أقام فيها فى عام ١٥٢٦، يعد قائمة دقيقة لأحيائها، محدداً عدد الأسر فى كل حى: وعددها الإجمالى ٢٥٥٠٠ أسرة، وهو ما يتطابق مع نحو ٢٠.٠٠٠ شخص. وإذا لم تخامرنا الشكوك فى ذلك، فإن الديموغرافيا كانت قد انهارت.

فماذا عن المسيحيين؟ لا جدال فى أن العصر المملوكى الذى يلى هزيمة الصليبيين كان فترة انبعاث للإسلام الأصولى (٦١). فالمماليك، الأجانب من حيث أصولهم، لا يملكون ما يسمح لهم بالفوز باعتراف رعاياهم المسلمين بهم سوى الدين. ومن ثم فسوف يبدون كقاعدة عامة غير متسامحين تجاه المسيحيين. فبالبحرية ثم البرجية لن يكبحوا جماع العوام حين ينهبون الكنائس. على أن وضع المسيحيين يتطور فى انسجام مع المحيط العام. ويصبح بيبرس، قاهر المغول فى سوريا، رئيس الدولة الظافرة فى القاهرة. ويتمكن عندئذ من دفن ماضيها. فالأقباط، الذين أبدوا حياداً ثابتاً خلال حروب الفرنجة، يستعيدون مواقع فى الإدارة. لكن نوعاً من الدورة الجهنمية ينقلت دائماً.

وإذا يتقدم الأقباط، فإنهم يراكمون الثروات؛ ولما كانت الثروة تستدعى القوة والفخفة، فإن بروز هؤلاء «الكفار» يصدم التدين المتحمس لدى العوام، الذين يطالبون عندئذ بتحتيتهم. والسلطة تنفذ المطلوب عن طيب خاطر. ويؤدى كل عزل جماعى للأقباط إلى إصابة جهاز الدولة بالشلل. وفى ختام مدة معينة، تطلب السلطة المملوكية من جديد خدماتهم حتى تتمكن من السيطرة على الوضع (٦٢). ولا يكون من شأن عداوة العوام غير التشجيع على تحولات جديدة إلى اعتناق الإسلام، هى الأخيرة فى تاريخ البلد.

ولم يكن المسيحيون الذميين الوحيدين في مصر، فالبلد تسكنه أيضاً طائفة يهودية صغيرة، تتركز إلى حد بعيد في القاهرة، ومواقف الحكام والسكان نحوهم هي عين المواقف التي يتخذونها تقريباً تجاه المسيحيين: خطوة نسبية حتى انقلاب الحاكم بأمر الله الذي لا يمكن توقع ما قد يصدر عنه، ثم تذبذبات بحسب الأحداث. وحين يزور بنيامين بن توديل مصر في عام ١١٧١، فإنه يقدر عدد أبناء ملته^(٦٣) فيها بما بين اثني عشر ألفاً وعشرين ألفاً. ثم تؤدي الحروب الصليبية إلى اختزال طائفتهم اختزالاً قوياً، رغم أنهم غرياء عن رهاناتها: «كنهم غير مسلمين، كان يشك بحكم ذلك في انحيازهم إلى صف الفرنجة. كما أن التخابر مع أعداء الإسلام قيمة متكررة من تيمات الهجوم على الذميين: «إن (اليهود) لا يحبون الصليبيين، لكنهم يصبحون ضحايا للسخط الذي راكمه المسلمون ضد الذميين»^(٦٤). وفي عام ١٣٠١، بوجه خاص، يصبحون عرضة للملاحقات. وفي عام ١٤٨١، لا يقدر الرحالة ميشوللام بن فواتير عدددهم بأكثر من ٥٠٠٠^(٦٥). ومن ثم فإن الديموغرافيا اليهودية تتراجع بقوة في ظل السلطة المملوكية. وعشية الفتح العثماني، لامراء في أن اليهود لن يمثلوا أكثر من نسبة ٢٪ من المصريين. لكن اليهود يهربون آنذاك من أسبانيا الملكيين الكاثوليكين. وسوف يجد عدد معين منهم ملاذاً في مصر، حيث يعززون طائفة لم تكن قط بمثل هذه الدرجة من الضعف.

غزاة أم محررون؟

بضع سنوات في شبه الجزيرة العربية، نحو ألف سنة في مصر وفي سوريا. ذلك هو الوقت الذي احتاجه الإسلام لكي يحتل المكانة التي يحتلها اليوم تقريباً في قسمة العالم. فكيف تسنى لحفنة من الفاتحين، الذين يتميز إيمانهم بهذه الدرجة من الحمية، الفوز بولاء جماهير على هذه الدرجة من الضخامة وعلى هذه الدرجة من البعد؟ كيف أمكن العشر في مصر وفي الهلال الخصيب على نقطة توازن بين الضغوط المتعارضة التي مثلها التوسع الإسلامي والمقاومة المسيحية؟

منذ محمد، جرى تحديد تمييز أساسي بين دار الإسلام: البلد الذي تديره النواة المسلمة، ودار الحرب^(٦٦): البلد الذي يجب فتحه. والحرب توسع دار الإسلام على حساب دار الحرب، وسوف تستمر مدة جد قليلة من الزمن. فالوضع الذي سوف يصادفه المسلمون

الأوائل سوف يجعلها سهلة. وبمجرد توطيد سلطتهم، يندرج السكان بين عشية وضحاها في دار الإسلام. ولا يرجع ذلك على أية حال إلى أنهم ينتمون إلى الإسلام. على الضد من ذلك تماماً، فالقانون ينص على أن غير المسلمين سوف يتمتعون بوضعية خاصة، ومن ثم فهو يقن وجودهم الديني. والانتقال إلى الإسلام يأخذ أجيالاً. ونحن نعرف أن الإكراه عليه كان غائباً في أغلب الأحيان. وهو لن يحدث في تاريخ الإسلام العربي إلا بصفة استثنائية. والواقع أن المؤسسات التي أقامها الفاتحون وخلفاؤهم، والعلاقات الاجتماعية التي سوف تتأكد على مر الزمن بين الجماعات الطائفية، والصدمات التي سوف تهز عالم البحر المتوسط سوف تقفل عندئذ فعلها البطيء.

والحال أن الحرب التي أنهكت فيها بيزنطة وفارس بلا هوادة عشية الإسلام كانت قد أنهكت المقاتلين كما أنهكت المدنيين سواء بسواء. ولم يعد بوسع جيوش القسطنطينية وكتيسيفون مواجهة جنود الخلفاء إلا بدفاعات ضعيفة، وكان السكان، الذين ينتقلون بالتتابع من نير إلى آخر، لكنهم يتعرضون باستمرار للاقتزاز لتمويل الحملات العسكرية، مستعدين لتغيير سادتهم. والصراعات على الهيمنة تنور على خلفية انقسامات دينية معقدة. ففي العراق، يحيا النساطرة في وسط غير مريح، هو وسط دين مختلف عن دين الدولة: الزرادشتية (دين الدولة الفارسية). على أنهم يستفيدون من حماية معينة في وجه هجمات بيزنطة. وفي سوريا وفي مصر، يتلجج التمرد. والسكان، بل والمكانيون، المخلصون للكنيسة الرسمية، البعيدون عن مركز الإمبراطورية، يعانون من هيمنة القسطنطينية الشديدة الوطأة. ويكابد الهراطقة، وهم الأغلبية، شتى صنوف الاضطهاد. وتحت سوط بيزنطة يتخذ من ثم الاحتجاج اللاهوتي للقاتلين بواحدة طليعة المسيح طابع نزعة قومية أولية، سورية عند اليعاقبة، ومصرية عند الأقباط. ويجري قبول دخول العرب بشكل مصحوب بالأمل، إن لم يجر الإحتفاء به بحماس. وهو ما سوف تظل تحتفظ به الذاكرة اليعقوبية بعد خمسمائة سنة. فميشيل السورى، الراهب المعاصر للحملة الصليبية الثالثة، سوف يستحضر ذكرى «إبناء إسماعيل، الذين قدموا من الجنوب لتخليصنا»^(١٧).

ومن ثم فإن جزءاً من السكان يتبنى الإسلام بسرعة ويفوز بحكم تحوله إلى اعتناق الإسلام بالمواطنة التامة، ربما دون مكابدة قطيعة حقيقية، لأن الدين الجديد يقدم نفسه بوصفه امتداداً للمسيحية واليهودية. وقد جاء في لغة مالوفة بالفعل لقبائل سهوب شمال شبه الجزيرة العربية ولتجار المدن. ويكتب مكسيم رودنسون: «إن العادات العربية تجيز وتشجع تبني

العشائر لأناس من كل جنس ومن كل أصل فيصبحون بذلك عرباً بشكل متميز تماماً. ويتزايد مد التحولات إلى اعتناق الدين الجديد ببطء ثم يصبح حاسماً لا سبيل إلى رده (٢٨)».

على أن آخرين سوف يحتفظون بديانتهم وسوف يقبلون دون مقاومة كبيرة تغيير السلطة. والواقع أن الأقباط واليعاقبة سوف يلتزمون الحياد. فبيزنطة قد صادرت في آن واحد حريتهم الدينية وحريتهم السياسية، بينما يعلن العرب اعتزامهم احترام الأولى، وإن كان في مقابل سلب الثانية. وسوف تعلن جميع معاهدات الاستسلام دون أدنى لبس أن «أى إكراه لن يمارس في شأن الدين». وسوف تكون محل احترامهم، على الأقل في البدايات. والواقع أن بطريرك القبطى بنيامين، الذى اضطر إلى الاختفاء في زمن البيزنطيين، سوف يعاود الظهور من ثم على الملأ في عهد القائد عمرو.

ومن المفارقات أن انشقاقات القائلين بواحدية طبيعة المسيح، والتي سهلت الفتح العربى إلى حد بعيد، سوف تعرقل الأسلمة: فلما كانوا قد جربوا سيطرة الملك البيزنطى، لن تجد مؤسساتهم الكنسية صعبية في البقاء في ظل الإسلام. كما أن السبب نفسه يفسر توسع وحدود هذا الأخير. وفي مصر من جهة وفي سوريا من جهة أخرى، يوحد الإسلام جزئياً، علاوة على ذلك، مختلف الطوائف المسيحية التي يحكمها ويعزز التضامانات التي يمكنها مقاومتها. فهو يتبنى موقفاً موحداً تجاه المسيحيين، أيأ كانت ملتهم: فيوصفه ديناً جديداً، يعتبر الإسلام المسيحيين كافرين سواء بسواء. ويوصفه دولة جديدة، يعاملهم كذميين، يخضعون كلهم لأحكام واحدة. ثم إنه يقرب بينهم في عام ٧٤٠، عندما تفرض الحكومة الأموية على الملكانيين القطيعة مع بطريرك أنطاكية، الذي لجأ إلى القسطنطينية، ومن ثم إلى أرض عدوة، وانتخاب بطريرك محلى دون ارتباط مع بيزنطة.

مجتمع يصبح مسلماً بالتدريج

«قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يؤثروا الجزية عن يد وهم صاغرون» (القرآن، سورة التوبة، الآية ٢٩). إن المسيحيين واليهود، الذين تطالبهم ضريبة رأس، لا يمكنهم تفاديها إلاً باعترافهم بالإسلام. ولن تلغى الجزية إلاً عن طريق إصلاحات عام ١٨٢٩ في الولايات العربية للإمبراطورية العثمانية، وفي عام ١٨٥٥ في مصر.

ويتفق مؤرخون عديدون على اعتبار التفاوت الضريبي الذي دشنه القرآن بين المسلمين وغير المسلمين الحافز الرئيسى إلى التحول إلى اعتناق الإسلام، حتى وإن كان حجمه فى هذا المكان أو ذاك وفى هذه اللحظة أو تلك ضئيلاً نسبياً^(٧٩). وهو إن يمارس فعله بطريقة واحدة غداة الفتح، وعندما يكون خلف الدولة الإسلامية تاريخ وجود طويل، وتُدشن معاهدات الاستسلام جزية ثابتة. على أن الإدارة التى كانت مكلفة بجباية هذه الضريبة تجبى أيضاً ضريبة أخرى، هى الخراج، وهى ضريبة أرض يخضع لها الجميع، مسلمين كانوا أم ذميين. وكان موظف إدارة الضرائب جابياً محلياً. فالعرب لم يجبئوا ومعهم إدارتهم، ولم يكن يهمهم غير المبلغ الإجمالى للإيرادات. ومن ثم فإنهم سوف يتركون تقسيمه بين الجزية والخراج لتقدير الجابى المحلى. وفى أرياف مصر حتى منتصف القرن السابع، يبدو أن الضريبتين كانتا غير متمايزتين الواحدة عن الأخرى، وكان التحول إلى اعتناق الإسلام يعنى من الاثنتين، بما يعنى الإعفاء من الخراج^(٨٠). والنتيجة الرئيسية لذلك هى التفاوت الضريبي الأقوى فى هذا البلد مما فى أى مكان آخر، الأمر الذى يبدو أنه يشجع التحولات إلى اعتناق الإسلام^(٨١). وفى العراق، كان إيقاع التحول إلى اعتناق الإسلام سريعاً بحيث أن الوالى، سعياً منه إلى صون موارد الخزانة، يضطر إلى فرض ضريبة الرأس حتى على المتحولين إلى اعتناق الإسلام^(٨٢).

لكن النظام الضريبي قد ترتبت عليه نتيجة أخرى، أكثر خبثاً. فهبوط عدد الدافعين الخاضعين للجزية يستتبع زيادة مبلغها الواجب الأداء عن كل فرد. ويمكن للضرائب أن تصبح غير محتملة بالنسبة لأولئك الذين يكابدون فى أن واحد الجزية والخراج، إلى درجة أنهم يضطرون إلى هجر الأولى أو الثانى. فسخياً إلى تجنب ضريبة الأرض، يهجر كثيرون من المسيحيين الثابتين على ديانتهم الريف عندئذ. وإلى هذا الزمن البعيد يرجع على الأرجح الانقراض الحضري لجزء هام من المسيحيين. أما الجزية فهى تنتج أثر انتقاء اجتماعى غير متوقع.

فسوف ينتمى إلى الإسلام أولئك الذين لا يمكنهم دفعها، الفقراء بين المسيحيين. وفى المجتمع الإسلامى الأصلى، يصبح المتحولون غير العرب إلى اعتناق الإسلام موالى، تابعين للأقلية العربية المسلمة. وبالنسبة لغالبية الموالى المنحدرين من أصول دنيا، تمثل وضعية

التبعية هذه بالفعل صعوداً اجتماعياً^(٧٣). وكان التساوية الفقراء في البداية، والتساوية الأغنى شيئاً فشيئاً، هم وحدهم الذين يملكون الإمكانيات المادية للحفاظ، إن شاعوا ذلك، على ديانتهم. وهكذا فإن خرائب الإسلام قد شجعت، عبر عمليات انتقاء متعاقبة، على تكاثر مسيحية بورجوازية أكثر فاعلية. والواقع أنه بقدر انكفاء الجماعة المسيحية على نفسها، يظهر تقسيم عمل ذو أساس طائفي. وفي سوريا بأكثر مما في مصر من جهة أخرى، سوف يتركز المسيحيون في بعض المهن التي هجرها المسلمون، خاصة في المهن الحرة والأعمال المصرفية^(٧٤).

وفي بداية الأمر سوف يكون المتحولون إلى اعتناق الإسلام أقلية. فالانتماء إلى الإسلام يفصل المولى عن أصوله، عن أسرته، عن قريته أو عن حيه. لكن الحصار الاجتماعي يبدل معسكره بمرور الزمن. فبقدر امتداد سلسلة الإدارة الإسلامية وتزايد نسبة المسلمين، تصبح وضعية غير المسلمين أكثر هشاشة؛ فيصبح الشارع أكثر انغلاقاً على الأقليات، ويصبح الإسلام الرسمي أكثر حفاظاً ويصبح العلماء، فقهاء الشريعة، أكثر انعداماً للتسامح. بل إنه يصبح من الصعب على المرء التزوج من طائفته هو، فما أكثر الاختزال الذي تعرض له السكان القابلون للزواج. والشريعة، حول هذه النقطة التي تتميز بصرامة لا تلين، تناسب الديموغرافيا الإسلامية بشكل لا فرار منه: فالذمى لا يمكنه التزوج من مسلمة إلا بعد اعتناقه الإسلام، بينما يمكن للمسلم التزوج من ذمية لا تتحول إلى اعتناق الإسلام، تمنحه أطفالاً مسلمين.

ومن ثم فعن طريق نوع من أثر التضخم التدريجي، كان الضغط الاجتماعي مناوئاً قوياً للجزية في التحولات المتأخرة إلى اعتناق الإسلام. وهو يستتبع بدوره شكلاً آخر من أشكال الانتقاء، ليس الاجتماعي بعد، بل الديني. فلولئك الذين يظلون مسيحيين كانوا أقل فاعلاً ميلاً إلى التحول إلى اعتناق الإسلام. وينتمى إلى الإسلام أولئك الذين، أكانوا أغنياء أم فقراء، يعتبر التحول بالنسبة لهم ممكناً من الناحية الأخلاقية^(٧٥). وهكذا فإن الوضعية الاستثنائية للذميين تتركب تباينات اجتماعية على التباينات الطائفية، وتفرض تباعد الملل. ولعلها تجذر المجتمع. فإذا كانت الدولة تضيف الشرعية على التفاوت، فإن المجتمع لا يقبله دائماً.

ومن ثم تقع بعض حوادث العنف، بعض التفجرات المثيرة للتعصب الشعبي، لكن الدولة لا تظهر البتة تقريباً في دور المضطهد. والسلطة العامة تتخذ أحياناً تدابير تمييزية. ويرجع أصلها إلى «ميثاق عمر» الشهير، الذي جرى بموجبه إلزام الذميين بشروط متنوعة: «إننا لن

نحاول البتة محاكاة المسلمين في ثيابهم. (...) وإن نمتطى متون الجياد. (...) وسوف نخلق مقدمة الرأس». وكان الخليفة عمر الثاني^(٧٦) قد فرض على المسيحيين هذه العلامات المميزة لتجنب احتمال الخلط بينهم وبين الجنود المسلمين، عندما أنشأ جيشاً نظامياً جرى استبعاد غير المسلمين منه بنص القانون، ومن الواضح أن بناء الدولة كان سبب هذه التدابير، التي سرعان ما سوف يطورها النسيان.

وفيما بعد، لن تعاود الظهور إلا بسبب الأزمات في جميع الحالات تقريباً. فسعيًا إلى تهدئة صيحات الشارع، لن يتردد بعض الخلفاء في الإشادة بغلو السكان في تدينهم. إن هارون الرشيد (٧٨٦ - ٨٠٩) سوف يرد الاعتبار مثلاً لميثاق عمر بإجباره المسيحيين على ارتداء ثياب محددة. ويقال إن شرلمان قد انتهز هذه الفرصة السانحة لد نفوذ إمبراطورية الغرب. وبعد تبادل للسفارات مع خلافة بغداد، يحصل على تصريح بإرسال مساعدة منتظمة إلى مسيحيي فلسطين ويتمويل مؤسسات كنسية مختلفة. ويكتب ميشليه: «يشاع أن زعيم الكفار قد نقل إلى شرلمان السيادة على القدس»^(٧٧). وبذا سوف تغطى المدينة المقدسة بالمبرات اللاتينية، فتصبح عبر هدف خيرى «محمية - بالمعنى الواسع - كارولينجية»^(٧٨) حقيقية.

وسوف تتصل قرارات أخرى باستبعاد غير المسلمين من الوظائف العامة. والمذهب الرسمي ليس فيه أدنى لبس: فالقرآن نفسه قد قرر هذا الاستبعاد، عبر أوامر متكررة بعدم اتخاذ «الكافرين أولياء»^(٧٩). على أن الوقائع سوف تجرى بشكل شبه دائم على خلاف هذه الأوامر منذ زمن الخلفاء الأوائل، لأن الفاتحين، بوصفهم سياسيين حاذقين، يدركون قيمة الاستمرارية الإدارية. ويكتب ابن خلدون، المؤرخ الذى عاش فى العصر الوسيط: أن «القوم كانوا عرباً أميين لا يحسنون الكتاب والحساب فكانوا يستعملون فى الحساب أهل الكتاب أو أفراداً من موالى العجم»^(٨٠). ويسرعة بالغة لأبد لمستويات التعليم من التلاقي. وهو ما يسمح من الناحية النظرية للسلطات العامة بالاستغناء عن خدمات غير المسلمين. لكنها فى أغلب الأحيان تستجير بها من جديد. ويثبت حشد المراسيم التى ترد الاعتبار للأمر القرآنى إثباتاً كافياً أن هذا الأمر لم يكن محل مراعاة. وقد خدم المعتصم (٨٢٣ - ٨٤٢) وزيران مسيحيان، فى حين أن خليفته، المتوكل (٨٤٧ - ٨٦١) قد طرد جميع المسيحيين من الإدارة.

ويتكرر التاريخ بتواتر بليغ. وكان لابد من ظروف استثنائية، متاعب سياسية أو أزمات اقتصادية، لتبرير عمليات التطهير، التى كانت فى أغلب الحالات قصيرة الأجل^(٨١). وسوف

تحتفظ الذاكرة المسيحية لزمن طويل بذكرى الاضطهاد الحقيقي الوحيد الذي أنزله بالاقباط، كما بمسلمين عبيدين، جنود الحاكم (بأمر الله) (٩٩٦ - ١٠٢٠). «قبل وقت من ذلك كان قحط بالغ القسوة قد أثار قلق السكان». إلى هذا ينسب عجز درزي من الجبل اللبناني، قبل أن يحكى نيرفال حكاية الخليفة الحاكم (٨٢)، الذي أصيب بالجنون نحو عام ١٠٠٠، والذي أعلن نفسه التجسيد الإلهي المنتظر بعد ألف سنة من ميلاد المسيح، وتزوج، فيما تزعم الأسطورة، أخته ست الملك وخلف شيعة سوف تلتف حول الداعية الدرزي، الذي يستمد الدرزي اسمهم منه. والحال أن هذا الكاليجولا، الشاذ الأطوار بدرجة أكثر من أن يكون منهجياً، يحظر ذات يوم المواكب الدينية (المسيحية) ويدمر الكنائس، ويحرم الذميين من حق الاختلاط بالمسلمين، ثم يصرح للمسيحيين الذين أكرههم في الليلة الماضية على الارتداد عن المسيحية باستعادة ديانتهم. وتذهب أسطورة أخرى إلى أنه لم يمض مطعوماً بخنجر مسلم، بل مات في معتكفه بعد أن تحول إلى اعتناق المسيحية. ويجعل نيرفال من ذلك خاتمة حكايته: «يزعم الأقباط أن يسوع المسيح قد ظهر للحاكم، الذي طلب العفو عن ذنوبه وكفر عنها خلال سنوات طويلة عاشها في الصحراء».

على أن الممالك سوف يبرهنون فيما بعد، بثبات أكثر من ثبات أسلافهم، أنهم قساة تجاه الجماعة المسيحية. وفي أواخر عهدهم، كان المسرح مهيناً لاختقائها الكامل، كما حدث قبل ذلك بقرنين في مغرب الموحدين. لكن التاريخ يشهد في تلك اللحظة انقلاباً غير متوقع. فالإمبراطورية التي تزحف على أبواب سوريا ومصر ترد إلى هذه الجماعة الحياة.

جداول وأشكال الفصل الأول

الجدول I . 1

الطوائف في الأزمنة الأولى للخلافة العربية
(بالآلاف)

اليهود	المسيحيون	إجمالي السكان	الاقليم
10	100	1000	شبة الجزيرة العربية
40	3960	4000	سوريا
91	9009	9100	بلاد الرافدين
27	2673	2700	مصر
168	15742	16800	الإجمالي

المصادر : إجمالي السكان، جوسيا كوكس رسل، السكان في أواخر العصر القديم والعصر
الوسيط، مصدر سبق ذكره؛ اليهود : ١ ٪ من إجمالي السكان، س . د . جواشتاين، المجتمع
والمؤسسات اليهودية في ظل الإسلام، مصدر سبق ذكره.

I . 2 الجدول

السكان بحسب الطائفة في سوريا، من عام 633 إلى عام 1580
(بالآلاف)

اليهود	المسيحيون	المسلمون	الإجمالي	السنة
40	3960	0	4000	633
40	3710	250	4000	730
40	1960	2000	4000	900
n . d .	n . d .	n . d .	2700	1199
12	120	1068	1200	1343
10	100	890	1000	1350
13	115	1291	1419	1580

المصادر : انظر في النص ، فيما عدا 1570 - 1580 : التعداد العثماني لـ 1570 - 1590 ، في عمر لطفى بركات، «بحث حول الاستقصاءات الخريفية العثمانية»، مصدر سبق ذكره.

الجدول I.3

تقدير سكان مصر، منذ العصر القديم حتى عام 1798
(بالآلاف)

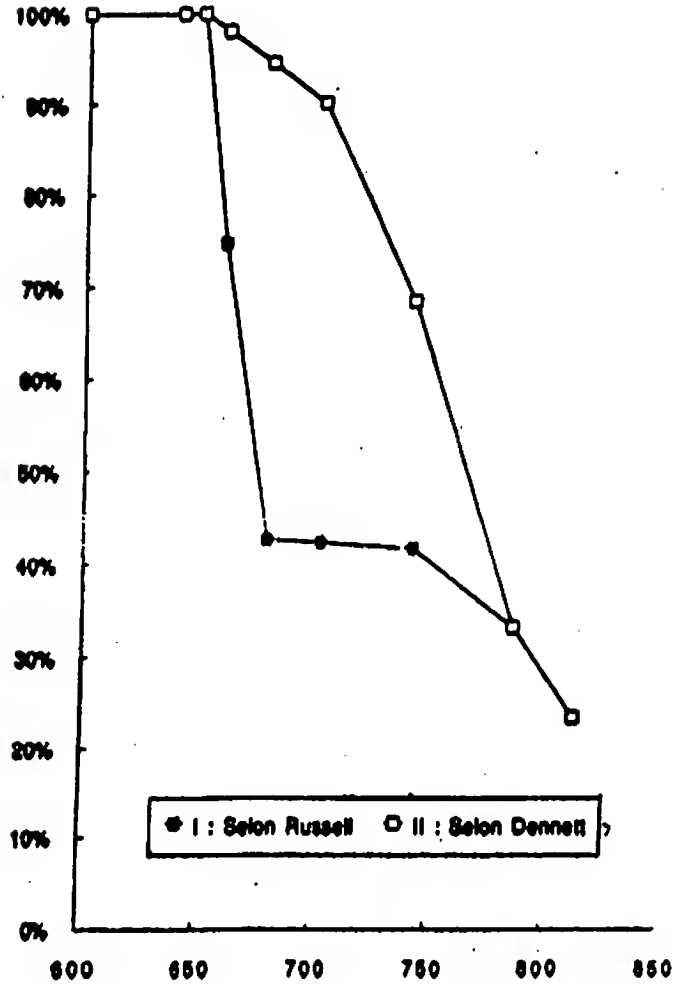
العصر	مبلغ الجزية (بآلاف الدراهم)	السكان المسيحيين واليهود	مبلغ الخراج (بآلاف الدراهم)	إجمالي السكان
القرن الأول بعد المسيح				4500
القرن الرابع				3000
نحو عام 600				2600
الفتح العربي (641)	12000	2500		
عثمان (644 - 655)	13000	2500		
معاوية (البداية)		1875		
معاوية (النهاية)		1040		
هشام (743)			4000	2200
هارون الرشيد (787)		830		
هارون الرشيد (813)	4000	625	4857	2671
المأمون (813 - 833)	3000		4257	2365
المعتز بالله (869)			4800	2640
ابن طولون (884)			4300	2365
معز الدين (975)			3200	1760
المستنصر (1090)			3061	1683
صلاح الدين (1189)			4277	2351
محمد (1315)				4200
برقوق (1382)				3150
بونابرت (1798)				2498

* تقدير بحسب مبلغ الخراج.

المصدر: جوسيا ك. رسل، سكان مصر في العصر الوسيط، مصدر سبق ذكره.

الشكل I.1

نسبة غير المسلمين في مصر
(من القرن السابع إلى القرن التاسع)



حواشي الفصل الاول

- 1 - Cité dans Antoine FATTAL, *Le Statut Légal des non - musulmans en pays d'Islam*, Imprimerie catholique, Beyrouth, 1958.
- 2 - Connû également sous le nom d'Aménophis IV, époux de la belle Néfertiti, Akhenaton avait fait du Soleil un dieu unique et universel. Pour Sigmund Freud, *L'Homme Moïse et la religion monothéiste. Trois essais*, Paris, Gallimard, 1990, le prophète Moïse aurait été égyptien et se serait directement inspiré de ce prédécesseur.
- 3 - S.D. GOISTEIN estime que les juifs représentaient 1% de la population dans l'ensemble de la région, "Jewish Society and Institutions under Islam", *Journal of World History*, Vol, XI, 1968.
- 4 - Le zoroastrisme, religion de l'Etat sassanide, était répandu sur le plateau iranien mais peu en Mésopotamie.
- 5 - Art. "Yemen", *The Catholic Encyclohedia*, McGraw- Hill, New York, 1967.
- 6 - Son texte est l'un des plus discutés, car il ne soumet pas les Nadjranis à la jizya: voir Antoine FATTAL, *Le Statut légal...*, op. cit.
- 7 - Phillip K. HITT, *History of the Arbs (From the Earliest Times to the Present)*, 5^e éd., Macmillan, Londres, 1953.
- 8 - Jusqu' aux Ottomans, bâtisseurs de la statistique, on ne possède aucune source directe d'information sur la population.
- 9 - Josiah Cox RUSSELL, "The Population of Medieval Egypt", in *Medieval Demography*, AMS Press, New York, 1987.
- 10 - Certains auteurs proposent une estimation double de celle de Russell, mais avec une argumentation plus mince. Par exemple Michael W. DOLS, *The Black Death in the Middle East*, Princeton U.P., 1977.
- 11 - Cité par Josiah Cox RUSSELL, "The Population of...", op. cit.
- 12 - Alfred J. BUTLER, *The Arab Conquest of Egypt and the Last Thirty Years of the Roman Dominion*, Oxford, 1902.
- 13 - Josiah Cox RUSSELL, *Late Ancient and Medieval Population*, Transactions of the American Philosophical Society, vol. 48 / III, 1958.
- 14 - Bernard LEWIS, *Juifs en terre d'Islam*, Calmann- Lévy, Paris, 1986.
- 15 - Le texte et l'esprit du traité ont Fait l'objet de multiples controverses: était-il un contrat de "protection", comme ceux conclus avec beaucoup d'autres tribus chrétiennes ou juives, ou un pacte entre deux partenaires égaux?
- 16 - Antoine FATTALL, *Le Statut légal...*, op. cit.
- 17- Art, "Bahraïn", *Encyclopedia Judaïca*, Keter Publishing House, Jérusalem, 1971.

- 18 - Art, "Aden", *Encyclopedia Judaica*, *op. cit.*
- 19 - T.W. ARNOLD, *The Preaching of Islam, A History of the Propagation of the Muslim Faith*, Archibald Constable, Westminster, 1896.
- 20 - Philip K. HITT, *History of the Arabs...* *op. cit.*
- 21 - Josiah Cox RUSSELL *Late Ancient...*, *op. cit.*
- 22 - Merv n'est pas en Irak, Mais au centre de l'Empire sassanide (actuellement Mary, au Turkménistan).
- 23 - Cité par T.W. ARNOLD, *The Preaching...*, *op. cit.*
- 24 - Eliyahu ASHTOR, *Histoire des prix et des salaires dans l'Orient médiéval*, Ecole pratique des hautes études, VI^e section, Paris, 1969.
- 25 - Eliyahu ASHTOR, *Histoire des prix...*, *op. cit.*
- 26 - Josiah Cox RUSSELL *Late Ancien...*, *op. cit.*
- 27 - A.S. TRITTON, "Nasârâ", *Encyclopédie de l'Islam. Dictionnaire géographique, ethnographique et biographique des peuples Musulmans*, Livraison 37, Brill, Leyden, 1928.
- 28 - 800 000 selon H. H. HOWORTH, *History of the Mongols*, Londres, 1927, Chiffre plus révélateur du traumatisme des mémoires que de la démographie réelle!
- 29 - Aziz S. ATIYA, *A History of Eastern Christianity*, Methuen & Co, Londres, 1968.
- 30 - Ainsi surnommés pour leur scepticisme à l'égard de la virginité de Marie.
- 31 - Henri LAMMENS, *La Syrie. Précis historique*, 2 vol., Librairie orientale, Beyrouth, 1921, et Philip K. HITT, *History of the Arabs...*, *op. cit.*
- 32 - J. SAUVAGET, *Les Monuments historiques de Damas*, Beyrouth, 1932.
- 33 - Henri LAMMENS, *La Syrie...*, *op. cit.*
- 34 - Cité par Antoine FATTAL, *Le lStatut legal...*, *op. cit.*
- 35 - Henri LAMMENS, *La Syrie...*, *op. cit.*
- 36 - Philip K. HITT, *History of the Arabs...*, *op. cit.*
- 37 - Contrairement à ce qu' on affirme souvent la polygamie, dans sa forme arabo-musulmane, est effectivement un modérateur de la Fécondité; c'est ce qu' établiront des démographes... du xx^e siècle.
- 38 - Eliyahu ASHTOR, *Histoire des Prix...*, *op. cit.*
- 39 - Chiffre rapporté par le patriache Al - Duwayhi (1630 - 1704), cité dans Aziz S. ATIYA, *A History...*, *op. cit.*
- 40 - C'est le nom que le maronite Souleiman Frangié reprendra pour sa milice au cours de la guerre civile libanaise (1975 - 1990).
- 41 - Antoine FATTAL, *Le Statut légal...*, *op. cit.*
- 42 - Le chiisme, principale scission dans l'islam, est lui-même divisé en branches. Voir Henri LAOUST, *Les Schismes dans l'islam*, Payot, Paris, 1965, ou Yann RICHARD, *L'Islam chiite*, Fayard, Paris, 1991.

- 43 - Henri LAMMENS, *La Syrie...*, *op. cit.*
- 44 - Eliyahu ASHTOR, *Histoire des prix...*, *op. cit.*
- 45 - Josiah Cox RUSSELL, *Late Ancient...*, *op. cit.*
- 46 - Estimation Fondée sur des registres de conscription, A. N. POLIAK, "The Demographic Evolution of the Middle East : Population Trends since 1348", *Palestine and the Middle East*, vol. X, n° 5, 1938.
- 47 - Province.
- 48 - Jusqu' à un tiers des habitants, selon Michael W. Dols, *The Black Death in the Middle East*, Princeton U.P., 1977.
- 49 - Art. "Syria", *Encyclopedia Judaica...*, *op. cit.*
- 50 - Aziz S. ATIYA, *A History...*, *op. cit.*
- 51 - Texte conservé par Tabari (310 de l'hégire = 923 apr. J.- C.), cité par Antoine FATTAL, *Le Statut légal...*, *op. cit.*
- 52 - Le lecteur trouvera au graphique I.1 la courbe de la progression de l'islam indiquée par les relevés de la *jizya*, ainsi qu'une alternative plus lente, correspondant à l'hypothèse de Daniel C. DENNETT Jr, *Conversion and the Poll Tax in Early Islam*, Harvard U.P., 1950.
- 53 - Aziz S. ATIYA, *A History...*, *op. cit.*, et art. "Coptes", *Encyclopédie de l'Islam*, nouvelle édition, Maisonneuve & Larose, Paris, 1979.
- 54 - E. L. BUTCHER, *Story of the Church of Egypt*, Londres, 1897, cité par Aziz S. ATIYA, art. "Coptes", *Encyclopédie de l'Islam*, *op. cit.*
- 55 - A. S. TRITTON, art. "Nasârâ", *Encyclopédie de l'Islam*, *op. cit.*
- 56 - Aziz S. ATIYA, *A History...*, *op. cit.*
- 57 - Le mot signifie "mer", mais le Nil est très large!
- 58 - AL - MAQRIZI, *Description topographique et historique de l'Egypte*, Ed. U. Bouriaut, Paris, 1895.
- 59 - M. CLERGET, *Le Caire, Le Caire, 1934.*
- 60 - Amin MAALOUF a ressuscité la mémoire de cet extraordinaire voyageur, *Léon l'Africain*, Lattès, Paris, 1986.
- 61 - Certains mouvements islamistes actuels se réclament d'Ibn Taymiyya, penseur de l'époque mamelouke.
- 62 - Aziz S. ATIYA, *A History...*, *op. cit.*
- 63 - Art. "Egypt", *Encyclopedia Judaica*, *op. cit.*
- 64 - Bernard LEWIS, *Juifs en terre d'Islam*, *op. cit.*
- 65 - Art. "Egypt", *Encyclopedia Judaica*, *op. cit.*
- 66 - Littéralement, "maison de l'islam" et "maison de la guerre".
- 67 - *Chronique de Michel le Syrien*, cité dans Georges C. ANAWATI, "Factors and Effects of Arabization and Islamization in Medieval Egypt and Syria", in Speros VRYONIS (éd.), *Islam and Cultural Change in the Middle Ages*, Otto Harrassowitz, Wiesbaden, 1975.

- 68 - Maxime RODINSON, *Mahomet*, Seuil, Paris, 1961.
- 69 - T. W. ARNOLD, *The preaching...*, *op. cit.*
- 70 - Daniel C. DENNETT Jr, *Conversion and the poll Tax...*, *op. cit.*
- 71 - Se fondant sur l'existence de chroniques faisant état de nombreuses conversions sous le calife Umar II, mais sur l'absence de documents semblables pour la Période antérieure, Daniel C. DENNETT Jr, *Conversion and the Poll Tax...*, *op. cit.*, et à sa suite Nehemia LEVTZION, "Toward a Comparative Study of Islamization", in Nehemia LEVTZION (ed.), *Conversion to Islam*, Holmes and Meier Publishers, New York, 1979, pensent au contraire qu'il n'y eut pas de conversions importantes en Egypte au tout début de l'islam. Les données fiscales nous semblent fournir une évidence collective plus probante que des témoignages nécessairement pointillistes.
- 72 - Dominique SOURDEL, art. "Irâq", *Encyclopédie de l'Islam...*, *op. cit.*
- 73 - Néhemia LEVTZION, "Toward a Comparative...", *op. cit.*
- 74 - Henri LAMMENS, *La Syrie...*, *op. cit.*
- 75 - Se demandant pourquoi l'islamisation ne fut jamais totale en Egypte, Georges C. ANAWATI, "Factors and Effects...", *op. cit.*, avance qu'en dernier ressort "Cela revint à l'authenticité religieuse d'un noyau convaincu de chrétiens et de juifs qui, en dépit des avantages matériels et sociaux, préféra demeurer fidèle à la foi de ses ancêtres".
- 76 - Certains historiens arabes attribuent la convention à Omar I.
- 77 - Jules MICHELET, *Histoire de France*, tome I, Lacroix & Cie, Paris, 1876.
- 78 - L'expression est de Henri Lammens.
- 79 - Coran, III/28, IV/144, V/57, IX/23, LX/13.
- 80 - IBN KHALDUN, *Al-Muqaddima*, trad. Baron de Slane, Paris, 1862.
- 81 - T. W. ARNOLD, *The Preaching...*, *op. cit.*
- 82 - Gérard de NERVAL, *Le Voyage en Orient*, Garnier-Flammarion, Paris, 1980.

تعليقات الفصل الأول

- ٢ - إن إخناتون، المعروف أيضاً تحت اسم أمنحتب الرابع، زوج الجميلة نفرتيتي، قد جعل من الشمس إلهاً واحداً وكونياً. ويرى سيجموند فرويد، في كتابه «موسى والتوحيد» باريس، جاليمار، ١٩٩٠، أن النبي موسى كان مصرياً وأنه قد استلهم مبادئ دعوته من إخناتون مباشرة.
- ٣ - يرى س. د. جواشتاين أن اليهود كانوا يمثلون نسبة ٨٪ من السكان في مجمل الإقليم.
- ٤ - إن الزرادشتية، وهي ديانة الدولة الساسانية، كانت منتشرة في الهضبة الإيرانية لكنها كانت قليلة الانتشار في بلاد الرافدين.
- ٦ - يعتبر نصح واحد من أكثر النصوص إثارة للجدل، لأنه لا يخضع النجرائين للجزية.
- ٨ - حتى زمن العثمانيين، مؤسسي الإحصاء لا نملك أى مصدر مباشر للمعلومات عن السكان.
- ١٠ - يقترح بعض الكتاب تقديراً يمثل ضعف تقدير رسل، لكن حجاجهم أكثر ضعفاً.
- ١٥ - كان نص وروح العهد موضوعاً لمجادلات كثيرة: فهل كان عقد «ذمة» شأنه في ذلك شأن العهد المعقود مع كثير من القبائل المسيحية أو اليهودية الأخرى، أم أنه كان ميثاقاً بين طرفين متساويين؟
- ٢٢ - إن مرو ليست في العراق، بل هي في قلب الإمبراطورية الساسانية (اسمها الآن ماري)، في تركمينستان).
- ٢٨ - ٨٠.٠٠٠ وفقاً لـ هـ. هـ. مورث، في كتابه «تاريخ المغول»، لندن، ١٩٢٧، وهو رقم أكثر بياناً لصدمة الذاكرة مما للديموغرافيا الفعلية!
- ٣٠ - لقد جرت تسميتهم بهذا الاسم بسبب شكهم في عذرية مريم.
- ٣٧ - إن تعدد الزوجات، في شكله العربي - الإسلامي، خلافاً للاعتقاد الشائع، هو في واقع الأمر من عوامل اعتدال الخصوبة؛ وهذا ما سوف يبينه الديموغرافيون... في القرن العشرين.
- ٣٩ - رقم أورده البطريرك اللويهي (١٦٣٠ - ١٧٠٤)، وتم الاستشهاد به في كتاب عزيز عطية «تاريخ المسيحية الشرقية»، مصدر سبق ذكره.
- ٤٠ - ذلك هو الاسم الذي اتخذته الماروني سليمان فرنجية لميليشياه خلال الحرب الأهلية اللبنانية (١٩٧٥ - ١٩٩٠).
- ٤٢ - إن الشيعة، وهي الانشقاق الرئيسي في الإسلام، إنما تنقسم بدورها إلى فروع.

٤٦ - تقدير مبنى على سجلات التجديد.

٤٨ - حتى ثلث السكان، وفقاً لمايكل و. دولس، في كتابه «الموت الأسود في الشرق الأوسط» دار نشر جامعة برنستون، ١٩٧٧.

٥٢ - سيجد القارئ في الشكل 1. I منحني صعود الإسلام الذي تشير إليه بيانات الجزية، كما سيجد منحني يديلاً أكثر بطناً، يتمشى مع افتراض دانييل دينيه.

٦٠ - لقد أحيا أمين معلوف ذكرى هذا الرحالة غير العادي، في كتابه «ليون الأفريقي»، لاتييه، باريس، ١٩٨٦.

٦١ - تتمسك بعض الحركات الإسلامية الحالية بتراث ابن تيمية، مفكر العصر المملوكي.

٧١ - استناداً إلى وجود حواشٍ تشير إلى تحولات عديدة إلى اعتناق الإسلام في ظل الخليفة عمر الثاني، ولكن استناداً كذلك إلى عدم وجود وثائق مماثلة بالنسبة للفترة السابقة، فإن دانييل دينيه، وفي إثره نحميا ليفتزيون، يريان خلافاً لذلك أنه لم تكن هناك تحولات هامة إلى اعتناق الإسلام في مصر في البداية الأولى للإسلام. ويبدو لنا أن البيانات الضريبية تقدم دليلاً جماعياً أكثر حسماً من شهادات مسرفة بالضرورة في تمييز الألوان.

٧٥ - إن جورج قنوتاتي، إذ يتساءل عن السبب في أن الأسلمة لم تكن كاملة قط في مصر، يرى أن ذلك يرجع، في التحليل الأخير، إلى الأهمالة الدينية لنواة مؤمنة من المسيحيين واليهود الذين أثروا، بالرغم من المكاسب المادية والاجتماعية (للتحول إلى اعتناق الإسلام) البقاء مخلصين لدين أسلافهم.

٧٦ - ينسب بعض المؤرخين العرب الميثاق إلى عمر الأول.

٧٨ - يرجع التعبير إلى هنري لا مينز.

الفصل الثانى

نزع المسيحية عن أفريقيا الشمالية

«ولم تنزل بلاد المغرب إلى طرابلس بل وإلى الإسكندرية عامرة بهذا الجيل ما بين البحر الرومى وبلاد السودان منذ أزمنة لا يعرف أوكها ولا ما قبلها وكان دينهم دين المجوسية شأن الاعاجم كلهم بالشرق والمغرب إلا فى بعض الاحايين يدينون بدين من غلب عليهم من الأمم فإن الأمم أهل النول العظيمة كانوا يتغلبون عليهم».

تاريخ ابن خلدون، المجلد ٦، ص ١٠٦.

على مسافة أبعد من مركز الإسلام والعروبة، فى غربه الأقصى، تهيمن الأرثوذكسية السنية بلا منازع. فالماضى المسيحى يدفن هناك مرتين، بالنسيان الطبيعى وبالصمت الاختيارى.

إن ثمانية قرون تفصلنا عن الآثار الأخيرة لمسيحية أصيلة، لكن جيلين فقط يفصلاننا عن العنف الاستعمارى. وذكراء ما تزال جد حية بحيث إن التاريخ الرسمى يخفى، كما لو كانت عاراً، الألف سنة التى كان البربر خلالها مسيحيين والثلاثة آلاف سنة التى كان فيها آخرون يهوداً. والكنائس التى تلوح أمام أبصار الأجيال الشابة، والتى ما تزال سليمة على حالها وإن كانت آثار زمن راح بالفعل، تحمل علامة عمارة غربية فى قطيعة جلية مع تراث الأسلاف. وتحت نظرة لافيچيرى^(١) الجريئة وقد تحول إلى تمثال، تلعب فرق الحى فى المساء فى حوش كنيسة نوتردام دأفريك لعبة كرة قدم مرتجلة. إن ٧٠ فى المائة من سكان مدينة الجزائر كانوا جد صغار بما لا يسمح لهم برؤية أتباع ديانة أخرى غير ديانتهم وهم يدخلون إلى المعبد القديم الذى تحول إلى مسجد بعد نيل الاستقلال. ولم يمر غير ثلاثين سنة، لأول مرة

فى التاريخ، حتى تصيح أرض عربية شاسعة مسلمة بشكل متجانس. وهى أعوام ثلاثون تكسب بُعداً زلياً هائلة فى اللاوعى الجماعى.

القرطاجتان

بعد ثمانية أعوام من موت النبى فى عام ٦٣٢، تقتحم الجيوش العربية أفريقيا الشمالية عبر مصر. وإن تحتاج إلا إلى سبع سنوات أخرى حتى تلامس المغرب وإلى خمسين سنة أخرى بالكاد حتى تفتحه برمتة. والحال أن السكان الذين سوف تخضعهم فى طريقها كان بينهم عنصر مسيحى قوى. وكانت ما تزال هناك طوائف يهودية إلى جانب قبائل لم تتبن قط العقيدة القائلة بوحداية الرب أو تخلت عنها.

ولحظة الفتح الإسلامى، من المحتمل أن عدد سكان أفريقيا الشمالية كان يصل إلى مليونى نسمة، ولعله كان أكثر من ذلك إلى حد ما (٢). فكم كان عدد المسيحيين بينهم؟ لقد بدأ تصوير أفريقيا الرومانية منذ القرن الثانى على الساحل، الذى امتد منه بسرعة إلى الداخل: ونجو عام ٢٠٠، أكد ترتوليان القرطاجى، الأب الأول لكنيسة الغرب، الذى كان مؤسساً للاهوت اللاتينى، أن المسيحيين كانوا بالفعل غالبية فى المدن. ولامراء فى أن «المدن» لم تكن تضم آنذاك أكثر من عشر السكان. ومن المؤكد أنها، فى جميع الحالات، لم تكن تضم نسبة الـ ٦٠٪ التى يقدمها مؤرخ من العصر الكولونيالى، يهيم تصوير المشروع الفرنسى فى صورة إحياء لنظام بربرى (نسبة إلى البربر) أجهز عليه الإسلام فى زمن غابر (٣).

أما فيما يتعلق بالأرياف، فإلى أية درجة من العمق طبعتها المسيحية بطابعها؟ إننا نعرف أن البربر سوف يسارعون منذ وقت مبكر إلى استخدام الكنيسة ضد الإمبراطورية الرومانية لتنمية عقيدة رافضة. والحال أن الدوناتية (٤) (مذهب لونا، أسقف قرطاج المنشق فى القرن الرابع)، إذ تُعلى من شأن ولاه لطهارة مسيحية أصيلة تتهم روما بخيانتها، إنما تصيح بذلك نوعاً من نزعة قومية تظهر قبل الأوان. وهى تستند، شأنها فى ذلك شأن حركات التحرر القومى بعد ستة عشر قرناً، إلى الاحتجاج الاجتماعى. وتستند الدوناتية بشكل خاص إلى تنظيم السيروكونسيون، أولئك الفلاحين البربر المتمردى على كبار ملاك الأرض المرومنين. أما أن المسيحية سوف تتحالف مع سكان الأرياف فإن ذلك لا يعنى على أية حال التأكيد على أن هؤلاء السكان كانوا هم أنفسهم مسيحيين: «ليس بوسعنا تقدير عددهم استناداً إلى عدد عوام قرطاج بأكثر مما يسعنا تقدير نوعيتهم استناداً إلى نوعية عقيدة القديس أوغسطين (٥)».

وسوف يعيد القديس أوغسطين البربر إلى الخط السوى للعقيدة الرومانية. وهذا

القديس، الذي ولد في تاجاست - سوق الأخرس اليوم في الجزائر - سوف يموت في عام ٤٣٠ خلال حصار أسقفية هيبون التابعة له، قرب عنابة الحالية. فآنذاك يشن الوندال الهجوم الذي سوف يزعمه المسيحية الأفريقية. والواقع أن هؤلاء الغزاة الجدد كانوا أريوسيين. والحال أن أريوس (٢٥٦ - ٢٣٦)، قس الإسكندرية الذي يتبعون مذهبه، كان قد دشّن موكب الخلافات البيزنطية الذي لا آخر له: فهو إذ يرفض عقيدة وحدة جوهر الاثناثيم الثلاثة التي تتحدث عن وحدة جوهر الآب والابن والروح القدس، يرفض الطبيعة الإلهية للمسيح. وسوف يترقب على حرمانه رمى الهرطقة إلى الشمال، بين عشيرة الوندال الجرمانية. ومعهم تسترد (الأريوسية) الضفة الجنوبية للبحر المتوسط. وسوف تؤدي صنوف الاضطهاد التي يلحقونها بالمسيحيين البربر إلى دفع هؤلاء إلى اللوذ بمعاقلهم الجبلية، لكن رفض مذهب المحتل يتعزز من مقاومة الأخير، بل إن من المتحمل أن إيمان البربر يزداد عمقاً في المحنة.

وتبذل روما جهداً أخيراً. فهيلدريك، أول ملك وندالي محبذ للكاتوليكية، يجري تنصيبه في قرطاج. ويؤدي عزله من جانب جيليمير إلى دفع جوستينيان إلى إرسال جيش الجنرال بيليسير إلى الساحة (٥٣٣). والواقع أن إمبراطور بيزنطة المسيحي للغاية، الذي يعيد فتح أفريقيا المطلة على البحر المتوسط، يريد مد المسيحية إلى القبائل التي كانت ما تزال وثنية ويريد إحياء الأرثوذكسية اللاتينية لدى أولئك الذين حادت بهم الهرطقة الأريوسية عن سواء السبيل. وتجرى التحولات إلى اعتناق العقيدة الرومانية تحت حد السيف. ويتطلب الأمر من جوستينيان خمس عشر سنة لإخماد تمردات البربر ولفرض نظامه (٥٤٨). وفي مستهل القرن السابع، تضم أفريقيا الشمالية البيزنطية وطرابلس الغرب مجتمعتين ٤٧٠ أسقفياً.

على أن كثرة كبار رجال الدين لا تكفي لإثبات كثرة المؤمنين. وقد رصد مؤرخ من العصر الاستعماري، هو إميل - فيليكس جوتييه، في الانقسام قبل الإسلامى بين البدو الرحل والسكان المستقرين، بين البوتر والبيرانيين، استمرارية ترجع إلى زمن غابر. والآخرى هم وحدهم الذين سوف يتحولون باهمل إلى اعتناق المسيحية: «لقد كان البيرانيون على اتصال طويل الأمد مع القرطاجتين، قرطاج البونية وقرطاج الرومانية، أى مع الحضارة. وقد وجدهم الفتح العربى مسيحيين. وكان كثيرون من البوتر يهوداً أو فيثيشيين»، «عبدة للأوثان»، كما يسميهم كتاب الحواريات العرب^(١). وهم لن يستقبلوا الإسلام بسرعة واحدة.

انقلابات القبائل، تحولات الأفراد من دين إلى آخر

عند وصولهم إلى أفريقيا الشمالية، سوف يجد العرب أنفسهم أمام تشابك معقد للمعتقدات وللألامات الروحية: «إلى جانب عبادات الطبيعة والعبادات الأرواحية التي ترجع إلى زمن غابر، وإلى جانب الآلهة القرطاجية، نجد أن المسيحية الأرثوذكسية أو الهرطوقية، واليهودية، التلمودية أو غير التلمودية، كان لكل منهما أتباعه^(٨)». أما ابن خلدون، الذي عاش بعد ستة قرون من الفتح العرسي، فمن المؤكد أنه لا يستطيع أن يكون جازماً بشأن التوزيع الطائفي لأفريقيا الشمالية قبل الإسلامية. على أنه يشير إلى أن المسيحية كانت مهيمنة عليها بشكل بالغ الاتساع: «كان البربر بإفريقية والمغرب قبل الإسلام تحت ملك الفرنج وعلى دين النصرانية الذي اجتمعوا عليه مع الروم (البيزنطيين)^(٩)».

وعندما يطأ قادة الإسلام أرض المغرب، سوف يلقون هناك أغلبية مسيحية قوية، تصل إلى مليون ونصف مليون من المؤمنين، وأقلية يهودية صغيرة تتألف من نحو ٢٠.٠٠٠ شخص^(١٠). وكانت الطائفة اليهودية قد وطدت مواقعها منذ الزمن الذي هيمن فيه الفينيقيون على الضفة الجنوبية للبحر المتوسط منطلقين من صور وصيدا، لكن مما لا مراء فيه أن أحفاد دياسبورا قديمة نازحة عن فلسطين كانوا قليلين قياساً إلى البربر المهودين^(١١).

ولم يقض الإسلام قط على اليهودية - إن خضوعاً دنيوياً للسلطة المسيحية كان قد أنزل اليهودية إلى وضع أقلية منذ زمن طويل - لكنه أباد المسيحية. فهل محاسا مرة واحدة أم، بالأحرى، قرصها شيئاً فشيئاً؟ لم تجمع أية رواية معاصرة عن انتشار الإسلام من شأنها إطلاعنا على السرعة التي سوف تتبناه بها الشعوب. وتاريخ الفتح لم تبدأ كتابته إلا بعد ستة قرون من حدوثه^(١٢). وعلينا من ثم أن نتخيل ما كانت عليه حالة الدين والمجتمع في أفريقيا الشمالية، عندما يظهر هناك هؤلاء السادة الجدد، مسلحين بدعوة دينية جديدة.

وإذا كانت المسيحية الرومانية قد تمكنت من البقاء برغم الإرهاب الوندالي، فهي تدين بذلك لمواردها الخاصة. وهي لا تدين به للكنيسة الأم التي لا تحتفظ معها بعد، بحكم قوة الأشياء، بعلاقات منذ قرن. ولم يجر استقبال البيزنطيين كمحررين، بل إن دخولهم قد أثار على الضد من ذلك معارضات حيوية عند البربر. فقد كانت بيزنطة تجسد الزمنى الدنيوى لا الروحى. ويتخلصه من الهيراركيات الكنسية، كان بوسع الدين الأفريقى من ثم أن يسلك طريقه الخاص، وأن يزدهر بوصفه طريقة فى التفكير بأكثر مما بوصفه ولاءً لمنظومة وصايا. وعلى أرضية الضعف المؤسسى هذه يتقدم الإسلام.

«عندما يخرج العرب، بعد توحيدهم فى دولة وحول عقيدة، من شبه جزيرتهم الصحراوية، فإنهم سوف يتصرفون بوصفهم ورثة، والمسيحية الأفريقية، التى تطورت خارج أى اتصال مع الكنيسة، تتخذ شيئاً فشيئاً شكل عقيدة توحيد إلهى مجردة بوسعها أن تشفى غلتها من أى مذهب (١٢)». وبشكل ما، فإن الأسلمة قد شكلت امتداداً ذكياً للتطورات الداخلية للمسيحية الأفريقية الشمالية، إلى درجة أنها سوف تتم بشكل يكاد يكون غير ملحوظ من جانب السكان أنفسهم. وهذه الفكرة مغرية، لأنها تؤسس الإسلام المغربى، جد المنفرد اليوم فى الأفراد، على انتماء حر أصيل، وربما كان الواقع أكثر تعقيداً من ذلك إلى حد ما، يثبت ذلك اليوم تحفظ القبائل على الحركة الإسلامية وعلى التعريب المتعجل.

إن المغرب سوف يتأسلم بموجب عمليتين متمايزتين، لا يبدو أن مدة كل منهما كانت واحدة ولا أن عمق كل منهما كان واحداً: الانتماء الجماعى والتحول الفردى إلى اعتناق الإسلام. فالفتح العسكرى يتبعه الخضوع السياسى من جانب قبائل بربرية بأكملها، تبعاً لمدى استسلام زعمائها. وبمجرد إعلان ولائهم، يجرى تفسير هذا الولاء باعتباره اعترافاً إجماعياً وعماماً بالسيد وبيدته. لكن هذا الولاء يظل هشاً. ذلك لأن القبيلة تتمرد، وسرعان ما يعتبر عصيانها السياسى (الردة) ارتداداً عن الدين (١٣). والمصطلحان مستمدان من جذر عربى واحد ويتميزان فى الواقع بمعنيين متقاربين. والإسلام ينبج فى الحقيقة ديناً ودولة فى آن واحد (١٤). بل إن نبيه كان مؤسس إمبراطورية.

إن كل فتح يستثير مقاومة، وفتح العرب للمغرب ليس استثناءً. ذلك أن انتفاضات متكررة سوف تستقبل السلطة الجديدة. وسوف تحمل القبائل السلاح للثود عن المسيحية المهددة، أم على الأرجح عن حريتها؟ إن التردد بين الإيمان أو حمل السلاح، وحالات الانبعاث المتكررة لنزعات التوحيد الإلهى قبل الإسلامية، اليهودية والمسيحية، سوف تميز على أية حال القرون الأولى للهجرة. ويكتب ابن خلدون: «إن ساكنى هذه الأوطان (إفريقية والمغرب) من البربر أهل قبائل وعصبيات فلم يغن فيهم الغلب الأول الذى كان لأبى سرح عليهم وعلى الإفرنجة شيئاً وعادوا بعد ذلك الردة مرة أخرى وعظم الإثخان من المسلمين فيهم ولما استقر الدين عندهم عادوا إلى الثورة والخروج والأخذ بدين الخوارج مرات عديدة» (١٥).

وملحمة الكاهنة توحى تماماً بما لابد أن كان عليه تاريخ هذه الانضواءات الجماعية المثير. ففي رحلتهم صوب الغرب، إن يواجه جنود القائد العربى حسان بن النعمان جيوش بيزنطة وحدها، بل سوف يواجهون أيضاً مقاومة جبلية صلبة. فقبائل الأوزاس، المتجمعة تحت

السلطة العسكرية والسياسية للكهنة، «الملكة» و«الكاهنة» اليهودية، وهى شخصية تُعدُّ رمزاً فى نظر المثقفين الجزائريين الناطقين بالفرنسية كالكاتب كاتب ياسين، سوف تصد من ثم الجيش العربى على مدار أربع سنوات (٦٨٩ - ٦٩٣). ويقول الأسطورة أن الملكة عندما أدركت أن هزيمتها باتت مجتمة اختارت المقاومة حتى الموت لكنها أمرت ولديها بالاستسلام للغالب. ومن ثم يكلف هذا الأخير كلا الوالدين بتجنيد اثنى عشر ألف رجل من بين قبائلهم وتحويلهم إلى اعتناق الإسلام ثم وضعهم تحت قيادتهما وخوض الجهاد بهم إلى جانب العرب. ويشهد ابن خلدون بأن حسناً «استأمن إليه البربر على الإسلام والطاعة وعلى أن يكون منهم إثنا عشر ألفاً مجاهدين معه فأجابوا وحسُن إسلامهم» (١٧).

على أننا يجب أن نحذر من أن نرى فى هذه الحكاية المسار المألوف لاسلمة المغرب (١٧). فأسطورة الكاهنة، شأنها فى ذلك شأن أساطير أخرى، لا تساوى الكثير من حيث الصدق المشكوك فيه للوقائع التى تحكيها كما من حيث مختلف ضروب التفسير التى تحتفلها. فالتراث اليهودى - البربرى لا يحتفظ إلا بمقاومة الأم، التى يجعل منها رمز الولاء الوطنى للطائفة اليهودية فى المغرب.

ومستنداً على الضد من ذلك إلى انقلاب الوالدين، سوف يكتب جوتييه باطمئنان استعماري تماماً، أن «البربرى (النسبة إلى البربر)، فى القرن العشرين كما فى القرن السابع، ليست لديه أية فكرة عن الوطن. والشئ الوحيد الذى يثور البربرى لأجله ويستعد لأن يهبه حياته، هو عشيرته، عائلته. ومنذ تلك اللحظة يصبح كل شئ واضحاً. ففى الكارثة المحقة، التى لا مفر منها، هل يمكن إنقاذ الشئ الوحيد المهم بالفعل، العشيرة؟ نعم بوضوح. والغالب، أكان عربياً أم فرنسياً، لن يطلب شيئاً أفضل من الاستفادة من خدمات عائلة اختبر نفوذها بشكل فائق الوفرة» (١٨). ونحن نعرف التكنيب الذى سرعان ما سوف تصدره على هذا الكلام الوطنية الجزائرية، البربرية والأوراسية بالتحديد.

فلم لا نر أيضاً مجاز الأسلمة فى تزاوج وجهى الحكاية، عزة الملكة وتحول ولديها؟ إن القبائل الطامحة إلى التحرر من سيدين بعيدين، روما ثم بيزنطة، سوف تدرك بلا ريب أن الإسلام سوف يحفظ لها استقلالها الذاتى، مادام مجرد الانتماء يكفى لجعلها تنتقل إلى معسكر السادة.

والواقع أن المعارضة الدينية الرئيسية للفاتحين العرب لن تكون يهودية ولا مسيحية ولن

ترفض الإسلام. فهي تتأكد على الضد من ذلك في داخله وباسمه، ضد ممارسات الدولة المركزية التي تنهض، وخاصة ضد ضريبة الأرض. وستعرف عندئذ قبائل مختلفة نفسها في الخوارجية^(١٩)، التي يروجها دعاة قادمون من الطرف الآخر للإمبراطورية العربية - من العراق، حيث رفضت حفنة من المتمردين أن يخلف معاوية (٢٠) علياً، الخليفة الرابع. ويمكن هذا الاتجاه الرافض في منشأ الولايات ذات الوجود العابر إلى هذا الحد أو ذاك - والتي كان بعضها مهيباً، كدويلتي سيجلماسة وتهرت - والتي لن توحد المنطقة قط في ظل سلطة واحدة. على أن تمرداتها سوف تسهم في إعادة استقلال ذاتي إلى المغرب، اقتصادي بين وجوه أخرى، كانت روما، والوندال ثم البيزنطة على التوالي قد حرمت منه. وسوف تتبنى أفريقيا الشمالية الإسلام لأنه يتيح لها الاستقلال إلى حد ما^(٢١).

والأرجح أن الانتقال الجماعي إلى الإسلام كان نادراً في ظل الأمويين، الذين سيحكمون أفريقيا الشمالية حتى عام ٧٢٠ وسوف يتم بوجه خاص من جانب القبائل، البدر الرحل على الأخص، الذين يقربهم أسلوب حياتهم من الفاتحين الأوائل، الذين كانوا هم أنفسهم بدوا رحلاً في شبه الجزيرة العربية التي تركوها خلفهم. لكنه سوف يذهل الأذهان لزمان طويل. وهكذا، فعندما تزعم فرنسا الجمهورية، بعد اثني عشر قرناً من الفتح العربي، أنها تستعيد استقلال البربر الذي خنقه العرب، سوف يشير التاريخ الرسمي إلى هذه الانتصارات الجماعية، لأن تلون البربر المزعوم يناسب المشروع الاستعماري.

لكن الإسلام قد انتشر أيضاً عبر عملية أبطأ، ولكنها أقل تقلباً، للتحويلات الفردية إلى اعتناق الدين الجديد. فإلى جانب القبائل الجبلية والبدوية، المتلاحمة بما سوف يسميه ابن خلدون بـ «العصبية»، والتي لا يمكنها أن تحول (إلى الإسلام) غير جماعات بأكملها، كان يحيا شعب مديني وريفي بأكمله سوف ينضم إلى الدين الجديد بأسلوب آخر. فالروم، موظفو الإدارة البيزنطية، وتجار وحرثو المدن، والفرنجة، الفلاحون المثلثيون، سوف ينتمون تدريجياً إلى الإسلام على أساس فردي أو عائلي.

ويلعب الإغراء في تحولهم إلى اعتناق الإسلام دوراً أكبر من نور القوة. ولا مرأى في أنه ليس الاستيقاظ لذاكرة بونية قديمة، في سبات منذ أكثر من ألف عام، هو ما يدفع «متحضرى أفريقيا القدماء إلى اتباع منحني غرائزهم العميقة»^(٢٢) بترحيبهم بهذا الدين الذي يجيء به أبناء عمومة هؤلاء الأجداد البعيدين الذين جاؤا من فينيقيا. فالواقع أن المزايا المادية والأدبية التي سوف يجدها البربر في ذلك، المزايا الضريبية أولاً - الإعفاء من ضريبة الرأس - ثم

المزايا الاجتماعية - الاندماج فى مجتمع مدنى وسياسى مؤسلم بشكل مطرد - سوف تكون الحافز الحقيقى إلى تحولهم إلى اعتناق الدين الجديد.

وفى أفريقيا الشمالية، كما فى كل أرجاء الإمبراطورية التى كانوا بسبيلهم إلى تكوينها، سوف يتعين على الأمويين إيجاد توازن حساس بين ضرورتين متناقضتين من ضرورات الاحتلال: كسب انتماء الشعوب إلى الإسلام، مع تدبير الدخول التى يحصل عليها الفاتحون تحديداً من «كفر» السكان المفتوحين، الجزية، الضريبة التى كان على المسيحيين واليهود دفعها للحفاظ على حق ممارسة عبادتهم. ونحن نعرف أن من المفارقات أن حرص الدولة الإسلامية فى مصر على الحفاظ على إيراداتها الضريبية قد دفعها إلى عرقلة إيقاع التحول إلى اعتناق الإسلام. ولا توجد شهادة مماثلة فيما يتعلق بالمغرب. ومن المحتمل من ثم أن أسلمة المغرب المدينى والريفى كانت بطيئة نسبياً.

ولا يتخيل المرء أنها كانت موجة عارمة سريعة إلا إذا صدق النصوص المكتوبة بعد أكثر من خمسمائة سنة من الفتح والتى تلعب فيها الأسطورة دورها، وهى نصوص ابن خلدون وابن عبد الحكم. فالأول يقول لنا «أسلم بقية البربر على يد إسماعيل بن عبد الله بن أبى المهاجر سنة إحدى ومائة (٧١٩ ميلادية، أى بعد جيل واحد من الاستقرار العسكرى)»^(٣٣). وقد اكتفى المؤرخون على مدار زمن طويل بمسايرة هذا الرأى؛ فحجتيه مثلاً يؤكد أنه اعتباراً من اللحظة التى اتجه فيها طارق ابن زياد إلى فتح أسبانيا، نجد أن المغرب، «الواقع بين مركزين للحضارة الإسلامية الرائعة، تونس من جهة والأندلس من جهة أخرى، لا يبدى بعد أية مقاومة لتنفيذ الدينى والفكرى للإسلام؛ ويتم إنجاز التحول إلى اعتناق الدين الجديد»^(٣٤).

ومن المحتمل تماماً أن جزءاً هاماً من السكان قد ظل مسيحياً، حتى نهاية الخلافة الأموية فى دمشق (٧٥٠). فقد وسع الفاتحون مجالهم السياسى لئلا يفرضوا عليه التجانس الدينى. وقد ظل تبنى الإسلام ضمن مجال الاختيار الحر، حتى وإن كان الدافع الاقتصادى قد اكتسب أحياناً طابعاً طاعياً. ويكتب المستشرق البريطانى بيرنارد لويس: «خلال القرون الأولى للسيطرة الإسلامية كانت هناك محاولات قليلة أو لم تكن هناك محاولات على الإطلاق للتحويل القسرى إلى اعتناق الإسلام، حيث ينتشر الدين بالإقناع وليس بالإكراه عليه»^(٣٥). إلا أنه إلى جانب التحولات إلى اعتناق الدين الجديد، والتى تسنى لإيقاعها أن يظل معتدلاً، سرعان ما تلعب الديموغرافيا لحساب المسلمين، وذلك بحكم الزيجات المختلطة وحدها؛ فالقانون، الذى يتمشى فى كل شيء مع القانون السائد فى الشرق، يحظر فى الواقع زواج

مسيحي أو يهودي من مسلمة، لكنه لا يحظر زواج مسلم من ذمية^(٣٦). وفي هذه الحالة الأخيرة، ينتمي أطفال الزوجين بشكل أوتوماتيكي إلى الإسلام. وفي الأوقات الأولى للفتح الذي يجيء بالرجال فقط، ويقدر ما يظل المسلمون أقلية، فإن خضوع سوق الزواج لابد له من أن يشجع على هذا النوع من الزيجات المخططة، ومن ثم على مولد أجيال مسلمة بالتدريج.

ولن يفرض الإسلام نفسه إلا خلال فترة تبدأ بعد قرنين من الفتح، في العصر الذي سوف يهيمن فيه الخليفة العباسي المتوكل (٨٤٧ - ٨٦١) على الشرق. إن حروب الخلافة المتواصلة منذ بداية القرن التاسع والهيمنة المتعاطمة على الجيش من جانب عناصر تركية منفلتة الزمام قد أوجدت في بغداد مناخ رعب دائم، إلى الدرجة التي جرى معها نقل العاصمة إلى سامراء. ويتمزق السلطة الخلاقية بشكل حاسم؛ وعندئذ تصعد إلى السلطة المركزية للفاتحين سلالات حاكمة محلية، يتعزز استقلالها الذاتي بمرور الزمن. وفي الغرب، سوف يخضع أدارسة فاس (٧٨٨ - ٩٢٦) أراضي جد شاسعة، بينما سوف يتوسع الأغالية في الشرق بدءاً من القيروان (٨٠١ - ٩٠٩). وبين الاثنين، تحتل ممالك المغرب الأوسط مساحات أضيق. وبمجرد قيامها، فإن هذه الكيانات، الأصغر بكثير من الإمبراطورية التي تفككت، سوف تتجه إلى الانكفاء على نفسها، وسرعان ما سوف تنتشر التجانس بين ربوعها، ويبدو أن استيعاب الأقليات يصبح بالنسبة للسلطات الإقليمية وسيلة - واعية ؟ - لتوليد أركانها. فاختزال التباينات يستبق في روحه، وإن لم يكن في نصه، ما سوف يصبح في القرن العشرين مرحلة ضرورية لبناء الدول القومية.

الهاليون والموحدون

إن وصول القبائل الهلالية، المنحدرة من شبه الجزيرة العربية، سوف يرمز إلى منعطف في التاريخ المغربي. فسوف يكون مميتاً بالنسبة للجماعة المسيحية. فبنو هلال، النهابون الذين سبق لهم أن عاثوا فساداً في أرياض الطائف، كان قد تم ترحيلهم إلى مصر في عام ٩٣٠ للتكفير عن عصيانهم. وكانوا في الواقع حلفاء لقلادة إسماعيليين، هم القرامطة، وهم نوع من السان كيلوت (العرايا، جماهير باريس الفقيرة الراديكالية خلال الثورة الفرنسية الكبرى، المترجم) الذين كان تمردهم قد زعزع الخلافة العباسية. لكن دعة وادي النيل لم تؤد إلى تهذيب أخلاقهم بشكل حقيقي؛ وبعد قرن من ذلك، سوف يحافظون على سمعتهم كقطاع طرق كما هي.

وسعيًا إلى التخلص من هذا الفيض من البور المشاغبين، فإن الخليفة المستنصر، الذي اعترضته عقبات كثيرة مع جوعاء هو، تراوده من ثم فكرة إرسالهم لتأديب تابعه المعز، الذي كان قد أعلن الانفصال في القيروان (١٠٥٠). وسوف يتدفق مائتا ألف من الهلالين على طرق المغرب، ويكتب ابن خلدون، قبل أن يحكى بعض الأساطير الجميلة التي سمعها بعد قرنين من ذلك: «اضطرب أمر إفريقية وخرب عمرانها وفستت سابلتها»^(٣٧). وما تزال باقية حتى أيامنا، عن ملحمة بنى هلال، بعض الحكايات، التي سوف ينقلها في استقرارهم الوشيك آخر بدو الهضاب الجزائرية.

فهل سوف يدخل بنو هلال انعدام الأمن إلى أفريقية أم أنهم سوف يجدون هذا الانعدام للأمن قائماً بالفعل؟ هل سيجرون المغرب - كما سيفعل المغول بعد ذلك حين يدمرون أرياف الشرق قبل أن يذهبوا ببغداد - إلى فوضى مقيمة، تلمس فيها التجيلية البدوية الحضارة المستقرة؟ إن ابن خلدون يميز بحزم بين الفتحين العربيين. فالأول، العسكري، في القرن السابع، قد حمل إلى المدن حاميات وإدارة، لكنه لم يهب السكان غير عزاب كانوا متسرعين إلى إيجاد أسر مختلطة. وكان فتحاً مادياً وروحياً، لكنه لم يكن فتحاً إثنياً. أما فتح القرن الحادى عشر فقد كان على الضد من ذلك هجرة لأقوام بأكملها، معها لغتها ونسائها وأطفالها؛ فبعد أربعة قرون من الفتح (الأول) يجيء الاستيطان.

وفى تبنيه للمقابلة التي أجراها المؤرخ العربى، وإن كان مع التضخيم من الوزن الديموغرافى للهلالين، سوف يجرى المؤرخ الاستعماري جوتييه موازنة بين الاستيطانين، استيطان العربى البدوى، «عز كل حكومة»^(٣٨)، «الناهب الذى لا يبنى عشه بل يسكن فى عشه الآخر»^(٣٩)، واستيطان فرنسا الجمهورية، الذى ينظم البشر ويستثمر مواردهم، والواقع أن الجيل التالى، سعيًا إلى مناقضة هذا السلف المزعج وفى حميته المعادية للاستعمار، سوف يلتزم على الضد من ذلك بالتقليل، إلى أدنى حد، من شأن دور البدو التدميرى، مع احتمال اختزال الغزو العربى إلى أبعد أسطورة.

وأياً كان الأمر فإن بنى هلال سوف يقصون المعز عن مملكته. وإذا يفعلون ذلك، فإنهم سوف يسهمون، بشكل مباشر أو غير مباشر، فى إضعاف حدودها. فعلى أبواب العالم المسيحى، نجد أن صقلية، المسلمة منذ عام ٨٢٧، تنتقل، دون أن تصل قعقة السلاح إلى القيروان، إلى أيدي النورماندين. وهؤلاء الجنود الشماليون، الذين وظفهم البابا وأمراء لومبارديا لصد بيزنطة، سرعان ما سوف ينقضون على الخلافة الفاطمية لأفريقية، حيث يطلون

باليرمو فى عام ١٠٧٢ لكى يحتلوا الجزيرة كلها بعد ذلك بعشرين سنة. وفى الزمن نفسه، شمال الأندلس، تدق بالفعل الخطوات الأولى لإعادة الفتح (الأسباني). وتسقط طليطلة فى عام ١٠٨٥. وسرعان ما يدعو أوربان الثانى إلى الحرب الصليبية. ومثلما كانت عليه الحال دائماً تقريباً فى التاريخ العربى والتركى، سوف تدفع الكتل الأخيرة من المسيحيين المحليين ثمن دين يتقاسمونه مع أعداء الإسلام، حتى وإن كانوا لن يتحالفوا معهم.

والواقع أن وضع الأقليات المسيحية واليهودية فى أفريقيا الشمالية سوف يتدهور بشكل محسوس عندما تتبلور هذه التهديدات الخارجية. وسوف تكابد آنئذ تمييزاً متعدد الأشكال، وليس ضريبياً فقط. وبشكل متقطع، سوف يجرى إخضاع أهل الكتاب لمحظورات ثيابية ومهنية، بل وسلوكية، كالإزامهم بامتطاء النواب مع تدلية القدمين من جانب واحد حتى يتسنى تمييزهم من أول نظرة عن المسلمين، المسموح لهم وحدهم بفرشحة القدمين فى عزة على مقون الجياد. بل لقد كانت هناك ملاحظات متقطعة، وسرعان ما تصبح التحولات إلى اعتناق الإسلام جماعية. على أن الحوايات لا تتحدث لا عن مذابح ولا عن ترحيلات إجبارية كتلك التى سوف تجتاح المسيحية الأناضولية بعد عشرة قرون، عند سقوط الإمبراطورية العثمانية.

على أن المغرب المسلم لن يكون له مورسكيوه ولا مارآنوه، المسلمون واليهود الأسبان الذين جرى إجبارهم بالقوة على التحول إلى اعتناق المسيحية فى ظل محاكم التفتيش، قبل طردهم إلى أفريقيا الشمالية فى مستهل القرن السابع عشر. وينتشر الإسلام على الضد من ذلك دون صدمات ديموغرافية. فعلى غرار الفتح، يبدو أن التحولات إلى اعتناق الإسلام قد فازت أولاً بالأقاليم الأقل بعداً عن مركز الإسلام، ثم امتدت إلى المناطق الأبعد: فالإشارات الأخيرة إلى جماعة مسيحية محلية ترجع إلى عام ١٠٤٩ فى ليبيا، وإلى عام ١٠٩١ فى تونس، وإلى عام ١١٥٠ فى الجزائر وإلى عام ١٢٠٠ فى المغرب الأقصى^(٣٠). وعلى تخوم اختفاء هذه الجماعات المسيحية، نجد عهد الموحد بن تومرت، هذا الأصولى الذى أعلن نفسه، فى عام ١١٢١، مهدياً.

ومن بين الأقطار الواقعة إلى غربى النيل، كانت ليبيا هى القطر الذى انتشرت فيه الأسلمة بشكل أسرع، وذلك منذ دخول الجيوش المسلمة فى عام ٦٤٠. ويفقد البلد الجانب الرئيسى من جماعته المسيحية عندما ترحل قبيلة لواتا البربرية مع أسقفها إلى المغرب الأقصى^(٣١). وسوف يتم محو كل أثر لها عندما يجتاز ليبيا بنو هلال فى زحفهم صوب الغرب. وتتلوها تونس عن كثب؛ فقرطاج، التى كانت فى الزمن الغابر أسقفية مهيبة، يفتحها

العرب في عام ٦٩٨. وفي عام ٦٤٦، كانت قد عقدت آخر مجمع مسكوني لها، هو الأخير في سلسلة طويلة. على أن الكرسي الرسولي قد ظل هناك لعدة قرون أيضاً، حتى وإن كانت ذاكرتا أوروبا والمغرب قد اتفقتا على طمس هذه الذكرى البعيدة. ومما لا مراء فيه أن سلالة الفاطميين الحاكمة، التي اتخذت من القيروان مركزاً لها من عام ٩١٠ إلى عام ٩٧٣، كانت متسامحة هناك مثلما سوف تكون متسامحة في مصر حتى عهد الحاكم (بأمر الله). وفي عام ٩٩٠، كانت ما تزال لكنيسة قرطاج ركيزة ديموغرافية وروحية كافية لإرسال أسقف لترسيمة في روما. وتشهد رسائل ترجع إلى أعوام ١٠٥٣ و ١٠٧٣ و ١٠٧٦ وجهها البابا إلى أساقفة قرطاج على نشاط مسيحي معين^(٣٢). وتشهد على ذلك من جهة أخرى شخصية قسطنطين الأفريقي، الراهب البندكتي الذي ولد في تونس نحو عام ١٠١٥ والذين ندين له بترجمات لاتينية عديدة لنصوص طيبة عربية.

إلا أنه عندما يقضى القديس لويس نحبه، في عام ١٢٧٠، أمام مدينة تونس المحاصرة، كان قد مر بالفعل قرنان على انطفاء المسيحية هناك. فالفتح النورماندي لصقلية (١٠٧٢ - ١٠٩١)، حيث كانت اختراقات بيزنطية منذ خمسين عاماً بالفعل قد امتحنت الخلافة الفاطمية المقامة في عام ٩١٠. كان قد وجه لها ضربات قاسية. وعندئذ يرد اختزال الجماعة المسيحية البربرية على عدم التسامح الذي لا يرحم والذي سوف يكابده مسلمو صقلية^(٣٣). وفي عام ١١٥٩، لن يكون بعد أمام الفاتح الموحد عبد المؤمن غير مقر الأسقفية في قرطاج وإكراه آخر المسيحيين على الرحيل إلى المنفى أو الارتداد عن دينهم^(٣٤).

أما الجزائر، مسقط رأس القديس أوغسطين، فقد احتفظت بطائفة كاثوليكية على مدار مجمل العصر الذي تقاسم فيه الخوارج، وهم أتباع إسلام نقي، عزياً ثيوقراطية صغيرة. ويؤكد ابن خلدون أنه كان بالإمكان في تلمسان، في عام ٩٦٣، «رؤية آثار مختلفة قديمة، يوجد بعضها في الكنيسة التي يسهر النصارى على خدمتها». والأرجح أن البلد يفقد هؤلاء المسيحيين بعيد دخول الموحدين (١١٥٢). لكننا نحوز مؤشراً محيراً. فبعد وقت طويل من هذه الأحداث، في عام ١٥١٢، يعين البابا جولييان الثاني أسقفاً في قسنطينية. وصحيح أن هذا الأسقف لن يبقى في منصبه لعجزه عن العثور هناك على عدد كاف من المؤمنين^(٣٥). إلا أنه كان هناك أيضاً مسيحيون آخرون في زمن الإيالة العثمانية. وهؤلاء أوروبيون أسرهم الأخوان القراصنة (خير الدين وعروج) بارياروسا. إنهم، بلغة أيامنا، رهائن، كان أسرهم في البحر المتوسط يعد بفدية مريحة. وفي عصر القرصنة الجميل، يمكن للمرء أن يعد آلافاً من الأسرى

المسيحيين، ربما يصل عددهم إلى ٢٠٠٠٠ فى سجون مدينة الجزائر وإلى ١٠٠٠٠ فى سجون مدينة تونس نحو عام ١٦٥٠^(٣٦)، سوف يتحول بعضهم، وهم «مرتدون» فى نظر التاريخ المسيحى، إلى اعتناق الإسلام.

ويشهد استشهاد القديس مارسيلوس فى طنجة (٢٩٨) على إضفاء طابع مسيحى مبكر على موريتانيا التينجيتانية. ويذكر ابن خلدون أن إدريس الأول، أبا السلالة الحاكمة المؤسسة للمغرب الأقصى، كان قد قضى، منذ عام ٧٨٨، على اليهودية والمسيحية والسحرية فى سهول قاس وتادلا وشيلا. وبعد قرن من ذلك، فى ظل حفيده عمر بن إدريس الثانى، من المؤكد أن الكنيسة لا توجد بعد من حيث كونها مؤسسة منظمة، لكن المسيحية سوف تقيب فى جزء من السكان، يقوده بعض الكهنة العرضيين^(٣٧). وفيما بعد، نجد أن المرابطين، برغم كونهم أول من يتصدى للنهوض المسيحى فى أوروبا المسلمة، لن يزيلوا مع ذلك المسيحية البربرية بالكامل. ففى عام ١١٢٧، قبيل السقوط النهائى لسلالتهم الحاكمة، يظل يوسعنا رصد وجود المديدين من الجنود والتجار والعبيد المسيحيين^(٣٨). وسوف يتجه خلفاؤهم، الموحدون، إلى اختزالهم.

ليس دون مفارقات: ذلك أن الموحدين سوف يجندون أيضاً مرتزقة مسيحيين بموافقة البابا شخصياً. فالحق أن هذا الأخير لم يفقد الأمل حتى فى تحويل السلطان نفسه إلى اعتناق المسيحية، إذا ما صدقنا ما تقوله الرسائل التى وجهها إليه^(٣٩) وأياً كان الأمر، فإن الأساقفة الفرنسييسكان والديمينيكان سوف يفادرون المغرب الأقصى فى عام ١٢٣٧ للإقامة فى أسبانيا. واعتباراً من القرن الرابع عشر، لن نجد بعد مسيحيين محليين خارج طنجة وسبتة. فالوجود المسيحى الوحيد يتمثل، منذ ذلك الحين، فى الأسرى أو السفراء الأوروبيين. وسوف يكون لبعضهم أحفاد هناك. ففى أواخر القرن الخامس عشر، فى الرباط، نسمع فى أيام الأحاد دقات أجراس كنيسة سان فرانسوا وهى تدق لحرس السلطان المؤلف من أحفاد مسيحيين لمرتزقة قداماء^(٤٠).

وعند عودة الفرنسييسكان فى عهد مولاي إسماعيل (١٦٧٢ - ١٧٢٧)، يمسون بقرراً لتقيد وفيات الأسرى فى المغرب الأقصى. وعدد هؤلاء الموتى ١٠٧٠ بين عامى ١٦٨٤ و١٦٩٣، وهو ما يوحى بجماعة يصل عددها إلى نحو ٤٠٠٠ شخص. وفى الأيام السعيدة للعلاقات مع أوروبا، تستطيع الجماعة المسيحية أيضاً استعادة عدد هام نسبياً. وهكذا فقد كانت قوية بما يكفى لإنشاء دير سانت كاترين فى عام ١٥١٧، فى أسفى.

ومن ثم فإن المسيحية البربرية تأخذ أكثر من خمسة قرون حتى تتلاشى من أفريقيا

الشمالية المسلمة. وسوف يكون التقسيم التدريجى للمغرب إلى ثلاث دول والمواجهة الضخمة مع الجماعة المسيحية فى أوروبا الرسمين الحقيقيين لها.

بقاء اليهودية

خلافًا للمسيحيين، ان يختفى اليهود البتة. وإذا كانوا أقلية هزيلة فى ظل بيزنطة (١ إلى ٢٪)، فإنهم سوف يظلون كذلك، بلا زيادة وبلا نقصان، فى ظل الإسلام. وفيما عدا بعض حالات التحول الجماعى إلى اعتناق الإسلام، كحالة جراويّة الأوراس فى عام ٦٩٣، والنموذجية لأنها تسجل هزيمة الكاهنة، ستحتفظ القبائل اليهودية - البربرية بديانتها. ويرسم لها ابن خلدون قائمة دقيقة، وإن لم تكن شاملة: «بعض هؤلاء البربر دانوا بدين اليهودية أخوه عن بنى إسرائيل (...) كما كان جراويّة أهل جبل أوراس (...) وكما كانت نفوسة من برابر إفريقية وفندلاوة ومديونة وبهلولة وغيانة وبنو فازاز من برابرة المغرب الأقصى»^(١).

وتجتاز اليهودية بلا متاعب تقريباً خمسة قرون من الأسلمة. وقد عرفت فى المغرب الأقصى أزمنة سعيدة فى ظل الأدارسة (٧٨٩ - ٩٧٤) حتى مستهل عهد المرابطين. وإذا تنقاسم مرة أخيرة مصير الجماعة المسيحية، تشهد من ثم تدهور وضعها مؤقتاً فى ظل تطهيرية الموحدين. وفى عام ١٢٣٢، بسبب باعث، عبثى بلا مراء، نسيته الحوليات، جرى نبيح يهود فى مراكش^(٢). لكن المرينيين (١٢٤٨ - ١٤٦٥)، الذين وصلوا إلى السلطة بعد سقوط الإسلام فى قرطبة (١٢٣٦)، سوف يعيدون مناحاً مؤقتاً لليهود. فالسلطين الجدد، الذين حاولوا وقف إعادة الفتح (الأسبانى) فى أسبانيا، واليهود، الذين جربوا فيه الملاحقات، سرعان ما سوف يتقاربون فى كره المسيحية الظافرة.

وتحت ضغط رعب المذابح، سوف يبدأ اليهود فى الهرب من قشتالة منذ النصف الثانى للقرن الرابع عشر ومن الأندلس عند سقوط غرناطة (١٤٩٢). وسيشمل ذلك من تحولوا عن دينهم، والذين كان تحولهم الجديد تماماً إلى المسيحية قد أثار الشبهات. وسوف يجدون الملاذ فى بلاد الإسلام خاصة، فى اسطنبول وفى فلسطين وفى أفريقيا الشمالية. وكان الأسبان، قبل ذلك بوقت قليل، قد دمروا تطوان (١٤٠١) بينما استولى البرتغاليون على سبتة (١٤١٥) قبل أن يستولوا على طنجة (١٤٧١). وفى البحر المتوسط الذى تمزق، أقام اليهود السيفارديون ربحاً طويلاً من الزمن على ضفاف الإسلام. وقد وصل الأمر بسلطان قاس، عبد الحق، إلى

حد تعيين يهودى، هو هارون بن بطاس، رئيساً للوزراء. وكان هذا السلطان هو آخر المرينيين: فالاغتيال المزدوج للسلطان وأوزيره يرمز إلى انتهاء السلالة الحاكمة.

ويبقى الوفاق نون صدع يذكر حتى منتصف القرن العشرين. ومن علامات الاندماج أن اليهود قد تبنا لغة القرآن بنسبة أعلى من نسبة المسلمين أنفسهم. ففي عام ١٩٦٠، قبل نزوح طائفتهم مباشرة، كانت اللغة العربية هي اللغة الأم بالنسبة لـ ٨٨٪ من المغاربة اليهود، لكنها لم تكن اللغة الأم إلا بالنسبة لـ ٦٤٪ فقط من المسلمين. أما البربر الذين لا يعرفون "دية قلم يكونوا يمثلون غير نسبة ٠.٣٪ من اليهود، في مقابل ١٩.٠٪ من المسلمين^(٤٢). وفي الجزائر وفي تونس، بل وفي ليبيا، حيث كان بربر جبل نفوسة مايزالون مهودين عند الفتح العربى، سوف تبقى أيضاً أقليات يهودية حتى النصف الثانى من القرن العشرين.

ومن المؤكد أن الطائفة اليهودية، التى تعودت منذ روما وبيزنطة على وضع الأقلية الصعب، قد استمدت من داخلها الموارد المعنوية والمعارف الفنية التى سوف تسمح لها بالحياة زمناً طويلاً كهذا فى ظل سلطة الإسلام. وعلى أية حال، فقد كان السياق الدولى مؤاتياً لها بشكل عجيب. فخلافاً للمسيحيين، لن تتذرع أية قوة خارجية مهددة للإسلام بدينها. على الضد من ذلك تماماً، فاليهود، شأنهم فى ذلك شأن المسلمين، سوف يتعين عليهم مواجهة عدم تسامح الملكين الكاثوليكيين: ففي اليوم الذى يسقط فيه فى غرناطة الحصن الأخير للمقاومة الإسلامية، سوف يجرى طرد اليهود من أسبانيا أو إكراههم على نيز دينهم حتى يتسنى لهم البقاء فيها مؤقتاً، على أن يصبحوا «مارين». ونحن نعرف أن طمانينتهم النسبية فى المغرب سوف تستمر إلى اللحظة التى تتصادم فيها نزعة قومية يهودية مع نزعة قومية أخرى، عربية أو إسلامية. وكانت مراسيم كريميو، بمنحها يهود الجزائر مواطنة الفاتح الفرنسى (١٨٧٠)، قد دقت بالفعل الإسفين الأول بين طائفتهم والسكان المسلمين. وربما برغم أنفسهم سوف يبدئون شركاء للكولون حتى فى النزوح.

ثم تنحبك الدراما الفلسطينية مع مولد إسرائيل التى سوف يصيح شجبها أحد نقاط الاتفاق النادرة، والوحيدة بلا مرأى، بين النزعات القومية العربية. ومع فاصل زمنى من ألف سنة، فإن عين السبب الذى اختزل الجماعة المسيحية ببطء يجر اليهود إلى المفضى النقط: الوفاق، الفعلى أو المفترض، مع العدو بحكم تقاسم الهوية الطائفية معه.

حواشي الفصل الثاني

- 1- Charles Allemand Lavigerie, archevêque d'Alger (1825 - 1892).
- 2 - 1,9 million selon Josiah Cox RUSSELL, *Late Ancient and Medieval Population*, Transactions of the American Philosophical Society, vol. 48 / III, 1958. Estimation "bien faible" pour Marcel REINHARD, andré ARMENGAUD et Jacques DUPAQUIER, *Histoire générale de la population mondiale*, Paris, Montchrestien, 1968.
- 3 - Charles COURTOIS, *Les Vandales et l'Afrique*, cité par Abdallah LARAOUI, *L'Histoire du Maghreb, un essai de synthèse*, Paris, Maspero, 1982.
- 4 - Du nom de Donat, évêque dissident de Carthage (313-355).
- 5 - Abdallah LARAOUI, *L'Histoire du Maghreb...*, op. cit.
- 6 - Emile- Félix GAUTIER, *L'Islamisation de l'Afrique du Nord. Les siècles obscurs du Maghreb*, Payot, Paris, 1927.
- 7 - G. DRAGUE, *Esquisse d'histoire religieuse du Maroc. Confréries et Zaouïas*, Cahiers de l'Afrique et de l'Asie, n°2, Peyronnet, Paris, 1951.
- 8 - IBN KHALDUN, *Histoire des Berbères...*, op. cit.
- 9 - 1% de la population selon S. D. GOISTEIN, "Jewish Society and Institutions under Islam", *Journal of World History*, vol. XI, 1968.
- 10 - Haïm ZAFRANI, *Mille ans de vie juive au Maroc (Histoire, Culture, religion et Magie)*, Maisonneuve et Larose, Paris, 1983.
- 11 - Al- Bayân, *Histoire de l'Afrique et de l'Espagne* (compilation datant de la fin du XIII^e siècle), trad. E. Fagnan, Alger, 1901.
- 12 - Abdallah LARAOUI, *L'Histoire du Maghreb...*, op. cit.
- 13 - Nehemia LEVTZION, "Toward a Comparative Study of Islamization", in Nehemia LEVTZION (ed.), *Conversion to Islam*, Holmes and Meier Publishers, New York, 1979.
- 14 - Mohammed ARKOUN apporte à formule un nuance nécessaire, en rappelant l'indépendance que les oulémas préservèrent, aux premiers temps, vis - à-vis du pouvoir, en particulier sous le califat abbasside, qui connut une véritable sécularisation de la pensée: "Dîn, Dawla, Duniyâ", *L'Islam, morale et politique*, UNESCO, Paris, 1986.
- 15 - IBN KHALDUN, *Al- Muqaddima*, trad. Georges-Henri BOUSQUET, *Les Textes sociologiques de la Muqaddima*, Marcel Rivière & Cie, Paris 1965.
- 16 - IBN KHALDUN, *Histoire des Berbères...*, op. cit.
- 17 - C'est ce que semble faire M. SHABAN: "Les mouvements de conversion les plus spectaculaires se produisirent en Afrique du Nord. De nombreux Berbères furent convertis et 12000 d'entre eux furent recrutés dans l'armée

arabe", "Conversion to Early Islam", in Nehemia LEVTZION, *Conversion to Islam...*, *op. cit.*

18 - Emile- Félix GAUTIER, *L'Islamisation...*, *op. cit.*

19 - Sur le Kharijisme, qui ne survit plus de nos jours qu'en Afrique du Nord dans le Mzab et à Djerba, ainsi qu'à Oman et à Zanzibar, voir par exemple Henri LAOUSI, *Les Schismes dans l'islam*, Paris, Payot, 1965.

20 - Fondateur de la dynastie omeyyede.

21 - Abdallah LARAOUI, *L'Histoire du Maghreb...*, *op. cit.*

22 - Emile- Félix GAUTIER, *L'Islamisation...*, *op. cit.* Fernand BRAUDEL reprend à son compte cette idée d'un atavisme oublié, *La Méditerranée*, Garnier- Flammarion, Paris, 1986.

23 - IBN KHALDUN, *Histoire des Berbères...*, *op. cit.*

24 - Emile - Félix GAUTIER, *L'Islamisation...*, *op. cit.*

25 - Bernard LEWIS, *Juifs en terre d'Islam*, Calmann- Lévy, Paris, 1986.

26 - Sur le statut légal des *dhimmi* et la question des intermariages, voir par exemple art. "Nasârâ", *Encyclopédie de l'Islam*, Brill, Leiden, 1928.

27 - IBN KHALDUN, *Histoire des Beberes...*, *op. cit.*

28 - Emile- Félix GAUTIER, *L'Islamisation...*, *op. cit.*

29 - *Ibid.*

30- Art. "Ibrya", "Tunisia", "Algéria", "Morocco", *The Catholic Encyclopedia*, McGraw-Hill, New York, 1967.

31 - Henry KOEHLER, *L'Eglise chrétienne du Maroc et la mission Franciscaine*, Paris, 1934.

32 - *The Catholic Encyclopedia*, McGraw- Hill, New York, 1967.

33 - Bernard LEWIS, *Juifs en terre d'Islam*, *op. cit.*

34 - Henry KOEHLER, *L'Eglise chrétienne...*, *op. cit.*

35 - *The Catholic...*, *op. cit.*

36 - André RAYMOND, *Grandes Villes arabes à l'époque ottomane*, Paris, Sindbad, 1985.

37 - Henry KOEHLER, *L'Hglise chrétienne...*, *op. cit.*

38 - *The Catholic...*, *op. cit.*

39 - Henry KOEHLER, *L'Eglise chrétienne...*, *op. cit.*

40 - R. BRUNSCHVIG, *La Berbérie orientale sous les Hafsides des origines à la fin du xv^e siècle*, Paris, 1940.

41 - IBN KHALDUN, *Histoire des Berbères...*, *op. cit.*, p. 209.

42- Art. "Morocco", *Encyclopedia Judaica*, Keter Publishing House, Jérusalem, 1971.

43 - Direction de la statistique, *Recensement de la population de 1960*, Rabat, 1965, seul recensement à fournir le croisement religion- langue maternelle.

تعليقات الفصل الثاني

- ١ - شارل المان لافيچيرى، أسقف مدينة الجزائر (١٨٢٥ - ١٨٩٢).
- ٢ - ١٩ مليون وفقاً لجوسيا كوكس رسل. وهو «تقدير ضعيف» وفقاً لمارسيل راينهارد وأندريه أرمينجور وچاك دوباكييه.
- ٤ - من اسم دونات، أسقف قرطاج المنشق (٣١٣ - ٣٥٥).
- ٩ - ١٪ من السكان وفقاً لـ س. د. جواشتاين.
- ١٤ - يدخل محمد أركون على الصيغة تعديلاً ضرورياً، بإشارته إلى الاستقلال الذى احتفظ به العلماء فى الأزمنة الأولى، تجاه السلطة، خاصة فى ظل الخلافة العباسية التى عرفت علمنة حقيقية للفكر .
- ١٧ - هذا هو ما يبدو أن م. شعبان يفعله :
- «إن حركات التحول إلى اعتناق الإسلام الأكثر إثارة قد حدثت فى أفريقيا الشمالية. إن عديدين من البربر قد تحولوا إلى اعتناق الإسلام وقد تم تجنيد ١٢٠٠٠ منهم فى الجيش العربى» .
- ٢٠ - مؤسس السلالة الحاكمة الأموية .

الفصل الثالث

جماعتان مسيحيتان وجهاً لوجه

فى زمن الحروب الصليبية

«كان قد مر زمن طويل على افتراق هاتين الشقيقتين،
هتين النصقين من البشرية، أوروبا وآسيا، الديانة
المسيحية والديانة الإسلامية، عندما التقتا من جديد عبر
الحروب الصليبية وتواجهتا. كانت النظرة الأولى نظرة
رعب.»

جول ميشليه، تاريخ فرنسا، ١٨٧٦.

«فى الأزمنة المعاصرة، يجد الإسرائيليون فى الصليبيين
أسلافاً لمشروعهم القومى؛ بينما يجد العرب، فى نضال
أسلافهم من أجل استرداد البلد، تشجيعاً لعزيمتهم
المناوئة للصهيونية.»

كلود كاهن، الشرق والغرب فى زمن الحروب الصليبية،
١٩٨٣.

مع منعطف الألف عام الثانية يبدأ فى الترسيب بحر متوسط ثانى، مسيحى فى الشمال
وإسلامى فى الجنوب. وتبدو وحدة البحر الرومانى ضائعة تماماً. أما المشروع الرامى إلى
استعادتها ثانية تحت راية الإسلام فهو يبدى بالفعل علامات لهاث للأنفاس: إذ سرعان ما
يتراجع العرب فى الأندلس وفى صقلية، بينما يواصل الأتراك الهجوم على بيزنطة. وسوف

ينطلق مشروع مضاد من أوروبا مع الاقتحام الصليبي للأرض المقدسة. وفي نهاية الأمر، سوف يكون الفشل مصير الغزوين، الإسلامى فى الشمال والمسيحى فى الجنوب، ربما بسبب ضعف مشترك بين الغزاة - رفضهم المزيج اللغة ولديانة السكان الخاضعين لهم - بينما كانوا هم أنفسهم فى وضع بونية عديدة. ألن يترنح المشروع الثالث، الحلم الاستعماري الفرنسي فى القرن التاسع عشر، على صخرة عقبات مماثلة، من جديد؟

مشكل دول مسيحية

أدرك أوربان الثانى، بابا الحملة الصليبية الأولى، أشكال الاعتماد السياسى المتبادلة التى ارتسمت فى البحر المتوسط ورأى أن سلطة الكنيسة، فى أوروبا نفسها، سوف تخرج معززة من نفوذ مستعاد فى الشرق. وتسقط القدس فى عام ١٠٩٩. ويدرك الصليبيون أنه، لأجل الاحتفاظ إلى الأبد بالمدينة المقدسة، لابد من إحاطتها بدولة مسيحية، عسكرية وقوية، على أرض فلسطين. وأهلية هذه الدولة اللاتينية، القادرة على رد الإسلام، تستند على جماعة سكانية مسيحية قوية. ومن ثم فإن تعزيز الجماعة المسيحية المحلية هو الفكرة المهيمنة الأولى للحملة الصليبية التى جرت الدعوة إليها قبل أربع سنوات من الاستيلاء على القدس (١). وقد أعلنها أوربان الثانى بأعلى صوته: «إن من الملح لكم المسارعة بتقديم العون الذى طالما جرى الوعد بتقديمه إلى إخوانكم فى الشرق والذى يمثل ضرورة جد ملحة. لقد هاجمهم الأتراك والعرب (...) وعبر تغفلهم أكثر فأكثر فى بلد هؤلاء المسيحيين، غلبهم سبع مرات فى ساحة القتال، وقتلوا وأسروا منهم عدداً كبيراً، وهدموا الكنائس وخرّبوا المملكة (٢)».

لكن استعمار الأرض المقدسة بسكان قادمين من أوروبا سوف يكون أكثر كفاءة وأكثر استمرارية بكثير من الاعتماد على مسيحيى الشرق. وكان الانفجار الديموغرافى الذى شهده العام الألف قد خلق فى أوروبا اندفاعاً مؤقتاً للتوسع الإقليمى. وكانت نبالة لا مستقبل لها تبحث عن قضية جديدة وعن آفاق أوسع. ولحفزها على النزوح، لا يكتفى البابا بأن يعدها بـ «النعيم الأبدى». فهو يتحدث عن «نعيم الشرق» قياساً إلى «فقر العالم الغربى» (٣).

ويزحف الصليبيون على الشرق بأفكار بسيطة كانت منطلقاتها باطلة. فهم يتخيلون جماعة مسيحية تترج تحت نير الاستبداد، وتشترك فى المحنة وتترقب الخلاص على يد روما. أما واقع الأمر فهو يتمثل فى أن المسلمين، فى ذلك الزمن، كانوا يشكلون أغلبية طفيفة (٤) فى

سوريا وفي فلسطين، لكنهم كانوا يحيون في مناخ تعايش يصعب تصوره في أوروبا. وعلى مدار القرون الأربعة للتحويل إلى اعتناق الإسلام، كانت الحياة الاجتماعية والإدارية والفكرية تنتشر تدريجياً اللغة العربية والمناخ الإسلامى. وقد تم ذلك دون تمزيق لوضع غير المتحولين إلى اعتناق الإسلام ودون انحطاط مشين له^(٥).

إن مسيحي الشرق، الذين كانوا ساعتها عرباً^(٦)، لا يشكلون كتلة متجانسة. فعاداتهم ومعتقداتهم وشعائهم تتباين بعضها عن البعض الآخر. فالقداست اليونانية الأرثوذكسية - تؤدى باللغة اليونانية والقداست يعقوبية تؤدى بالسريانية؛ وأتباع كل من الكنيستين يتكلمون كلهم بالعربية، على الرغم مما بينهم من تنافسات. والواقع أن المسيحيين، أكانوا منشقين كالجريك الأرثوذكس أم هراطقة كاليعاقبة والأرمن^(٧)، سوف يحافظون على خصوصيتهم خلال الحروب الصليبية، فيما عدا موارنة لبنان^(٨). فهؤلاء، وعددهم الإجمالى نحو أربعين ألفاً، سوف يتخلون عن عقيدتهم القائلة بوحدة مشيئة المسيح^(٩) ويشايعون روما فى عام ١١٨٢. لكن عون هذا الشعب الشهير برماته يجيء فى وقت جد متأخر بالنسبة للصليبيين: فسادة القدس يتغيرون بعد خمس سنوات من ذلك. ونحن لا نعرف على وجه الدقة وزن هذا العون، وعدد الموارنة الضعيف، الذى يتعارض مع صعودهم الخاطف فى القرون التالية، إنما يفسر التحفظ البالغ من جانب كتاب حوليات الحروب الصليبية تجاههم. لقد كانت الكنيسة اليونانية الأرثوذكسية، المرتبطة بالقسطنطينية، والكنيسة يعقوبية، تضمّان غالبية المؤمنين (المسيحيين)، الذين تضاف إليهم بضع طوائف، أرمنية أو نسطورية أو قبطية. وأخيراً فقد كان اليهود يحيون فى تعايش مع الديانتين الآخرين فى المدن وأحياناً فى الأرياف، فى الجليل أو طبرية أو صفد.

وتؤدى الحملة الصليبية الأولى إلى تغيير تركيب السكان المحليين. ففي القدس كما فى مدن الساحل، نجد أن المسلمين واليهود، المتحدين آنذاك، يقاتلون كتفاً لكتف ضد الصليبيين، الذين سوف يذبحونهم^(١٠). وإن ينجو أحد من سكان بيروت من ذلك، وفى عام ١١١٠، يفرج سكان صيدا المسلمون - خمسة آلاف نسمة - إلى مصر وسوريا الواقعتين تحت السيطرة الإسلامية، على الرغم من أنه لن يسمح لهم بالبقاء إلا لقاء ضريبة. لقد تغير معسكر الجزية! أما فيما يتعلق باليهود، فإن الناجين النادرين سوف يباعون كعبيد. وفى الأرياف، لم يكن هناك مجال لمذابح مماثلة. فسمعة الصليبيين كانت قد سبقتهم إلى هناك، مما دفع طوابير من الفلاحين المسلمين إلى الهرب. وغداة الحملة الصليبية الأولى، بدا أن الجماعة المسيحية الغربية

قد حققت هدفها الأول: فمن خلال وقع أوانٍ غير مستطرفة، تجد نفسها وحيدة مع مسيحيين محليين فى مجال هجره الإسلام إلى حد بعيد. وسرعان ما يحل محل العملية العسكرية استيطان طويل الأمد. لكن ذلك الاستيطان يحتاج إلى دعائم اقتصادية لا يستطيع السكان المسيحيون توفيرها بمفردهم.

وفى ظل المسلمين، لم يكن وضع المسيحيين المحليين سيئاً إلى درجة حفز تدخل مسلح هباً لنجدتهم. ففاطميو مصر، الذين كانوا يحكمون آنذاك القدس، قد حافظوا على «أحد أوسع أشكال التسامح التى عرفها آنذاك أى مجتمع»^(١١). ولذا فإن المسيحيين المحليين سوف يبتعدون بحكمة خلال العمليات العسكرية^(١٢). لكن تعاونهم، الديبلوماسى على وجه الحصر، يكفى مع ذلك لإثارة ظنون الحكام المسلمين. والواقع أن مسيحيى المركز الصغير القريب من بيت لحم كانوا قد أرسلوا وفداً إلى الصليبيين، قبل الهجوم على القدس. وقد دفعت هذه المبادرة القائد الفاطمى للموقع إلى الأمر، كإجراء وقائى، بمصادرة ممتلكات المسيحيين ويطردهم إلى القرى المجاورة.

ولما كان الصليبيون مجهزين بجهاز تجسس بالغ الكفاءة، فقد لجأوا أحياناً إلى الاستعانة بخدمات مسيحيين محليين بل بخدمات مسلمين علاوة على ذلك. على أنهم سوف يخلطون بين عدد معين من المسيحيين الشرقيين وبين المسلمين وسوف يذبحونهم: وهو ما يشكل أخذاً بالسحنة، بتعبير أيامنا. ويذكر شاهد: «لقد قتل الصليبيون عدة سوريين ملتحين على ديانة اليونان (منتتمين إلى الكنيسة الأرثوذكسية اليونانية) وبسبب لحياتهم قتلوهم على أنهم ساراسينيون (مسلمين)»^(١٣). وفيما عدا بضع حالات معزولة، لم يكن هناك البتة تورط مؤكد. والواقع أن هذا الانعدام للاهتمام من جانب مسيحيى الشرق تجاه اللاتين إنما يكشف عن قطيعة، روحية بالتأكيد، لكنها أيضاً مادية: فالتبادلات التجارية بين ضفتى البحر المتوسط كانت قد نوت منذ زمن طويل. وكان التجار المشاركة قد تخلوا تدريجياً عن شركائهم فى الغرب لكى يتعاملوا مع شركاء آخرين، فى الهند وفى الشرق الأقصى^(١٤). وكان الحج إلى الأماكن المقدسة (المسيحية) وحده هو الذى يبقى على شىء من الاتصال بين الجماعتين المسيحيتين.

وينمو الثقل السكانى للمسيحيين العرب بصورة مؤقتة فى الممالك اللاتينية. على أن الحظ لن يبتسم لهم. «فى سوريا، يصادف الصليبيون أيضاً مسيحيين، لكنهم مسيحيون ينتمون إلى كنائس «هرطوقية»، ويتحدثون باللغة التى يتحدث بها المسلمون، ولا تراود

(الصليبيّين) فكرة معاملتهم بشكل أفضل من تعاملهم مع المسلمين^(١٥). فلاعترافات دينية واقتصادية على حد سواء، لم تكن لدى الصليبيين أية نية فى منحهم وضعية قانونية مساوية لوضعية الفرنجة، ولا حتى وضعية أعلى من وضعية المسلمين المحليين.

وسرعان ما يثبتون ذلك بإقامتهم لحاجز فاصل بين الفرنجة الفاتحين من جهة والمغلوبين غير الفرنجة من جهة أخرى. وتؤدى اختصاصات قضائية متميزة إلى تأسيس اللامساواة بين المسيحيين نوى الأصل الأفرنجى والمسيحيين نوى الأصل العربى. كما أن اليهود الذين سوف يستقرون فى فلسطين منذ القرن الثانى عشر يحصلون على اختصاص قضائى مستقل. أما فيما يتعلق بالمسلمين، فلن يكون لهم أى اختصاص قضائى - وذلك بسبب ضعف عددهم فى المدن الأفرنجية وليس نتيجة لتفرقة محددة. وفى القرن الثانى عشر، عندما يصبح حضورهم هاماً من جديد، يستفيدون بدورهم من قضاة ينتمون إلى ملتهم. وفى الأرياف، يجرى إنزال الفلاحين المحليين المسلمين أو المسيحيين على حد سواء إلى مرتبة الحقراء؛ فهم يكابدون العبوديات المقتنة، كالارتباط بالأرض أو السخرة أو دفع ضريبة (إقطاعية). أما فى المدن، فإن المسيحيين يتمتعون على الضد من ذلك بوضعية الأحرار، شأنهم فى ذلك شأن المسلمين واليهود القلائل الذين عانوا، ويلزمون بإداء ضريبة الرأس. ولا ينجو من أداء هذه الضريبة سوى الفرنجة.

ويمثل أسوأ إذلال لرجال الدين المنتمين إلى الكنيسة الأرثوذكسية اليونانية فى خسارتهم كنيسة قبر السيد المسيح فى القدس، التى يستولى عليها رجال الدين اللاتين. لكن كنائس الشرق لن تختزل كلها إلى المصير نفسه. وشأنهم فى ذلك شأن سابقهم العرب، سوف يرتاب الصليبيون أساساً فى الكنائس التى تجد دعماً خارجياً. والهرطقة اليقويية القائلة بوحادية طبيعة المسيح أقل إزعاجاً من الانشقاق الأرثوذكسى.

والواقع أن الفرنجة، الذين كانوا فى البداية سافرى العداء للسكان المسلمين، سوف يبدون أكثر تسامحاً مع مر الأجيال، حين تتعزز النول اللاتينية الشرقية فى الجنوب: مملكة القدس (١٠٩٩ - ١١٨٧) وكونتية طرابلس (١٠٩٨ - ١٢٨٩)، وفى الشمال: إمارة أنطاكية (١٠٩٨ - ١٢٦٨) وكونتية إيديس (١٠٩٨ - ١١٤٤)، وفى فلكها مملكة أرمينيا وقيليقيا (١٠٩٨ - ١٢٧٥). وشيئاً فشيئاً، سوف يرجع المسلمون واليهود إلى المدن التى يهيمن عليها الفرنجة. فقد حل «المُهرُ»، الفرنجة المولودون فى تلك المدن، محل الفاتحين الأوائل. والواقع أن ضعف عددهم، وهزال تدفقات المهاجرين الغربيين وانعدام الثقة الذى طبع علاقاتهم مع

المسيحيين الشرقيين، الذين يشكون من «عنف الفرنجة وطابعهم الخبيث» (١٦)، سوف تفرض التعايش مع الفلاحين المسلمين. وبعد الاستيلاء على صيدا في عام ١١١٠، سوف يراعى الصليبيون سكاناً محليين أصبح لا غنى عنهم لتأمين إمكانات العيش للغالبين، أى لتمكينهم من البقاء في الأرض المقدسة. وتنتهى المذابح وأعمال النهب التى ميزت أعقاب الحملة الصليبية الأولى.

لكن العنف الحربى يخلى مكانه عندئذ للعنف الاجتماعى. فالسكان المسلمون يمكنهم البقاء، إلا أنهم يجرى إنزالهم إلى أدنى درجات السلم (الاجتماعى). فالنظام العقارى يتعرض لانقلاب وملكية الأرض تنتقل من أيدي المسلمين إلى أيدي الفرنجة. وتتشكل سيادات أو عزب إقطاعية أفرنجية عادية فى أعقاب نزوح سادة الأرض السابقين، إلى مصر أو إلى سوريا. والواقع أن قوانين مملكة القدس تكفل لكل فارس حق امتلاك الأرض التى يتسنى له فتحها. ويشكل ذلك استباقاً، قبل ثمانية قرون، للقانون الخاص بممتلكات الغائبين الذى سوف تصدره إسرائيل فى عام ١٩٥٠.

فى السنوات الأولى للدول الصليبية، يسوى وضع المسلمين بالحضيض، لكنه يتحسن على مشارف انتهاء الحملات الصليبية. وتتكيف الأجيال الأخيرة من الفرنجة تكيفاً أفضل مع روح المكان: «ها نحن الغريبيون قد تحولنا إلى سكان للشرق. فمن كان إيطالياً أو فرنسياً بالأمس يصبح، بعد نزعه من تربته وغرسه فى تربة جديدة، جليلاً أو فلسطينياً. والقادم من رانس أو من شارتر يتحول إلى سورى أو إلى مواطن من مواطنى أنطاكية. لقد نسينا بالفعل المكان الذى جئنا منه» (١٧) وامتثالاً للامبالاة الغرب المتعاطمة، يبدو أن هؤلاء الفرنجة الأواخر يتنازلون للفلاحين المحليين بشكل أسهل عن ملكية الأرض. لنستمع إلى الرحالة الأندلسى ابن جبير:

«رحلنا من تبنين دمرها الله سحر يوم الاثنين وطريقنا كله على ضياع متصلة وعمائر منتظمة سكانها كلها مسلمون وهم مع الإفرنج على حالة ترفيه نعوذ بالله من الفتنة وذلك أنهم يؤمنون لهم نصف الفلة عند أوان ضمها وجزية على كل رأس دينار وخمسة قواريط ولا يعترضونهم فى غير ذلك ولهم على ثمر الشجر ضريبة خفيفة يؤدونها أيضاً ومساكنهم بأيديهم وجميع أحوالهم متروكة لهم وكل ما بأيدي الإفرنج من المدن بساحل الشام على هذه السبيل رسايتها كلها للمسلمين وهى القرى والضياع وقد أشربت الفتنة قلوب أكثرهم لما يبصرون عليه إخوانهم من أهل رسايتك المسلمين وعمالهم لأنهم على ضد أحوالهم من الترفيه والرفق

وهذه من الفجائع الطارئة على المسلمين أن يشتكى الصنف الإسلامى جور صنفه المالك له ويحمد سيرة ضده وعدوه المالك له من الإفرنج ويأئس بعده»^(١٨).

وكثيراً ما جرى الاستشهاد بهذا النص خارج سياقه لتمجيد إدارة فرنسا الاستعمارية^(١٩). فمن الشرق الصليبي إلى أفريقيا الشمالية الفرنسية، سوف تكون إدارة قادمة من الخارج محل ثناء أكثر من مرة، حتى من جانب السكان الأصليين.

الاستيطان الأوروبي المستحيل فى الأرض المقدسة

لن يتمكن الاستيطان الأفرنجى أبداً من التغلب على العقبتين اللتين سوف تقضيان عليه: فهو لا يجتذب غير عدد قليل من الأوروبيين ولا يتمكن من ترسيخ جنوده. والواقع أن عدد المهاجرين الصغير وفقر همتهم فى التقارب مع المسيحيين الشرقيين سوف يحكمان عليهم بالذبول، بقدر ما أنهم يحرمون أنفسهم من العون الذى كان يمكن للمسلمين تقديمه عن طريق التحول (إلى اعتناق المسيحية).

وصحيح أن الصليبيين سوف يصلون إلى دولة كانت قد انتقلت إلى (دار) الإسلام قبل خمسة قرون. لكن الدين (الإسلامى) نفسه لم يكن قد تغلغل فى الأسر إلا منذ وقت أقصر من ذلك بكثير. وما أكثر عدد المسلمين الأحقاد لأجداد متحولين (إلى اعتناق الإسلام) منذ أجيال قليلة فقط^(٢٠). على أن الفرنجة سوف يتصرفون كما لو أنهم يجهلون ماضى المسيحية الطويل هذا، الذى ما يزال حياً فى الأذهان. فرجال الدين اللاتين يحاولون عملياً نون التحول (إلى اعتناق المسيحية) بسبب صنوف الإذلال التى يربطونها به. فالمتحول (إلى اعتناق المسيحية) يتوجب عليه قبول البقاء فى العبودية أو الاندراج فى صفوف سلاح التركوبول، سلاح فرسان الفرنجة الخفيف، كجندى إضافى^(٢١). وهذا الموقف يتعارض بشكل أساسى مع برامجاتية الإسلام، الذى جعل من التحول (إلى اعتناق الإسلام) وسيلة للصعود الاجتماعى وللترويج غير العادى لذلك الدين.

ومن جديد سوف يحث الصليبيون سكان أوروبا على الهجرة، المخرج الوحيد لتوطيد وجودهم فى الأرض المقدسة. وفى عام ١١١٠، بعد سنوات قليلة من اقتحامهم الشرق، لن يحشد الفرنجة فى الواقع غير عشرة آلاف فرد، يتألفون من ٢٠٠ فارس و ١٢٠٠ من جنود المشاة وعائلاتهم. وكان هذا العدد غير كاف بشكل صارخ فى مواجهة مسلمى المنطقة

المفتوحة، وبشكل أكبر فداحة فى مواجهة جماهير المسلمين الفقيرة فى سوريا (٢٢ مليون نسمة فى المنطقة الباقية تحت السيطرة الإسلامية)، أو فى مصر (٢٥ مليون) أو فى الأناضول (٤ مليون)، المنقسمة فى الألوان المناسب إلى دول يدب بينها العداء فى تلك الأزمنة الأولى للحملة الصليبية.

وسوف تسمح ثلاثة أو أربعة أجيال للسكان الفرنجة بالتزايد وبالوصول إلى قرابة ١٢٠٠٠٠ نسمة قبل ضياع القدس فى عام ١١٨٧. لكنهم سوف يتوقعون عند هذا المستوى، والمحرك الرئيسى لهذا التزايد هو النزوح إلى الشرق الذى ساعد عليه النمو الديموغرافى فى أوروبا (٢٣)، خاصة النمو الديموغرافى للنبلاء، الذين جاء الصليبيون من صفوفهم. والواقع أن الممارسة، المتزايدة الانتشار، المتمثلة فى الإرضاع عن طريق مرضعات بالأجر، سوف تنشط الإنجاب فى صفوف عائلات النبلاء وتزيد عدد المرشحين لأن يكونوا فرساناً (٢٤). وقد وعدت الحملة الصليبية باتفاق رائعة للثراء كانت المنافسة المتزايدة بين أبناء الأسرة الواحدة قد زادت من صعوبة بلوغها فى الوطن. والحال أن النبلاء الصليبيين، المنحدرين فى أغلب الحالات من أصول متواضعة (٢٥)، يمكنهم الفوز فى الأرض المقدسة بسيادات وعزب لم يكن بوسعهم أن يحلموا بها أبداً فى الغرب. ومع مشاركتهم فى السلطة السياسية فى الشرق، فإنهم يكتسبون علاوة على ذلك امتياز جباية الضرائب.

ولا يتغذى السكان الفرنجة من الحملات العسكرية بقدر ما يتغنون من الهجرة المنتظمة التى تحفزها هذه الحملات. فبالآلاف يخرج الحجاج، بمفردهم أو مع عائلاتهم، إلى عرض البحر سعياً إلى المقامرة. وهؤلاء «الفرنجة»، القادمون من أوروبا الغربية والجنوبية والوسطى، بل من سكاندنيايا، يستقرون وينجبون. ومن بينهم، نجد أن القادمين من الشمال، الأقل دراية بأحوال الشرق والأقل استعداداً للتعايش السلمى، سوف يضيفون على الحملة الصليبية روحها الحقيقية (٢٥). ففى استعاضتهم عن عاداتهم كأجلاف ريفيين بعادات البورجوازيين، سرعان ما سوف يؤلف هؤلاء المهاجرون غالبية السكان المستوطنين: فهم مائة ألف شخص يضافون إلى عشرين ألفاً من الذين تجرئ فى عروقتهم دماء النبلاء. ولا ننسى، فى هذه البانوراما للاستيطان الأفرنجى، قرابة الخمسمائة فارس المنتمين إلى الأخويات الرهبانية - العسكرية المنبثقة من الحملة الصليبية، أخوية فرسان هيكل الرب وأخوية فرسان الإكرام.

وفى الوقت نفسه تقريباً، وبشكل سييمترى يدعو للدهشة، فى أقصى غرب العالم الإسلامى يحمل رُهادُ - جنودُ السلاح للثود عن الإسلام المهدد فى الأرض المسيحية.

فالمرابطون يعبرون مضيق جبل طارق متجهين إلى الشمال، بينما يعبر «فرسان المسيح المساكين» مضيق الدردنيل متجهين إلى الجنوب. هكذا كانت تسمى في البداية أخوية فرسان هيكल الرب، التي أنشئت لأداء مهام الشرطة في فلسطين. وإذا يستولون على عزب شاسعة، من بينها العزبة التي تطل على حصن الأكراد المنيع، سرعان ما يكف فرسان هيكل الرب وفرسان الأكرام عن أن يكونوا «مساكين».

إن النمو الطبيعي للجماعات السكانية الأفرنجية والقوى في أوروبا يبدى علامات قصور في الأرض المقدسة. فالواقع أن معدل الوفيات المرتفع يصيب المحاربين القادمين من صفوف النبلاء كما يصيب الطبقات الأخرى، فكلها تصبح ضحية لعدم تكيفها مع المناخ. ومتوسط عمر الأفرنجي - ٢٩ سنة - أقل من متوسط عمر السكان المسلمين، الذي يصل إلى ٥٨ سنة (٢٦). ومعدل وفيات بهذا الارتفاع غالباً ما يقطع استمرارية الإدارة في السيادات والعزب، حيث يجرى بشكل متواتر استدعاء قاصرين ما يزالون تحت الوصاية للحلول محل أب مات قبل الأوان. وهو يصيب أيضاً التكاثر الديموغرافي، لأن كثيرين يموتون قبل إنجاب أطفال. وأخيراً، فإن هرم الأعمار، الذي يهيمن عليه الرجال لدى الفرنجة ولكن ليس لدى السكان المحليين، يزيد من تباينات معدلات الإنجاب. فالآباء ينجبون ١٧٥ طفلاً لدى الفرنجة، في مقابل ٢١٠ طفلاً لدى المسلمين (٢٧).

ولما كان الفرنجة مغمرين في بيئة مناوئة، أو محايدة في أحسن الأحوال، فإنهم يضطرون إلى تجميع قواهم الهزيلة في مناطق قليلة من الأرض (٢٨). وكما سوف يفعل ذلك المستوطنون الفرنسيون في الجزائر، فإنهم ينكفئون على أنفسهم. إن ثلاثة أرباع السكان الفرنجة في مملكة القدس يتجمعون في ثلاث مدن فقط: القدس (٢٠٠٠٠ نسمة)، وعكا (٤٠٠٠) وصور (٣٠٠٠). ويتفرق الربع الباقي في كثير من المدن الصغيرة والداكر والحصون. وفي الوسط الريفي، يظل الاستيطان الأفرنجي استثنائياً. على أن قرى أفرنجية نادرة - «انفراسات» بتعبير أيامنا - سوف تنشأ بعيداً عن القرى العربية. وسوف يتمتع الفلاحون الفرنجة فيها بوضعية بورجوازيين، خلافاً للعرب، المسلمين أو المسيحيين، الذين لم يكونوا غير فلاحين محتقرين (٢٩).

والواقع أن المحاولات التي يبذلها الفرنجة لتجاوز عتبة الـ ١٢٠٠٠٠ نسمة بالاغتراف من السكان الأوروبيين سوف تظل بلا طائل. إن أحداً لا يأتي بعد. ويصرخ كبار مملكة القدس بعد الاستيلاء على دمياط في عام ١٢١٩: «يا صاحب الجلالة، احرصوا على إرسال الرسل

إلى فرنسا وإلى إنجلترا وإلى ألمانيا وإلى كل جماعة مسيحية وعلى إعلان أنكم قد فزتم بهذه الأرض المفتوحة وعلى أن يرسل إليكم هذا المدد حتى يتسنى لكم استيطانها^(٣٠). إن نداءات الاستغاثة هذه الموجهة إلى مسيحيي الغرب من أجل تعزيز صفوف الصليبيين لن تثمر بما يكفي. فتيار الهجرة، الذي كان بالغ الأهمية حتى الحملة الصليبية الثانية (١١٤٨) بدرجة أدت إلى تعويض الخسائر العسكرية، بل إلى تحقيق زيادات، يأخذ في الضمور. وبدافع من إغراء الكسب أكثر مما بدافع من الروح الصليبية، سوف يفضل مهاجرو القرن الثالث عشر القسطنطينية أو قبرص أو البيلوبونيز، التي تنفتح على استيطان الفرنجة بعد الحملة الصليبية الرابعة وتأسيس إمبراطورية القسطنطينية اللاتينية (١٢٠٣).

فهل سيستسلم الفرنجة عندئذ، على مضض، لقبول عون جماعة مسيحية شرقية وللاستجابة لعرض ملك أرمينيا إرسال ثلاثين ألفاً من رعاياه إلى مملكة القدس «سعيًا إلى حماية البلد، واستعماره بمسيحيين، وضمان أمنه ودفع الساراسينيين إلى خارجه»^(٣١)؟ إنهم سوف يحرمون أنفسهم من ذلك العون، مادام ارتياهم في الجماعة المسيحية الشرقية كان حاداً إلى هذه الدرجة. ويذكر صليبي لا نعرف اسمه مؤكداً: «لقد طردنا الأتراك واللوثيين، لكننا لم نتمكن من طرد الهراطقة، اليونانيين والأرمن، السوريين واليعاقبة»^(٣٢). وسوف تؤدي نزاعات ملية إلى تأجيج نار العداوة بين فرعي المسيحية المتخاصمين. وعندما يصل الأمر بالفرنجة إلى مسائل المال، فإن القطيعة تصبح سافرة. ويحاول رجال الدين اللاتين، بحكم وضعهم المهيمن، فرض ضريبة العشر على الأرمن، الذين لا ينتنون كما هو واضح إلى الكنيسة الرومانية (الكاثوليكية). وإذا يتعرضون للرفض من جانب رجال الدين الجريجوريين^(٣٣)، فإنهم يسقطون من حسابهم عندئذ مشروع التوطين (الأرمني) هذا، الذي كان من شأنه إضفاء حيوية جديدة على مملكة القدس.

وسوف يظل الفرنجة أقلية. ففي مملكتهم، التي تضم ٤٠٠٠٠٠٠ نسمة، لا يشكلون ولو ثلث هذا العدد. ويضعف ديموغرافيتهم، المحرومة من كل دم جديد من الغرب أو من الشرق، يضعهم في وضع عسكري يصعب الدفاع عنه. وقواتهم المسلحة تستنزف السكان بشكل يجاوز العقل. فلتسليح ٢٠٠٠ فارس و ٢٠٠٠٠ من جنود المشاة - الحد الأدنى الضروري لمقاومة القوى المعادية- يتعين عليهم تعبئة كل الذكور البالغين في المملكة^(٣٤). وحتى يتسنى لهم الإبقاء على المنتجين، كان يتعين عليهم العيش في وفاق مع الجوار، أي قبول الذوبان والاختفاء من حيث كونهم جسماً غريباً. والواقع أنه لن يكون أمامهم خيار آخر غير الحرب، لأن صلاح الدين كان قد وحد سوريا ومصر في تلك الأثناء.^٩

وتؤدى الهزيمة العسكرية الأولى الحقيقية التى تلحق بالصلبيين، فى حطين، فى عام ١١٨٧، إلى إنهاء مملكة القدس الأولى. ويعد قرن لا أكثر من الزحف على الشرق، تعلن هذه الهزيمة انحدار الوجود الغربى. وسوف تمر مائة عام أخرى قبل هزيمة أنطاكية (١٢٦٨)، ثم هزيمة طرابلس (١٢٨٩)، ثم الضربة القاضية التى وجهت إلى عكا (١٢٩١). وعندئذ يختفى السكان الفرنجة كلياً عبر الهرب أو الأسر أو الذبح. ولا يبقى منهم غير عدة أبناء من زيجات مختلطة. وفى أيامنا هذه، ما يزال بوسع المرء مصادفة آخر أحفادهم على منحدرات بلاد العلويين وجبل لبنان الوعرة، حيث، يقال، أن البطريك سيمون كان قد رحب، من باب الفعل الخيرى، بعدد من الفرنجة بعد هزيمتهم (٣).

نهاية الحملات الصليبية والمغول: الجماعة المسيحية

الشرقية تجد نفسها من جديد وحيدة مع الإسلام.

كان الفرنجة قد جاوا لتقديم العون إلى المسيحيين الشرقيين. وبدلاً من تحقيق هذا المشروع الأولى (٣٧)، سوف تنتهى حملتهم بتدهور ملحوظ لوضع الجماعة المسيحية الشرقية. وعندما يبدأ المسلمون فى استعادة الأرض المقدسة، فإنهم لن يتهموا الجماعة المسيحية المحلية بالتواطؤ (مع العدو). والواقع أن إعادات الفتح الإسلامية المتعاقبة قد لقيت حيادها، وأحياناً تعاونها. وكان الاحتلال الأفرنجى قد أدخل نوعاً من التواطؤ فيما بين السكان المحليين المنتمين إلى مختلف الملل. ويصل الأمر بالمسيحيين العرب إلى حد اعتبار انتصارات نور الدين فى الشمال وانتصارات صلاح الدين فى الجنوب خطوة أولى نحو تحريرهم من النير الدينى الأفرنجى. بل ويبدو أنهم سوف يذهبون فى القدس إلى حد التقاهم مع صلاح الدين، بهدف تسهيل الاستيلاء على المدينة؛ والواقع أن مسيحيى القدس والمدن الساحلية سوف يكون بوسعهم البقاء حيث هم وصون ممتلكاتهم، بشرط دفع ضريبة رأس. وهذه الأخيرة تنزلق من جديد من خزانة إلى أخرى، ولكن فى اتجاه مضاد: فهى تنتقل الآن من خزانة المملكة اللاتينية إلى خزانة المملكة الإسلامية. وفى المدن التى لم تكن قد سقطت بعد، فإن هذا العطف الذى يناله المسيحيون العرب يجعلهم يبدوون فى أعين الفرنجة مشبهين، مستعدين للتواطؤ مع أعداء

المسيحية^(٣٨). على أن الفرنجة، بعد دخول صلاح الدين إلى القدس، وإدراكاً منهم لواقع أنهم لم يعد بإمكانهم الأمل في الانتصار اعتماداً على قواهم وحدها، سوف يسعون إلى تاليف مسيحيي البلدان الإسلامية المجاورة على حكامهم. وفي أغلب الأحيان لن تجد هذه المحاولات صدقاً يذكر^(٣٩).

وسوف يستفيد اليهود هم أيضاً من تسامح صلاح الدين. فالسلطان يرفع الحظر المفروض عليهم، والذي كان الصليبيون قد استعاروه من تقليد بيزنطى عتيق، وسوف يشجعهم على إعادة استيطان المدينة المقدسة^(٤٠). وخارج حدود الدول الصليبية، ظل المسيحيون واليهود، الباقون تحت السلطة المسلمة، مخلصين لحكامهم.. ولا تشكو أحوالهم من انحطاط يذكر^(٤١).

وسوف يتداخل الاحتلال الأفرنجي الأخذ في الزوال والغزوات المغولية. وعندئذ سوف تتوتر العلاقات بين المسلمين ومسيحيي الشرق، لأن هؤلاء الأخيرين يعتقدون بعض التحالفات المحدودة مع الغازي الجديد. وفي قرننا العشرين هذا، الذي يهيمن عليه الغرب المسيحي، لا تخيف مغولياً بعد أحداً. وربما كان هذا هو السبب في أن الإسلام، عندما يشعر أنه معرض للعدوان عليه، يكون أسرع إلى الاحتجاج على الصليبيين مما على المغول. وقد نسيت ذاكرة الشعوب أن هؤلاء الأخيرين كانوا قد ارتدوا قناع مسيحية كاذب قبل أن يتقموا، بسرعة بالغة، إلى الإسلام وأنهم كانوا أكثر دموية بكثير من سابقيهم الصليبيين. وبالرغم من قصر تعاون مسيحيي الشرق مع المغول ومحدوبيته المكانية، فإنه قد قضى على الكسب الذي كان يمكنهم تحقيقه من وراء تحفظهم الطويل تجاه الصليبيين^(٤٢).

وكان الفرنجة أنفسهم قد حاولوا في البداية التحالف مع هؤلاء الرجل الذين اندفعوا فجأة من سهوب آسيا، سعياً إلى الإيقاع بالإسلام بين فكي كماشة. وبينما لم يكن المغول قد وصلوا بعد إلا إلى أبواب الأناضول، في عام ١٢٥٢، أوفد سان لويس الفرنسي سكانى جيپوم نو روبروك إلى قلب آسيا الوسطى لاستكشاف نواياهم^(٤٣). ويقال أن المغولى هولوكو، الذى يفتح بغداد في عام ١٢٥٨، وچينزاله كيتبوكا، كانت لهما تعاطفات مع المسيحية النسطورية^(٤٤). على أن صليبيى الجنوب، المتجمعين حول عكا، يتجنبون التحالف معه، بل ويسهلون مرور القوات المملوكية المصرية إلى سوريا^(٤٥). وفي المقابل، يتحالف صليبيو الشمال والمسيحيون المحليون، الأرمن أساساً، مع الخان، حيث يصل الأمر بهم إلى حد تزويده بجنود.

وإذ ينتصر الممالك على المغول في عين جالوت في عام ١٢٦٠، فإنهم يسبون الحساب مع المسيحيين على هذا التواطؤ^(٤٦). فهل كان مسيحيو الشرق يتصورون أن هؤلاء الفاتحين، الوحيدين الذين يبدون منتمين إلى الدين نفسه الذي ينتمون هم إليه، سوف يكون بوسعهم تحريرهم من الهيمنة، الإسلامية واللاتينية على حد سواء، التي يعانون منها؟ إن الممالك، الذين سوف يطيحون بالسلالة الحاكمة الأيوبية التي أسسها صلاح الدين، سوف يتخلون بشكل حاسم عن تسامح أسلافهم الذين، بالرغم من الغزو الصليبي المزيج لمصر، لم يجعلوا الحياة شاقة بشكل خاص بالنسبة للمسيحيين. وسوف يدمر الممالك مملكة قيليقيا الأرمنية وإمارة أنطاكية، دون أن يهتموا بالتمييز بين الفرنجة والمسيحيين المحليين. وفي ذلك الزمن يهرب الموارنة من الساحل اعتصاماً بالجبل، الذي لن يهبطوا منه إلا في القرن التاسع عشر.

والواقع أن الابتزازات الملوكية، المحدودة في البداية، لن تتأخر في استهداف مجمل المسيحيين العرب الذين يكابدون، على مدار ثلاثة قرون، تشدد الإسلام الشامل. وكان سادة مصر وسوريا الجدد، المنبثقون من صفوف فئة من العبيد الجنود المتحولين حديثاً إلى اعتناق الإسلام، مفعمين بحماسة الجدد على العقيدة. وهذه السلالة الحاكمة ذات الأصل الأجنبي تسهم في انحطاط شروط حياة رعاياها العرب المسيحيين واليهود. والتعصب المحيط، الذي تضرع نيرانه صدمة الغزوات الصليبية والمغولية، يتغلغل في فكر الفقيه ابن تيمية (١٢٦٣ - ١٣٢٨). فهو إذ يسقط مقتله للغزاة المسيحيين على إخوتهم العرب في الدين، يدعو إلى اختزال المسيحية، بل واليهودية، ويهجم على كتبهما المقدسة ويعلن معارضته العنيفة لبناء وصون الكنائس والمعابد^(٤٧). وتتبنى بعض العناوين الموحية من إنتاجه الفلسفي الغزير: كتاب الرد على النصارى، مسألة الكنائس، الجواب الصحيح لمن بدّل دين المسيح، تخجيل أهل الانجيل، مجانية أصحاب الجحيم. والواقع أن لوثر الإسلام هذا سوف يلهم في القرن السابع عشر وهابى شبه الجزيرة العربية ويواصل الإسلاميون السلفيون في مصر الاستناد إليه^(٤٨).

وفي سجل الأدب الشعبي، فإن حكاية بيبيرس (١٢٦٠ - ١٢٧٧) الشهيرة، وهي عبارة عن رواية تصور حياة المغامرين وملحة تمجد زعيماً مملوكياً قاهرراً للمغول والصليبيين، تقدم تصوراً إسلامياً للعالم. فالخصوم الذين يسحقهم، مسيحيين كانوا أم غير مسيحيين، يجب عليهم التحول إلى اعتناق الإسلام في ساحة القتال؛ وإلا، فإنهم يعدون آثمين مويونين بجميع المفاسد ولايستحقون احتراماً أو شفقة^(٤٩). وتحكى لنا هذه الرواية: «مضى، يفتقى أثره بيبيرس، إلى أن وصل إلى جبانة المسيحيين، وكانت هناك قبور فوقها حجارة ضخمة ضخامة

اللغة التي تحيق بالكفار^(٥٠)، ونظل بعبيدين عن مباحج ألف ليلة وليلة التي أبرزت صفاء زمن العباسيين، والتي تتميز بإيحاءات جد قوية بحيث أنه في عام ١٩٨٥ أيضاً ينجح الضغط الإسلامي السلفي في تحريمها في مصر الرئيس مبارك.

وهكذا، فحتى فتح الشرق العربي على أيدي العثمانيين، نجد أن حكاماً استقروا بكونهم قهروا الغزاة المسيحيين في زمن ولي وعواماً بجلوا في سادتهم العبيد الذين أصبحوا ملوكاً، سوف يرفعون انعدام التسامح إلى ذرى جديدة. ففي دمشق، سوف يسوى الحساب مع المسيحيين الذين خصوا المغول بالترحيب عبر تدمير كنيسة مريم^(٥١). وفي مصر، سوف يواجه الأقباط محناً عديدة. ويندفع العوام المسلمون مرتين، في عام ١٣٠١ وفي عام ١٣٢١، إلى اقتحام الكنائس وتدمير الأديرة. وفي عام ١٣٥٤، تصادر السلطة جانباً كبيراً من ممتلكات الأقباط^(٥٢).

وبعيداً عن مسرح الحملات الصليبية، على أبواب ملكوت السلاطين المماليك، تهيمن الطائفية على العراق، حيث يسود المغول. فتعاطف الخانات الأول تجاه المسيحيين، الذين يعفونهم من أداء الجزية ويسمحون لهم بإعادة بناء الكنائس ويفتح المدارس، يثير العنف الشعبي في عام ١٢٦٧. والطائفة اليهودية، التي وصل الأمر إلى حد تعيين أحد أفرادها على رأس الحكومة المغولية، تتعرض لسخط شعبي مماثل في عام ١٢٩١. إلا أن الخان غزّان، عندما يتحول إلى اعتناق الإسلام، في عام ١٢٩٥، يفرض على غير المسلمين التمييزات الشايبة ويلزمهم من جديد بأداء الجزية. وفجأة يجد غير المسلمين أنفسهم محرومين من حماية الأمير^(٥٣).

وفي عام ١٢٩١، يتم الاستيلاء على عكا. ومع طرد المغول من سوريا ثم تحولهم السريع إلى اعتناق الإسلام، فإن تاريخ الحملات الصليبية يتأخم نهايته. فما الذي يبقى من مغامرة الفرسان هذه؟ قليل من العيون الزرقاء، هي عيون المسيحيين الموارنة على ضفاف قديشة وعيون المسلمين العلويين في جبل النصيرية. عدة أطنان من الأعمدة الرومانية مفككة ورائدة إلى الأبد داخل أسوار صيدا أو الكرك. اسم عائنة رئيس أسبق للجمهورية اللبنانية، هو سليمان فرنجي (١٩٧٠ - ١٩٧٦). رغيف مستطيل الشكل، هو الرغيف الفرنجي، يفضل عليه الذائقون الأنكياء من جهة أخرى الرغيف الخالي من الخميرة. وهي علامات جد هزيلة بما لا يسمح للشرق العربي بالاحتفاظ بآثار حضارة أفرنجية. ومن المؤكد أن الجماعة المسيحية الشرقية تكابد ألاماً من هذه المغامرة. أما الإسلام الموجود في السلطة فهو يكف لزمن طويل عن أن يكون عربياً.

حواشي الفصل الثالث

- 1 - Claude CAHEN, *Orient et Occident au temps des Croisades*, Aubier Montaigne, Paris, 1983.
- 2 - Discours du pape Urbain II retranscrit par Foucher de Chartres, in Régine PERNOUD, *Les Hommes de la Croisade*, Jules Tallandier, Paris, 1982.
- 3 - Régine PERNOUD, *Les Hommes de la Croisade*, op. cit. Pour cet auteur, le pape n'aurait promis que les richesses éternelles. Son avis est néanmoins contesté par maints historiens.
- 4 - Voir chapitre I.
- 5 - Claude CAHEN, *Orient et Occident...*, op. cit.
- 6 - On convient aujourd'hui d'appeler Arabes tous les arabophones, quelle que soit leur religion. Une argumentation précise est fournie par Maxime RODINSON, *Les Arabes*, Presses Universitaires de France, Paris, 1979.
- 7 - "Il ne semble pas que les Eglises orientales, dogmatiquement séparées et protégées des ingérences extérieures par la domination musulmane, aient jamais cherché à reprendre contact avec Rome", Claude CAHEN, *Orient et Occident...*, op. cit.
- 8 - Selon Guillaume de Tyr, in Joshua PRAWER, "Minorities in the Crusader States", in Kenneth SETTON, *History of the Crusades*, Londres, University of Wisconsin Press, 1985.
- 9 - Doctrine selon laquelle le Christ est doté d'une double nature mais d'une seule volonté, divine. Elle fut déclarée hérétique par le concile de Constantinople en 680.
- 10 - Joshua PRAWER, *Histoire du royaume Latin de Jérusalem*, CNRS, Paris, 1969.
- 11 - Claude CAHEN, *Orient et Occident...*, op. cit.
- 12 - Claude CAHEN, art. "Croisades", *Encyclopédie de l'Islam*, nouvelle édition, Paris, 1960, et Joshua PRAWER, *Histoire du royaume Latin...*, op. cit.
- 13 - Gérard de Montréal, cité par Régine PERNOUD, *Les Hommes de la Croisade*, op. cit.
- 14 - "Il est impossible de croire à de notables relations directes entre l'Orient musulman et l'Europe avant la fin du x^e siècle", Claude CAHEN, *Orient et Occident...*, op. cit.
- 15 - Claude CAHEN, *Orient et Occident...*, op. cit.

- 16 - Claude CAHEN, *La Syrie du Nord à l'époque des Croisades*, Paris, 1940.
- 17 - Foucher de Chartres cité par Régine PERNOUD, *Les Hommes de la Croisade*, *op. cit.* Voir aussi André MIQUEL, *Ousama - Un prince syrien face aux croisades*, Paris, Fayard, 1988.
- 18 - Régine PERNOUD, *Les Hommes de la Croisade*, *op. cit.* Du même texte, Amin Maalouf donne une traduction un demi-ton au -dessous : "Or le doute pénètre dans le cœur d'un grand nombre de ces hommes quand ils comparent leur sort à celui de leurs frères qui vivent en territoire musulman. Ces derniers souffrent, en effet, de l'injustice de leurs coreligionnaires, alors que les Franj agissent avec équité", Amin MAALOUF, *Les Croisades vues par les Arabes*, Lattès, Paris, 1983.
- 19 - Claude CAHEN, *Orient et Occident...*, *op. cit.*
- 20 - Voir chapitre premier.
- 21 - Elle comportait aussi quelques hommes nés de mariages mixtes.
- 22 - Marcel REINHARD, André ARMENGAUD, Jacques DUPAQUIER, *Histoire générale de la population mondiale*, Montchrestien, Paris, 1966.
- 23 - Josiah Cox RUSSELL, "The Population of the Crusader States" in Kenneth SETTON, *History...*, *op. cit.* Facteur "intermédiaire" modérateur de la fécondité, l'allaitement au sein prolonge en effet les intervalles génésiques. Recourant aux nourrices, les femmes de la noblesse réduisaient donc leur aménorrhée *post partum*.
- 24 - Joshua PRAWER, "Social Classes in the Latin Kingdom of Jerusalem: The Franks", in Kenneth SETTON, *History...*, *op. cit.*
- 25 - Joshua PRAWER, *Histoire du royaume latin...*, *op. cit.* Claude CAHEN, *Orient et Occident...*, *op. cit.*
- 26 - Josiah Cox RUSSELL, "The Population of the Crusader...", *op. cit.* C'est ce qu'indiquent les stèles funéraires. Les niveaux sont manifestement surévalués, mais la différence est sans doute convaincante.
- 27 - *Ibid.*
- 28 - Claude CAHEN, *La Syrie du Nord...*, *op. cit.*
- 29 - Joshua PRAWER, "Social Classes...", *op. cit.*
- 30 - Requête au roi Amaury, in Joshua PRAWER, *Histoire du royaume Latin...*, *op. cit.*
- 31 - *Ibid.*
- 32 - Lettre d'un croisé, Claude CAHEN, *La Syrie du Nord...*, *op. cit.*

- 33 - Joshua PRAWER, *Histoire du royaume Latin...*, *op. cit.*
- 34 - Joshua PRAWER, *Histoire du royaume Latin...*, *op. cit.* La population rurale fut estimée à 250000 habitants, par comptage des villages existant actuellement (900) et sous les Croisades (1200), en distinguant petits (10 à 15 familles) et grands (20 à 40 familles) villages entre Beyrouth et Daron, Akaba et Amman, sur la base de 5 habitants par famille. 30000 non- Francs habitaient les villes.
- 35 - 22000 hommes en armes, soit le cinquième de la population totale, correspondent à la totalité de la population masculine d'âge militaire. Joshua PRAWER, *Histoire du royaume Latin...*, *op. cit.*
- 36 - Art. "Maronites", *New Catholic Encyclopedia*, *op. cit.*
- 37 - Claude CAHEN, art. "Croisades", *Encyclopédie de l'Islam*, *op. cit.*
- 38 - Joshua RAWER, *Histoire du royaume Latin...*, *op. cit.*
- 39 - "Il y eut peut-être (quelques tentatives de rapprochement) en Syrie et dans les pays voisins lors de la pénétration des missionnaires latins, dont les efforts restèrent vains justement en raison de l'impossibilité pour les chrétiens de ne pas devenir politiquement suspects s'ils se rapprochaient d'eux", in Claude CAHEN, art. "Dhimma", *Encyclopédie de l'Islam*, *op. cit.*
- 40 - Kenneth SETTON, *History...*, *op. cit.*
- 41 - La non- appartenance des chrétiens d'Orient à l'Eglise latine les rendit méfiants envers les croisés. C'est pourquoi ils s'abstinrent de collaborer; voir Claude CAHEN, art. "Dhimma", *Encyclopédie de l'Islam*, *op. cit.*
- 42 - Claude CAHEN, art. "Dhimma", *Encyclopédie de l'Islam*, *op. cit.*
- 43 - Guillaume de RUBROUCK, envoyé de Saint Louis, *Voyage dans l'Empire mongol* (1253 - 1255), Payot, Paris, 1985.
- 44 - En fait, les Mongols combinaient toutes les religions d'Asie centrale, christianisme nestorien compris; cepenedant, Doqouz Khatoun, l'épouse de Hulagu, fort influente dans une civilisation où la femme participait à la vie publique, était chrétienne et antimusulmane. Bertold SPULER, *Les Mongols dans l'histoire*, Payot, Paris, 1961.
- 45 - Amin MAALOUF, *Les Croisades...*, *op. cit.*
- 46 - Voir chapitre premier.

- 47 - Mohamed BEN CHENEB, art. "Ibn Taïmiyya", *Encyclopédie de l'Islam*, 1^{re} édition, 1913.
- 48 - Gilles KEPEL, "L'Egypte aujourd'hui: mouvement islamiste et tradition savante", *Annales, économie, sociétés, civilisations*, Paris, juillet- août 1984.
- 49 - R. PARET, "Sirat Baïbars", *Encyclopédie de l'Islam*, *op. cit.*
- 50 - Roman de Baïbars, *Fleur de truands*, Sindbad, Paris, 1986.
- 51- R. HARTMANN, art. "Damas", *Encyclopédie de l'Islam*, 1^{re} édition, 1923.
- 52 - Gaston WIET, art. "Kibt", *Encyclopédie de l'Islam*, *op. cit.*
- 53 - A.A. DUI, art. "Baghdad", *Encyclopédie de l'Islam*, *op. cit.*, et Bertold SPULER, *Les Mongols dans l'histoire*, *op. cit.*

تعليقات الفصل الثالث

٢ - ريجين بيرنو، «رجال الحروب الصليبية»، مصدر سبق ذكره. ويرى هذا الكاتب أن البابا لم يعد إلا بالثروات الأبدية. على أن مؤرخين كثيرين ينازعون رأيه.

٤ - انظر الفصل الأول.

٦ - هناك اتفاق اليوم على تسمية جميع الناطقين بالعربية عرباً، أيأ كانت دياتهم. وقد قدم مكسيم رودنسون مناقشة محددة لهذا الموضوع في كتابه «العرب»، المنشورات الجامعية الفرنسية، باريس، ١٩٧٩.

٧ - ولا يبدو أن الكنائس الشرقية، المنفصلة بشكل دوجماتي والمحمية من التدخلات الخارجية بالهيمنة الإسلامية، قد سعت قط إلى استئناف الاتصال مع روما، كلود كاهن، «الشرق والغرب...»، مصدر سبق ذكره.

٨ - وفقاً لجيبوم الصوري.

٩ - مذهب يرى أن المسيح يتميز بطبيعة مزوجة وإن كان يتميز بإرادة واحدة، إلهية. وقد اعتبره مجمع القسطنطينية في عام ٦٨٠ مذهباً مهرطقاً.

١٤ - «من المستحيل تصور علاقات مباشرة ملحوظة بين الشرق الإسلامي وأوروبا قبل نهاية القرن العاشر»، كلود كاهن، «الشرق والغرب...»، مصدر سبق ذكره.

١٨ - ريجين بيرنو، «رجال الحروب الصليبية»، مصدر سبق ذكره. ويقدم أمين معلوف لهذا النص نفسه ترجمة أخف نبرة: «والحال أن الشك يتسلل إلى أفئدة عدد كبير من هؤلاء الناس عندما يقارنون حالهم بحال إخوتهم الذين يحيون في أرض الإسلام. فالواقع أن هؤلاء الآخرين يعانون من مظالم إخوتهم في الدين، بينما يتصرف الفرنجة بإنصاف»، أمين معلوف، «الحروب الصليبية في نظر العرب» لاتييه، باريس، ١٩٨٣.

٢٠ - انظر الفصل الأول.

٢١ - كان سلاح الفرسان الخفيف يضم أيضاً عدداً من الرجال المنحدرين من زيجات مختلطة.

٢٢ - جوسيا كوكس رسل، «سكان الدول الصليبية» في كينيث سيتون، «تاريخ...»، مصدر سبق ذكره. إن الإرضاع عن طريق الثديين، وهو عامل «وسيط» يؤدي إلى اعتدال الخصوبة، إنما يطيل في الواقع مدة التباعدات التناسلية. ومن ثم فإن زوجات النبلاء، إذ تلجأن إلى المرضعات، إنما تختزلن فترة انقطاع طمثهن بعد الولادة.

٢٦ - جوسيا كوكس رسل، «سكان الدول الصليبية»، مصدر سبق ذكره. وهو ما تشير إليه شواهد التعبير. ومن الواضح أن المستويات مبالغ في تقديرها، لكن الفارق مقنع بلا شك.

٣٤ - چوشوا براود، «تاريخ مملكة القدس...»، مصدر سبق ذكره. جرى تقدير السكان الريفيين بـ ٢٥٠٠٠٠ نسمة، عبر عد القرى الموجودة حالياً (٩٠٠) وفي ظل الحملات الصليبية (١٢٠٠)، بتمييز القرى الصغيرة (١٠ إلى ١٥ عائلة) والكبيرة (٢٠ إلى ٤٠ عائلة) بين بيروت ودارون، والعقبة و عمان، على أساس ٥ أفراد للأسرة. وكان ٢٠٠٠٠ من غير الفرنجة يسكنون المدن.

٣٥ - إن ٢٢٠٠٠ رجل مسلح، أى خمس إجمالى السكان، يتناسبون مع إجمالى السكان الذكور فى عمر التجنيد العسكرى.

٣٩ - «ربما كانت هناك [بضع محاولات للتقارب] فى سوريا وفى البلدان المجاورة عند تغفل المبشرين اللاتين، الذى ظلت جهودهم بلا طائل وذلك تحديداً بسبب استحالة ألا يكون المسيحيون مشبهين إن هم تقاربوا معهم»، فى كلود كاهن، مادة «الذمة»، «موسوعة الإسلام»، مصدر سبق ذكره.

٤١ - إن عدم انتماء مسيحيى الشرق إلى الكنيسة اللاتينية قد جعلهم حذرين تجاه الصليبيين. وهذا هو السبب فى امتناعهم عن التعاون.

٤٤ - الواقع أن المغول قد جمعوا بين كافة أديان آسيا الوسطى، بما فى ذلك المسيحية النسطورية؛ وأياً كان الأمر، فإن بوكوز خاتون، زوجة هولاكو، ذات النفوذ القوى فى حضارة شاركت فيها المرأة فى الحياة العامة، كانت مسيحية ومعادية للإسلام.

الفصل الرابع

الإسلام تحت الهيمنة الاستعمارية

فى المغرب

«وإذ أنصت حزينا إلى كل هذه الأمور، أتساءل عما يمكن أن يكون عليه مستقبل بلد يُسَلَّم إلى مثل هؤلاء الرجال وإلام سيقود فى نهاية الأمر هذا الشلال من العنف والمظالم، إن لم يكن إلى تمرد السكان الأصليين وإلى خراب الأوروبيين».

اليكسيس دو توكفيل، ملاحظات حول الجزائر، باريس، ١٨٤١.

«يتمسك المرء بالحلم ويتساءل: وماذا لو كان فرنسيو الجزائر قد أرحوا آنذاك قبضة النظام، وسمحوا تدريجياً بتمثيل المسلمين وفكوا، فى توازٍ مع ذلك، ارتباطهم بالمتروبول؟ عندئذ تبدأ اليوتوبيا».

بيير نورا، فرنسيو الجزائر، باريس، ١٩٦١.

كانت أفريقيا الشمالية فرنسية على مدار مائة وثلاثين عاماً. أما الفرنجة فقد أقاموا فى الأرض المقدسة فترة أطول. ومن المؤكد أن فوارق واقعية تميز الحداثين.

أولاً، فارق المسافة. فقبل استعارة البوصلة من الملاحين العرب، كانت القدس فى أقصى العالم المعروف، على أبواب بلاد يأجوج ومأجوج. أما مدينة الجزائر فكانت أقرب إلى طولون من باريس. وسرعان ما سوف تؤدي الملاحة البخارية ثم التلغراف والطيران إلى اختزال غربى

البحر المتوسط إلى مستوى بحيرة. وهكذا فإن المغرب الكولونيالى كان على ارتباط وثيق بالمتروبول فى حين أن ممالك الشرق اللاتينية كانت مقطوعة منذ مولدها. وعلاقات القوى الدولية هى أيضاً تتقلب. ففي قلب العصر الوسيط الأوروبى، انطلق الصليبيون إلى اقتحام شرق كانت مازال تشع منه ثقافة رائعة؛ أما حملة الجزائر، التى تهجم على الثغور الضعيفة للإمبراطورية العثمانية، فهى ترفع القوة الفرنسية، على الضد من ذلك، إلى ذروتها. وفى الشام، كان الفرنجة يتصورون أنهم سوف يجنون حليفاً فى الجماعة المسيحية العربية. لكن الفرنسيين، إذ يهبطون فى المغرب، كانوا يعرفون أن المسيحية قد انطقت فيه منذ سبعمئة سنة.

لكن الملحة الدينية (الصليبية) والفتح الاستعماري (الفرنسي) يتميزان أيضاً بوجه شبه عميقة. إن كلاهما سوف يبدأ بمغامرة عسكرية قبل أن يعتبر نفسه، فجأة، مشروعاً استيطانياً. وفى كلتا الحالتين، فإن نداءات الرحلة سوف تندفع من فرنسا لتمتد بسرعة إلى البلدان المجاورة، بما يوحد، فى وجه الإسلام، نوعاً من ائتلاف أوروبى - كاثوليكي. وقبل كل شيء، فإن الديموغرافيا توحد بين هاتين الحكايتين. فالصليبيون والكولون (الفرنسيون) سوف يظلون دائماً أقلية جد هزيلة. ثم إن حفيد المهاجر، فى جيب عكا أو جيب باب الواد، سوف يظل، بعد عدة أجيال، أجنبياً يمكن التعرف عليه بسهولة تامة. فهو لا يعرف النويان بأكثر مما تسنى لأسلافه. وفى دول الشرق اللاتينية كما فى المغرب، يحول رفض شامل ومتعدد الأشكال للثقافة العربية - الإسلامية لا سبيل إلى علاجه دون تأصل الجسم الأوروبى الغربى.

وهذا الفشل المزبور يدعو إلى تأمل أسبابه، ولو لمجرد تخيل مصير الانقراض اليهودى فى شرقى البحر المتوسط، هذا الجسم الغربى الثالث فى الأرض العربية والذى ينكتب تاريخه تحت أبصارنا. وهو شاغل يتقاسمه من جهة أخرى العلماء الإسرائيليون، الذين قدموا دراسات ممتازة عن الحروب الصليبية ^(١) وعن أفريقيا الشمالية الكولونيالية ^(٢). فهل كان الفشل الأفريقى الشمالى كامناً فى جوهر المشروع نفسه، أم أنه ترتب على تراكم متكرر للأخطاء - على العنف والظلم اللذين تنبأ توكفيل، بعد عشر سنوات فقط من النزول إلى مدينة الجزائر، بأنهما سنوف يذقان ناقوس الإياب؟ ويعهده، سوف يزداد عدد المراقبين الذين سوف يعربون عن انزعاجهم من مجريات الأمور السياسية والديموغرافية للمستعمرة وسوف يتنبأون لها بمستقبل مظلم.

إلا أنه، حتى اللحظة الأخيرة، لم يتسن حتى لأكثر المراقبين تشاؤماً تصور اتساع وسرعة التقهقر. وحتى بينما كانت نتيجة الحرب التى تفجرت فى عيد جميع القديسين (أول

نوفمبر ١٩٥٤) ماتزال غير مؤكدة، كانوا يظنون أن ٢٥٠٠٠٠ فقط من فرنسيي الجزائر سوف يختارون العودة النهائية إلى فرنسا^(٣). أما جميع الآخرين فهم عازمون على البقاء أو غير جاسمين في قرارهم. إلا أنه لن يبقى منهم، في الواقع، غير عشرين بالكاد.

حلم إعادة المسيحية

عندما هبطت قوات شارل العاشر إلى مدينة الجزائر، لم تكن أول قوات تقتحم أفريقيا الشمالية. ففي عام ١٤٩٧، في معمران إعادة الفتح (الاسباني)، كان الاسبان قد طاردوا بالفعل «الكفار» حتى أرضهم الأصلية وأقاموا في مملكة تلمسان محمية لن يجد الفرنسيون منها غير بقايا مجتمع انتقل إلى من «المرتدين» والمستعربين (نصارى الأندلس)^(٤). فهل كان يمكن لذكرى هذا الاندفاع المسيحي في أرض الإسلام والذي دام ثلاثة قرون أن تختفي لو أن كريستوفر كولومبوس لم يكتشف، بالصدفة، قبل ذلك بخمس سنوات، شعباً أكثر كفاً بكثير؟ لا مراء في أن كل طاقات الغزو الاسبانية كانت سوف تنصب من الشاطئ الآخر لمضيق جبل طارق.

وأكد أن الاستعمار الفرنسي قد دام فترة أقل، لكن تغلظه كان أعمق . فبينما اكتفت أسبانيا بالساحل، اخترقت فرنسا مجاهل الصحراء، وبثت لغة في شعب بأكمله، وانقضت على تونس (١٨٨١)، ثم على المغرب الأقصى (١٩١٢). وهذا المشروع الفريد في التاريخ الاستعماري الفرنسي، يعبى أكثر من مليون إنسان وموارد مادية ضخمة. ولم يحدث من قبل قط أن حشدت أوروبا المسيحية مثل هذه القوى لكي توطد أقدامها في عالم البحر المتوسط الإسلامي.

وكان لابد لحملة واسعة النطاق أن تتغذى من مخطط واسع. فغداة الثورة الفرنسية، لم يأت النزول السريع للتلاشي للجنرال بوناپارت إلى مصر في نهاية الأمر إلا بمادة كتاب، من المؤكد أنه ضخم^(٥). أما إعادة أفريقيا إلى تلك المسيحية^(٦)، فقد كانت الهدف الذي عزاه إلى نفسه كليرمون - تونير، وزير الحرب، حتى يتغلب على تحفظات ملك فرنسا.

وأمام أعين سكان الجزائر، المسلمين منذ ألف سنة، يجري تصوير العملية بوصفها احتلالاً مؤقتاً، لا يهدف إلا إلى مجرد طرد العثمانيين لرد البلد إلى العرب، سادته الشرعيين: إن بياناً محرراً بالعربية يجري توزيعه لدى وصول القوات يؤكد أن الفرنسيين لم يجيئوا

لامتلاك المدينة. ومستقباً بشيء من العبقريّة، ولكن ليس دون ازواجية، وعود لويس بونابارت. للأمير عبد القادر (١٨٥٥) ثم وعود لورانس العرب لشريف مكة (١٩١٦)، أدرك الوزير أن بوسع نزعة قومية عربية أن تهدم السلطة التركيّة. ويؤكد العروى: «أن السياسة الفرنسيّة، برغم انتصارها (بعد الاستيلاء على مدينة الجزائر)، قد ظلت ضمن إطار سياسة الأسبان، إذ لم يصدق أحد أن مناطق البلد الداخليّة يمكن أن تكون لها أية أهميّة بالنسبة للفزاة الجديد»^(٧).

وسرعان ما تؤدي الواقعيّة إلى هجر حلم إعادة المسيحيّة، ويطول أمد الاحتلال. وتطلى الظروف التحول إلى إنشاء مستعمرة استيطانيّة. والواقع أن الاستعمار الذي كان في البداية عسكرياً وفرنسياً وموجهاً إلى الجزائر، سوف يصبح مدنياً وأوروبياً وسوف يمتد بعد ذلك إلى البلدان المجاورة. ويصبح من الشواغل الثابتة للإدارة توطيد المكونات المتباينة للمجتمع الاستيطاني، الذي يظل دائماً مجتمع أقلية واضحة بالرغم من حيويته الديموغرافيّة. وشيئاً فشيئاً تصوغ القوانين التي تصدرها الإدارة والتدابير التي تتخذها مجتمعاً أصيلاً، لكن هذا المجتمع، وهو كتلة مصمتة في مواجهة المجتمع المسلم، يسمح لنفسه بالانجرار إلى نوامة الانفصال القاتلة.

ومنذ ملكية يوليو (١٨٣٠)، تكف الدعوة إلى إعادة المسيحيّة إلى أفريقيا الشماليّة عن مساهمة الميول السائدة. فانتصار الأورليانيين على الشرعيين يمس الجزائر. ذلك أن الضباط والمسؤولين الاستعماريين، الذين يتميزون بروح علمانيّة، بل غالباً ما يعتبرون معادين عداءً سافراً للنزعة الإكليركيّة، سوف يمنعون الأنشطة التبشيريّة ويحظرون التبشير الديني ويتصدون بحزم لتحويل (المسلمين) إلى اعتناق المسيحيّة. ومن المفارقات أن الإدارة، في ظل الجمهوريّة الثالثة، تبدى قدراً أقل من الصرامة المعادية للنزعة الإكليركيّة. فمنذ عام ١٨٨٢، تغض البصر عن نشاط البعثات التبشيريّة، شريطة اتزانها واقتصرها على المناطق الداخليّة من البلد. أما مطران مدينة الجزائر، شارل أليمان لاثيچيرى، مؤسس أخوية الرهبان والراهبات المبشرين في أفريقيا، فهو يجيز تحويل المسلمين إلى اعتناق المسيحيّة^(٨). بلا نجاح، ففي غضون مائة عام لن يتحول إلى اعتناق المسيحيّة غير أقل من ألف شخص^(٩). متتاثرين في قرى قليلة منزوية من قرى القبائل. وسوف يكون المتحولون القلائل إلى اعتناق المسيحيّة مرفوضين من المسلمين كما من الأوروبيين ولن يقيموا أى جسر بين المجتمعين. أن تسميهم العامية الجزائريّة بالماتورنى (من الكلمة الفرنسيّة: «Tourné» [المولّى])^(٩).

والحال أن من يحنون إلى إعادة المسيحيّة (إلى أفريقيا الشماليّة) سوف يعبرون عن

أنفسهم من جديد في مناخ حمية استشهادية خلال الاحتفالات بمرور مائة عام على الاستيلاء على مدينة الجزائر، في عام ١٩٣٠: «إذا كانت فرنسا الجمهورية تعوزها الحكمة السامية التي تقضى برعاية المسيحية في أفريقيا الشمالية رعاية سافرة وتامة بما يسمح للمبشرين بهداية السكان المسلمين إلى الإنجيل بدعم رسمي، فإنه ليس من الضروري للمرء أن يكون من سلالة الأنبياء حتى يعلن أنه بالرغم من حجم الرساميل المثير الذي سكبته منذ قرن في هذه الأراضي والأعمال الضخمة التي قامت بها، وبالرغم من التعليم الذي أتاحت به بشكل واسع لقبائل البربر والعرب، بل وبالرغم من استيطان فرنسي أوسع انتشاراً، فإنه ليس من المؤكد أنها سوف تحتفظ إلى الأبد بالإمبراطوريات الشريفة والجزائرية والتونسية^(١٠)».

والزيجات المختلطة، القليلة العدد هي الأخرى، لن تسهم بعد في التقارب: فمن بين مائة ألف زيجة عقدها الأوروبيون في الجزائر بين عامي ١٨٣٠ و١٨٧٧، لن نجد أكثر من مائة وعشرين زيجة كانت الزوجة فيها مسلمة. ويلاحظ أحد مراقبي المستعمرة «أن الإحصاءات تسجل بالكاد زيجة أو زيجتين قانونيتين، في السنة، بين مسلمين وأوروبيين! وليس ذلك مجرد استثناء، فهو ظاهرة ديموغرافية غريبة (...). وإلى الآن ما تزال الزيجات بين الرجال الأوروبيين والمسلمات أقل عدداً^(١١)». لقد كان الرفض متبادلاً، ولم يكن هناك من هو على استعداد لتقديم بناته. ينطبق ذلك على الأوروبيين، الذين كان عدد الذكور بينهم جد زائد، كما ينطبق على المسلمين، الذين واصلت الشريعة تنظيم أحوالهم الشخصية، ذلك أن الأب ينتهك الوصية الإلهية إذا ما ترك ابنته تتزوج من مسيحي أو من يهودي، لم ينطق أولاً بالشهابيتين^(١٢).

والدين وغياب الزيجات المختلطة ليسا وحدهما المسؤولين عن انفصال المجتمعين. فالجهل بلغة المستعمر (بفتح الميم)، شبه الشامل بين المستوطنين، يزيد من توسيع الهوة. وكان ضباط عام ١٨٣٠ والمستوطنون الأوائل قد تعلموا العربية واهتموا بثقافة أفريقيا الشمالية. وكانت الدراسات الاستشراقية تملك آنذاك تراثاً شامخاً في فرنسا وكان سلفستر بوساسي قد نشر كتابه عن النحو العربي (١٨١٠). إلا أنه عندما يصبح اجتياز البحر المتوسط أمراً مألوفاً وواسع الانتشار، بحيث ينشأ مجتمع استعماري معقد له هيراركياته وبحيث يتعين في البداية على كثيرين من القادمين الجدد، الأسبان والإيطاليين خاصة، تعلم الفرنسية حتى يتسنى السماح لهم بالإقامة، فإن الآليات العادية للتناوب تتحرك. وتنشأ أحياء منفصلة، ويجد تكافل الجاليات الأوروبية المختلفة تعويضاً سريعاً عن التقارب المتردد الذي كان قد ارتسم بين مستوطني الزمن الأول والمسلمين.

وبحلول أواخر القرن، كان المستوطنون وأطفالهم قد تخلوا عن تعلم العربية. ويلاحظ شارل - أندريه جولييان دون موارد «أن غالبية المستوطنين يرون أنه لا مجال هناك لاستيطان ممكن إن لم يظهر المستوطنون للسكان الأصليين أنهم أرقى منهم. ولذا فإنهم لا يعاشرونهم ولا يتعلمون لغتهم»^(١٣).

تخليق مجتمع استيطاني

إن هذا المجتمع الآخذ في تأكيد سماته الاستيطانية تكشفه لنا الإحصاءات بشكل مزيج. وكان لابد من انتظار التعداد السادس، تعداد عام ١٨٥٦، حتى تتجلى أخيراً الغالبية الضخمة للسكان الأصليين. فقبل ذلك التاريخ، لم يكن يجري إحصاء أحد غير الفرنسيين واليهود المحليين والأجانب الأوائل القادمين من أوروبا. والواقع أن السكان المسلمين يدخلون في الكتب السنوية الإحصائية كملحق لا مفر منه تقريباً. فلنقلب صفحات أحدها، وليكن، دون قصد، الكتاب السنوي الإحصائي لعام ١٨٧٨ مثلاً^(١٤): إن عشر صفحات تكرر ببذخ تفصيلي لـ «حركات السكان» الفرنسيين والمنتمين إلى قوميات أوروبية أخرى، بينما لا يستأثر المسلمون إلا بعدة سطور. وتعداد عام ١٨٥٦، برغم ما هو عليه من إيجاز، يعرض اتساع انعدام التوازن: إن أقل من مائة ألف فرنسي يواجهون جمهوراً مسلماً قوياً قوامه ٢٣ مليون نسمة^(١٥). ومثل هذا العجز الديموغرافي لا يحتمل. ولكي يتفوق السكان الفرنسيون، يلزمهم الحصول على مدد، إما بإدماج السكان الأصليين، المسلمين أو اليهود، أو بالهجرة وفرنسة الأجانب، أو بمناشدة فرنسيي الأرومة. ويكتب جاك بيرك: «إن النظام الفرنسي، سعيًا إلى الانقراض التام، إلى البقاء إلى الأبد على هذه الأرض المغربية، يختار دمج مواطنين في المغرب»^(١٦).

لقد تم التخلي بسرعة عن تحويل المسلمين إلى اعتناق المسيحية. فهل يمكن لوسائل أخرى السماح بدمجهم دون دفعهم إلى التخلي عن ديانتهم؟ لا مرأى في أن التعليم المدرسي الأكثر إنصافاً للجزائريين، والذين ظلوا في غالبيتهم أميين في عهد جول فيري، سوف يسهل الدمج بتوسيعه الدراية بالفرنسية، لكنه سوف يبدل العلاقات الكولونيالية بشكل خطير. والحال أنه في عام ١٨٨٠، من بين ٤٩٦١٠ من تلاميذ المدارس الابتدائية الحكومية لمعاهد مدينة الجزائر وهران وقسنطينة، لا نجد غير ٢٧٠٢ من المسلمين (٥٪)، من بينهم ٢٣٥ فتاة فقط

و. ٢١٠ من التلاميذ الملتحقين بالمدارس العريية - الفرنسية و٢٦٨٧ من التلاميذ الملتحقين بالمدارس الإسلامية (١٧). وكان من شأن الاعتماد على السكان الناطقين بالبربرية، المفترض أنهم يتبعون إسلاماً أكثر تلقياً، والذين سوف يخرجون إلى شوارع مدينة الجزائر وتينى - أوزو، بعد مائة وخمسين عاماً، للدفاع عن اللغة الفرنسية، أن يخفف من حدة الاستقطاب الثنائى الاجتماعى. إلا أنه لن يتخذ شيء فى هذا الاتجاه.

وكان يمكن لتوحيد الوضعيات القانونية أن يكون وسيلة أخرى. لكن السكان الأصليين المسلمين كانوا رعايا خاضعين لا مواطنين فرنسيين. ولم تكن أمامهم إمكانية للحصول على المواطنة إلا بالتخلى عن أحوالهم الشخصية القانونية، عن القواعد التى تنظم فى الإسلام الزواج والطلاق والميراث خاصة. وهو ما يعنى بشكل ما التخلي عن جانب من معتقداتهم الدينية ومن تقاليدهم. وأياً كان الأمر، فإن المستوطنين هم الذين سوف يعارضون بشكل ثابت منح الجنسية (الفرنسية) للمسلمين والذين لن يسمحوا البتة بأكثر من أربعين حالة منح للجنسية كل سنة حتى عام ١٩٤٠. ومكاتب السجل المدنى تعرقل بشكل منهجى الطلبات الفردية المتعلقة بنيل حق المواطنة (١٨).

وفى ختام أربعة عقود، تتجه الإدارة إلى جماعة جزائرية أخرى، اليهود، الذين لا تفصلهم عن المسلمين غير المعتقدات الدينية وحدها، لا أسلوب الحياة. ويكتب قنصل فرنسا فى سوس فى عام ١٨٤٥: «إن المرء يصادف هناك عدداً ملحوظاً من الإسرائيليين الذين يحيون حياة العرب عيها، فيتسلحون ويلبسون مثلهم ويمتطون الجياد مثلهم ويخوضون الحرب عند الضرورة مثلهم. وهؤلاء اليهود جد ذائبين فى بقية السكان بحيث يبدو من المستحيل تمييزهم عنهم (١٩)». ونجد أن الأفراد، فى البداية، بحكم قرار عام ١٨٦٥، ثم مجمل الجماعة اليهودية المحلية، بفضل مرسوم كريميو لعام ١٨٧٠ - المطبق خلال مجمل العصر الكولونى إلى ما عدا فى عام ١٩٤٢ فى ظل حكومة فيشى - سوف يكسبون امتياز الجنسية الفرنسية. ويرى اليهود فى التفرس الفردى تخلياً عن التقاليد، بحيث أن مائة فقط من بينهم سوف يطالبون به. وفى المقابل، سوف يستقبلون بترحيب تام مرسوم كريميو، الذى لا يربط الحصول على الحقوق المدنية والسياسية بالتخلي عن التقاليد المرتبطة بالدين. وهكذا فإن السكان الفرنسيين فى الجزائر - ١٢٢٠٠٠ مواطن فى عام ١٨٦٦ - سوف يضمون إليهم بشكل أوتوماتيكى ٤٤٠٠٠ آخرين بعد ذلك بأربع سنوات (٢٠).

وعلاوة على هذه اللعبة المضخمة (لعدد حاملى الجنسية الفرنسية)، فإن مرسوم كريميو

يوجد مواطنين حقيقيين، ويبدل بشكل عميق سلوك اليهود الجزائريين ويدمجهم بشكل نهائى فى مجتمع الفاتحين. والواقع أنه بفضل المدرسة الإلزامية خاصة تنفصل الطائفة اليهودية عن جوارها المسلم، فتتخلّى شيئاً فشيئاً عن تقاليدھا الزوجية والثيائية، وأسلوب سكنتھا، بل وعن استخدام اللغة العربية. لكن اليهود المحليين لا يمكنهم أن يقدموا إلى الديموغرافيا غير المساهمة المتواضعة التى تملكها جماعة قليلة العدد إلى حد بعيد.

أما قانون التجنيس الأوتوماتيكى الصادر فى عام ١٨٨٩ فهو يتميز بثقل مختلف تماماً. فهذا القانون ينص على أن أى طفل يولد فى فرنسا أو فى الجزائر لأب أجنبى ولد هو نفسه فى فرنسا أو فى الجزائر يعتبر فرنسياً منذ ولادته. وهو يسهل من جهة أخرى حصول أجناب آخرين على الجنسية الفرنسية، بموجب شروط إقامة معينة (٢١). وهذا الإجراء الذى قصد به منح المترددين أرسدة ديموغرافية فى مواجهة ألمانيا بعد خسارة الأكراس واللورين، ينطبق أيضاً على الجزائر.

وقبل إصدار قانون التجنيس، كان المهاجرون الأوروبيون - الأسبان خاصة (٢٥٪)، الإيطاليون (٢٠٪) والمالطيون (٢٪) - فى سباق مع الفرنسيين، بحيث أن الفرنسيين والأجناب - فى تعداد عام ١٨٨٦ - كانوا متساوين فى العدد. وقد انعش سباق الأعداد والمكانة الاجتماعية الربية تجاه الأجنبى، والتى تتنازع على استهدافه حتى مع الربية التى يجرى تجسسها تجاه ابن البلد، المهزوم عسكرياً لثانى مرة فى القبائل (٢٢) (١٨٧١). وكان الأسبان هم أول المستهدفين بسبب قوة معدل الإنجاب بينهم ويسبب هجرة متواصلة تتركز فى إقليم وهران، على أبواب وطنهم الأصلى. ويجرى اتهامهم بالسعى إلى استخدام ديموغرافيتهم لحفز تقسيم للمستعمرة لحساب أسبانيا. فالأسبان، الذين يدانيهم الإيطاليون والمالطيون، ينجبون ما يصل إلى ٦٦ طفلاً فى المتوسط فى حين أن الفرنسيين لا ينجبون غير ٤ أطفال. والألمان وحدهم هم الذين ينجبون عدداً أقل من الأطفال. وإذا كان المعدل الوسطى للإنجاب الأوروبى، ٢٩/٠، يظل معقولاً، فإن ذلك يرجع بشكل وحيد إلى أنه كان جد مرتفع عند الأسبان والإيطاليين (٣٦٪)؛ أما عند الفرنسيين، فقد كان منخفضاً بالفعل (٢٢٪) (٣٣).

ويقابل هذا التجنيس المعم للأجناب استقبلاً سيئاً، فهو يسفر عن تزاخم باكثر مما يسفر عن تعزيز. ويكتب المدعو لينورمين فى عام ١٨٨٩ فى كتابه: الخطر الأجنبى فى الجزائر: «إن المجنس هو رائد وكشاف وحامى الأجنبى (...). ويصبح العامل الإيطالى أو الأسبانى مصيبة أخطر من القحط أو من غزو الجراد (٢٤)». لكن المستعمرة تنهى، بطريقتها،

للتجنيسات. فالزيجات المختلطة توحد الفرنسيين والأجانب بأعداد كبيرة. وفى عام ١٨٨٤، نجد أن نحو ريع الزيجات فيما بين الأوروبيين تم عن طريق اختلاط الأجناس الأوروبية، فى مقابل نسبة ١٦٪ فقط فى الفترة الممتدة من عام ١٨٢٠ إلى عام ١٨٨١. ويلاحظ أحد المعاصرين «أن اتجاه الشعوب المختلفة إلى الانصهار يتزايد قوة فى كل عام، بدلاً من أن يضعف (٢٥)، والمدرسة الفرنسية، المحرمة على الجزائريين، تفتح أبوابها بشكل متزايد أمام أطفال الأجانب لإسقاط الحواجز.

وبعد عشرين سنة من إصداره، أدى قانون عام ١٨٨٩ إلى إثراء الجالية الفرنسية بـ ٢٠٠٠٠٠٠ مجنس. وقد تسنى لهذا النجاح أن يحدث بسبب تجارب الحكومة الأسبانية، التى صرحت لمواطنيها بنيل الجنسية الفرنسية. فهل تخسر بذلك ١٥٠٠٠٠ من رعاياها، أى نسبة ١٪ من السكان الأسبان، أم تتخلص بتكلفة زهيدة من فلاحيتها الفقيرين ومن عاطليها؟ (٢٦) ويبقى أن هؤلاء الفرنسيين الجدد، الذين كانوا حتى وقت قريب مروعين بسبب ديموغرافيتهم، سوف يأخذون، بشكل منسجم، مكانهم فى قالب «اللاتينى الجديد» (٢٧). وسوف يكفون عن إثارة الذعر. وإذ تتاكل مشكلة الأجانب من خلال التجنيس، فإن النسيان يطويها. وعند إعلان استقلال الجزائر، كان ٥٠٠٠٠ أوروبياً فقط (امن كل ١٥) هم الذين لم يطلبوا أو لم يحصلوا على الجنسية الفرنسية (الجدول والشكل 1. IV).

والواقع أن مساهمة اليهود المحليين والأوروبيين نوى الأصول الأجنبية إنما تشجع على مولد أمة تنصهر فيها عناصر متباينة فى بوتقة مجتمع واحد. وهذه الأمة، قبل تلاشيتها، تظن أن بوسعها التباهى بأنها تتألف من مليون نسمة (٩٨٤٠٠٠ فى عام ١٩٥٤)، وهو رقم يشكل عتبة رمزية بالنسبة للأقليات فى الإسلام العربى والتركى. وفى مواجهة ديانة الأغلبية، نجد أن هذا المجتمع الجديد، الذى هو فى آن واحد نتاج خالص للثقافة الفرنسية والثقافة متوسطية كوزموبوليتية، سوف يعلى من مشروعيته متذرعاً بالتاريخ. فهو يتذرع بانتمائه إلى الإمبراطورية الرومانية ويتخيل أنه يعقد صلة، وراء عدة قرون من الإسلام، مع التراث الضائع لأفريقيا لاتينية ومسيحية. وقد رصد جاك بيرك بشكل بليغ استحضر أرواح الموتى: «إن (الواقع الاستعماري)، فى تنافسه مع العريش الباحث عن الأصول، يميل إلى إغراقه فى اليم التاريخى. فإلى جانب الأسلمة التى شهدتها «قرون مظلمة»، يحاول أن يعيد إلى الحياة أفريقيا المسيحية (...) وفى هذه المنافسة على جميع المستويات، التى تضع المغربى فى مواجهة اللاتينى الجديد، يهب أوغسطين وسييرين للجدة فوكو تصدياً لفرسان عقبة» (٢٨).

والكيميا السحرية الجزائرية - المستوطنون الفرنسيون أنفسهم يسمعون أنفسهم بـ

«الجزائريين» - لا تتجج لا فى تونس ولا فى المغرب الأقصى. ففرنسا لا تراودها هناك عين
الاطماع الإمبراطورية التى تراودها فى الجزائر. وجيرانها الأوروبيون يسهرون على احتواء
توسعها. ويتكشف أن توحيد العناصر المتباينة غير المسلمة حول النواة الفرنسية هو مهمة
أكثر صعوبة وذلك، بين أسباب أخرى، لأن إيطاليا وبريطانيا العظمى، الأقل تجاوباً من
أسبانيا، تبديان تحفظاتهما تجاه الانفصال عن رعاياهما وعن رعايا التاج المنحدرين من
مالطة ومن جبل طارق. وإن يمتد مرسوم كريميو وقانون عام ١٨٨٩ إلى محميتى تونس
والمغرب الأقصى، حيث لا يتمتع الأجانب نورو الأصول الأوروبية واليهود المحليون إلا بحق
اتخاذ تدابير فردية لنيل الجنسية (الفرنسية). ومن ثم فإن اليهود سوف يحتفظون بشكل أكبر
بكثير مما فى الجزائر بتقاليدهم القومية، شأنهم فى ذلك، من جهة أخرى، شأن غالبية الأجانب
غير الفرنسيين.

وفى المغرب الأقصى، سوف يؤدى تقسيم الأرض إلى منطقتى وصاية قومية - فرنسية
فى الجنوب وأسبانية فى الشمال وفى أقصى الجنوب (إفنى وطارفيا) - ومنطقة نولية (طنجة)
إلى تعزيز تجزئة الجاليات الأجنبية. وفى عام ١٩٥١، مثلاً، كانت شبه غالبية الفرنسيين -
٢٧٠٠٠ تقيم فى منطقة الجنوب، التى لم تجتذب غير ٥٠٠٠٠ أجنبي، غالبيتهم من الأسبان.
وقد فضل ثلاثة أرباع الأسبان الشمال أو طنجة.

عسكريون ومستوطنون وكادحون فى وجه ديموغرافيا الإسلام

كان الفاتحون العرب قد أمسكوا بزمام البلد من الصحراء، قبل وقت طويل من أسلمته
وتعريبه. وبعد ذلك بألف سنة، نجد أن قوة الحملة الفرنسية، القادمة هذه المرة من البحر -
٣٦٠٠٠ رجل لحظة الاستيلاء على مدينة الجزائر، ثم ١٠٠٠٠٠ رجل مع المارشال بيجو - تظل
أيضاً، على مدار أربعين سنة، السيد الوحيد للجزائر. ولا يتردد بيجو فى الإعلان أمام البرلمان
فى عام ١٨٤٠: «لا بد من غزو واسع فى أفريقيا يشبه الغزو الذى قام به الفرنجة، والغزو الذى
قام به القوطيون». وهو يستولى على الساحل قبل أن يقترب من الصحراء. وتمشياً مع التراث
البدوى، سوف يكفل الغزاة الجدد استقلال إمداداتهم عن طريق غارات السلب والنهب. لكنهم،
خلافاً للعرب، الذين جاؤا من بلاد نائية وقليلة السكان، يرون أنهم أقوىاء من الناحية
الديموغرافية ويسبب قرب فرنسا.

وفى إثر الجيش مباشرة، سرعان ما سوف يتجمع بعض المدنيين الفرنسيين، التجار أساساً، فى مدينة الجزائر. وعندئذ يبدأ اختصار فكرة أن تؤدي الزراعة يوماً ما إلى توثيق عرى الارتباط بين عناصر الجيش والإدارة فى أعماق البلاد. وتترك المبادرة الزراعية لعدد من كبار الكولون الذين يمتلكون ويجهزون شيئاً فشيئاً مزارع تتألف من عدة آلاف من الهكتارات كما تترك لكادحين أسبان صفار، سوف يتعدون على أراضي جيرانهم العرب سعيّاً إلى توسيع الأراضي المحدودة التى حصلوا عليها مجاناً من الإدارة. والحال أن المشاعية القروية، التى تميز آنذاك نظام الأرض العربى، سوف تسهل المصادرة.

وفى عام ١٨٣٩، تكاد انتفاضة القبائل تهدد الفتح. فقد كانت الأرياف الإسلامية آنذاك حرة فى حركتها، مثلما سوف تكون حرة فى حركتها أيضاً فى فلسطين خلال انتفاضة عام ١٩٣٦. وتبدأ الإدارة العسكرية الفرنسية، مستندة إلى الكولون المسلحين، فى التخطيط لشكل جديد لاحتلال المكان. فمواردها وحدها لا تكفى لمساعدتها على تطويق البلد بشكل فعال، ومن ثم فإنها تتوجه بالنداء إلى السكان المدنيين وتفتح أبواب الهجرة بشكل واسع. وتخلياً عن تشجيع الممتلكات الزراعية الشاسعة المأهولة بعدد قليل من الكولون والتى ميزت فجر الاستيطان، تشجع خلق قرى أوروبية، مأهولة بشكل كثيف، على الأراضي المصادرة من القبائل، ثم تحفز سكانها على تشكيل أنفسهم على هيئة فيالق مسلحة.

وسوف يلاحظ ديمونتيه بعد ذلك «أن الجيش المخارب، يجب أن يكون متبوعاً بنوع من فيلق استيطاني، يتألف من شبان موفوري النشاط ومسلحين ومنضبطين: وهؤلاء يسكنون القرى ويزرعون الأرض وينشئون أسراً (...)». وهو يحتل قرى يمكنها عند الضرورة صد هجمات السكان الأصليين، أى ينشئ قصبات محصنة ومأهولة بشكل كثيف (...). وبدلاً من الفردية المفرطة السابقة لابد من أن يسود بينهم شعور التضامن الاجتماعى الذى يربط جميع أفراد الجماعة فى وجه خطر واقعى ومتواصل^(٢٩).

ومما يدعو إلى الدهشة أن تشابك الأنشطة الزراعية والعسكرية، وصيغة الأفكار الاشتراكية وأفكار فوربيه، خاصة بعد ثورة ١٨٤٨، سوف تستبق تنظيم الكيبوتزات التى سوف يجرى غرسها فى فلسطين بعد ذلك بقرن. والحال أن المساهمة المدنية لم تكن مجرد مساعدة إضافية، بل عُدّة أساسية فى وجه العدو قادر، بلا حدود، على تجنيد مقاتلين من بين صفوف جماعته السكانية، بل قادر على اللجوء، باسم التضامن الإسلامى، إلى الطاقات البشرية والعسكرية الأكثر ضخامة أيضاً فى المغرب الأقصى، الذى كان آنذاك مستقلاً. وعلى

غرار الكيوتوات (٣٠)، فإن هذه «القصبات المحصنة» سوف تؤسس أسطورة بالنسبة للذاكرة الجماعية للمستوطنين بأكثر من أن تؤسس ركائز اقتصاد كراونياالى جزائري.

والحال أن المستعمرة المدنية الأوروبية، القليلة العدد، كانت تحت رحمة أمراض غريبة عليها مثلما كانت تحت رحمة هجمات القبائل. وسرعان ما تجد نفسها مهددة بالقضاء. وفى حين أن متوسط العمر لا يكف عن التزايد فى المتروبول، نجد أن معدل الوفيات بين صفوفها يبلغ مستوى يليق بعصر وسيط مظلم: أكثر من ٠/١٠٠٠ حتى عام ١٨٥٥. ومعدل المواليد، بالرغم من ارتفاعه بين عامى ١٨٣٠ و ١٨٥١، لا يكفى لتأمين التعويض (عن هذا المعدل للوفيات) (٣١). وفى العقود الأولى، كان من شأن النمو الطبيعي السلبى بصورة منتظمة (-) ١٣/٠٠ بين عامى ١٨٣٠ و ١٨٥١) أن يجر المستعمرة إلى التلاشى بشكل لا مفر منه لولا المساهمة الخارجية. ومن مفارقات التاريخ أن مرارات المتروبول، الثورات والحرب خاصة، هى التى سوف تسمح للمستعمرة الفرنسية بالبقاء. فتورة ١٨٤٨ ترسل إليها ٦٠٠٠٠ من ضحايا السياسة والاقتصاد، الذين يتألفون من عمال باريسيين مفلسين أو عاطلين، وسكان مدن مهمومين غالباً بحياسة ملكية لا تتيحها لهم فرنسا. «بشكل أو بآخر، كانت وراء جميع من جاءوا للإقامة فى الجزائر حياة فاشلة» (٣٢).

أما مشروع إقامة «مملكة عربية» فى الجزائر، والذى صيغ فى ظل الإمبراطورية الثانية، فهو يميز توقفاً مؤقتاً فى الهجرة قبل أن يتلاشى. وكان نابوليون الثالث قد ارتأى إنشاء مملكة عربية تحت الوصاية الفرنسية وخفف الاستيطان تخفيفاً ملحوظاً بحمايته للأراضى الجماعية التى تملكها القبائل من خلال قرار عام ١٨٦٣ (٣٣). على أن الحرب الفرنسية - الألمانية فى عام ١٨٧٠ ثم كومونة باريس سوف تؤدىان بعد ذلك إلى استئناف نشيط للاستيطان. فاهل الأكراس واللورين الذين جردوا من أراضيهم، والكومونيون «المنقولون» (٣٤) خارج مدينتهم، سوف يتدفقون كلهم على أراضى القبائل الغاضبة، التى توضع بحسب شديد تحت الحراسة فى عام ١٨٧١. وهى أكثر من ٤٥٠٠٠٠ هكتار فى منطقة القبائل وحدها، سوف يسلم ١٠٠٠٠٠ هكتار منها على الفور للقادمين من الأكراس واللورين (٣٥). (الشكل 2. IV).

وهذه الهجرات هى أكثر الهجرات أهمية فى التاريخ الفرنسى فى الجزائر. وبعد أن تصل إلى الذروة مع وصول نحو ١٥٠٠٠ قادم جديد فى السنة (أى بمعدل ٠/٠٠٤٢)، فإنها سوف تضعف تدريجياً، بل سوف تنقلب خلال الحربين العالميتين. وهذا البطء يحبط سياسة

تكثيف النسيج القروي الأوروي. وبالنسبة للإدارة العسكرية، كان إيجاد انفراس أوروي كثيف فى أعماق البلاد وليس فقط على السواحل شاغلاً مؤرّقاً، وشرطاً لعدم تكرار خطأ السلف الأسبانى. وخلافاً لآمال الآباء المؤسسين، فإن جماعة فلاحية أوروية وفيرة العدد لن ترى من ثم النور أبداً؛ فالزراعة الكولونىالية تتطور على الضد من ذلك بخطوات عملاق نحو الملكية الكبيرة، التى لا تتطلب الكثير من الأيدى العاملة. «منذ الجيل الثانى للكولون، تندمج ثلاث أو أربع قطع من الأرض فى استثمار واحدة. والملكية الصغيرة تتطور فى اتجاه الملكية المتوسطة أو الكبيرة، ويقل عدد سكان قرى الاستيطان (٣٦)». وهكذا، فنحو عام ١٩٣٠، يملك ٢٤٠٠٠ مالك أوروي ٢٣ مليون هكتار، بمتوسط ٦٧ هكتاراً للمالك الأوروي، فى مقابل ٥٠ ره هكتار بالنسبة للمسلمين.

وسوف يهجر الأورويون الريف شيئاً فشيئاً متجهين إلى المدن، خاصة المدن الكبرى، الجزائر ووهران (الجدول IV.2). وفى عام ١٨٨٦، ولأول مرة، يبلغ معدل سكان المدن بينهم نسبة ٥٠٪. وإذا كانت الإدارة قد تسنى لها تصديق نجاح التآطير الأوروي للآرياف، فإن تفاؤلها لا يدوم طويلاً. فبين صفوف المهاجرين الذين جاءت بهم الحرب وكومونة باريس، يتزايد عدد أولئك الذين سوف يتخلون بسرعة عن الآرياف، التى لا تجد منذ ذلك الحين من يخلفهم فيها، لأن القادمين الجدد سوف يقيمون فى المدن. وهذا الحب للمدن لن يتوقف. فعشية الاستقلال، كان اثنان من كل ثلاثة فرنسيين ساكنى مدن، وكان نصف هؤلاء من سكان مدينة الجزائر أو وهران.

أما فى القرن العشرين، فإن انحدار السكان الريفيين الأورويين - ٣٠٠٠٠٠ نسمة موزعين توزيعاً سيئاً على الأرض - قد كف عن جذب الاهتمام، فيما عدا اهتمام عدد قليل من المراقبين. ومن هؤلاء، مثلاً، شارل - أندريه جوليان، الذى رصد بالفعل، فى عام ١٩٣١، فشل الاستيطان الأوروي فى الآرياف، مما أثار هياجاً عارماً فى المستوطنة (٣٧). وقد أعلن باحثان إحصائيان تجنباً الحديث عن البعد السياسى لاستنتاجهما: «ليس من المجازفة التأكيد على أن المدينة تشكل ملاذاً للسكان الأورويين، وهو ما يرمز، بحكم ظروف متباعدة - ذات طابع اقتصادى بوجه خاص، إلى اتجاه إلى هجر الآرياف» (٣٨). ومن المؤكد أن البواعث الكلاسيكية للنزوح عن الريف كانت تمارس فعلها: التردد على المدارس فى الآرياف وجاذبية المدينة. ولكن لم لا نرى أيضاً ارتكاس أقلية تأخذ فى التجمع؟ فنحو ذلك الزمن نفسه، كان مسيحيو سوريا متواجدين هم أيضاً فى المدن. وبعد ذلك بوقت قصير، فإن أقباط مصر،

شأنهم في ذلك شأن فرجة الممالك اللاتينية قبل ذلك بسبعمئة سنة، وعدة طوائف مسيحية في أرض الإسلام العربي، سوف يتحسسون في لحظة أو أخرى حرج التبعر الزائد عن الحد. وفي تلك اللحظة تصحر الديموغرافيا الإسلامية من سباتها في المغرب.

والواقع أن الاندفاع الأوروبي الجديد، بحكم مجرد احتفاله بالذكرى المئوية له في عام ١٩٣٠، كان قد تجاوز من حيث المدة مدة مملكة القدس الأولى. إلا أنه، بينما كانت الجالية الاستعمارية تحتفل في صخب بالاستيلاء على مدينة الجزائر وبينما كانت الإدارة الفرنسية في الرباط تعلن المرسوم الخاص بالبربر^(٣٩)، وبينما كانت الكنيسة - في مناخ مؤتمر استشهادي يشار فيه إلى ذكرى الحملات الصليبية - تجدد الارتباط في قرطاج بتراث الجامع المسكونية الضائع منذ روما، تبدأ الأرقام في كشف النهوض الإسلامي الذي لا يقاوم. وتكتب صحيفة صادرة في مدينة تونس: «إن الحرب الصليبية تبدأ من جديد: هكذا تعلن اللافقات أو الثياب التي يجرى إلباس آلاف الأطفال الأوروبيين بها. والمسلمون أيضاً يفكرون في الحروب الصليبية التي أراقت الكثير من الدماء وألقت بكثير من البشر في البربرية^(٤٠)».

فهل كانوا يحسون آنذاك أنهم أقوياء استناداً إلى يقين العدد، أولئك المسلمون الذين جرى التنبؤ في أواخر القرن التاسع عشر بزوالهم القريب؟ يكتب طيب في القرن الماضي: «إن اعتقادي المدروس هو أن السكان الأصليين، بدلاً من أن يتزايدوا، سوف يتناقصون بلا توقف، إلى الدرجة التي يمكن بها التنبؤ بزوالهم بعد قرن أو قرنين من الآن. فكيف يمكن التسليم بحيوية المسلمين الذين يزيد عدد موتاهم بشكل منتظم عن عدد مواليدهم؟»^(٤١) وفي عام ١٩٢٥، بينما كانت تقنيات التنبؤ الديموغرافي تحرز تطوراً مشهوداً، يسقط الديموغرافي الأمريكي رايموند بيرل ضحية لقصر نظر مماثل. فهو يتوقع أن يصل عدد الجزائريين المسلمين في عام ١٩٨٠ إلى ٤ ملايين^(٤٢)، في مقابل الـ ١٨.٦ مليون الذين سوف نجدهم بالفعل في ذلك التاريخ، أي بفارق ٧٠٪. وفي اللحظة نفسها، يستخدم كتاب موهوبون قلما ساحراً لرسم ما يعتقد العلماء أنهم يتنبأون به. إن هنري مونثران، مثلاً، يكتب عن: «بؤس الإسلام، افتقاره إلى القيم، افتقاره إلى الموهبة، روحه الخائبة وغير المحددة، ذلك هو الجنس البائس المقهور بامتياز. إنه جنس يشرف على الموت، يجهز عليه اتصالنا به، يبكيه دون عويل، دون حرارة^(٤٣)».

والحال أن معدل إنجاب المسلمين، الذي كان مائزاً معتدلاً غداة الحرب العالمية الأولى،

لن يتخلف عن الارتفاع بقوة: ٠.٢٥٪ في عام ١٩٣٥، وفق الأرقام الرسمية (٠.٤٢٪ في الواقع).^(٤٤) وأنداك يجرى إدراك أن معدل الإنجاب الأوروبي قد تم تجاوزه وأن انخفاض معدل الوفيات قد بدأ يفيد المسلمين، بما يحقق انقلاباً في هيراركية النموين الديموغرافيين (الإسلامي والأوروبي) (الجدول والشكل IV.3). والواقع أن الإحصاء الذي كان، في العشرينيات، قد أوجد اطمئناناً بإشارته إلى أن النمو الطبيعي للمسلمين أقل بنسبة واحد إلى اثنين من النمو الطبيعي للأوروبيين^(٤٥)، سوف يبدأ في إثارة الانزعاج منذ العقد التالي بتوضيحه لانقلاب العلاقة. فالمسلمون ينمون الآن بمعدل يزيد مرتين ونصف مرة عن معدل نمو الأوروبيين، في لحظة تتراخى فيها الهجرة من أوروبا أو يهجر فيها الكولون الأرياف.

وتتقلب الصورة بين الحربين العالميتين. والجالية الاستعمارية تتجاهل ذلك بكبرياء فهي «تعجز عن أن تميز، في صعود المنحنى الذي يتسارع منذ عام ١٩٣٠ ويشكل أكبر منذ عام ١٩٣٥، هذا الانتقام الكمي الشرقي الذي يفرق من ثم السلطة الاستعمارية^(٤٦)». لكن العلماء والسياسيين يميزونه. وهم يدققون في الأرقام التي تنبئ بالاندحار. «إن مثل هذا الوضع الديموغرافي يطرح في المجال الاقتصادي - وأضيف: وفي المجال السياسي - مشكلات سوف يكون من الصعب بشكل متزايد في المستقبل حلها. فهل سوف تجد فرنسا نفسها مغلولية - من الناحية الديموغرافية - بفتحها؟^(٤٧)» إن «العرب الديموغرافي» ينتشر انتشار نثار البارود.

وفيفصل عقد بالكاد بين نبوءة بيرل وتقرير متشائم جرى عرضه أمام مؤتمر ديموغرافيين دوليين، في عام ١٩٣٧. ففي تقريره الذي يحمل عنوان «التراجع النسبي للأوروبيين في الجزائر»، يعبر مينار، قبل وقت طويل من أمثال فوجت^(٤٨) وعراقيين آخرين، عن انزعاج المترفين في وجه «الأجناس المنحطة»: «إن هذه الظاهرة (ظاهرة «انحسار الإنجاب») لا تستثنى الجماعات السكانية «الأوروبية» ذات الاتصال العددي السائد أو الأدنى مع الجماعات السكانية من النوع شبه المتحضر. وسواء أكان الحديث يدور عن الولايات المتحدة (الزنج) أم عن نيوزيلندة (الماوري) أو حتى عن أفريقيا الجنوبية حيث توجد مع ذلك المستعمرة الأكثر حيوية بكثير بين المستعمرات الأوروبية في العالم، فإن الجماعة السكانية الأكثر تحضراً تشهد تناقص نسبتهما في إجمالي السكان. (...) وهذه الظاهرة، الطبيعية تماماً، تجد تفسيرها بسهولة في واقع أن الأجناس التي نسميها بالأجناس المنحطة تستفيد الآن استفادة تامة من الخيرات (المادية) لحضارتنا في حين أننا نجد أنفسنا مسممين

بتجاوزاتها (الاشتراكية، المادية، إلخ). وهكذا فبدلاً من أن تغرق الموجة الأوروبية العالم، كما كان بالإمكان الظن من قبل، تتراجع هذه الموجة أمام موجة أخرى، هي الآن أقوى بكثير. (...) وفيما يعنيّا بشكل شخصي، باستثناء حالة كاليونيّا الجديدة التي ما تزال تافهة، فإن المجال الوحيد المتاح لنا للاستيطان يوجد في أفريقيا الشمالية^(٤٩).

والثلاثينيات هي أعوام الانقلابات الكبرى. الانقلاب الديموغرافي ولكن أيضاً الانقلاب السياسي. والأسئلة الحقيقية، المطروحة لأول مرة دون مداراة، سوف تظل بلا إجابة. وهي أيضاً أعوام فرص ضائعة. وتلك هي حالة مشروع قانون فيوليت، الذي قدم لأمانة سر البرلمان في عام ١٩٣٠ وتبنته حكومة ليون بلوم في عام ١٩٣٦، والذي كان من شأنه منح حق التصويت على الفور لـ ٢١٠٠٠ مسلم من «الصفوة الفرنسية» على قدم المساواة مع ٢٠٣٠٠٠ فرنسي في الجزائر. وكان يمكن للسكان المسلمين أن يحصلوا بعد ذلك شيئاً فشيئاً على حق المواطنة. لكن الكولون حاربوا هذا المشروع بعنف، على الرغم من تردده النسبي. ويقدم حكام المدن على حمل مسؤولية الاستقالة الفادحة. وتبريراً لهذا الرفض، يجري من جديد استحضار تاريخ الرومان، «الذين وجدت إمبراطوريتهم نفسها على الفور في ورطة بمجرد نيل جميع الشعوب الخاضعة حق المواطنة واضمحل طابعها القومي عندما منح أنطونين كاراكالا هذا الحق لكل من هب وبه^(٥٠)».

وقد خلقت الجبهة الشعبية (الحاكمة في فرنسا آنذاك - المترجم) دينامية مؤقتة لتبديل وضعية الغالبية المسلمة والسماح لها بالصعود تدريجياً إلى غالبية سياسية. وكان بوسع المدرسة أن تشكل بؤرة لسياسة جزائرية جديدة، فباجتذابها للشبيبة على نطاق أوسع، كان يوسعها توسيع نيل حق المواطنة الذي ارتآه قانون فيوليت. وكان ٦٪ من السكان الذين هم في عمر الدراسة مسجلين في مدارس في عام ١٩٢٩، وهذه النسبة لا تزيد في عام ١٩٤٤ عن ٨٪؛ أما في عام ١٩٥٤، في بداية حرب الجزائر، فهي لا تزيد عن ١٥٪. وبينما كان ما يزال هناك وقت، فإن الفرائكفونية، التي - ويا للمفارقة! - سوف يتعين عليها الانتظار إلى نيل استقلال الجزائر كي تبلغ الجماهير^(٥١)، كان يمكن لها رفع حواجز سوء التفاهم الثقافي. والخلاصة أن عملاً من هذا النوع كان يمكن له دون ريب تحويل مسار الديموغرافيا الجزائرية، بقدر ما أن هذا الديموغرافيا قد أثبتت فيما بعد تأثيرها بالتعليم، خاصة تعليم النساء.

ومنظوراً إليه من المتروبول، فإن الاستيطان الأوروبي في أفريقيا الشمالية لم يُبد بعد ما

يدعو إلى الانزعاج. ذلك أن «أجزاء الجديدة»^(٥٦) - تونس والمغرب الأقصى، المتاحين بشكل متأخر للاستيطان - تعوض ما لا تصل الجزائر بعد إلى بلوغه. وإذا جيء الدور عليهما، فإنهما يسمحان مؤقتاً للسكان الأوروبيين بتأكيد حضورهم. وهكذا فإن المجال الاستعماري، الموسع ليشمل المغرب كله^(٥٧)، يحسب، وذلك دون علم بناته، كياناً منسياً منذ زمن الأمويين. فالنضالات من أجل الاستقلال، بشكل عابر، ثم البحث، باتفاق مستقبلية أوسع، عن سوق مشتركة، اتحاد المغرب العربي، الذي جرى تدشينه في عام ١٩٨٩ في مراكش، سرعان ما سوف تؤدي إلى تعزيز تضامنه.

ومع مراعاة تفاوت الظلال، يتكرر التاريخ الجزائري في تونس وفي المغرب الأقصى. ذلك أن الاستيطان الأوروبي، بالرغم من هيمنة المدينيين عليه - نحو ثلاثة أرباع السكان الأوروبيين في المحييتين - يفتح الأرياف أيضاً. فقلقاً من تقدم الإيطاليين وارتياباً في نويا حكومتهم، تشجع الإدارة الفرنسية الكولون على احتلال الأرض الزراعية. ففي تونس، بعد أن كان الاستيطان الريفي قد أهمل في البداية، يجري تدشينه نحو عام ١٩٠٠ ويكتسب اتساعاً بعد الحرب العالمية الأولى. وبين عامي ١٩١٠ و١٩٢٩، سوف يجري توزيع ٢٧١.٠٠٠ هكتار على ١٤٠٠ من الكولون. وفي المغرب الأقصى، في الثلاثينيات، سوف يجري توزيع ٢ مليون هكتار من الأراضي الجيدة توزيعاً شبه متساوٍ بين الفلاحين (٨٠.٠٠٠ هكتار) والكولون (٧٢٢.٠٠٠ هكتار)، حيث يترك مازاد عن ذلك للمخزن، خزانة السلطان، أو للمجتمعات المحلية^(٥٨). وهكذا، ففي مغرب عام ١٩٣٠، كان ثلث المساحة المنزرعة قد انتقل إلى أيدي الأوروبيين. وهذه الركيزة الزراعية المتينة إنما تخضع لمنطق سياسي - تأمين دوام الوجود الاستعماري - باكثر مما تخضع لمنطق اقتصادي. ويكتب العروى: «إن هذه القاعدة العقارية قد اعتبرت ضرورة سياسية، وفي هذا تواصل الأيديولوجية العتيقة المترومنة التأثير على الأذهان»^(٥٩).

وفي تنافس ظاهري مع جزائر الأوج الاستعماري، يقترب عدد المستوطنين غير المسلمين في المحييتين من المليون: أكثر من ٢٠٠.٠٠٠ في تونس (١٩٥٦) ونحو ٧٠.٠٠٠ في المغرب الأقصى (١٩٥١) أي ١١٪ من إجمالي السكان في تونس و٧٪ من إجمالي السكان في المغرب الأقصى، في مقابل نحو ١٤٪ في الجزائر (الجدولان IV.4 و IV.5 والاشكال IV.4 و IV.5 و IV.6 و IV.7). وهذه الأرقام تتضمن اليهود المحليين. لكنه لا التشريع ولا السوسيولوجيا يسمحان بمثل هذا التجميع. فهذه الجماعات السكانية لا يجمع بينها غير عدم الانتماء إلى

الإسلام. وهى فى مجموعها تشكل فئة مصطنعة فى هذين البلدين حيث كان الأوروبيون أقل انفراساً مما فى الجزائر وحيث كان الأجانب واليهود المحليون أقل تفرساً. والوجود الاستعماري نفسه، والذي يتخذ مجرد شكل محمية، لم يكن يتمتع بإرادة جد قوية فى الدوام. وفى عام ١٩٢٦، يكتب صحفى، دون أن تخامره أية أوهام: «لم تمر سنوات كثيرة على إدراك السكان الفرنسيين فى المغرب الأقصى لواقعهم الاجتماعى. فهم لم يكونوا فى البداية غير ملحق تابع للسلطة المركزية (٥٦)».

أما فيما يتعلق بالطائفة اليهودية المغربية، وبحسب رأى أحد أفرادها، فإنها «قد ظلت فى غالبيتها الساحقة غريبة عن غوايات الغرب، ومتشبثة بقيم يهوديتها التقليدية ووفية فى آمالها؛ وقد وجدت نفسها جاهزة، عندما حانت اللحظة، للهجرة بشكل جماعى إلى إسرائيل، متجاهلة اعتبارات الواقع السياسى، ومستجيبة لنوازع خلاصية - روحية ومحقة بذلك حلماً ألفياً (٥٧)». وسوف يجرى بعد ذلك بوقت طويل رصد التباعد الذى كان قائماً بين فرنسيى ويهود المغرب الأقصى، حين يستقر هؤلاء الآخرون فى إسرائيل، بينما يؤثر يهود الجزائر الاستقرار فى فرنسا.

الإسلام دين وحيد بعد ألف وثلاثمائة سنة

إن تنمة الحكاية ماثلة فى ذاكرة الجميع. فغداة اتفاقيات إيشيان (١٩٦٢)، سوف ينزح الكولون كلهم تقريباً إلى فرنسا. وفى معمان السعار الوطنى، سوف يُسمى بـ «العائدين إلى الوطن» تلك الأسر التى ولدت فيما وراء البحار، والتى انحدر أجداد أكثر من نصفها من أسبانيا أو من إيطاليا.

وعشية الصدمة المزدوجة التى مثلتها الاستقلالات (المغاربية) وإنشاء إسرائيل، كان يحيا فى المغرب مليونان من غير المسلمين، من مسيحيين نوى أصول أوروبية ومن يهود عاشوا فيه منذ زمن سحيق. وهذا الوجود، الذى كان يراد له البقاء إلى الأبد، يختفى من الناحية الفعلية. والمائة ألف أوروبى الذين يسكنون الآن المغرب ليسوا بعد، فيما عدا حالات خاصة، بقايا أثرية للجالية الاستعمارية السابقة، بل هم أجانب، غالييتهم من المهاجرين، لا يختلف وضعهم فى شىء، بقدر من التفاضى، عن أى قائم أجنبى آخر (٥٨).

وفى شرقى البحر المتوسط، كانت قد وقعت مأساة من نوع آخر قبل ذلك بنصف قرن،

وأدت هي الأخرى إلى اختفاء طائفة غير مسلمة، هي ملايين اليونانيين والأرمن الثلاثة في تركيا. وبين الحديثين، توجد نقطة مشتركة. ففي الإمبراطورية العثمانية كما في المغرب الكولونيالي تمتع أهل الكتاب بوضع استثنائية. أما أن الإسلام قد منحها في الحالة الأولى وأن المترولوج المسيحي هو الذي فرضها في الحالة الثانية فإن ذلك لا يغير من الأمر شيئاً؛ فقد كان هناك اختلاف في الوضعية من الناحية القانونية. وربما لأن هذه الطوائف تمثل استثناءً، من حيث المعتقدات والسلوك، فإنها سوف تخسر مكانها في الدولة القومية التي تعمل على تحقيق التجانس.

واليهود أنفسهم، الذين تواجدوا بعد الاختفاء الأول للجماعة المسيحية عندما كانت جماعة محلية، في القرن الثالث عشر، لن يتواجدوا بعد اختفائها الثاني، حيث أصبحت أجنبية الأصل. ولا يبقى منهم الآن غير أسر قليلة، يوشك بعضها على الرحيل. وسوف يحسم مصير هذه الطائفة عبر آخر اندفاعين عظميين لأوروبا، الأول، المحلي، إلى المغرب، والثاني، الأبعد، إلى شرقى البحر المتوسط. فالاحتلال الفرنسي، بدمجه الطائفة اليهودية الجزائرية في القوام الاستعماري دمجاً تاماً، سوف يرغمها على مشاطرته مصيره النهائي: الخروج^(٥٩). وإسرائيل، من جهتها، لم يكن بوسعها اكتساب قاعدة ديموغرافية راسخة إلا بالاعتماد على المستودع البشري (اليهودي) الثرى في البلدين المغربيين الآخرين. وفي المغرب الأقصى، مثلاً، أدت الحروب العربية - الإسرائيلية المختلفة إلى توضيح تاكل الطائفة اليهودية: فمن ٢٦٥٠٠٠ نسمة في عام ١٩٤٨، لم يعد اليهود غير ٢٢٢٠٠٠ في عام ١٩٥١، بعد إنشاء إسرائيل، و١٦٠٠٠٠ في عام ١٩٦٠، بعد حملة السويس، و٣١٠٠٠ فقط في عام ١٩٧١، بعد حرب ١٩٦٧.

والآن وقد انتهى الوجود الديموغرافي لأوروبا، ما الذي يبقى من وجودها الثقافي، من هذه الجماعة اللاتينية التي أعيد إدخالها إلى أفريقيا الشمالية في العصر الكولونيالي^(٦٠)؟ إذا حكمنا على الأمر من زاوية اللغة، فإن التقدم يعتبر ملحوظاً. فعندما ترك فرنسا المغرب، تنفصل عن أربعة وعشرين مليون مسلم، يتحدث مليونان منهم بالفرنسية. واليوم، تكذب الأرقام انطباعاً واسع الانتشار، مؤداه أن اللغة الفرنسية تتراجع في المغرب^(٦١). ففي الجزائر، على سبيل المثال، حيث تتكرر المجادلات حول استخدام لغتين وحول التعريب، لم تكن هناك غير نسبة ٣١٪ لمن يتحدثون بالفرنسية في الأجيال المتعلمة قبل الاستقلال، وترتفع نسبتهم إلى ٧٥٪ في الأجيال التي التحقت بمدارس الجمهورية الجزائرية، بعد عام ١٩٦٢^(٦٢).

ومنذ نيل الاستقلال إلى الآن، أسهم توسع التعليم بالفرنسية فى زيادة المتحدثين بالفرنسية بضعف إسهام الديموغرافيا فى هذه الزيادة الناجمة عن إرادة سياسية بأكثر من أن تكون ناجمة عن آليات الإنجاب (٦٣).

وبفضل المدرسة، التى ظلت ثنائية اللغة، بالرغم من بعض التحولات المفاجئة، وبقدر أقل بفضل الديموغرافيا، يتحدث بالفرنسية اليوم ٢٣ مليوناً من إجمالى السكان المغاربة الذى يصل إلى ٦٠ مليوناً (٦٤). وبعد فرنسا، تنصدر الجزائر قائمة المتحدثين بالفرنسية (الجدول IV.6). وقد كتب مؤخراً جان بورنجا - ييشا: «إن جميع من قادوا فرنسا، فى الماضى، فى مغامراتها الاستعمارية سوف تذهلهم هذه النتائج. لقد كانوا يحلمون بإمبراطورية، لكننا جنينا ما هو أفضل بكثير: الفرانكفونية (٦٥)». ومن السابقتين، الأفرنجية فى الأرض المقدسة والأسبانية فى المغرب، تقابل الأولى اليوم بالاستنكار بينما يطوى النسيان الثانية. وخلافاً لذلك، نجد أن التاريخ الكولونيالى قد قاد إلى سيميترية مقارعة: إن مليونين من المغاربة فى فرنسا يخلقان المليونين من الفرنسيين اللذين كانا فى المغرب. وتتواجد الأسس الديموغرافية والثقافية التى تسمح بنوام التبادل.

جداول وأشكال الفصل الرابع

IV . 1 الجدول

سكان الجزائر بحسب الديانة والجنسية
(بالآلاف)

السنة	فرنسيون	أجانب	مسيحيين	يهود	مسلمون	الإجمالي
1833	4	4	8	40	1952	2000
1836	6	9	15	41	1945	2000
1841	17	21	37	41	1922	2000
1845	46	49	95	42	1891	2028
1851	66	65	131	42	2324	2497
1856	93	67	159	43	2307	2509
1861	112	81	193	43	2733	2969
1866	122	96	218	44	2652	2914
1872	130	116	245	45	2125	2415
1876	141	155	297	48	2463	2808
1881	178	181	360	53	2843	3255
1886	204	203	407	58	3287	3752
1891	252	216	468	63	3577	4108
1896	299	212	510	68	3783	4362
1901	341	218	559	75	4089	4723
1906	433	166	599	81	4478	5158
1911	473	189	662	90	4741	5493
1921	503	189	692	99	4923	5715
1926	553	176	729	105	5151	5984
1931	623	148	772	110	5588	6470
1936	704	127	831	116	6201	7147
1948	746	46	792	130	7679	8601
1954	796	50	846	138	8449	9433
1966	65	16	81	3	12018	12102
1977	53	13	65	2	16881	16948
1987	40	9	49	1	22989	23039

المصادر : تعداد الفترة الاستعمارية وفترة الجزائر المستقلة. جاك طيب، يهود المغرب.... مصدر سبق ذكره؛ الموسوعة اليهودية، مادة «الجزائر»، مصدر سبق ذكره .

الجدول 2. IV
التركز المفسري للسكان الأوربيين في الجزائر
(بالآلاف)

السنة	1866	1886	1906	1926	1931	1936	1948	1954
مدينة الجزائر وهران قسنطينة بن سبي بلعباس مستغانم تلمسان فياليفيل ستيف	52,0 31,0 14,0 ارلا 6,2 6,5 7,1 10,8 3,4	80,8 56,1 19,9 20,7 14,5 5,9 8,3 17,4 3,7	134,5 89,0 26,0 30,0 19,4 10,7 11,9 15,9 6,3	193,2 126,5 41,5 31,1 28,0 12,9 11,6 20,8 8,9	214,5 131,8 48,2 37,2 27,7 12,8 11,7 23,2 9,9	230,2 155,6 50,5 45,0 30,3 17,6 12,6 32,8 8,2	247,7 174,0 37,2 44,5 28,3 18,0 12,9 27,5 8,4	276,6 181,6 40,7 46,1 31,9 19,2 11,8 28,3 7,9
الجميع المفسري	142,1	227,3	343,7	474,5	517,0	582,8	598,5	644,1
الأوربيون	218,0	464,8	680,3	833,4	881,6	946,0	922,3	984,0

الجدول 3 . IV

معدل المواليد والوفيات والزيادة الطبيعية في الجزائر (1922 - 1935)

السنة	1922	1926	1930	1935
معدل المواليد (0/00)				
الأوروبيون	28	25	25	21
المسلمون	25	28	30	35
العلاقة (%)	89	112	120	167
معدل الوفيات (0/00)				
الأوروبيون	19	16	15	14
المسلمون	21	16	14	18
العلاقة (%)	111	100	93	129
معدل الزيادة الطبيعية (0/00)				
الأوروبيون	9	9	10	7
المسلمون	4	12	16	17
العلاقة (%)	44	133	160	243

المصدر : بيانات غير مصححة للحالة المدنية الكولونيالية.

الجدول 4 . IV

سكان تونس بحسب الديانة والجنسية
(بالآلاف)

السنة	فرنسيون	أجانب	مسيحيون	يهود	مسلمون	الإجمالي
1881	1	18	19	25	1476	1520
1886	4	26	29	27	1520	1577
1891	10	33	43	29	1566	1638
1896	16	66	82	32	1612	1726
1901	24	87	111	35	1661	1806
1906	35	94	129	38	1710	1877
1911	50	126	176	41	1722	1939
1921	55	102	156	48	1889	2094
1926	71	102	173	54	1932	2160
1931	91	104	195	56	2087	2338
1936	108	105	213	60	2336	2608
1946	144	96	240	71	2898	3209
1956	180	75	255	58	3470	3783
1966	17	16	33	8	4501	4541
1975	12	9	21	5	5605	5631
1984	7	6	13	3	7001	7017

المصادر : تعدادات وتقديرات الحماية وتونس المستقلة: جاك طيب، يهود المغرب ...، مصدر سبق ذكره؛
الموسوعة اليهودية، مادة «تونس»، مصدر سبق ذكره.

الجدول 5 . IV

سكان المغرب الأقصى بحسب الديانة والجنسية
(بالآلاف)

السنة	فرنسيون	أجانب	مسيحيون	يهود	مسلمون	الإجمالي
1912	2	2	4	115	4881	5000
1921	52	77	128	116	4716	4960
1926	67	83	150	142	5339	5631
1931	117	106	223	152	5833	6207
1936	137	124	260	191	6773	7223
1947	233	168	401	224	8036	8660
1951	267	181	449	222	8529	9200
1960	172	132	304	160	11163	11626
1971	48	37	85	31	15263	15379
1982	27	20	47	15	20358	20420

المصادر: تعددات وتقديرات الحمائتين الفرنسية والإسبانية لمنطقة طنجة الدواية والمغرب المستقل: جاك طيب، يهود المغرب مصدر سبق ذكره؛ الموسوعة اليهودية، مادة «المغرب»، مصدر سبق ذكره.

الجدول 6 . IV

السكان الفرنكوفونيون في المغرب عند الاستقلال واليوم
(بالآلاف)

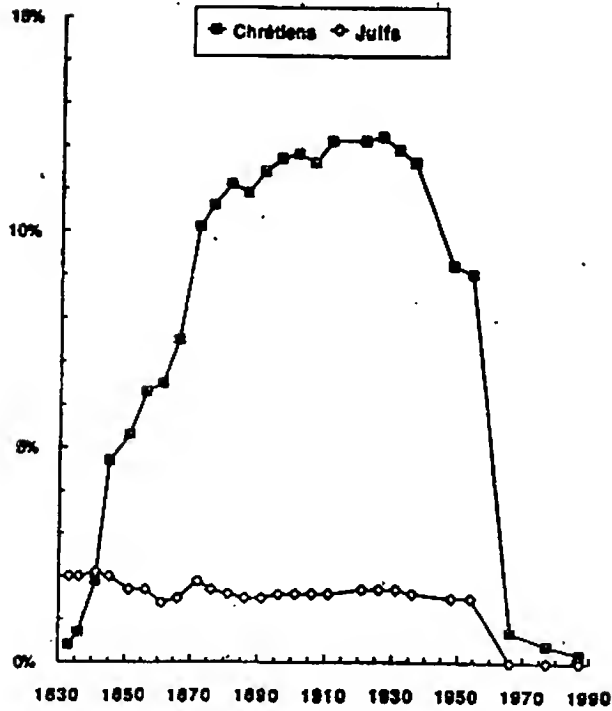
اليوم	عند الاستقلال	البلد
12800	1400	الجزائر (1962)
6700	430	المغرب الأقصى (1956)
3400	470	تونس (1956)
22900	2300	المجموع

المصدر : حساب أجراه المؤلفان استناداً إلى بيانات التعدادات.

الشكل 1. IV

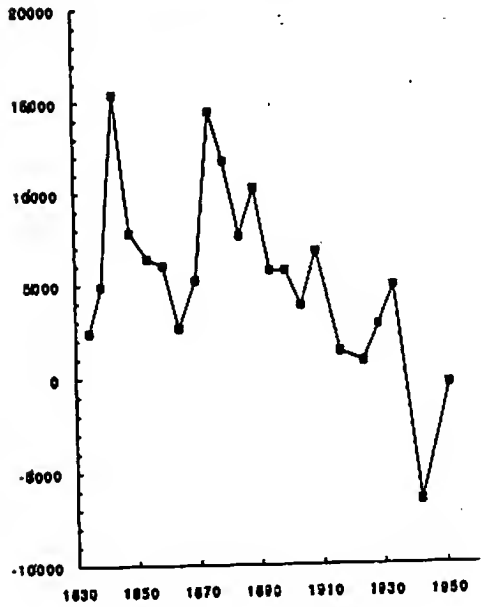
نسب المسيحيين واليهود في الجزائر

(1987 - 1833)



الشكل 2. IV

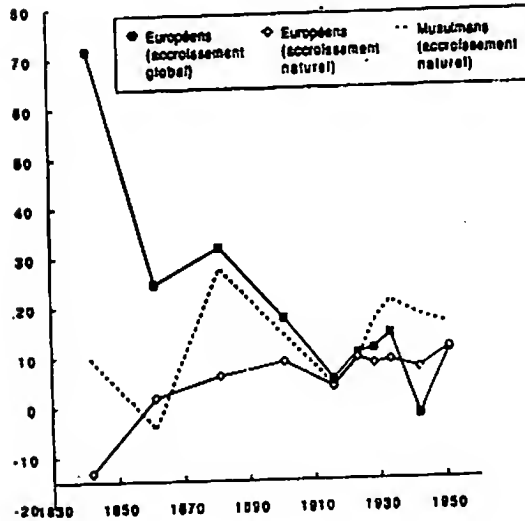
الهجرة الأوروبية إلى الجزائر (1830-1860)
(النتائج السنوية)



الشكل 3. IV

معدل زيادة

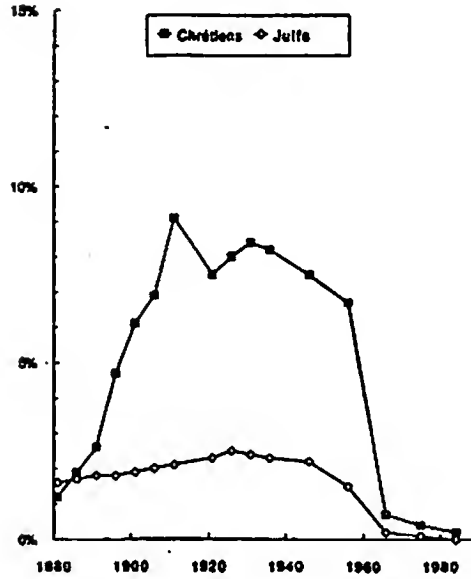
الجماعات السكانية في الجزائر (1830-1954)
(0/100)



الشكل 4 . IV

السكان المسيحيون واليهود في تونس

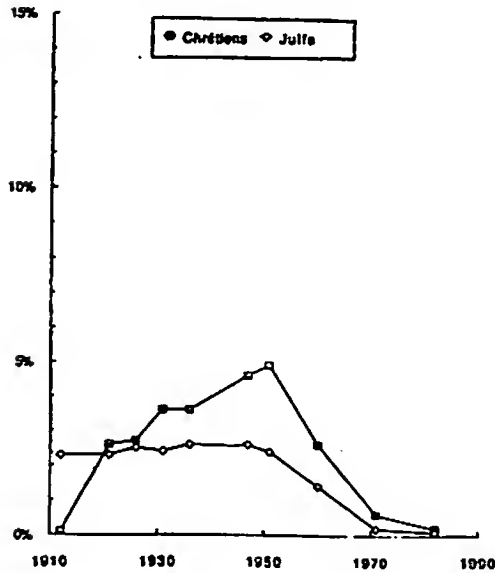
(1881 - 1984)



الشكل 5 . IV

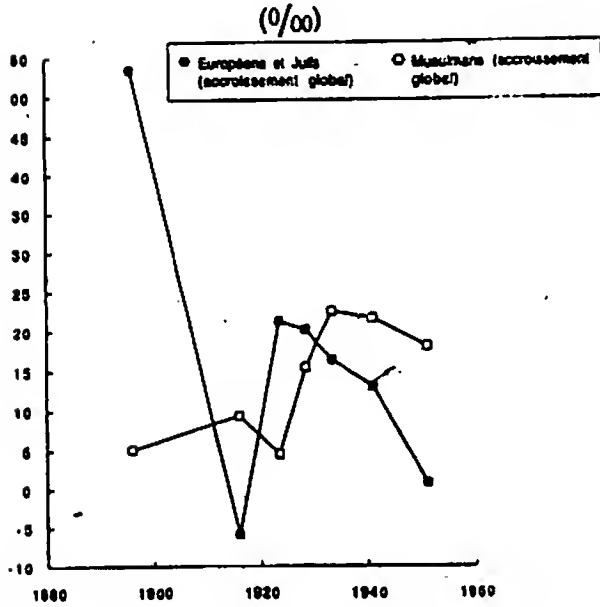
نسب المسيحيين واليهود في المغرب الأقصى

(1912 - 1982)



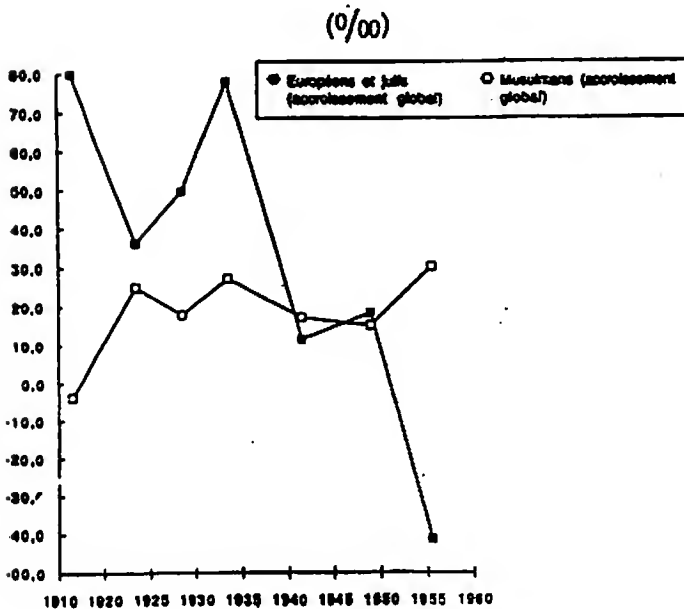
الشكل 6 . IV

معدل زيادة الجماعات السكانية في تونس
(1882 - 1956)



الشكل 7 . IV

معدل زيادة الجماعات السكانية في المغرب الأقصى
(1912 - 1960)



حواشي الفصل الرابع

- 1 - Le fil qui rattache les Croisades à l'irruption de L'Europe au xix^e siècle puis à la naissance de l'Etat hébreu n'a pas échappé à l'historien israélien des Croisades, Joshua PRAWER: "Le pays (la Palestine) lui-même sombra dans un long oubli jusqu' à ce que le fracas du canon, au xix^e siècle, rappelle à l'Europe l'époque de la grandeur des Croisades, et que le labour profond du paysan juif fraie la voie à une nouvelle installation", *Histoire du royaume Latin de Jérusalem*, CNRS, Paris, 1969.
- 2 - Par exemple André CHOURAQUI, *Les Juifs d'Afrique du Nord entre L'Orient et l'Occident*, Paris, 1965.
- 3 - Sur 800000 personnes de nationalité française; Pierre NORA, *Les Français d'Algérie*, Paris, Julliard, 1961.
- 4 - G. ACHER, "Le Peuplement espagnol dans l'Algérie occidentale", *Bulletin de Géographie d'Aix- Marseille*, n°1, 1955.
- 5 - *La Description de l'Egypte*, œuvre de nombreux savants et graveurs français.
- 6 - Marc BAROLI, *Les Français en Algérie*, Hachette Paris, 1967.
- 7- Abdallah LARAoui, *Histoire du Maghreb. Un essai de synthèse*, Maspero, Paris, 1982.
- 8 - Art. "Lavigerie", *New Catholic Encyclopedia*, McGraw- Hill, New York, 1968.
- 9 - Jacques BERQUE, *Le Maghreb entre deux guerres*, Seuil, Paris, 1962. Peut-être furent- elles plus nombreuses: l'auteur prend en effet sa source au journal *L'Humanité*, enclin dans les années 1930 à la dérision envers l'Eglise.
- 10 - Chanoine P. REPETICCI, *L'Algérie chrétienne - Esquisse Historique*, Alger, 1930. Le chanoine Jules TOURNIER exprime une idée similaire : *La Conquête religieuse de l'Algérie*, Paris, 1930.
- 11 -Victor DEMONTÈS, *L'Algérie, économique. Un siècle de colonisation: Evolution historique de la colonisation de l'Algérie*, Imprimerie algérienne, Alger, 1930.
- 12 - Profession de foi musulmane, requise pour l'adhésion à l'islam : "Il n'est de dieu que Dieu et Muhammad est son Prophète".
- 13 - Charles- André JULIEN, "Introduction", in Pierre NORA, *Les Français d'Algérie*, op. cit.
- 14 - Ministère de l'Algricuture et du Commerce, *Annuaire statistique de la France*, Paris, 1878.
- 15 - Algérie du Nord seulement: chiffre officiel, mais sous- estimé.
- 16 - Jacques BERQUE, *Le Maghreb entre deux guerres*, op. cit.

17 - Gouvernement général civil de l'Algérie, *Etat de l'Algérie*, Alger, 1881.

18 - G. YVER, art. "Algérie", *Encyclopédie de l'Islam*, 1^{re} édition, 1913. Pierre NORA, *Les Français d'Algérie*, *op. cit.*

19 - Cité par Jacques TAIEB, "Les Juifs du Maghreb au XIX^e siècle. Aperçus de démographie historique et répartition géographique", *Population*, n°2, Paris, 1992. Ce constat fait en Tunisie vaut sans doute pour l'ensemble des juifs du Maghreb, avant le décret Crémieux.

20 - La quantification du judaïsme algérien devint de ce fait difficile. Les recensements ne distinguèrent plus les juifs naturalisés des Français d'origine. Jusqu'en 1936, les Formulaires des recensements conservèrent pourtant la rubrique suivante: "Etes- vous israélite naturalisé par le décret de 1870 ou issu d'israélites naturalisés par ce décret?" Jacques TAIEB, *ibid.*

21- Yvonne QUENEY, "Les Etrangers non musulmans en Algérie au recensement de 1954- Comparaison avec le recensement de 1911", *Bulletin de la section de géographie*, Paris, 1965. G. ACHER, "Le peuplement espagnol...", *op. cit.*

22 - Les Kabyles se révoltèrent entre autres contre le décret Crémieux et l'élimination de Napoléon III.

23 - René RICOUX, *La Population européenne en Algérie pendant l'année 1884*, Philippeville, 1885. Victor DEMONTÈS, *L'Algérie économique*, tome II : *Les populations algériennes*, Imprimerie algérienne, Alger, 1923.

24 - G. ACHER, "Le Peuplement espagnol...", *op. cit.*

25 - René RICOUX, *La Population européenne en Algérie...*, *op. cit.*

26 - G. ACHER, "Le Peuplement espagnol...", *op. cit.*

27 - Jacques BERQUE, *Le Maghreb entre deux guerres*, *op. cit.*

28 - Jacques BERQUE, *Le Maghreb entre deux guerres*, *op. cit.* La même opinion est émise par Abdallah LARAOU, *L'Histoire du Maghreb...*, *op. cit.*, et par Marc BAROLI, *Les Français en Algérie...*, *op. cit.*

29 - Victor DEMONTÈS, *L'Algérie économique...*, *op. cit.*

30- A leur apogée, les Kibboutz regroupèrent seulement 5% de la population israélienne.

31 - Le taux brut de natalité passa de 26 0/00 en 1830- 1834 à 41, 4 0/00 en 1856 - 1862, il déclina ensuite jusqu' à 29, 1 0/00 en 1897- 1904. Quant au taux brut de mortalité, il avoisina 50 à 51 0/00 jusqu'en 1855 et se situa autour de 330/00 durant l'autre moitié du siècle; Victor DÈMONTÈS, *L'Algérie économique*, tome II: *Les populations algériennes*, *op. cit.*

32 - Pierre NORA, *Les Français d'Algérie*, *op. cit.*

33 - Philippe MARÇAIS, art. "Algérie", *Encyclopédie de l'Islam*, 2^e édition, *op. cit.*

34 - Ainsi nomma-t-on les partants de la métropole.

35 - Philippe MARÇAIS, *ibid.*

36 - P. BERTHAUT, *Rapport présenté au congrès des ingénieurs agricoles à l'Exposition coloniale de 1931*, cité par Jacques BERQUE, *Le Maghreb entre deux guerres*, *op. cit.*

37 - Charles- André JULIEN, *Histoire de l'Afrique du Nord*, 1^{re} édition, Payot, Paris, 1931.

38 - René HOFFHERR et Lucien PAYE, "Evolution du Peuplement en Afrique du Nord", *Congrès international de la population*, Paris, 1937.

39 - Décret de 1930 soustrayant les Berbères au droit musulman.

40 - Cité par Jacques BERQUE, *Le maghreb entre deux guerres*, *op. cit.*

41 - René RICOUX, "Recherches sur la mortalité de la première enfance en Algérie", *Annales de démographie internationale*, Paris, 1882.

42 - Raymond PEARL, *The Biology of Population Growth*, Knopf, New York, 1925.

43 - Cité par Jacques BERQUE, *Le Maghreb entre deux guerres*, *op. cit.* qui relève "à quel point l'esthétisme littéraire, même bienveillant, peut méconnaître le mouvement de l'histoire".

44 - Pour une approche critique des taux de natalité, voir Jacques BREIL, "Essai de détermination du niveau et des tendances de la fécondité des musulmans d'Algérie", *Congrès mondial de la population- Rome 1954*, New York, 1955, et Jean- Noël BIRABEN, "Essai d'estimation des naissances de la population algérienne depuis 1891", *population*, n°4, Paris, 1969.

45- En fait, la statistique française sous-estimait alors la croissance démographique de la population musulmane.

46 - Jacques BERQUE, *le Maghreb entre deux guerres*, *op. cit.* L'auteur dit ailleurs: "Dans l'entre- deux - guerres, de plus en plus l'indigène devient, en tant que tel, affaire de spécialiste. Sa vérité n'intéresse plus que le révolutionnaire, le chrecheur ou de rares attardés de l'Avant. pour l'Européen qui est-il ou plutôt qu'est-il? Une menace, Une attente, Une chose à utiliser, au mieux à ménager."

47- La citation est de René HOFFHERR et Lucien PAYE, *Evolution du peuplement...*, *op. cit.* G. MESNARD y a ajouté: "et j'ajoute politique".

48 - William VOGT, *Road to Survival*, William Sloane, New York, 1948. Le premier et le plus célèbre des essais qui relancèrent le malthu sianisme.

49 - G. MESNARD, "La Régression relative des Européens en Algérie", *Congrès international de la Population*, Paris, 1937.

50 - Victor DEMONTÈS, *L'Algérie économique...*, *op. cit.*

51 - Voir *infra* la conclusion de ce chapitre.

52- L'expression est de G. MESNARD, "La régression relative des Européens en Algérie", *op. cit.*

53 - Autant que la circulation des colons et des fonctionnaires, l'agriculture coloniale favorisa celle du salariat musulman. Cest ainsi que 200000

Marocains d'origine seraient toujours établis en Algérie : CERED, *Situation démographique régionale au Maroc*, Rabat, 1988. Réciproquement, une élite algérienne francisée participa à l'administration du Maroc.

54 - Au Maroc, les progrès de la colonisation étrangère auraient fait reculer la propriété indigène de 9,2 millions d'hectares en 1917, à 8,3 en 1927 et à 7,5 en 1936; Jacques BERQUE, *Le Maghreb entre deux guerres*, op. cit.

55 - Abdallah LARAoui, *L'Histoire du Maghreb...*, op. cit.

56 - *Le Cri du Maroc*, mars 1926, cité par Jacques BERQUE, *Le Maghreb entre deux guerres*, op. cit.

57 - Haïm ZAFRANI, *Mille ans de vie juive au Maroc, Histoire, culture, religion et magie*, Paris, Maisonneuve et Larose, 1983.

58 - Plusieurs centaines de chrétiens d'origine européenne restèrent après l'indépendance et prirent la nationalité algérienne. Quelques descendants de Kabyles convertis au christianisme ne rejoignirent pas la religion de leurs aïeux. Il n'existe pas d'incompatibilité entre la nationalité algérienne et la religion chrétienne.

59 - Après l'indépendance de l'Algérie, moins de 7% des juifs algériens émigrèrent en Israël, contre 93% en France.

60 - Jacques BERQUE, *Le Maghreb entre deux guerres*, op. cit.

61 - Exprimée par exemple par Francine VAN de WALLÉ, "Qu'est-ce qu'un francophone?", *Colloque de démographie et destin des sous-populations*, Ordina, Liège, 1981.

62 - Données du recensement algérien de 1987.

63 - Voici désagrégées les composantes de l'augmentation de la population francophone en Algérie: 69% reviennent à l'élévation du taux de scolarisation bilingue franco-arabe, 31% à l'accroissement démographique.

64 - Reconstitution par les recensements proches des indépendances et du plus récent, pour l'Algérie 1954, 1966 et 1987, pour la Tunisie, 1956 et 1984 et pour le Maroc 1951, 1960 et 1982. Ces recensements classent la population alphabétisée selon la langue ou les langues lues et écrites: français, arabe, français et arabe, etc. Les données ont été interpolées pour estimer les francophones à l'indépendance et extrapolées pour fournir la mesure actuelle. Les enfants de moins de dix ans (ou de moins de six ans) sont supposés atteindre le même taux de francophonie que leurs aînés immédiats (d'où une légère sous-estimation en raison de l'augmentation de la francophonie au fil des générations). Ces données, qui portent sur la langue lue et écrite, sont plus restrictives que celles que l'on aurait pu obtenir à l'aide de la langue parlée (environ le tiers en moins en Algérie) ou compris.

65 - Jean BOURGEOIS- PICHAT, "La France dans le monde", *population*, 1984-5, Paris, 1990.

تعليقات الفصل الرابع

١ - إن الخيط الذي يربط الحملات الصليبية بهجمة أوروبا في القرن التاسع عشر ثم بمولد الدولة العبرية لم يغيب عن بال المؤرخ الإسرائيلي للحملات الصليبية، جوشوا براون: «لقد غرق البلد نفسه [فلسطين] في نسيان طويل إلى أن ذكر قصف المدافع أوروبا، في القرن التاسع عشر، بعصر عظمة الحملات الصليبية، وإلى أن فتح عمل الفلاح اليهودي الكثيف السبيل أمام استيطان جديد»، «تاريخ مملكة القدس...»، مصدر سبق ذكره.

٢ - من ٨٠.٠٠٠ نسمة يحملون الجنسية الفرنسية.

٩ - چاك بيرك، «المغرب بين حريين»، سوى، باريس، ١٩٦٢. ربما كانت التحولات أكثر عدداً: فالواقع أن الكاتب يستمد مصدره من صحيفة «لومانييتي»، الميالة في الثلاثينيات إلى السخرية من الكنيسة.

١٥ - الجزائر الشمالية فقط: رقم رسمي، لكنه أقل من الواقع.

١٩ - إن هذا التقرير الذي كتب في تونس إنما ينطبق بلا شك على مجمل يهود المغرب، قبل مرسوم كريمير.

٢٠ - لهذا يصبح عد يهود الجزائر صعباً، فالتعدادات لم تميز بين اليهود الحاصلين على الجنسية عن فرنسيي الأصل، على أن استمارات التعدادات قد احتفظت حتى عام ١٩٣٦ بالخانة التالية: «هل أنت إسرائيلي مجنس بمرسوم عام ١٨٧٠ أم منحدر من إسرائيليين مجنسين بهذا المرسوم؟».

٢٢ - تمرد رجال القبائل، بين أمور أخرى، ضد مرسوم كريمير وإزالة نابوليون الثالث.

٢٨ - چاك بيرك، «المغرب بين حريين»، مصدر سبق ذكره. ويعبر عن الرأي نفسه عبد الله العروى، «تاريخ المغرب...»، مصدر سبق ذكره، ومارك بارول، «الفرنسيون في الجزائر...»، مصدر سبق ذكره.

٣٠ - في أوجها، لم تجمع الكيبوتزات غير نسبة ٥ ٪ فقط من السكان الإسرائيليين.

٣١ - انتقل المعدل الإجمالي للمواليد من نسبة ٢٦.٠ ٪ في ١٨٣٠ - ١٨٣٤ إلى ٤١/٤ ٪ في ١٨٥٦ - ١٨٦٢، ثم هبط فيما بعد إلى ٢٩.١ ٪ في ١٨٩٧ - ١٩٠٤. أما فيما يتعلق بالمعدل الإجمالي للوفيات، فقد اقترب من ٥٠ إلى ٥١.٠ ٪ حتى عام ١٨٥٥ واستقر حول نسبة ٣٢.٠ ٪ خلال النصف الآخر من القرن.

٣٤ - هكذا سمي الراحلون عن المتروبول.

٣٩ - مرسوم ١٩٢٠ الذي يخلص البربر من القانون الإسلامي.

٤٢ - نقلاً عن چاك بيرك، «المغرب بين حريين»، مصدر سبق ذكره، الذي يبين «إلى أية درجة يمكن للجمالية الأدبية، حتى وإن كانت حسنة النوايا، أن تسيء فهم حركة التاريخ».

٤٥ - الواقع أن الإحصاء الفرنسي قد قلل آنذاك من قدر النمو الديموغرافي للسكان المسلمين.

٤٦ - چاك بيرك، «المغرب بين حريين»، مصدر سبق ذكره. ويقول الكاتب في مكان آخر: «في فترة ما بين الحريين، يصبح ابن البلد الأصلي باطراد، بصفته هذه، شاغلاً للأخصائي. ولا تهم حقيقته بعد غير الثوري، أو الباحث أو المتمسكين النادرين بتراث الرواد. فمن هو بالنسبة للأوروبي، أو بالأحرى ما هو تهديد، توقع، شيء يجب استخدامه، الحرص عليه في أحسن الأحوال».

٥١ - انظر أبناء خاتمة هذا الفصل.

٥٢ - شلتها في ذلك شأن توزيع الكولون والموظفين، كانت الزراعة الكولونيالية مؤاتية لتوزيع الاجراء المسلمين. وهكذا فإن ٢٠٠٠٠ من المراكشيين الأصليين سوف يقيمون على الدوام في الجزائر. وبالمقابل، فإن صفوة جزائرية مفرنسة قد شاركت في إدارة المغرب الأقصى.

٥٤ - في المغرب الأقصى، كان من شأن تقدم الاستيطان الاجنبي اختزال الملكية الاملية من ٩٢ مليون هكتار في عام ١٩١٧ إلى ٨٣ مليون هكتار في عام ١٩٢٧ وإلى ٧٥ مليون هكتار في عام ١٩٣٦.

٥٨ - بقيت عدة مئات من المسيحيين نوى الأصول الأوروبية بعد الاستقلال وحصلوا على الجنسية الجزائرية. ولم يعد بعض المنحدرين من القبائل المتحولين إلى اعتناق المسيحية إلى ديانة أجدادهم. ولا يوجد تعارض بين الجنسية الجزائرية واعتناق الدين المسيحي.

٥٩ - بعد استقلال الجزائر، نزح أقل من ٧٪ من اليهود الجزائريين إلى إسرائيل، في مقابل ٩٣٪ رحلوا إلى فرنسا.

٦٢ - بيانات التعداد الجزائري لعام ١٩٨٧.

٦٣ - إليكم توزيع مكثري زيادة السكان الناطقين بالفرنسية في الجزائر: إن نسبة ٦٩٪ ترجع إلى ارتفاع معدل التعليم المدرسي الثاني اللغة الفرنسي - العربي، بينما ترجع نسبة ٣١٪ إلى الزيادة الديموغرافية.

٦٤ - إعادة تركيب عبر التعدادات القريبة من أزمنة نيل الاستقلال والتعدادات اللاحقة، فبالنسبة للجزائر، تعدادات أعوام ١٩٥٤ و ١٩٦٦ و ١٩٨٧، وبالنسبة لتونس، تعداد عام ١٩٥٦ وتعداد عام ١٩٨٤، وبالنسبة للمغرب الأقصى، تعدادات أعوام ١٩٥١ و ١٩٦٠ و ١٩٨٢. وهذه التعدادات تصنف السكان غير الاميين بحسب اللغة أو اللغات التي يقرءون ويكتبون بها: الفرنسية، العربية، الفرنسية والعربية، إلخ. وقد جرى توليد البيانات لتقدير عدد الناطقين بالفرنسية وقت الحصول على الاستقلال وجرى استقراء لها لتقديم حجمهم الحالي. وجرى افتراض أن الأطفال الذين يقل عمرهم عن عشر سنوات (أو عن ست سنوات) قد بلغوا ذات معدل الفرائكونونية الذي بلغه من يكبرونهم مباشرة (ومن هنا انخفاض تقدير طفيف بسبب زيادة الفرائكونونية على مر الأجيال). وهذه البيانات، المتصلة باللغة التي تتم القراءة والكتابة بها، أكثر محدودة من البيانات التي كان بالإمكان الحصول عليها استناداً إلى اللغة التي يتم الكلام بها (نحو الثلث على الأقل في الجزائر) أو المفهومة.

الفصل الخامس

النهوض المسيحي في الشرق

العربي العثماني

«بين نصيرية الشمال ودروز الوسط، يسكن شعب صغير عرف منذ زمن بعيد بالموارنة. (الظرف السعيد) الأول هو الدين، الذي، إذ أقام حاجزاً لا سبيل إلى التغلب عليه بين الموارنة والمسلمين، منع الطامعين من التحالف مع الأجانب لاستعباد أمتهم. والثاني هو طبيعة البلد (...)». (الثالث) هو عين ضعف هذا المجتمع، الذي لم يتمكن، منذ نشأته، لكونه محاطاً بأعداء أقوياء، من مقاومتهم إلا بالحفاظ على الوحدة بين صفوف أفراده (...) وهكذا فعبّر قيام الأعراف مقام القوانين، تمكن الموارنة من الحفاظ على أنفسهم إلى الآن من عسف الاستبداد ومن تقلبات القوضى».

فولني، رحلة إلى مصر وإلى سوريا، ١٧٨٧.

يخيم الشبح العثماني على واقع نهاية القرن العشرين التي نشهدها. فمع عودة مسألة القوميات في البلقان وعدد من الأمم في الشرق، تخرق الفكرة الإمبراطورية من جديد فضاء الزمن. ونذكر آل عثمان لا تدع أحداً غير مبالٍ، أكان من أعدائهم السابقين أم من رعاياهم السابقين. وبالنسبة للأوروبيين، فإنهم (آل عثمان) يجسدون انحطاط الإسلام. وبالنسبة لمسيحي الشرق، فإنهم يمثلون زمن النهوض الذي ولى الآن. أما اليهود فإنهم لم ينسوا حسن

الضيافة، الذي تكرر مرتين، عندما بدت أوروبا المسيحية مصدر تهديد بالغ لهم، فى ظل الملكين الكاثوليكين (فيرناندو وإيسابيللا) فى إسبانيا وبعد ذلك بثلاثمائة سنة، مع صعود معاداة السامية فى فرنسا الجمهورية وروسيا القيصرية. وبعد ثلاثة أرباع قرن من سقوط الإمبراطورية (العثمانية)، تجد مدافعين عنها فى الشرق العربى: إن مسيحيين ويهوداً ما زالوا يرون فى الكيمياء السحرية الإمبراطورية الفرصة الوحيدة للتعددية الطائفية، فهى تفصل وضعية الأشخاص عن وضعية الأرض.

وقبل فتح الولايات العربية، كانت لسكان الإمبراطورية العثمانية غالبية مسيحية وأوروبية قوية. وكان بوسع الإدارة الاعتماد على الفنار ^(١) (حتى البطريركية الأرثوذكسية اليونانية فى اسطنبول)؛ وقد تعلمت فن التوافق مع الشعوب غير المسلمة. وفى غضون عشرين سنة بالكاد، سوف يقلب سليم الأول ثم سليمان القانونى خريطة الشرق. فسوف ينتزعان من الممالك سوريا (١٥١٦)، ومصر (١٥١٧) والمناطق التابعة لهم فى شبه الجزيرة العربية. وبعد ذلك بوقت قصير، سوف يحصلان على الجزائر، هدية من القرصان برباروسا، ويختطفان العراق، الذى كانت تهيمن عليه آنذاك فارس (١٥٣٤). وسوف تجعل هذه الانتصارات من السلطان قائد أعظم دولة مسلمة فى ذلك العصر. ومع شىء من التباين الإقليمى، تولد بيزنطة جوستينيان من جديد، ولكن تحت سلطة سنيّة.

وكان الممالك قد تركوا الجماعة المسيحية فى حالة من الضعف. ولا مراء فى أن هذه الجماعة كانت موعودة بذات الفناء الذى حدث لها فى أفريقيا الشمالية. لكن العثمانيين، على منحنى خط الألف عام المقابل، سوف يسمحون لها بنهوض غير عادى: فالهلال الخصيب ^(٢) الذى ورثوه كان يضم نسبة ٧٪ من المسيحيين، أما الهلال الخصيب الذى سوف يرثونه بعد ذلك بأربعة قرون، غداة الحرب العالمية الأولى، فقد كان يضم نسبة ٢٠٪ إلى ٣٠٪ إذا ما استثنينا العراق (الجدولان ٧.1 و ٧.2 ، والشكل ٧.1). وعند انهيار الإمبراطورية، كانت الأقليات الطائفية ماتزال موجودة فى كل مكان وجدها فيه: بدرجة أقل فى الشرق، ولكن بدرجة أقوى بكثير فى الغرب. وكان اليهود يمثلون نسبة ٣٠٪، وكانوا يتركزون فى العراق بشكل خاص (١٠٪) أما مصر، المتعمدة يوماً على الإمبراطورية، فإنها لم تعرف تطوراً مماثلاً (نسبة ٨٠٪ للمسيحيين).

السياسة وإحصاء البشر

كانت اسطنبول تهيم على أرض شاسعة وعلى شعوب جد متباينة. وحتى يتسنى للباب العالي ممارسة صلاحياته، فقد كان بحاجة إلى معلومات عن كل ولاية. وقد سمحت التعدادات السكانية الدورية له بالتعرف على عدد دافعى الضرائب وعدد الجنود الذين يمكن تجنيدهم. لكن إمساك الدفاتر كان يتطلب إدارة فعالة لا تكفلها غير دولة قوية. وهذه الدفاتر، التى هى فى أن واحد سبب ونتيجة السلطة المركزية المفروضة على الولايات، سوف يجرى ملؤها وحفظها بالشكل الصحيح مادامت اسطنبول تسيطر على السلطات المحلية.

لكن هذا الوضع قلما يدوم. ففى الهلال الخصيب، سوف يجرى الاضطلاع بحملة إحصاء عام واحدة فى القرن السادس عشر (١٥٧٠ - ١٥٩٠)، عندما يتمكن العثمانيون من فرض إدارتهم الخاصة. وهذا هو أول إحصاء فى تاريخ الإسلام، بعد ألف عام من الهجرة (٣). فسعيًا إلى توطيد السيطرة العثمانية، مهد السلاطين لهذه الحملة بعدد من العمليات المنضبطة. وهكذا نجد أن كاتب أخبار دمشقياً يروى أن مدينته قد أحصيت عن بكرة أبيها منذ الأحد، ٢ رمضان ٩٢٢ (١٥١٦)؛ أى صبيحة دخول جيش السلطان سليم الأول^(٤). والواقع أن الأمر لا بد وأنه قد تطلب أكثر من انقضاء ليلة لترك السلاح انكباباً على التعداد! لكن هذا التشوش للذاكرة يوضح إلى أى مدى أثار العثمانيون عجب الناس بحزمهم وبتنظيمهم. فهذا وذاك يتميزان بالروعة.

ومنذ القرن التالى، سوف يحول استرخاء القبضة العثمانية نون الاضطلاع بأية عملية ذات اتساع مماثل. فالضرورة الضريبية لذلك كانت أقل إلحاحاً، وذلك بسبب تعميم نظام الالتزام (٥). وبحكم هذا النظام، كان ملتزم الضريبة (الملتزم) يشتري وظيفته لقاء مبلغ محدد، ثم يستوفى حقه، مع مكاسب تالية، عن الإيرادات الضريبية، التى يحدد أشكال جبايتها. وكان رجال الملتزم يعرفون رعاياهم فرداً فرداً ولم تكن هناك حاجة إلى إجراء تعداد. ومن ثم فلن يجرى الاضطلاع بأية تعدادات قبل التعداد الذى اضطلع به فى عام ١٨٢١ السلطان محمود الثانى، المجدد الأول للإمبراطورية. وسوف تقلت سوريا وفلسطين والعراق من ذلك التعداد. وبعد الحمى التحديثية والمؤكدة للمركزية فى زمن التنظيمات (الإصلاحات)، نجد أن الإمبراطورية، التى كانت قد تفككت، تحاول إعادة صوغ وحدتها من خلال إحصاء

جماعاتها ودافعى الضرائب لها: وفى أعوام ١٨٨١ - ١٨٨٣، يجرى الاضطلاع بأخر تعداد عثمانى يغطى مجمل المشرق^(٩). ومجموعة الوثائق هذه الفائقة الثراء تستعيد رسم صورة توزيع سكان كل قضاء^(١٠) بحسب العقيدة، وتحدد ظلال ملل الشرق التى ينتمى إليها المسيحيون.

وكان العثمانيون، بعد فتحهم مصر، قد تركوا الإدارة المملوكية فى مكانها. وهذه الأخيرة لا تتردد فى انتزاع استقلالها وفى تحدى سلطة الباشاوات المعينين من الباب العالى. وعزوفاً منها عن أن تترك لاسطنبول أية ذريعة لممارسة السلطة، فإنها تنشئ نظاماً لا مركزياً لجباية الضرائب، يستند إلى لجان قروية مكلفة بتوزيع أداء الضريبة على السكان. وهذه الإدارة المشتركة المباشرة لا تتطلب أى تعداد عام. وعندما يفكر السلطان فى عام ١٧٨٥ فى اتخاذ تدابير عسكرية ضد المشاكسة المملوكية، فإنه يطلب إلى (أحمد باشا) الجزار، والى صيدا (لبنان)، تقديم تقرير عن مصر^(١١). لكن هذه الوثيقة لا تقدم أية معلومات رقمية عن السكان.

ويجرى الاضطلاع بأول تقييم ديموغرافى شامل من جانب العلماء الفرنسيين الذين سوف يكتبون وصف مصر. فمندفعين بفضول علمى هائل، سوف ينكبون على جرد دقيق للمواقع المأهولة بالسكان وعلى إعداد كشوف بيانات كثيرة عن الكثافات السكانية المدنية، سوف يبنون عليها تقديرات للسكان. على أنهم لم تكن لهم أية سلطة لإحصاء البشر أنفسهم بحسب انتماؤهم الدينى. ومن ثم فإنهم سوف يقيمون التوزيع الطائفى بدقة أقل من دقة تقييمهم لإجمالى السكان. والحال أن مؤسس الحداثة المصرية، محمد على، هو الذى سوف ي دشّن العصر الإحصائى عبر تعداد أول فى عام ١٨٤٦. ولن يتخلف خلفاؤه أبداً عن الاضطلاع بمثل هذا العمل.

أما فى الشام، فإن الإحصاء العثمانى، جد المبكر فى السهل وفى المدن، سرعان ما يتحطم على المتراس الذى يقدمه الجبل للطوائف التى لا تعتنق إسلام الغالبية، أى للمسيحيين والمسلمين المنشقين. وأكثر هذه الجبال ازدحاماً، وهو جبل لبنان، يعرف تعدادات القرن السادس عشر^(١٢)، لكنه لا يعرف تعدادات القرن التاسع عشر. فالكسان، المتخلصون من التعداد، لا يتهربون فقط من غايته الجماعية - كشف عدد، أى قوة الجماعة - بل يتهربون أيضاً من غايته الفردية: تحديد جدول الضريبة. وفى هذا البلد الذى وجد فيه المسيحيون ضيقتهم، كانت ضريبة الرأس التى فرضها عليهم القانون الإسلامى بشكل انتقائى قد كفت

فى الواقع عن أن تجبى بالمثابرة ذاتها التى تجبى بها فى السهل، حيث كانوا أقلية. «بالنسبة لأفراد الأقليات الذين لانوا به، كان إخفاء عددهم يمثل أيضاً وسيلة لتأمين التنظيم الاجتماعى الذى سمح لهم بصون وتأييد نوع البنية التى تصوروا فيها وجود وهوية الفرد فى جماعته»^(١٢).

وعندما تستعيد إسطنبول زمام الإحصاء فى الولايات، تنفجر الأزمة فى لبنان. وفى نهاية الفترة القصيرة التى حكمته خلالها مصر (١٨٣٢ - ١٨٤٠)، كان البلد قد أصبح هدفاً للقوى الأوروبية الحامية لأقليات الشرق. وسعيًا إلى التحكيم بين الطوائف المتنافسة، كان يتوجب التعرف على أعدادها: وتصبح الديموغرافيا محل رهان. وتتأثر التقديرات، المستندة إلى تخمينات بقدر استنادها إلى استغلال السجلات التى تحتفظ بها الطوائف: إن كل فرد يسعى إلى إثبات شيء ما، وبينما تعطى المصادر الفرنسية تقديرات متماسكة، فإن المعنيين أنفسهم يضخمون الأرقام. أما فيها يتعلق بالسلطات الكاثوليكية الأوروبية، والمتأثرة بالأحداث التى تجرى على الجانب الآخر للبحر المتوسط، فإنها تتخبط فى المزايدة. ولا يتم الاتفاق إلا على نقطة واحدة، لكنها أساسية: إن جبل لبنان يضم آنذاك مسيحيين بنسبة ٨٠٪ تقريباً من مجموع سكانه (الجلول ٧.1) ^(١٣).

الركود الديموغرافى النسبى

فى عام ١٥٨٠، كان الهلال الخصيب يضم مسلمين بنسبة ٩٢٪ ومسيحيين بنسبة ٧٪ ويهوداً بنسبة ١٪. وهكذا فإن ما يقرب من ألف عام من الإدارة الإسلامية قد أدى عمله التدريجى. ومن ثم فإن التحولات إلى اعتناق الإسلام بشكل سلمى، عن طريق الإغراء أو عن طريق تجاوب بسيط، كان لها ثقل مختلف تماماً عن نويات العنف النادرة ولكن المباشرة التى سمعت الأجواء فى عهد المماليك. وكان التنوع الطائفى يستند إلى البحر المتوسط، الذى حافظ برغم كل العقبات على الاتصال مع البندقية وجنوة وأوروبا المسيحية.

إن أقليات الشرق، أكانت تتألف من مسلمين منشدقين أم من أهل الكتاب، تسكن الأماكن التى تشكل فيها التضاريس الجغرافية قلعة حصينة. ولاية طرابلس^(١٤)، المطلة على البحر، تضم نسبة ٢٨٪ من المسيحيين. وفى مواجهة الصحراء، فإن الجهة الأخرى للجبل تنتمى بشكل أكثر رسوخاً للمجال الإسلامى: ٨٪ فقط من المسيحيين فى ولاية دمشق، ولكن

الطائفة اليهودية الأولى (٢٪ من السكان)، المتقدمة كثيراً على طائفة بغداد. والحال أن جبلاً أخرى، جد نائية عن طرق أوروبا البحرية، قد حافظت على وجود مسيحي في إقليم الموصل. وفي أعماق السهوب السورية، يسود الإسلام في المقابل تون منازع تقريباً؛ فالمسيحيون أقل من ٣٪ في ولاية حلب، حيث سوف يولدون من جديد بالمعنى الحرفي للكلمة في ظل إدارة اسطنبول المباشرة.

ويعد أربعة قرون من السلطة السنية العثمانية، تسترد الطوائف غير المسلمة في الهلال الخصيب ثقلاً ديموграфияً ملحوظاً. فاليهود قد زانوا مرتين والجماعة المسيحية تتزايد ثلاث مرات: إن أكثر من ٢٠٪ من السكان يصبحون منذ ذلك الحين مسيحيين و٢٪ يصبحون يهوداً ويزيد المسيحيون بمعدل ٣٩ واليهود بمعدل ٢٩، لكن المسلمين لا يزيديون إلا بمعدل ١٢. وكانت اليهودية قد حصلت، عند بدايات الإمبراطورية، على دعم آخر المنفيين من أسبانيا، الذين جاؤا لتعزيز الطائفة الصغيرة التي كانت موجودة دائماً في فلسطين. أمّا الجماعة المسيحية فقد تعاطفت خلافاً لذلك تون مدد خارجي، بما يجعل من العقود العثمانية استثناءً طويلاً؛ فلأول مرة في تاريخ دار الإسلام، زادت ثقلها النسبي نتيجة لمواردها الخاصة (معدل المواليد، معدل الوفيات) وليس نتيجة لمدد خارجي كمندد الصليبيين في الزمن الغابر وكمندد الكولون فيما بعد (الجدول ٧.3).

وتزيد جغرافية الأقليات المسيحية من تأكيد تبايناتها، فهي إذ تزدهر في مناطق الرخاء الاقتصادي والاتصال بالعالم الخارجي - الغرب أكثر من الشرق - تهجر ببطء المناطق الداخلية؛ ويتأكد التركيز على الساحل ويتسع. وهكذا فإن الجماعة المسيحية، المنبثقة من لاجئي الجبال في اتجاه البحر المتوسط في الغرب وصوب المشارف التجارية للبادية (١٥) في الشرق، تمثل في عام ١٨٨١ نسبة ٤٠٪ من سكان الأقاليم المطلة على الساحل (ولاية بيروت ومتصرفية جبل لبنان) و١٢٪ و١٥٪ من سكان ولايتي حلب ودمشق. أمّا مسيحيو حلب، الأكثر قريباً من اسطنبول، ومن ثم الأكثر تمتعاً بالحماية من جانب النظام الإمبراطوري، فقد شهدوا النهوض الأكثر إثارة للدهشة - ٥٩٪ كمعدل سنوي للنمو الديموغرافي - في حين أن المسلمين لم يزيديا إلا بنسبة ٠٢٪. وفي أيامنا، تذكر العائلات الكاثوليكية في حلب أن السلطان سليم الأول، الذي أحزنه ألا يجد في المدينة غير عدد جد قليل من المسيحيين، قد أمر، في القرن السادس عشر، بإعادة توطين الطائفة فيها؛ وهكذا نجد تفسيراً جزئياً للتنوع المدهش للأصول الذي كان ما يزال بالإمكان رصده في عام ١٩١٤: إن نسبة ٥٢٪ من الحلبيين

المسيحيين تتألف من يونانيين كاثوليك أو أرثوذكس، وتتألف نسبة ٣٣٪ من أرمن، بينما تتألف نسبة ١٤٪ من سوريانيين^(١٦). ومثل هذا النهوض يعوض هبوط الطوائف المسيحية الأكثر شذوذاً، وهى الطوائف التى سوف تختفى تدريجياً من ولاية بغداد.

ومن المؤكد أن النمو الديموغرافى لم يكن متواصلاً على مدار القرون الأربعة للحكم العثمانى. ففى إثر الاندفاع القوى للسكان الذى يجتاز القرن السادس عشر فى مجمل عالم البحر المتوسط وفى الشرق العربى، يجرى ركود طويل. وفى عدة أسابيع تؤدى الأوبئة والمجاعات إلى إلغاء عشرات السنين من التراكم الديموغرافى. ونحو أواسط أو أواخر القرن التاسع عشر، ينتظم النمو ثم يتسارع. وخلال هذه الفترات الثلاث، لا مرأى فى أن الجماعة المسيحية لم تكن تملك ميزة متواصلة.

ونحن لا نملك غير معلومات جزئية عن التطور فى الأزمنة الأولى للإمبراطورية. ونعرف أن النمو الديموغرافى يصل إلى أقصى مدى له نحو أواسط القرن السادس عشر فى ثلاثين من المراكز المختلطة التابعة لولاية دمشق. وكان النمو الديموغرافى للمسيحيين آنذاك ضعف النمو الديموغرافى للمسلمين: ٢٠,٣٪ فى السنة فى مقابل ٩,٨٪ فى ١٥٢٣ - ١٥٥٩^(١٧). وفى تلك الأزمنة الرحيمة بالنسبة لجميع السكان، لا بد من ثم أن معدل مواليد المسيحيين كان أقوى من معدل مواليد المسلمين، أو أن معدل وفياتهم كان أضعف، مثلما سيحدث فى القرن التاسع عشر. أمّا فيما يتعلق بالمدن، المعرضة لهجرات قوية، فهى تقدم كل حالات التصور الممكنة: صعود الجماعة المسيحية فى دمشق والرملة، الثبات النسبى فى بيروت ونابلس وغزة، الهبوط فى القدس (الجدول 9. ٧).

أما معدل الوفيات العادى، الوفيات التى تحدث دون كوارث كبرى، فهو ينتظر ما يحدث من تقدم اقتصادى وتقنى فى القرن التاسع عشر حتى يهبط. وعندئذ فإن المسيحيين واليهود سوف يتقدمون على المسلمين بنصف قرن؛ فالعصر الحديث يقتحم الشرق العربى عبر أقليته وليس عبر المسلمين. ويرغم بقاء معدل مواليدها على حاله، يتسارع نموها. ويمس الانتقال الديموغرافى الطبقات الميسورة قبل العوام، والمدنيين قبل الريفيين. والحال أن الطوائف المسيحية واليهودية كانت مزدهرة ومدينة نسبياً. وهكذا فإن الاقتصاد والجغرافيا، لا الدين نفسه، هما اللذان سوف يكونان مؤاتيين لها. إن عين السبب الذى سيجعلها تخلق الساحة فى القرن التالى، لأنها ستكون من جديد أول من يواصل الانتقال عبر انخفاض لمعدل المواليد، هو الذى دفعها فى البداية إلى أعلى.

وتكاثر العمليات الإحصائية نحو أواخر العهد العثماني يقدم مجهراً لرصد سوريا ولبنان وفلسطين. فبين عامي ١٨٨١ و١٩١٤، في هذه البلدان الثلاثة، يتزايد المسلمون كل سنة في المتوسط بنسبة ١٠٪، لكن المسيحيين يتزايدون بنسبة ٢١٪ إذا ما أخذنا بعين الاعتبار نموهم الطبيعي وبنسبة ١٤٪ في الحساب الصافي (١٨) (الحساب الصافي يساوي معدل النمو الطبيعي مطروحاً منه معدل النزوح). وكانت هذه المعدلات مرتفعة نسبياً، ثم تضيق الفجوة التي تفصل المسلمين عن المسيحيين، لأن النزوح إلى العالم الجديد يمتص بشرائح ضخمة الفوائض الديموغرافية للجبل اللبناني، وهي فوائض مسيحية أساساً؛ إذ جرى تسجيل ٣٠٠٠ مغادر في السنة بين عامي ١٨٦٠ و١٨٩٩، ثم ١٥٠٠٠ بين عامي ١٩٠٠ و١٩١٣ (١٩). واتساع السحب يكفي لتوضيح اتساع زيادة المواليد على الوفيات.

فهو سحب، لكنه أيضاً بالون أو كسيجين، لأن لبنانيين الشتات، في الأزمنة الأولى على الأقل، لا ينسون جنودهم. فالمخدرات التي يحولونها إلى البلد تحرك بدورها اقتصاد الجبل وتسمح بمعدل مواليد مرتفع، بالرغم من ضغط أرض مشبعة. فموارد الزراعة الجبلية ما كان يمكن لها أن تكفي لذلك. وعبر آلية مضادة، نجد أن اليهود (الذين ينمون بنسبة ٢٣٪ في السنة في المتوسط) سوف يبرزون في الصدارة، وذلك بالرغم من نمو طبيعي أدنى من النمو الطبيعي للمسيحيين. فالواقع أن الهجرة اليهودية كانت تتدفق على فلسطين، التي تستقبل أكثر من ٨٠٠٠٠ قادم من أوروبا قبل الحرب العالمية الأولى (٢٠). وتوجد ديموغرافيا الأقليات الطائفية تباينات قوية في المجال السوري. فولاية بيروت تستقطب منذ ذلك الحين القوة المسيحية على حساب ولاية دمشق، حيث تصبح الجماعة السكانية المسلمة أكثر دينامية، ولكن أيضاً في حلب، حيث سرعان ما تصل الجماعة المسيحية إلى أقصى ارتفاع لها.

وبحكم استقرارها، تتباين الجماعة السكانية في مصر عن الجماعة السكانية في الهلال الخصيب. فمعدن زمن المماليك، كانت نسبة المسيحيين قد وصلت إلى أدنى مستوى لها، واحد من كل نحو ١٤ في القرن الثالث عشر (٢١). وفي وجه معدل الوفيات ومعدل المواليد، كان الأقباط والمسلمون يملكون أرصدة واحدة أو واحدة تقريباً، إذ قلما كان هناك تباين بينهم من حيث مستوى المعيشة والعلاقات الزراعية.

ويذكر جومار، أحد كتاب وصف مصر الرفيع المكانة: «إن حالة السكان هي أحد الجوانب الأقل مؤاتاة في المسألة المصرية. فبدلاً من أن يتزايد السكان أو يظلوا في حالة ثابتة، نجد أنهم يتناقصون. ولون الرجوع إلى العصر القديم، فإنني أنطلق من الحملة الفرنسية.

ووفقاً لأرجح الحسابات، فقد كانت القاهرة تضم آنذاك ٢٦٣.٠٠٠ نسمة، بينما كانت بقية البلد تضم ٢٢٢.٥٣٠٠ نسمة. أى، إجمالاً، أقل من مليونين ونصف مليون (٢٢)، بما يشكل نتيجة محزنة لحكم المماليك والغزو العثماني. ومنذ رحيل الفرنسيين، تقجر وياها الطاعون بشكل عنيف ثلاث إلى أربع مرات (٢٣). ثم يقدم جومار جدولاً لـ «مختلف الأمم التي تسكن مصر»، خارج المسلمين من أهل البلاد الأصليين: الأتراك: من ٢.٠٠٠ إلى ٤.٠٠٠، المماليك والعبيد البيض: ٨.٠٠٠، الأقباط: ١٦.٠٠٠، النوبيون والزنج: من ١١.٠٠٠ إلى ١٢.٠٠٠، الأرمن: ٢.٠٠٠، الشوام: من ٣.٠٠٠ إلى ٤.٠٠٠، اليونانيون: ٥.٠٠٠، اليهود: من ٣.٠٠٠ إلى ٤.٠٠٠. ومن ثم فإن إجمالي المسيحيين يصل إلى ١٧.٠٠٠، أى نسبة ٧٪ من السكان بحسب تقدير جومار (٢٤).

وسوف تقدم التعدادات الأولى فى عامى ١٨٤٦ و ١٨٨٢ نسبة مئوية أكثر ارتفاعاً بدرجة طفيفة: ٨٪. ولا مراء فى أن المجتمع الذى يشهد تحديثاً سافراً فى تركيا وفى الشام قد شهد اندفاعاً مسيحياً.

وسوف تتمايز الطوائف أولاً بمعدل الوفيات. فحتى القرن التاسع عشر، كان معدل الوفيات العادى أقل تأثراً بالملة، فى تلك الأزمنة التى كان الطب مايزال فيها غير فعال. لكن المسيحيين واليهود يجدون أنفسهم فى وجه الأزمات - المجاعات، الأوبئة وأحياناً الحروب - فى وضع مصون نسبياً. فالأماكن التى يحين فيها تكفى بالفعل لأن تكون مؤاتية لهم. ففى هذه المشارف الصحراوية، حيث كانت نزوات الماء طاغية، كان الريف معرضاً لاقتنارات متكررة إلى الإنتاج؛ وكانت المجاعة تترىص بالفلاح. إلا أنه كان لابد لها أن تكون رهيبة حتى تصيب ساكن المدينة، خاصة فى المدن التى كانت التجارة البعيدة فيها تخفف من تقلبات الإنتاج الزراعى. وفى سوريا كما فى فلسطين، فإن المسيحيين واليهود، الأكثر تركزاً فى المدن من المسلمين، كانوا يجدون أنفسهم لذلك أكثر حصانة ضد انهيارات الإنتاج الزراعى.

وفىما يتعلق بالمدن، فقد كانت الأوبئة تصيبها على فترات متقطعة. وكان تداخل الأزقة الضيقة ووخامة قنوات صرف المياه المكشوفة يناسبان انتشار الأمراض المعدية. وكان تصرف البشر وحده هو القادر على وقف انتشارها. والحال أنه، فى مواجهة الطاعون، وهو سبب انهيارات كبرى، فإن المسلمين والمسيحيين المحليين لا يتخذون موقفاً واحداً: فالأوائل يتصدون له بشكل جماعى؛ والعلاقات التى تحتفظ بها العائلات إحداها مع الأخرى تعرضهم كلهم للعدوى. أما الآخرون فإنهم يعزلون أنفسهم، على العكس من ذلك. وعلى غرار «الفرنجة»، الديبلوماسيين أو التجار أو الحرفيين الأوروبيين، ينسحب المسيحيون بعيداً عن المدينة الموبوءة أو يحبسون أنفسهم فى منازلهم إذا كان الوياها لا يدع لهم فرصة للهرب.

والحال أن بيير بلان، وهو تاجر فرنسى فى حلب عشية الثورة، يصف الانعزال الذى سمح للمسيحيين بالإفلات من الموت المتكرر: «إنه يتمثل فى عدم الخروج من المنزل وعدم السماح لأحد بدخوله. (...) وتلك هى الاحتياطات الوحيدة التى اتخذها كافة الفرنجة وعدد من المسيحيين واليهود، ولذا لم يحدث أن أحداً منهم قد أصيب بالطاعون (٢٥)». كما أن بيروت، فريسة الكوليرا، سوف تشهد نزوح المسيحيين بينما سوف يبقى المسلمون، وتذكر رسالة تجارية مؤرخة فى عام ١٨٦٥ فى بيروت «أن المسيحيين قد هربوا كلهم تقريباً إلى الجبل ومرة أخرى، فى أيام عودة الولاء هذه، تصيب الكارثة المسلمين بوجه خاص (٢٦)». وهذه الكوارث الكبرى، وهى أمراض الفقراء، لا تدفع إلى الفرار غير الأغنياء، فهم وحدهم الذين يملكون الإمكانيات المادية للهرب. فهل كانت هشاشة المسلمين الكبرى راجعة من ثم إلى أنهم يشكلون جمهرة عوام المدن (٢٧)؟

وفى لبنان وربما فى العراق، كانت التضاريس الجغرافية سبباً آخر لحماية المسيحيين. فالمنحدرات الوعرة التى يتحصنون على جناحها سوف تحميهم من الهجمات الحربية، ولكن أيضاً من أمراض السهل والمدن، الملاريا والكوليرا، التى يقتل الارتفاع جراثيمها: «بفضل الملاذ الجبلية، تكتسب الصحة والمرض طابعاً طائفاً أيضاً (٢٨)». ونجد التباينات نفسها على الضفة الأفريقية للمشرق: فطاعون عام ١٨٢٥ يقتل ٢٥٪ من السكندريين، ولكن بفرقة هائلة: ٥٥٪ من المسلمين المصريين، ٨٥٪ من «البرابرة والزنوج»، ومجرد ١١٪ من الأتراك، و١٢٪ من الأقباط والأرمن واليهود، و١٤٪ من اليونانيين و٦٪ من الأوروبيين. وينزف الإسلام بينما تقلت الجماعة المسيحية نسبياً من الكارثة (٢٩).

كما أن انفصال أماكن اللقاء يلعب دوراً. ففى هذا المجتمع المتعدد الطوائف، يظل الدين معلماً أساسياً للهوية الجماعية. وأفراد الأقليات والمسلمون، المتجاورون فى التبادلات الاقتصادية، يحتفظون بمجالاتهم السكنية الخاصة. فكل مدن المشرق الكبرى، فيما عدا بيروت، لها حيها المسيحى وحيها اليهودى بما يحمل علامة انفصال مقبول غالباً بحرية. وفى القاهرة، نجد أن نوعاً من الهيراركية التلقائية يجعل المسلمين العرب الآخرين، المغازبة والشوام، فى أذهان المسلمين المصريين، أكثر قريباً منهم. ثم يجيء الأتراك، الذين يصعب مع ذلك فهم لغتهم، ولا يجيء بعدهم غير المسيحيين العرب، أكانوا أقباطاً مصريين أم كاثوليك شوام، أى ماثلين أزليين فى التاريخ المصرى أو مهاجرين منذ زمن قريب (٣٠). وهكذا فإن الأويطة التى تصيب البعض من الممكن ألا تصيب البعض الآخر، لأنهم لا يتزاودون كثيراً.

ولم تكن الحروب سبباً لمعدل الوفيات الزائد وجد الهام بين المسلمين في الولايات العربية للإمبراطورية كما في الأناضول. فحتى حملات محمد على ضد الباب العالي، سوف تظل الوحدات المقاتلة العربية على هامش العمليات العسكرية الكبرى. وعندما تنشب في القوقاز والبلقان (١٨٧٦ - ١٨٧٨) بوجه خاص حروب تدعى إلى خوضها جميع ولايات الإمبراطورية، فإنها سوف تصبح سبباً للتمايز. والواقع أن الرعايا، منذ زمن التنظيمات، كانوا يعتبرون من الناحية النظرية قابلين كلهم للتجنيد، يشمل ذلك المسيحيين واليهود. لكن هؤلاء كانوا يعفون أنفسهم من التجنيد عن طريق دفع البديل (البديلة) (وهي ضريبة إعفاء)، بحيث إن المسلمين كانوا يجدون أنفسهم وحيدين من الناحية العملية في ساحة القتال. أما فيما يتعلق بالخسائر المدنية، فإن الشرق العربي لم يعرف منها سوى القليل في العصر العثماني، لأن أى نزاع عسكري واسع لم يكن يدور في المدن، فيما عدا النزاعات التي كانت تدور بين الجماعات الطائفية.

وفي القرن التاسع عشر، في أوروبا أولاً، ثم خارجها عبر إشعاعات متتالية لتقدم الطب، يتعلم الإنسان السيطرة بشكل أحسن على الأمراض. وتتباعد المسافة الزمنية بين الكوارث الطبيعية الكبرى في البداية ثم تختفي، بينما تتشكل تفاوتات جديدة: فالمعرفة واليسر الاقتصادي والصحة تبدأ في تقرير بعضها البعض بشكل تبادلي. ومما لا مراء فيه أن ذلك كان عاملاً حاسماً في التقدم الديموغرافي، في أواخر الأزمنة العثمانية، للمسيحيين واليهود، لأنهم كانوا ممثلين بشكل أحسن في البورجوازيات المدنية وأفضل تعليمياً من المسلمين. ويقدم معدل وفيات أطفال الأرمن في القاهرة (٢١) مؤشراً على تقدم أقلية مدنية: معدل بنسبة ١٤٠/٠ بين عامي ١٨٥٠ و ١٩٠٠ وبنسبة ١١٥/٠ في ١٩٠٠ - ١٩١٩، وهو مستوى لن تبلغه المدينة بمجملها بحسب الترتيب إلا في عام ١٩٥٠ وعام ١٩٦٠. وبالنسبة لبعض الأقليات المسيحية، فإن المسافة الاجتماعية التي تفصلها عن الجمهرة المدنية كانت في ذلك الزمن مورداً ديموغرافياً هاماً بالنسبة لها.

أما فيما يتعلق بتباينات معدل المواليد، فإن المؤشرات أكثر مراوغة والشواهد غير متوافرة. وفي ناحية مختلطة في جبل لبنان، نجد أن المسيحيين كانوا موزعين إلى ٣٤٨٪ من الرجال و٢٥٨٪ من النساء و٢٩٧٪ من الأطفال، وأن الدرّوز كانوا موزعين إلى ٣٠٨٪ من الرجال و٣٢٢٪ من النساء و٣٧٠٪ من الأطفال (٢٢). وتكشف هذه الأرقام عن هبوط إنجاب الدرّوز - ١٨١٥ طفل لكل امرأة في مقابل ١٥٥٥ عند المسيحيين - الذي سوف تؤكد

استقصاءات القرن العشرين، لكن الدروز لا يمثلون إسلام الأغلبية. على أن بوسعنا تصور أن عدم استقرار الزواج الإسلامى كان عاملاً من عوامل اعتدال الإنجاب: فتعدد الزوجات، كما لاحظ ذلك بالفعل بعبقرية الكاتب العباسى الجاحظ (٧٧٦ - ٨٦٨)، والطلاق يحدان من معدل الإنجاب بين المسلمين. وفى مستهل القرن العشرين، نجد أن الطلاق قد أجهز على ٣٠٪ من الزوجات فى مصر، وعلى أكثر من ٤٠٪ فى الجزائر (٣٤). ومن الواضح أن المرأة المطلقة تضع نفسها من جديد فى سوق الزواج، ولكن بعد تأخر فى الأهلية (للزواج) وبفرص أقل فى العثور على زوج جديد. وفى هذا المجتمع التطهرى، فإن عليها أن تحيا طلاقها فى وحدة جنسية. وهكذا فإن السهولة التى تتيحها إجراءات الطلاق يمكنها أن تعرقل، باستمرار، الدينامية الديموغرافية للإسلام (٣٥). وخلافاً لذلك نجد أن العائلة المسيحية تنجو من الطلاق، الذى لا يتم إلا بصعوبة قصوى أو تحرمة كنائس الشرق ببساطة.

الانتشار المسيحى الجديد فى الشام

يتوافق توزيع جديد للمكان مع الاندفاع المسيحى. وترجع إلى العصر العثمانى أربع حركات ديموغرافية كبرى سوف تعيد صوغ خريطة توزيع القوام السكانى بما يؤدى إلى رسمها بالشكل الذى تبويه فى أيامنا. وكانت الحركة المرتبطة على نحو مباشر أكثر بالنمو الديموغرافى هى الانتشار صوب الجنوب، انطلاقاً من المربع المحدد بنهر قديشه وبنهر الكلب. أما الحركة الثانية فهى الهجرة بالمعنى المحدد للكلمة، والتى انبثقت من تصدع دينى، هو الانشقاق الكاثوليكي المضاد فى الكنيستين الأرثوذكسية والجريجورية. وأما الحركتان الثالثة والرابعة فلهما أصل سياسى: العنف الطائفى الذى نشب فى دمشق وفى كردستان.

وفى لبنان الأوسط، كان الموارنة قد استفادوا فى السابق من القمع المملوكى السنى لاحتلال بلاد الشيعية، وهى مواقع سوف يعزونها فى ظل العثمانيين. وسوف تترافق بعض البطولات مع عمليات نزوح محدودة، خاصة فى كسروان (١٦٧٧ و١٦٨٤)، لكن الاقتصاد يلعب الدور الرئيسى فى الأمر. فالشيعية، وهو فلاحون صغار، لا يكفون عن الاقتراض من تجار الساحل الذين يسدون لهم ما عليهم من دين بالتنازل عن الأرض ويرحلون للحاق بغالبية أبناء طائفتهم على الجهة الأخرى للجبل. وإن يعبرونها من جديد إلا فى الشطر الثانى من القرن العشرين، وسوف يخلقون عندئذ حزام فقر على أبواب بيروت.

والحال أن الموارنة سوف يجدون الفائدة التي كانوا قد حصلوا عليها في السابق من التطويق الذي فرضه الإسلام المملوكي الصارم، ولكن في وضع مقلوب، فبينما كانوا قد انتشروا في زمن المماليك بفضل إجراء عسكري من جانب الدولة، فإن عدم تدخل السلطة العامة في زمن العثمانيين في شؤون الجبل، خلافاً لذلك، هو الذي يتيح لهم سلسلة من الفرص. فالآن سوف ينتشرون صوب الجنوب، في الشوف، بلد الدروز. فمنذ القرن السابع عشر، وبذافع من ديموغرافية نشيطة، سوف يقيم فلاحون موارنة على أراضي الإقطاعيين الدروز. وإذا كانوا فلاحين مؤجرين عاديين عند وصولهم، فإنهم يستفيدون من قاعدة عقارية تقدمية بشكل غريب، هي المفارسة (المزارعة)، والتي يحصل العامل الزراعي بموجبها، بعد وقت معين، على جزء من الملكية. وبدلاً من أن يكون ذلك «استعماراً مارونياً حقيقياً للبنان»^(٣٦)، فقد كان تسلاً بطيئاً، بإيقاع تتعاقب فيه الأجيال على الأرض.

وهو يجري دون أن يلحظه الدروز إلى أن يجدوا أنفسهم وقد أصبحوا أقلية واضحة في ضياعهم. وعندئذ يقع حادث حاسم بالنسبة لتاريخ البلاد، هو المعركة التي يتقاتل فيها الدروز فيما بينهم، في عام ١٧١١، في عين داره. فعلى مدار الأزمنة، كان الدروز موزعين تحت سلطتين متزاحمتين: القيسيين القادمين من الشمال، واليمنيين، القادمين من الجنوب. وهذا التوزيع، الأسطوري بأكثر من كونه واقعياً، يخرق جميع القبائل القادمة منذ زمن غابر من شبه الجزيرة العربية. وفي عين داره، تنور رضى معركة بين الأشقاء، ماتزال ذكراها حية في الذاكرة الجماعية، بين هذين الفرعين الدرزيين المحتشدين حول عائلتين متزاحمتين: آل شهاب وآل علم الدين. وسوف يؤدي الانتصار الذي يحزره الأوائل إلى حسم صفحة من صفحات التاريخ الماروني. فالمقهرون والسكان الذين دعموهم سوف ينزحون إلى المنفى في واقع الأمر وراء جبل حرمون، في حوران. وكان المكان خالياً أمام المؤجرين الموارنة الجدد.

والواقع أن الديموغرافيا المارونية قد خرجت فائزة من الصدمات التي قسمت الدروز كما خرجت السياسة فائزة أيضاً منها. ذلك أن الشهابيين، أمراء الدروز وإن كانت عقيدتهم سنية، سوف يعرفون أول تحولاتهم إلى اعتناق المارونية في عام ١٧٥٦^(٣٧). ومنذ عام ١٧٧٠، ولأول مرة منذ مجيء الإسلام وكواقع فريد في الشرق العربي، سوف يتم حكم لبنان من ثم من جانب مسيحي، هو الأمير يوسف شهاب. ومنذ ذلك الحين لا يكف لبنان عن أن يجد نفسه تحت حكم أحد المسيحيين^(٣٨). والواقع أن الأمير، السنّي من الناحية الرسمية، شأنه في ذلك شأن خلفائه، قد حافظ على دينه الجديد في سرية محترسة.

والحظوظ التي سوف يهبها الأمراء للمسيحيين سوف تجعل من لبنان الملاذ الآمن لطوائف مختلفة هاربة من المحن. ففي أعقاب التوسع الماروني، تجسّء هجرة باكملها من سوريا الداخلية لتعزيز العنصر المسيحي في لبنان. ويتعلق الأمر إلى حد بعيد بعائلات منتمة إلى الطائفة اليونانية الكاثوليكية، ذلك المسمى الجديد الذي يتميز بنيرة مفارقة، والذي يشير إلى المنشقين البابويين عن الأرثوذكسية، المؤازرين لروما، والذين يشكلون أنفسهم فيما بعد في كنيسة خاصة (١٧٠١). فعداوة الأرثوذكس لهؤلاء المرتدين تنحط إلى تهديدات ومضايقات وأعمال شغب: إن كنائس مسيحية سوف تحرق على أيدي مسيحيين آخرين. وهذه الحوادث تدفع جزءاً من البورجوازية المدنية إلى النزوح إلى مصر ولبنان. وسوف يتبعهم يونانيون أرثوذكس، للاتضمام إلى النواة الصغيرة التي كانت قد استقرت منذ زمن بعيد في سهل طرابلس الشام. وفي اللحظة نفسها تقريباً، سوف تستقر في لبنان (١٧٣٧ - ١٧٤٨) طائفة أرمنية أولى، تتألف من الكاثوليك الجدد الذين طردتهم من قيليقيا حوادث مماثلة.

أما دخول مسيحيين آخرين من سوريا إلى لبنان، في عام ١٨١٠، فقد كان له أصل مختلف تماماً. إن جماعة من الأصوليين المنحدرين من شبه الجزيرة العربية، هي جماعة الوهابيين^(٣٩)، المتأثرين بكتابات ابن تيمية (١٢٦٣ - ١٣٢٨)، سوف تهدد دمشق بعد تخريب الأماكن المقدسة للشيعية في العراق. والحال أننا أمام ديمومة غربية لمشروع يعتبر نفسه، في أواخر القرن العشرين ولكن انطلاقاً من نجد دائماً، مصلحاً للإسلام الذي لا يُراعى. وفي العاصمة السورية وفي جميع المدن التي انتشر فيها الإرهاب الوهابي، فإنه يعيد إحياء التقاليد التمييزية العتيقة التي كان النسيان قد طواها منذ زمن بعيد. وإذا وجد المسيحيون أنفسهم معرضين من جديد لكل أنواع المضايقات، فإنهم يهجرون سوريا هجرة جماعية إلى بيروت وجبل لبنان. ويشجعهم على ذلك الأمير بشير الثاني^(٤٠)، وهو نفسه مسيحي في السر.

وهكذا فإن الخريطة الطائفية لما سوف يصبح لبنان الأكبر كانت قد رسمت بالفعل تقريباً منذ الثلث الأول للقرن التاسع عشر. والحال أن كولونياً بريطانياً كان قد اطلع على سجلات الضرائب (١٨٣٥) يجرى عندئذ الحساب: إن الإسلام يهيمن في السهل والمسيحية تهيمن في الجبل. والمدن الساحلية كلها تتميز بأغلبية سنية وبأقلية يونانية أرثوذكسية قوية، لكن بيروت تضم منذ ذلك الحين مسيحيين بقدر ما تضم مسلمين. وفي شرق المسيف اللبناني، كانت سوريا سنية في غالبيتها الساحقة. ولا مراء في أن القرن الثامن عشر قد كثف تجانسها، ذلك أن تآكل السلطة العثمانية كان قد سمح بتقديم البداوة. والواقع أن هذه الأخيرة قد اقتحمت في الغرب حد البیداء والأراضى المزروعة واقتحمت معهما التباين الطائفي.

وبعد وقت قصير من الفصل الوهابي تندرج سوريا تحت سلطة السلالة الحاكمة المصرية التي أسسها محمد علي، وهو ألبانى الأصل. ومنذ دخول ابنه إبراهيم باشا إلى دمشق (١٨٣٢)، فإنه يرفع التمييزات التي ترجع إلى عصر آخر. ولما كان عاشقاً للحدائق الاجتماعية، فإنه يبدن قدراً أكبر من المساواة بين الطوائف، خاصة في واجب أداء الخدمة العسكرية؛ فالمسلمون و - لأول مرة - المسيحيون يدعون كلهم إلى حمل السلاح. وهذا الإجراء يصطدم مباشرة بالزمرويات القبلية لمجتمع لا تُعرف فيه التعبئة إلا من أجل النود عن عزية.

وبتشجيع من الباب العالي وبريطانيا العظمى، يبدأ الدروز بالثورة على إبراهيم باشا، الذي يتهمونه بمحاباة المسيحيين. وكانوا واثقين من أن الشيعة سوف يمدون إليهم يد العون في ساحة خسروا الصدارة فيها منذ القرن الثامن عشر. وعشية المعركة، يكتشفون تمايز صفوفهم: فالحدث السياسي يكشف فجأة زمن الديموغرافيا الطويل. ومن اللاذقية إلى طرابلس الشام ومن صيدا إلى حوران يواجه الوالي المصري تمرد طوائف متعارضة إحداها مع الأخرى حول جميع الأمور، ماعدا الرفض الجماعي للتجنيد.

وما كان بوسع نزاع السلاح الشامل، الذي تقرر بشكل جد متأخر (١٨٤٠)، أن يوقف الانتفاضة. فالأزمة تُدخل بسلطة أكبر في اللعبة الطائفية الدول العظمى، التي يصبح قنصلها محركين حتميين: فقنصل فرنسا والنمسا ينحازون إلى صف الكاثوليك، وقنصل روسيا وإنجلترا ينحازون إلى صف الأرثوذكس والدروز بحسب الترتيب. ودعاية الأب ريسو، وهو فرنسي يشق طريقه إلى الجبل مشجعاً المسيحيين على الثورة على الدروز، تخرج النار^(١١).

وسعيّاً إلى تجنب صدامات جديدة، تصوغ اسطنبول مشروعاً أول للفصل بين المتحاربين المحتملين. ويعين الباب العالي قائمقامين، أحدهما ماروني والآخر درزي، لكل منهما سلطة على أفراد طائفته دون أن تكون له أرض محددة. ومثل هذا المفهوم، الذي يفصل وضعية الأشخاص عن وضعية الأرض، يصدم أفكار أوروبا، التي لا تحلف عندئذ إلا بالدولة القومية. وبموجب توصيات أوروبا، يجرى من ثم تقسيم لبنان إلى وحدتين إداريتين، حيث يحكم كل قائمقام كل سكان وحدته، أكانوا من طائفته أم من طوائف أخرى. «لقد كان ذلك تنظيماً رسمياً للحرب الأهلية في البلد»^(١٢). فللمرة الأولى، ولكن ليس للمرة الأخيرة، يجرى تحويل طريق بيروت - دمشق، إلى «خط أخضر»^(١٣)، إذ كان من المفترض أن يقسم البلد إلى إقليمين متجانسين، إقليم ماروني في الشمال وإقليم درزي في الجنوب. وهذه جغرافية سياسية إجمالية إلى حد ما. فعدة قرى درزية تتواجد بشكل مبعثر في المتن^(١٤) المسيحي، بينما كان الموارد أكثرية ليس فقط في قائمقاميتهم الخاصة، وإنما أيضاً في قائمقامية الدروز.

وزيادةً لتعقيد التداخل، فإن أكبر مدينة مسيحية آنذاك، وهى دير القمر، تجد نفسها فى قلب الإقليم الوحيد ذى الغالبية الدرزية، وهو إقليم الشوف. وهناك سوف يتكبد الموارنة أقدر خسائرتهم خلال الحرب الأهلية التى تنشب فى عام ١٨٦٠: إن ٢٠٠٠ مدنى سوف يُقتلون فى يوم ٢٠ يونيو وحده. وبعد أربعة أسابيع من العمليات، فإن وهم التجانس الطائفى الذى تأسس عليه تقسيم البلد إنما يصبح واقعاً: فلم يعد هناك من الناحية العملية مسيحيون فى القائمقامية الدرزية، بل ١٥٠٠٠ قتيل و١٠٠٠٠٠ لاجئ^(٤٥).

وعلى الساحة، فإن مواجهات عام ١٨٦٠ تحول بلا جدال لصالح الدروز. على أن الدعم الذى سوف يلقاه المسيحيون من الخارج إنما يجعل من هزيمتهم أداة توسع قوى. فالواقع أن المذابح قد أثارت سخط أوروبا. وقد أرسلت فرنسا قواتها إلى بيروت ولجأت القنصليات الأوروبية إلى ممارسة الضغط على الحكومة العثمانية لكى تمنح «لبنان الصغير»^(٤٦) حكماً ذاتياً، تحت ضمانات أوروبا. وسوف يتعاقب ثمانية متصرفين من عام ١٨٦١ إلى عام ١٩١٥، كلهم كاثوليك تم اختيارهم من زهرة عناصر الإدارة العثمانية: فقد كان الأول والآخر من الأرمن وبين هذا وذاك، تم تعيين ثلاثة من الحلبيين وألبانى وإيطالى وبولونى فى هذا المنصب الرفيع. ويعرف البلد أطول فترة للسلم الأهلى فيه وتشهد الجماعة المسيحية أنشط نهوض لها.

وفى نهاية العالم التى مثلتها مناطق الموصل الداخلية، كان تعايش قديم آخر قد امتز هو الآخر من جراء تدفق رجال الدين الأوروبيين. فلم يكن هناك ما يميز النساطرة عن الأكراد سوى العقيدة. وإذا كانوا ممتزجين فى جبل واحد، حيث كان الأوائل مسيحيين وكان الآخرون مسلمين، فقد تحملوا كلهم قسوة حياة فظة. لكن الكنيسة الكاثوليكىة، البريطانية فى البداية ثم الأمريكية، سوف تخرج النساطرة من النسيان الذى طواهم، فالرساليات التبشيرية التى تتعاقب عليهم منذ عام ١٨٢٠ سوف تقربهم من الدول الغربية، لكنها سوف تستثير رغبة الأكراد.

والحال أن مذبحاً أولى للقرويين المسيحيين تقع فى عام ١٨٤٣، ولا يتمكن جيش والى الموصل، الذى أرسل تحت ضغط من جانب القنصل البريطانى، إلا من الفرجة عليها. وهكذا فإن عشرين ألفاً من النساطرة وبعض الكلدانيين يهلكون^(٤٧)، بما يشكل بداية للاختفاء شبه الكامل لطائفتهم من الشرق فى عام ١٩٣٣^(٤٨). فهل كانت نزعة قومية كرنية أولية مسؤولة عن ذلك^(٤٩)؟ يبدو بشكل أرجح أن المسؤول عن ذلك هو القوضى، التى انتشرت فى هذه الجبال المنزوية، قبل السيطرة على الموقف من جانب السلطة المركزية فى اسطنبول فى عام ١٨٦٩.

وإذا كان اليعاقبة لا يعانون البتة من قدر جذرى كهذا، فإنهم سوف يعانون مع ذلك من مناخ العنف الطائفى الذى سوف يهيمن على بلاد الأكراد نحو أواسط القرن التاسع عشر. وكانوا هم أيضاً مندمجين من الناحية الاجتماعية فى بيئتهم^(٥٠)، لكن واقع مشاطرتهم دين النساطرة سوف يعرضهم للتعصب المحيط بهم. وسوف يشهد اليعاقبة انحداراً ديموغرافياً ببطيئاً: فمن ٢٠٠٠٠٠ نسمة فى أواخر القرن السابع عشر، سوف يهبط عدد أفراد طائفتهم إلى ١٢٠٠٠٠ نسمة فى أواخر القرن التاسع عشر^(٥١). وفى عام ١٩٢٠، يغادر بطريركهم العراق لى يستقر فى حمص، فى سوريا، البلد الذى يوفر اليوم ملوى للجانب الرئيسى من طائفتهم (٨٦٠٠٠ نسمة فى عام ١٩٩٢، من إجمالى ١٦٧٠٠٠ نسمة)^(٥٢).

أوراق الاقليات الراحبة

كانت عمليات التحول إلى اعتناق الإسلام هى الوسيلة الأساسية لتوسع الإسلام. وقد توقفت مثل هذه العمليات من الناحية العملية فى ظل العثمانيين، لأن أسبابها كانت قد تلاشت. على أن ضريبة الرأس، الجزية، تستمر سارية المفعول من الناحية النظرية حتى زمن إلغاء التنظيمات الرسمية لها، لكنها كانت قد فقدت طابعها المهرق: فالضريبة الرئيسية هى الضريبة المفروضة على رأس المال والإنتاج تون تمييز على أساس الدين.

وفى الجبل اللبناني، حيث لم تكن الإدارة العثمانية تمارس بشكل مباشر، كان الأمير ملتزماً، متولياً لالتزام جباية الضرائب، وكان يقسم مسؤوليته من الباطن مع أعيان محليين. وكانت الهيراركيات القائمة داخل المجتمع تسمح لمفوضين، هم أنفسهم من الموارنة أو الدروز، بحسب العقيدة السائدة فى الموقع، بجباية الضرائب. وفى الأقاليم التى يسكنها مسيحيون، كان جابى الضرائب من ثم مسيحياً. ويحكم هذا الواقع، فإن الجباية التمييزية للضرائب، والتى ساعدت كثيراً فى الماضى عمليات التحول إلى اعتناق الإسلام، تفقد تدريجياً شفافيتها الأصلية. وتأخذ الضريبة شكلاً عاماً هو «الميرى»^(٥٣) (من «الأمير»). وسوف نقول اليوم أننا أمام خزانة عامة: فهى تكتسب طابعاً غير دينى. ويأخذ المصطلح نفسه فى الإشارة إلى مجموعة متنوعة كبيرة من الضرائب: على الأرض وعلى الإنتاج وعلى صكوك الحالة المدنية، إلخ. ومن ثم فإن جابى الضرائب إنما يقوم بعملية واحدة لجباية الضرائب. والحفاظ على دينه يكف منذ ذلك الحين عن أن ينظر إليه بوصفه ثمناً مميزاً وقابلاً للترجمة إلى لغة الأرقام.

وكان الوضع مختلفاً بشكل محسوس فى مصر، حيث كان جابى الضرائب، المتصل على نحر مباشر بدافع الضرائب المسلم أو المسيحى، قبطياً دائماً تقريباً. وكان القانون يحدد الإطار الإدارى للجباية، مثلما كان يحدد الحصص المخصصة لكل من الباشا العثمانى - ممثل السلطان - والجيش والحكومة المحلية، أى المالك، إلا أنه لم يحدد قواعد محددة لفرض الضرائب. فالشئ المحدد وحده هو المبلغ الإجمالى للضريبة المفروضة على القرية، حيث كان يجرى توزيع حصص دفعها على السكان بموجب تحكيم تقرره لجنة ثلاثية مكونة من جابى الضرائب القبطى (المصرف)، وعمدة القرية (شيخ البلد) والمحامى المدافع عن مصالح القرويين (الشاهد).

وهذا التوزيع للأدوار يضع المصرف فى وضع ملتبس، حيث يتنافس انعدام شعبيته مع سوء سمعته. وغالباً ما كان يجرى اتهام المصارفين بالجنش، مع تقدير نزاهتهم فى النزاعات القروية، التى غالباً ما كان شيخ البلد طرفاً فيها على العكس من ذلك. ويقدر رحالة فرنسى - بمبالغة واضحة - بثلاثين ألف نسمة عدد الأشخاص الذين يحيون فى مصر من جباية الضرائب، ويصل به الأمر إلى حد تحميلهم المسؤولية عن هبوط عدد السكان: فالصراف، بشكل أكثر فداحة من المملوك، قد ثبط من ثم عزيمة الفلاح على الإنتاج^(٥٤). وكانت قاعدة إدارة الشؤون المالية قبطية بوجه عام. بل يحدث أن قمة الإدارة تصبح قبطية أيضاً. وعلى مدار أربع سنوات، اتخذ محمد على جرجس الجوهري وزيراً للمالية، وهو وجيه من البورجوازية القبطية اجتنب تعاطف الشعب بسياسته الضريبية المعتدلة، وإن كان إلولى قد اضطر إلى التخلص منه لهذا السبب عينه^(٥٥).

وفضلاً عن إدارة الضرائب، فإن مجمل الجهاز المؤسسى للإمبراطورية العثمانية يأخذ فى التحول. إن الأقليات الطائفية لن تشكل أبداً أمماً بالمعنى الذى نفهمه اليوم من كلمة أمة، تتمتع بأرض^(٥٦). لكنها سوف تستفيد من إنشاء نظام الملل، والذى تفوض السلطة العثمانية بموجبه سلطتها إلى الرئيس الروحى لكل طائفة من الطوائف التى تعترف بها، فى جميع المسائل التى لها دخل بوضعية الأشخاص. فمن الزواج إلى الميراث مروراً بالدرسة، ترجع جميع شؤون العائلة بشكل خاص إلى صلاحيات الملل. ووضعية الذمى التى كانت تربط بشكل فردى الأقليات فى السابق بالسلطة المسلمة تتحول إلى ميثاق جماعى بين السلطان والطوائف. ومن ذرات من أفراد - كما كانوا فى السابق - يتحول المسيحيون واليهود إلى جماعات من المجتمع معترف بها.

وخلافاً لنظام الملل، الذى يعزز الطوائف من الداخل، فإن الامتيازات (الأجنبية) تشدها حسب الخارج. ففي عام ١٥٢٥، يقدم سليمان القانونى لفرانسوا الأول امتيازات تجارية، مكافأة له على إدخاله الإمبراطورية فى اللعبة الأوروبية. وسعيًا إلى ضمان احترام أشخاص ومصالح التجار الفرنسيين، يأخذ قناصل فرنسا فى توسيع صلاحياتهم فى المجال التجارى والمدنى والجزائى. وسرعان ما تستفيد فرنسا من هذه الامتيازات لتجعل من نفسها حامية، ليس فقط لرعاياها فى شرقى البحر المتوسط، وإنما أيضاً لأولئك الذين يعتنقون نفس ديانتها، الموارنة وكاثوليك الملل الشرقية. وإذا يجنون أنفسهم «محميين» حماية مزبوجة، من جانب السلطان ومن جانب ملك فرنسا، فإنهم يصبحون الوسيطاء المشار إليهم بالبنان بين الإسلام والجماعة المسيحية، خاصة فى المجال الاقتصادى: والامتيازات تشكل مؤسسة رئيسية لصعود بورجوازيات تجارية بين مسيحيى الشرق.

وهكذا، فبعد ثمانى عشر سنة فقط من فتحهم لسوريا، يقبل العثمانيون، حول مسألة الأقليات، تخلياً أول عن السيادة. وفى عام ١٧٤٠، سوف تفقد الامتيازات فى الواقع طابعها الذى يتميز بالسخاء السلطانى لتصبح التزاماً خالصاً وصرفاً حيث يتعين على السلطان، بناءً على طلب من ملك فرنسا، وليس بناءً على مبادرة من جانب الأول، تمديد العمل بالمعاهدة. وفى تلك الأثناء، كانت دول أوروبية أخرى قد حصلت على تنازلات مماثلة، خاصة بريطانيا العظمى والنمسا وروسيا، حيث جعلت كل واحدة منها نفسها حامية لأقلية طائفية.

وشيناً فشيناً سوف تؤدى الامتيازات إلى حفز الريبة تجاه الطوائف المسيحية، وهى ريبة تتفجر بشكل متقطع، وإن كانت تتفجر فى جميع الأحوال تقريباً بمناسبة مواجهة بعيدة بين الإسلام والجماعة المسيحية. وهكذا، ففي عام ١٧٩٩، يجرى ارتكاب اعتداءات على المسيحيين فى دمشق «انتقاماً» من دخول بونابارت إلى مصر. وفى أواخر حياته يذكر بونابارت ختاماً لحديثه: «لو تسنى الاستيلاء على عكا، لأمكن للجيش الفرنسى الانقضاض على دمشق وحلب، وكان على بعد خطوة من الفرات؛ عندئذ كان مسيحيو سوريا والديروز ومسيحيو أرمينيا سوف ينضمون إليه؛ وكانت الجماعات السكانية ستعرض لهزة عنيفة. (...) عندئذ كان سيكون بوسعى بلوغ القسطنطينية والهند، وتغيير وجه العالم !»^(٥٧). والحال أن التمرد اليونانى (١٨٢١) ونزول الفرنسيين إلى الجزائر والهجمات البريطانية على إمبراطورية المغول الهندية ومختلف الأحداث الأخرى التى أذلت الإسلام عبر العالم سوف يكون لها صداها أيضاً على العلاقات بين الطوائف فى سوريا^(٥٨).

وعندما يفتح العثمانيون سوريا ومصر، من المؤكد أن الشرق الأدنى لم يكن قد أدرك أنه بسبيله إلى أن يصبح على هامش الطرق الكبرى للتجارة. وسوف يؤدي اكتشاف أمريكا إلى فتح السبيل إلى موارد خرافية، في حين أن طريق رأس الرجاء الصالح سوف يسمح بالتخلص منذ ذلك الحين من تقديم ضريبة لوسطاء النقل الجمالين. وسوف يكف شرق البحر المتوسط عن أن يكون ملتقى طرق ليكتسب طابعاً إقليمياً مهماً. على أنه لن ينعزل مع ذلك. فالعثمانيون يصبحون سادة لإمبراطورية مترامية الأطراف. ودفعة واحدة، يجد الشرق العربي نفسه غارقاً في شبكة تبادلات واسعة. وصحيح أنها تبادلات داخلية، ولكن ما أوسع نطاقها! فمن تونس إلى سالونيك ومن حلب إلى بلجراد يجري تداول أكثر السلع تنوعاً وأكثرها تكاملاً على الطرق الإمبراطورية.

وتواضع الصفقات مع الغرب المسيحي يخفي كثرة التبادلات التجارية الداخلية، بما يشوه من جراء ذلك فكرتنا عن حجم الانتفاش العثماني. وعشية حملة بونابارت، كانت أوروبا غير العثمانية آخر شريك أصغر بين شركاء مصر (١٤٪ من تجارتها)، بما يبعد كثيراً عن الشرق (٣٦٪) وخاصة البحر المتوسط العثماني (٥٠٪) (٩١). ومن السفن الفرنسية التي استأجرها العثمانيون في الإسكندرية، كانت نسبة ٢٥٪ فقط تبحر إلى أوروبا؛ فمن آسيا الصغرى إلى المغرب، كانت جميع السفن الأخرى تبحر داخل البحر العثماني (٩٠). وعدة مدن عربية تحتل، أو بشكل أدق تعرف الفوز بمكانة محورية. وهكذا فإن المدن التي تربط بين السفن والقوافل، الإسكندرية ثم بيروت، من جهة البحر، وحلب والموصل ودمشق والقاهرة، من جهة الصحراء، سوف تشهد نمواً اقتصادياً، ومن ثم، ديموغرافياً، لا يتناسب مع الموارد الهزيلة التي كان بوسعها الحصول عليها من البيئة الريفية المحيطة بها (٩١). والحال أن عدد خانات رجال القوافل في القاهرة ينتقل من ٥٧ في زمن السلاطين المماليك إلى ٣٦٠ في أواخر القرن السابع عشر (٩٢).

وفي الشمال، نجد أن فشل حصار فيينا (١٦٨٣) ينبئ بالمصاعب التي تواجهها الإمبراطورية وسرعان ما سوف ينبئ بتفككها في أوروبا. ومن ثم فإن كلفتها التجارية تنتقل صوب الشرق: وتصبح الإسكندرية وحلب بؤرتين جديدتين لها. والبحر الأحمر، «بحر المسلمين المقدس المحظور على المسيحيين» (٩٣)، يكف عن أن يكون الطريق الملكي للتبادل لكنه يجد منتجاً بديلاً: بن شبه الجزيرة العربية، المصدر من مخا، حيث تنقله الزوارق العربية إلى السويس. وهناك، يأخذ الوسطاء الشام والارمن واليونانيون واليهود شحنته، بينما لا يصل التجار الفرنسيون إلا في نهاية الشوط.

وكانت آسيا العثمانية، الأكثر انتفاشاً من مصر، أكثر انغلاقاً. فمناطقها الداخلية لا تجتذب التجار الأوروبيين، الذين لا يدخلون إلا إلى الواحات البحرية ومخزاتها القريبة. وتتوقف علاقاتهم عند دمشق وحلب، حيث يبدأ جبروت قوافل التجارة الإسلامية. ومن ثم فإن التجار المتواجدين في الموقع يشكلون حلقة اتصال ضرورية. وبينما يتولى المسلمون الجانب الرئيسي من التبادلات الداخلية، فإن المسيحيين وبعض اليهود يتخصصون في المعاملات مع «الفرنجية». وهكذا تتطور بورجوازية مسيحية ترنو ببصرها إلى أوروبا، ليس ضد الإمبراطورية وإنما لأجلها. وبور الوسيط هذا، المتواضع على مستوى العالمين اللذين يوجدانه - الإمبراطورية وأوروبا - كان هاماً على مستوى طوائف الشرق المسيحية، المهينة للتجارة مع هؤلاء الشركاء الجدد الغربيين، بحكم تقاربها الديني معهم.

وعلى تخوم الصحراء، حيث يضع الجمال قدمه على الأرض، نجد أن بعض المدن الكبرى تشهد من ثم نمو جماعاتها السكانية المسيحية واليهودية. وإذا ما اقتصرنا على دمشق، فقد كان هناك في عام ١٥٦٩ ، ٦٣٠٠ مسيحي و٢٢٠٠ يهودي من أصل ٥٢٤٠٠ نسمة^(٦٤) (الجدول ٧.٨). وبعد ذلك بقرنين، زاد عدد المسيحيين ثلاث مرات (٢٢٠٠٠)، في حين أن عدد سكان المدينة لم يصل حتى إلى ضعف ما كان عليه (٩٠٠٠٠) وأن عدد اليهود كان راكداً من الناحية العملية (٤٠٠٠)^(٦٥). ولا يعني ذلك أن هذه الطوائف كانت مؤلفة من تجار فقط. ففي القدس، في القرن السادس عشر، نجد مسيحيين ويهوداً، إلى جانب المسلمين، في جميع الحرف العادية في المدينة. حرف الحدادين والبنائين والخبازين والفزّالين^(٦٦).

وقبل بيروت بزمان، ولكن باندفاع أقل، كانت حلب قد شهدت أيضاً بروز جماعاتها المسيحية. فالتقنصليات التي أقامها هناك البنادقة والفرنسيون والإنجليز والهولنديون بين عامي ١٥٤٨ و١٦١٣ سوف تفتح هذه المدينة الداخلية على أوروبا. وسلطة اسطنبول المباشرة تكفل التعايش الطائفي. والحال أن المسيحيين العثمانيين - الملاكين والكاثوليك السوريين، وكذلك أيضاً الموارنة والأرمن - لكونهم المتعاملين الطبيعيين مع إخوتهم «الفرنجية» في الدين، سوف يقومون بنشاط مزدهر، مازال تشهد عليه أبهة مساكن حى الجديدة وحى العزيزية. ولما كان التعامل بالمثل ضرورياً، فإن الحلبيين سوف يقيمون لهم جالية في ليثورنو.

وفي مصر، لن يشكل الاقباط أبداً بورجوازية مزدهرة ازدهار البورجوازية التي شكلها المسيحيون في سوريا. فجماهيرهم تظل ريفية وإقليمية. وفي القاهرة، نجد أنهم لا ينخرطون في التجارة النولية، بل يحتلون غالباً مكانة لا وزن لها، فهم كتبة لدى الإدارة أو لدى

الأرستقراطية المسلمة، أو تجار تجزئة أو صغار حرفيين. وتشير قوائم الوراثة إلى تواضع حالهم بالقياس إلى حالة المسلمين: فممتلكات حرفى قبلى متروكة لورثته تصل بالكاد إلى ثلث ما يتركه مسلم من الحرفة نفسها من ممتلكات لورثته (٧٧).

أما الطبقة المسيحية السائدة الحقيقية فى مصر فقد كانت سورية الأصل. فهرباً من توتر علاقاتها مع الأرثوذكس، تجيء عائلات ملكانية عديدة من دمشق وبالأخص من حلب. وشأنها فى ذلك شأن العائلات القادمة من حلب أيضاً، والتي سوف تشق طريقها إلى بيروت بعد قرنين، فإن هذه العائلات تشكل صفوة مالية وفكرية تهجر سوريا. وفى غضون جيل، سوف تنجح فى الفوز بدور اقتصادى واجتماعى بالغ العظمة فى القاهرة. وسرعان ما سوف تحل محل اليهود فى التزام الجمارك وتلعب دوراً ملحوظاً فى الاستيراد والتصدير. وسوف يتمتع كاثوليك مصر السوريون بنفوذ بالغ يمكنهم من التفاوض، بدعم من محمد على - الذى لا يطلب غير اجتتاب اسطنبول - على انفصالهم عن الملة الأرثوذكسية (١٨١٦).

ولم تكن بيروت غير بنتر صغير عندما اقترب العثمانيون منها: ٤٢٠٠ نسمة، لا يشكل المسيحيون بينهم غير نسبة ١٠٪ (٧٨). وبعد ذلك بقرنين ونصف قرن، لن يصادف ثوانى هناك أيضاً غير ٦٠٠٠ نسمة، لأن «يعين يحكمان على بيروت بالأبداً غير مكان سيىء: فهى من جهة يهيمن عليها ستار من الروابي، (...) ومن جهة أخرى يعوزها الماء فى داخلها» (٧٩). وكان لأبد من عزم وإرادة إبراهيم باشا، ابن محمد على، للتقلب على ذلك. فمنذ الاحتلال المصرى، تنخرط المدينة فى صعود اقتصادى وديموغرافى فريد فى العالم العربى (٧٠). وفى الوقت نفسه، تصبح بيروت أكثر العواصم الإقليمية مسيحية (الجدول ٧.١٠). ونحو منتصف القرن التاسع عشر أو ربما قبل ذلك إلى جدما (٧١)، يكسب المسيحيون لأول مرة تناظراً (عددياً) مع المسلمين، ثم يكسبون أغلبية الثلثين التى سوف يحافظون عليها حتى الانتداب الفرنسى. وتصبح المدينة قطباً للازدهار الاقتصادى وللإشعاع الثقافى سواء بسواء. ويسود السلم الأهلى فيها، حتى وإن كانت الحوليات تسجل من حين لآخر بروز مشاجرات بين القبطسيات، فترات الطوائف المختلفة (٧٢).

وسوف يجد الموارنة فى بيروت ملاذاً يلجأون إليه، أحياناً، من هزات الجبل. لكن البورجوازية المسيحية فى بيروت كانت أرثوذكسية بالدرجة الأولى. ومنذ القرن التاسع عشر، تكتسب جميع سمات طبقة رأسمالية حديثة وتنشئ بنوك إيداع وبنوكاً تجارية. ومن شأن نشاط عقارى قوى يمتد إلى أركان الإمبراطورية الأربعة على طول تشعب الفروع العائلية أن

يكفل لها فى آن واحد رأس مال عقارى وانغراساً عبر قومى. وتنهل بيروت من أعماق الأرثوذكسية العثمانية، كما يشهد على ذلك تنوع أصول أسماء العائلات.

وهذا الإشعاع غير العادى ^(٧٣)، إنما تدين به الطائفة الأرثوذكسية لواقع الانتماء إلى أول جماعة مسيحية فى الإمبراطورية، وهى الجماعة الوحيدة التى تملك بطريركية قائمة فى قلبها، فى اسطنبول، والجماعة الوحيدة التى لا تسعى أبداً إلى الفوز بحماية روما. وربما كان اليونانيون الكاثوليك والموارنة وجميع الطوائف ذات الملة اللاتينية أقرب من القنصليات الأوروبية، لكنها الأقرب فحسب: ومن المؤكد أن الحظوات التى تلقاها هناك هذه الطوائف المحمية بنظام الامتيازات بكثير مما بنظام الملل العثمانى تسهل صلاتها التجارية، لكنها تضر بالثقة العامة. أمّا فيما يتعلق بالبورجوازية السنية البيروتية، والتى تستقوى بانغراسها فى غالبية الشرق العربى والتركى السنية الساحقة، فإنها تمد شبكتها التجارية إلى أعماق الإمبراطورية وإلى مصر. ويتزايد اختلاط المجتمع البيروتى الجميل كله؛ ليس بعد عن طريق الزواج، بل عن طريق الأعمال التى يتعاملها.

ولم تكن المدن التجارية وحدها هى التى قدمت للديموغرافية المسيحية فوائد انفتاح على أوروبا. إذ يسهم فى ذلك أيضاً الجبل اللبناني، الذى يخرج فى ظل السلطة العثمانية من اكتفائه الذاتى ^(٧٤). فزراعة أشجار التوت وتربية نود القز، والموجهتان إلى أسواق أوروبية منذ رفع الإدارة المصرية للحظر على التصدير (١٨٣٣)، سوف تقدمان لطوائفها الموارد التى سوف تحررها من تقلبات إنتاج المواد الغذائية. وهكذا يقتحم الموارنة حدود ديموغرافيا تقليدية. ولا يعود إنتاج الحرير مجرد نشاط زراعى، بل يصبح تجارة، ومنذ عام ١٨٥٠ يصبح صناعة صغيرة. والبيوت التجارية، الفرنسية غالباً، واللبنانية أحياناً، والتى ترسل من بيروت الحرير الخام أو خيوط الحرير إلى مرسيليا أو إلى مصانع ليون، ترسى أسس اندماج جديد للطائفة المارونية: ففرعها المدينى والفلاحي يجدان نفسيهما متوحدين من جديد فى دائرة اقتصادية واحدة ويندمج كلاهما فى فلك نولى.

ويبلغ النهوض السكانى مدى بعيداً بحيث إن الجبل يصبح بدوره ضيقاً للغاية. وعندما يدخل إنتاج الحرير فى أزمة، فإن الجبلين الأكثر تواضعاً يضطرون إلى النزوح إلى ما وراء البحر؛ وهناك يؤسسون بسرعة هوائيات ازدهار جديد. وهؤلاء المهاجرون الأوائل، الذين يشارك بعضهم بنشاط فى بناء الرأسمالية فى أمريكا اللاتينية، يذكروننا إلى حد ما بالبارسيلونيت الفرنسيين ^(٧٥).

وكان تحديث الشرق العربى ثقافياً بقدر ما كان اقتصادياً. إن مسلمين ومسيحيين،

رعايا عثمانيين عديدين يتعاملون في واقع الأمر مع تقدم أوروبا على الإمبراطورية، البالغ الوضوح في القرن التاسع عشر، بوصفه تحدياً. وكان لابد من كسب العلم من جديد، إلى الدرجة التي سوف يكون من الطبيعي تماماً معها أن تجد العلاقات الثقافية مع أوروبا مكاناً لها إلى جانب التجارة. وكان العمل التأسيسي لذلك هو افتتاح كلية روما المارونية (١٥٨٤) في ظل البابا جريجوار الثالث عشر.

وبعد ذلك بزمان طويل، سوف تؤدي مجموعات المبعوثين المصريين الذين أرسلهم محمد على لمواصلة دروسهم في فرنسا إلى توسيع الانفتاح (٧). إلا أنه مع إنشاء المؤسسات المدرسية الدينية الأولى (١٨٢٤ في لبنان، ١٨٥٤ في مصر) على أيدي المبشرين الأمريكيين، الذين سرعان ما سوف يتلوهم فرنسيون وإيطاليون وإنجليز، سوف يأخذ النفوذ الغربي في التغلغل بين السكان ويسهم في صوغ سلوكهم، خاصة أنماط السلوك التي من شأنها تعديل منحنيات معدل الوفيات. وسوف تلعب البعثات الكاثوليكية دوراً كبيراً في نشر التعليم. وإن يقتصر تأثيرها على الموارد واليونانيين الأرثوذكس وحدهم، بل سوف يكون مفيداً أيضاً للطوائف المجاورة لهم، أكانت من الأرثوذكس أم من المسلمين. إلا أنه سرعان ما سوف تظهر تباينات شاسعة في التعليم المدرسي بين الأقاليم و، في داخلها، بين الطوائف (٨). وفي جميع الأنحاء يحرز المسيحيون تقدماً على المسلمين (الجدول ٧.٧). أما فيما يتعلق باليهود، فقد كان مسلكهم أكثر استمرارية: وإذا كانوا أقل تعليماً من المتوسط في الولايات التي كان التعليم فيها بالغ الانتشار (بيروت، بغداد، الموصل)، فإنهم يجيئون على رأس القائمة في الولايات الأكثر تخلفاً (حلب، البصرة). وهو وضع هزيل، إذا ما قورن بوضع يهود أوروبا في الفترة نفسها.

على أن هناك وجهاً مقابلاً للوحة: فالمواجهة بين الأغنياء والفقراء تتخذ هنا طابعاً طائفيًا. وسوف تؤدي التنظيمات إلى آثار غير متوقعة. فالبورجوازية المسيحية التي تشكلت منذ بضعة أجيال من الاتصال بأوروبا تؤكد ازدهارها. وخراب طبقة من المتعهدين الصغار، المسلمين غالباً، مسؤول جزئياً من جهة أخرى عن ثروتها، كما يرصد ذلك شاهد أوروبي: «إن الصناعة الأوروبية المستوردة قد قضت من الناحية العملية على الإنتاج اليدوي المحلي (٨)». وكان الحسد الذي ولدته المواقع الاقتصادية للنخبة المسيحية قد تم تخفيفه في السابق عن طريق عطف معين بسبب وضعيتها الخاضعة. ومع المساواة السياسية التي أعلنت فجأة، فإن التفاوت الاقتصادي يصبح استفزازاً. ويفقد الحسد الثقل المضاد له والمتمثل في العطف. ويهيب العلماء ضد تبديل الطابع الإسلامي للدولة والذي تمثله هذه الإصلاحات العلمانية. ويهيب العوام

ضد حرية العبادة التي يتفاخر بها المسيحيون، وضد الأجراس التي تدق من جديد، وضد عمل عبيد مسلمين عند سادة مسيحيين، وياختصار، ضد العجرفة التي تحل محل المسكنة. ويتصاعد سخط الشارع. وخلال حرب الجبل، تشهد بيروت بداية نزوح صوب كسروان، بينما تشهد دمشق مذابح حقيقية: إن ٥٥٠٠ مسيحي سوف يقتلون. ومن المرجح أن عددهم كان يمكن أن يزيد عن ذلك بكثير لولا أن الأمير الجزائري عبد القادر، الذي استقر في دمشق بعد نفيه من الجزائر، قد قدم وساطته لوقف المجزرة. وقد أشار بذلك إلى أن بوسع المرء، في أن واحد، أن يعلن الحرب المقدسة على فرنسا وأن يحمي الجماعة المسيحية العربية.

لقد حدث النهوض الاقتصادي والديموغرافي للجماعات المسيحية الشرقية في سياق بولى فريد، سوف يتلاشى مع الحرب العالمية الأولى، وكان غرب التوسع الاستعماري قد أكد هيمنته بإعلان سمو مسيحيته. وسار الفتح الاقتصادي والتبشير جنباً إلى جنب. إلا أنه، مع التنوير، سوف تتسرب الأفكار التي سوف تنتصر عند منعطف القرن العشرين، فالعلمانية، وفيما بعد بوقت طويل، الديمقراطية سوف تصبحان العقيدتين الجديتين. وسوف يعطيان كلاهما للديموغرافيا حقاً على السياسة^(٧٩). وعبر آليات معقدة، سوف يوقفان الصعود المسيحي.

الجدول V. 2

الجماعات السكانية في سوريا ولبنان وفلسطين في 1580 و 1882 و 1914

الزيادة ⁰ في السنة)		النسبة %			الأعداد المطلقة			
1914 - 1882	1882 - 1580	1914	1882	1580	1914	1882	1580	المطابقة
10,3 13,8 23,4	0,6 4,9 2,4	71,6 % 26,4 % 2,0 %	74,2 % 24,5 % 3 %	91,0 % 8,1 % 0,9 %	2150569 794131 58644	1536441 507939 27382	1290510 115105 13140	المسلمين المسيحيين الآخرون

المصادر : التعدادات العشائية لولايات بيروت ودمشق وحلب : 1570 - 1590 : ع. ل. بركان، بحث حول الاستقدمات الحضريية العشائية، مصدر سبق ذكره، 1881 - 1883 : ك. كريات ، السكان العشائيون مصدر سبق ذكره : جبل لبنان : استخلاص قام به الجيش الفرنسي / كنيه بالنسبة لعام 1882 (ي. كريات وف. فارح، الوضع الديمغرافي في لبنان، مصدر سبق ذكره)، 1914 : الجدول V. 4 .

الجدول 3 . V

معدل الزيادة بحسب الطائفة والولاية
بين 1570-1590 و 1881-1882
(معدل الزيادة الوسطى السنوى ‰)

الولاية	مسلمون	مسيحيون	يهود
حلب	0,2	5,9	7,1
طرابلس / بيروت *	3,4	6,1	2,8
دمشق	0,1 -	5,1	6,1 -
بغداد	0,2 -	6,0 -	7,1
البصرة **	5,1		
الإجمالي	1,1	4,6	4,0

* بما فى ذلك جبل لبنان فى 1881 - 1882.

** 1580 - 1897 بالنسبة للبصرة.

V. 4 الجدول

سكان الهلال الخصيب في ١٩١٤
(البلدان في حدودها الحالية)

البلد	الولاية	القضاء/السجن	مسلمون	مسيحيون	يهود	الإجمالي
الأردن	دمشق	الكرك (س)	123172	13016	0	136195
		عجلون (ق)	66023	8205	0	74228
			57156	4811	0	61967
القطاع الغربية / غزة	بيروت القدس	ناپلس (س)	354838	36504	19183	410525
		القدس (ق)	151552	2982	29	154563
		الجليل (ق)	70270	32461	18190	120921
		غزة (ق)	55720	3	721	56444
	بيروت القدس	غزة (ق)	77296	1058	243	78597
		عكا (س)	160643	32952	12488	206083
		بيروت القدس	97885	52609	10383	133877
		يافا (ق)	62758	7343	2105	72206
	بيروت	بيروت (س)	364413	502101	4647	871161
		طرابلس (ق)	145848	63819	4568	213871
لبنان	دمشق	عكا (ق)	50004	17293	72	67369
		حاصبيا (ق)	19920	21968	0	41888
		حاصبيا (ق)	9405	5843	6	15254
		راشيا (ق)	5490	4139	0	9629

25097	1	6429	18667	ملك (ق)	جبل لبنان (المان/ سينا)
29339	0	10226	19113	البقا (ق)	
468714	0	372384	96330		
1328200	20181	134546	1173473	اللائقية (س)	
146131	0	11393	134738	صايفتا (ق)	
37416	0	5162	32254	قلعة الحصن (ق)	
29758	0	13281	16477	حلب (س)	
331024	10046	34795	286183	نير الزندر (س)	
66294	2	522	65770	مشق (ق)	
222624	10129	14988	197507	الزيتاني (ق)	
16019	0	1690	14329	وادي الشام (ق)	سوريا
16298	0	2770	13528	التيطرة (ق)	
34916	4	1378	33534	ديا (ق)	
38358	0	3008	35350	التيق (ق)	
46344	0	6205	40139	حماه (س)	
206272	0	29763	176509	حدران (جولنا)	
122094	0	9577	112517	الريجة (ق)	
14652	0	14	14638		
1133070	69240	33608	1030222		
473980	54322	5612	414045		المراق
190786	1311	997	188478		
468304	13607	26999	427698		
4085234	125739	752727	3206,768		أجبال الهلال الخصيب

* ولايات لم يجر تعداد لها في عام 1914: تقديرات 1881 - 1882 (لبنان) و 1897 (البحيرة، النصارى).
المصدر: التعداد العشائري لعام 1914.

الجدول ٥ . V

التوزيع الطائفي في مصر ، ١٩١٤

المحافظات	مسلمون	مسيحيون	يهود	الإجمالي
القاهرة	600777	121587	26529	748893
الإسكندرية	307898	90571	21808	420277
بورسعيد	50005	16923	535	67462
السويس	22131	4764	132	27028
دمياط	22947	484	7	23438
الدقهلية	939680	23516	841	964037
الشرقية	911905	20085	291	932280
القليوبية	488477	11360	281	500118
الغربية	1573460	31436	1479	1606375
المنوفية	1009436	32364	45	1041845
البحيرة	838902	13568	216	852686
الإسماعيلية	10494	3904	70	14468
الجيزة	489582	14951	349	504882
بنى سويف	404281	24353	82	428716
الفيوم	464071	23310	71	487453
المنيا	603592	128974	143	732709
أسيوط	747577	210128	99	957804
سوهاج	704659	137347	112	842118
قنا	753795	66030	90	819916
أسوان	240315	6733	113	247161
الصحراء	29742	392	2	30136
الإجمالي	11213725	982780	53296	12249801

المصادر : استخلاص من تعدادي ١٩٠٧ و ١٩١٧ .

الجدول 6 . V

تقدير التوزيع المائتي في جبل لبنان في القرن التاسع عشر

التاريخ	الكاتب	إجمالي السكان	المسيحيون				المسلمون			إجمالي المسلمين
			المرارة	الكاثوليك	الانثوذكس	البروتستانت	الدروز	السنة	الشيعة	
1816	كورانسيه	215000	130000		10000		70000	2500	3000	70500
1833	بران	218622					65000		14866	45036
1840	لورين	193935					30170		5395	40615
1847	بوريه	300919					26445	8775	22569	63193
1847	جسي	107593					40624		17000	2911
1847	الشيماق *	441500	350000				12911			40000
1860	كرم	105055					40000			20486
1860	كاتب مجهول الاسم *	269980					12607		7897	49575
1860	البيش الفرنسي	262000	172500	20400	27100		28560	7795	13220	31000
1863	المرارية	262000	206000		24000		24000		7000	80234
1895	كنيه	399530	229680	34670	54208	738	49812	13576	16846	

* : الرجال فقط . ** : المسيحيون غير المرارية . *** : السنة والشيعة.

المصادر : من 1816 إلى 1863، دوبينيك شوفالييه، مجتمع جبل لبنان ،... مصدر سبق ذكره ؛ 1895 : فيتال كنييه، سوريا ، لبنان ،... مصدر سبق ذكره .

الجدول 7 . V

التعليم المدرسي بحسب الطائفة في أواخر القرن التاسع عشر

معدل التعليم المدرسي *	الاعـــداد		الإقليم
	التلاميذ	إجمالي السكان	
40,0 %	30933	336468	ولاية بيروت
64,6 %	21496	166443	المسلمون
38,0 %	1908	25136	المسيحيون
			اليهود
22,3 %	3580	80234	متصرفية جبل لبنان
47,2 %	30172	319297	المسلمون
			المسيحيون
12,5 %	11599	465346	ولاية حلب
16 %	3770	117809	المسلمون
30,6 %	1180	19265	المسيحيون
			اليهود
7,9 %	4190	264280	ولاية الموصل
39,3 %	2355	30000	المسلمون
3,3 %	40	6000	المسيحيون
			اليهود
6,1 %	9700	789500	ولاية بغداد
46,4 %	650	7000	المسلمون
13,7 %	1467	53500	المسيحيون
			اليهود
2,6 %	4940	939650	ولاية البصرة
9,8 %	115	5850	المسلمون
15,6 %	140	4500	المسيحيون
			اليهود

* معدل التعليم المدرسي : التلاميذ / % 20 من إجمالي السكان.

المصادر : إجمالي السكان والتلاميذ، فيثال كيني، مصدر سبق ذكره.

الجدول 8 . V

التوزيع الطائفي في دمشق في القرن السادس عشر

السنة	1543	1548	1569
الأعداد المطلقة			
المسلمون	43706	49243	42822
المسيحيون	3307	4320	6290
اليهود	3084	3096	3332
الإجمالي	50097	56659	52444
النسب			
المسلمون	87,2 %	86,9 %	81,7 %
المسيحيون	6,6 %	7,6 %	12,0 %
اليهود	6,2 %	5,5 %	6,4 %
الإجمالي	100,0 %	100,0 %	100,0 %

المصدر: م. أ. بخيت، « سكان ولاية دمشق » مصدر سبق ذكره.

الجدول 9 . V

التوزيع الطائفي في القدس في ظل العثمانيين
(1525 - 1914)

اليهود	المسيحيون	المسلمون	التاريخ
			القرن السادس عشر
21,3 %	12,7 %	66,0 %	1525
14,6 %	9,4 %	76,0 %	1538
12,2 %	12,2 %	75,5 %	1553
9,5 %	12,1 %	78,3 %	1562
0,0 %	2,8 %	97,2 %	1596
			القرنان التاسع عشر والعشرون
08,8 %	24,2 %	67,1 %	1882
15,0 %	26,8 %	58,1 %	1914

المصادر : التعدادات العثمانية؛ 1525 - 1596 ، 1 . كوهين و ب . لويس، 1882 - 1914 : ك . كريات،

مصدر سبق ذكره.

الجدول V.10

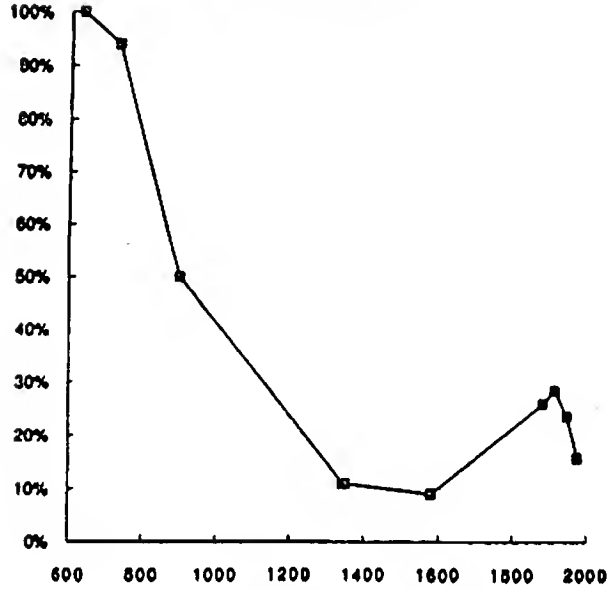
نسبة المسيحيين في بيروت ، القرن السادس عشر - القرن العشرون

القرن السادس عشر	%	القرن XIX - XX	%
1523	9,7	1838	45,0
1530	11,0	1846	47,0
1543	3,3	1860	58,0
1568	14,8	1881	57,0
1596	13,1	1882	58,0
		1889	64,0
		1889	66,0
		1895	63,0
		1908	48,0
		1912	54,0
		1917	60,0
		1920	66,0
		1922	45,0

المصادر : القرن السادس عشر : م . ا . بخيت، «سكان ولاية دمشق»، مصدر سبق ذكره، القرن التاسع عشر - العشرون : ل . طرزي فواز، التجار ...، مصدر سبق ذكره.

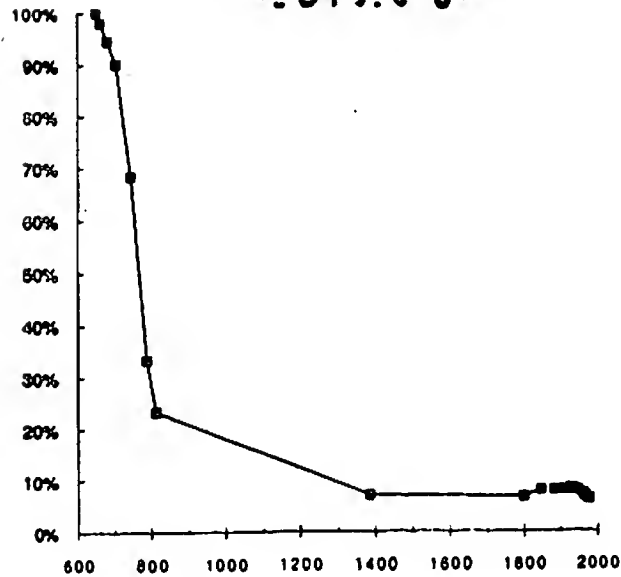
الشكل V. 1 a

نسبة المسيحيين في سوريا ولبنان وفلسطين
(من الهجرة إلى أيامنا)



الشكل V. 1 b

نسبة المسيحيين في مصر
(من الهجرة إلى أيامنا)



حواشي الفصل الخامس

- 1 - Quartier du patriarcat grec orthodoxe à Istanbul.
- 2 - Entendu ici comme l'ensemble territorial aujourd'hui formé des Etats et territoires occupés suivants: Irak, Israël, Jordanie, Liban, Syrie, Gaza et Cisjordanie.
- 3 - Ömer Lûtfi BARKAN, "Research on Ottoman Fiscal Surveys", in M.A. Cook (ed.), *Studies in the Economic History of the Middle East From the Rise of Islam to the Present Day*, Oxford, Oxford University Press, 2nd edition, 1978, publie les données brutes du recensement: des effectifs de ménages. Nous en avons tiré les effectifs de population totale en estimant à 5 personnes la taille moyenne du ménage. Gilles VEINSTEIN, "Les Registres de recensement ottomans. Une source pour la démographie historique à l'époque moderne", *Annales de démographie historique*, Paris, 1990.
- 4 - Muhammad Adnan BAKHIT, "The Christian Population of the Province of Damascus in the Sixteenth Century", in Benjamin BRAUDE et Bernard LEWIS, *Christian and Jews in the Ottoman Empire*, vol. II, New York, Holmes and Meier, 1982.
- 5 - André RAYMOND, "Les provinces arabes (xvi^e - xviii^e siècle)", in Robert MANTRAN (dir.), *Histoire de l'Empire ottoman*, Fayard, 1990.
- 6 - Les recensements suivants, en 1897, 1906 et 1914, portèrent sur une parité seulement des *wilaya*.
- 7- Exhumés par Kemal KARPAT, *Ottoman Population, 1830-1914, Demographic and Social Characteristics*, Madison, The University of Wisconsin Press, 1985.
- 8 - En réalité, le sexe masculin (tous âges) fut mieux recensé que le sexe féminin. Les chiffres du recensement de 1881/82-1893 que nous fournissons en annexe sont Obtenus en observant la règle suivante : données brutes du recensement ottoman lorsque l'effectif féminin est supérieur ou égal à l'effectif masculin, sinon deux fois l'effectif masculin.
- 9- La division administrative de l'époque distingue, par ordre d'emboîtement successif, la *wilaya* (province), le *sandjak* (département) et le *caza* (canton). Deux provinces ont des statuts spéciaux d'autonomie, les *moutassarifiyya* du Mont- Liban et de Jérusalem.
- 10 - André RAYMOND, "Les Provinces arabes...", *op. cit.*
- 11 - Muhammad Adnan BAKHIT, "The Christian Population...", *op. cit.* a dépouillé certains d'entre eux.
- 12 - Dominique CHEVALIER., *la Société du Mont- Liban à l'époque de la révolution industrielle en Europe*, Paris, Geuthner, 1971.
- 13 - Dans les tableaux de l'annexe, nous avons retenu les chiffres les plus détaillés, fournis par Vital CUINET, *Syrie, Liban et Palestine. Géographie*

administrative, statistique et raisonnée, E. Leroux, Paris, 1896. Voir nos quelques réserves au chapitre VIII.

14 - Elle s'étendait alors de l'embouchure de l'Oronte à la Palestine.

15 - L'espace de nomadisation.

16 - Recensement de 1914.

17 - Muhammad Adnan BAKHIT, "The Christian Population of the Province of Damascus...", *op. cit.*, fournit un état brut des registres. En nous limitant aux seuls villages (et non les villes, sujettes à une intense migration à l'époque: voir tableaux V. 12 à V. 15) qui avaient fait l'objet de 5 compages au cours du siècle, voici notre récapitulation:

	1523	1543	1548	1569	1596
Musulmans	7 546	9 718	10 467	15 885	9 261
Chrétiens	6 914	9 428	15 885	11 816	10 556

Série perturbée on le voit, dont il est difficile de tirer mieux qu'un taux moyen combinant les observations.

18 - Solde net égal taux de croissance naturelle moins taux d'émigration.

19 - Elie SAFA, *L'Emigration libanaise*, Université Saint-Joseph, Beyrouth, 1960.

20 - Voir chapitre VII.

21 - Doris BEHRENS - ABOUSEIF, "The Political Situation of the Copts, 1578-1923", in Benjamin BRAUDE et Bernard LEWIS, *Christian and Jews....*, *op. cit.*

22 - Jomard sous- estime la population égyptienne de plus d'un million de personnes: le premier recensement démographique d'Egypte (1846) donnera 4,176 millions. Il ne paraît cependant pas tromper beaucoup sur la répartition proportionnelle des communautés confessionnelles.

23 - Edms François JOMARD, *Coup d'œil impartial sur l'état de l'Egypte comparé à sa situation antérieure*, Paris, Plan, 1936.

24 - Ailleurs, Jomard semble avoir obtenu, par des moyens mathématiques et non par un comptage sur le terrain, une estimation sensiblement supérieure: 215 à 220000 non- musulmans; M.A. EL- BADRY, "Jomard et la démographie d'Egypte", *Population*, n°6, Paris, 1991.

25- Lettre de Pierre Plane, 13 juillet 1787, citée par Daniel PANZAC, *Quarantaines et lazarets. L'Europe et la peste d'Orient*, Aix-en-Provence, Edisud, 1986.

26 - Citée par Dominique CHEVALLIER, *la Société du Mont- Liban....*, *op. cit.*

27 - Leïla TARAZI FAWAZ, *Merchants and Migrants in Nineteenth- Century Beirut*, Cambridge, Harvard University Press, 1983.

28 - Dominique CHEVALIER, *La Société du Mont- Liban....*, *op. cit.*

- 29 - La Veme KUHNKE, *Lives at Risk. Public Health in Nineteenth-Century Egypt*, Berkeley, University of California Press, 1990.
- 30 - André RAYMOND, *Grandes Villes arabes à l'époque ottomane*, Paris, Sindbad, 1985.
- 31 - Haroutune ARMENIAN, "Health Information System: Diversity of Data and Need for Integration", communication au séminaire de l'Union internationale pour l'étude scientifique de la population, *Measurement of Maternal and Child Mortality*, Le Caire, 1991.
- 32 - Les chiffres originaux de ce recensement effectué par deux filateurs français nous sont parvenus grâce à Dominique CHEVALLIER, *La Société du Mont- Liban...*, *op. cit.*
- 33 - Voir chapitre premier.
- 34 - Philippe FARGUES, "La démographie du mariage arabo-muslman: tradition et changement", *Maghreb - Macbrk*, n°116, Paris, 1987.
- 35 - Les relation entre répudiation et fécondité sont complexes et n'agissent pas toutes dans le même sens. *Ibid.*
- 36 - Kamal ALIBI, *Histoire du Liban du xvii^e siècle à nos jours*, Naufal, Paris, 1988.
- 37 - Kamal SALIBI, *Histoire du Liban...*, *op. cit.*
- 38 - A deux brèves exceptions près: l'éphémère Omar Pacha (1842) et le moussarrif Ismaïl Haqqi Bey (1917).
- 39 - Dynastie régnant aujourd'hui à Riad.
- 40 - Kamal SALIBI, *Histoire du Liban...*, *op. cit.*
- 41 - Kamal ALIBI, *Histoire du Liban...*, *op. cit.*
- 42 - *Ibid.*
- 43 - C'est le nom qu'on lui donnera durant la guerre civile de 1975- 1990.
- 44 - District situé au nord-est de Beyrouth.
- 45 - Kamal SALIBI, *Histoire du Liban...*, *op. cit.*
- 46 - Sur une surface deux fois plus petite que le Liban actuel, il comportait la montagne et sa façade maritime, à l'exception notable de Beyrouth et des principales villes côtières.
- 47 - Aziz S. ATIYA, *A History of Eastern Christianity*, Methuen & Co, Londres, 1968.
- 48 - Voir Chapitre VIII.
- 49 - C'est ce que suggère Aziz S. ATIYA, *A History...*, *op. cit.*
- 50 - C'est ce que notera le diplomate britannique Mark SYKES, *The Caliph's Last Heriage*, Londres, 1915.

- 51 - R. JANIN, *Eglises orientales*, Paris, 1962, mais 200000 selon une source orthodoxe: A. Diomedes KYRIAKOS, *Geschichte der Orientalischen Kirchen von 1453 - 1898*, Leipzig, 1902.
- 52 - Voir Pierre RONDOT, *Les Chrétiens d'Orient*, Paris, Peyronnet, 1955 et tableau VIII. 18.
- 53 - Dominique CHEVALLIER, *La Société du Mont- Liban...*, *op. cit.*
- 54 - H.A.R. GIBB & H. BOWEN, *Islamic Society and the West. A Study of the Impact of Western Civilization on Muslim Culture in the Near East*, vol. I, *Islamic Society in the XVIII the Century*, Oxford U.P., Londres, 1950.
- 55 - Aziz S. ATIYA *A History...*, *op. cit.*
- 56 - A l'exception du Liban, qui fut partagé, de 1842 à 1960, en deux *caïmacamiyya*.
- 57 - Emmanuel DE LAS CASES, *Le Mémorial de Sainte-Hélène*, Paris, Seuil, 1968.
- 58- Moshe MA'OZ, "Communal Conflict in Ottoman Syria during the Reform Era: the Role of Political and Economic Factors", in Benjamin BRAUDE et Bernard LEWIS, *Christian and Jews...*, *op. cit.*
- 59 - André RAYMOND, "Les Provinces arabes...", *op. cit.*
- 60- Daniel PANZAC, "Affréteurs ottomans et capitaines français à Alexandrie", *Revue de l'Orient et de la Méditerranée modernes*, Aix-en-Provence, 1982.
- 61- Un thème voisin est développé par Samir AMIN, *La Nation arabe*, Paris, Minuit, 1976.
- 62 - André RAYMOND, "Les Provinces arabes...", *op. cit.*
- 63 - Fernand BRAUDEL, *Civilisation matérielle, économie et capitalisme, XI^e - XVIII^e siècle*, tome III, *Le Temps du monde*, Armand Colin, Paris, 1967.
- 64 - Registres ottomans, in Muhammad Adnan BAKHIT, "The Christian Population of the Province of Damascus...", *op. cit.*
- 65 - C'est la reconstitution d'André RAYMOND, *Grandes Villes arabes...*, *op. cit.*, qui fournit une série d'estimations pour d'autres villes: Alep, 120000 habitants, 12000 chrétiens, peu de juifs. Mossoul, 55000 habitants, 6000 chrétiens, 1000 juifs. Bagdad, 90000 habitants, 10000 juifs. Le Caire, 260000 habitants, 10000 coptes, 5000 syriens, 5000 grecs, 2000 arméniens, 3000 juifs.
- 66 - Amnon COHEN, "On the Realities of the Millet System: Jerusalem in the Sixteenth Century", in Benjamin BRAUDE et Bernard LEWIS, *Christian and Jews in the Ottoman Empire*, vol. II, New York, Holmes and Meier, 1982.
- 67 - André RAYMOND, *Grandes Villes arabes...*, *op. cit.*
- 68 - D'après le registre ottoman de 1523: 3715 musulmans, 407 chrétiens, 72 juifs, in Muhammad Adnan BAKHIT, "The Christian Population of the Province of Damascus...", *op. cit.*

- 69 - VOLNEY, *Voyage en Egypte et en Syrie* (1787), paris, Mouton, 1959.
- 70 - Sur la démographie de Beyrouth, voir Youssef COURBAGE et philippe FARGUES, *La Situation démographique au Liban*, tome II, Beyrouth, Université libanaise, 1974.
- 71- Henri GUYS, consul de France à Beyrouth, estime qu'en 1830 la population de Beyrouth se compose déjà à 50% de chrétiens et 50% de musulmans. *Beyrouth et le Liban. Relation d'un séjour de plusieurs années dans ce pays*, Paris, Comptoir des Imprimeurs, 1850.
- 72 - Lëla TAWAZ, *Merchants and Migrants...*, *op. cit.*
- 73 - May DAVIE, "Ville, notables et pouvoir: les orthodoxes de Beyrouth au XIX^e siècle", colloque *Bourgeoisies et notables au Maghreb et au Machreq*, Grasse, 1991.
- 74- Dominique CHEVALLIER, art. "*Lubnân*", Encyclopédie de l'Islam, nouvelle édition, 1966.
- 75 - Emigration vers le Mexique, à la fin du XIX^e siècle, de nombreuse familles d'une vallée des Alpes françaises.
- 76 - Anouar ABDEL-MALEK, *L'Egypte moderne, idéologie et renaissance national*, Paris, Anthropos, 1970.
- 77- C'est ce qu'indique la statistique des élèves recueillie par Vital CUNET, *Syrie, Liban et Palestine...*, *op. cit.* Pour un bilan sur le Liban, voir surtout Boutros LABKI, *Education et mobilité sociale dans la société multicommunautaire du Liban. Approche socio-historique*, Francfort, Deutsches Institut für Internationale Pädagogische Forschung, 1988.
- 78 - Cité par Moshe MA'OZ, "*Communal Conflict...*", *op. cit.*
- 79 - Voir chapitre VIII.

تعليقات الفصل الخامس

- ١ - حى البطريركية الأرثوذكسية اليونانية فى اسطنبول.
- ٢ - مفهوماً هنا بوصفه الكيان الإقليمى الذى يتألف اليوم من الدول والأراضى المحتلة التالية: العراق، إسرائيل، الأردن، لبنان، سوريا، غزة والضفة الغربية.
- ٣ - نشر عمر لطفى بركات، فى بحثه «بحث حول الاستقصاءات الضريبية العثمانية»، البيانات الإجمالية للتعداد: أعداد الأسر. وقد استخلصنا منها أعداد السكان الإجمالية بتقدير الحجم المتوسط للأسرة بـ ٥ أشخاص.
- ٦ - تتصل التعدادات التالية، فى أعوام ١٨٩٧ و ١٩٠٦ و ١٩١٤، بجزء واحد فقط من الولايات.
- ٨ - الواقع أن الجنس المذكر (جميع الأعمار) قد حسب بشكل أفضل من الجنس المؤنث. وقد تم الحصول على أرقام تعداد ١٨٨١/١٨٨٢ - ١٨٩٣ التى نقدمها فى ختام الفصل بمراعاة القاعدة التالية: البيانات الإجمالية للتعداد العثمانى عندما يكون عدد الإناث أكبر أو مساوياً لعدد الذكور، إن لم يكن ضعف عدد الذكور.
- ٩ - إن التقسيم الإدارى فى ذلك العصر يميز، عن طريق تركيب متتال، بين الولاية و السنجق و القضاء. وكان لوليتين وضعيات استقلال خاصة، هما متصرفية جبل لبنان و متصرفية القدس.
- ١١ - درس محمد عدنان بخيت، «السكان المسيحيون...»، مصدر سبق ذكره، بعض هذه التعدادات.
- ١٣ - فى الجداول الواردة فى ختام الفصل، احتفظنا بالأرقام الأكثر تفصيلاً، والتى قدمها فيتال كينييه. انظر بعض تحفظاتنا فى الفصل الثامن.
- ١٤ - كانت تمتد آنذاك من مصب نهر العاصى إلى فلسطين.
- ١٥ - مجال حياة البداوة.
- ١٦ - تعداد عام ١٩١٤.
- ١٧ - يقدم محمد عدنان بخيت، «السكان المسيحيون لولاية دمشق...» مصدر سبق ذكره، كشفاً إجمالياً للسجلات، واقتصاراً منا على القرى وحدها (لا المدن، المعرضة لهجرة كثيفة فى ذلك العصر، انظر الجداول من ٧.١٢ إلى ٧.١٥)، التى كانت موضوعاً لخمسة تعدادات خلال القرن، إليكم الخلاصة التى توصلنا إليها:

1596	1569	1548	1543	1523	
9 261	15 885	10 467	9 718	7 546	المسلمون
10 556	11 816	15 885	9 428	6 914	المسيحيون

ومن الواضح أننا أمام سلسلة مشوشة، يصعب أن نستخلص منها ما هو أفضل من معدل وسطي يركب بين الملاحظات.

١٨ - الرصيد الصافي يساوي معدل النمو الطبيعي مطروحاً منه معدل التزوج.

٢٠ - انظر الفصل السابع.

٢٢ - يقلل جومار تقدير السكان المصريين بأكثر من مليون نسمة : فالتعداد الديموغرافي الأول لمصر (١٨٤٦) يشير إلى وجود ٤١٧٦ مليون نسمة. إلا أنه لا يبدو أنه قد أخطأ كثيراً فيما يتعلق بالتوزيع النسبي للجماعات الطائفية.

٢٤ - في مكان آخر، يبدو أن جومار قد حصل، عن طريق مناهج رياضية وليس عن طريق تعداد ميداني، على تقدير أعلى بشكل محسوس : ٢١٥٠٠٠ إلى ٢٢٠٠٠٠ غير مسلم.

٢٢ - انظر الفصل الأول.

٣٥ - إن العلاقات بين الطلاق والخصوبة علاقات معقدة ولا تسير كلها في الاتجاه نفسه.

٣٨ - فيما عدا استثنائين قصيرين تقريباً: عمر باشا الذي حكم بشكل عابر (١٨٤٢) و المتصرف إسماعيل حتى بك (١٩١٧).

٣٩ - السلالة الحاكمة الآن في الرياض.

٤٢ - ذلك هو الاسم الذي أطلق عليه خلال الحرب الأهلية بين عامي ١٩٧٥ و ١٩٩٠.

٤٤ - ناحية تقع في شمال - شرقي بيروت.

٤٦ - إن لبنان الأصغر، الذي كان يعتمد على مساحة أصغر مرتين من لبنان الحالي، كان يضم الجبل ووجهته البحرية، وذلك بالاستثناء الهام الذي تمثله بيروت والمدن الساحلية الرئيسية.

٤٨ - انظر الفصل الثامن.

٤٩ - ذلك ما يشير إليه عزيز عطية، «تاريخ...» مصدر سبق ذكره.

٥٠ - ذلك ما يشير إليه الديبلوماسي البريطاني مارك سايكس، «تركة الخليفة الأخيرة»، لندن، ١٩١٥.

٥٦ - فيما عدا لبنان، الذي جرى تقسيمه، من عام ١٨٤٢ إلى عام ١٨٦٠، إلى قائمقاميتين.

٦١ - طور سمير أمين فكرة مشابهة، في كتابه «الامة العربية»، باريس، ميناوى، ١٩٧٦.

٦٥ - تلك هي إعادة التركيب التي قام بها أندريه ريمون، «المدن العربية الكبرى...»، مصدر سبق ذكره، الذى يقدم سلسلة من التقديرات بالنسبة لمدن أخرى : حلب، ١٢٠٠٠ نسمة، ١٢٠٠٠ مسيحي، عدد قليل من اليهود. الموصل، ٥٥٠٠٠ نسمة، ٦٠٠٠ مسيحي، ١٠٠٠ يهودى. بغداد، ٩٠٠٠٠ نسمة، ١٠٠٠٠ يهودى. القاهرة، ٢٦٠٠٠٠ نسمة، ١٠٠٠٠ قبطى، ٥٠٠٠ سورى، ٥٠٠٠ يونانى، ٢٠٠٠ أرمنى، ٣٠٠٠ يهودى.

٦٨ - وفقاً للسجل العثمانى لعام ١٥٢٢: ٢٧١٥ مسلماً، ٤٠٧ مسيحيين، ٧٢ يهودياً، فى محمد عدنان بخيت، «السكان المسيحيون لولاية دمشق...»، مصدر سبق ذكره.

٧١ - قدر هنرى جيس، قنصل فرنسا فى بيروت، أن سكان بيروت كانوا يتألفون فى عام ١٨٢٠ بالفعل من مسيحيين بنسبة ٥٠٪ ومسلمين بنسبة ٥٠٪.

٧٥ - نزوح نحو المكسيك، فى أواخر القرن التاسع عشر، قامت به عائلات عديدة من أحد وديان الالب الفرنسية.

الفصل السادس

من الإمبراطورية المتعددة القوميات والطوائف

إلى الجمهورية العلمانية:

اختفاء المسيحية من تركيا

«إن الدولة العثمانية هي الإمبراطورية الأوسع والأكثر تميزاً للإمبراطوريات التي وجدت في الشرق الأدنى. وهي في انحدارها الحالي ليست غير ربح مدمرة لجميع البلدان والشعوب التي ماتزال تحت سيطرتها، لكنها أبدت في البداية قدرة قوية على الحكم كانت تتجاوب مع أسمى حاجات الجماعات السكانية المقسمة في الشرق الأدنى. وكان ذلك هو سر قدرتها الهائلة على الاحتواء» كما أن هذه القدرة تزيد بدورها من قدرتها على التنظيم، لأنها تسمح للعثمانيين باحتكار جميع آثار العبقرية السياسية التي بقيت في الشرق الأدنى».

أرنولد توينبي في الكتاب الأزرق للحكومة البريطانية بشأن معاملة الأرمن في الإمبراطورية العثمانية (١٩١٥ - ١٩١٦)، مايو، باريس، ١٩٨٧.

بعد أقل من ثلاثة أرباع قرن من مولد تركيا الحديثة، تنهقر الذكرى المسيحية بالفعل إلى مصاف الأشياء التي يجب التنقيب عنها. وقد نسي الشعب هذه الذكرى. ومن معركة مينتزيكورت (١٠٧١)، حيث تصدى الأتراك السلاجقة للبيزنطيين، إلى الحرب العالمية الأولى،

التي تشهد استسلام العثمانيين، كان الأتراك قد أقاموا تدريجياً دولة متعددة القوميات ومتعددة الطوائف على الضفاف الشرقية للبحر المتوسط. وفي ظل العثمانيين، خرجت الإمبراطورية التركية من مهدها الأناضولى (١) لكي تكسب أوروبا البلقانية، حتى قبل أن تنقلب على أجنحتها العربية والمسلمة. والحال أن السلطان، الذي يخضع جماعات سكانية مسيحية متزايدة العدد بلا توقف، لا يجبرها على التحول إلى اعتناق الإسلام، بل يشركها في السلطة. وسوف يكفى عقد واحد، بين عامى ١٩١٤ و١٩٢٤، حتى تتوصل الدولة العلمانية الموادة من حطام الإمبراطورية إلى تدمير هذا البنيان لحساب أمة تركية ومسلمة فقط. إن ألف سنة من التاريخ المتعدد الطوائف سوف يجرى محوها في عشر سنوات.

ففى تركيا التي تتميز اليوم بتجانس دينى، من الذى يتذكر وجوداً مسيحياً كان ما يزال حتى زمن غير بعيد ضخماً؟ من الذى يتذكر بوجه خاص أن الأقليات لم تنزى على حدود الإمبراطورية ولا فى الأحياء الكونموبوليتية فى العاصمة، بل كانت راسخة الوجود حتى فى أعماق الأناضول (الشكل VI.1) ؟

تحول الجماعة المسيحية إلى أقلية

بعد أربعة قرون من مولد الإسلام، كانت الأناضول مسيحية فى مجملها تقريباً. فقد صمدت بيزنطة للضغوط المتقطعة من جانب جيوش الخلافة. وعلى مقربة من ١٥ مليوناً من العرب، كان ١٠ ملايين منهم مسلمين، يسكنون الهلال الخصيب ومصر وشبه الجزيرة، كان سكانها الذين يتراوح عددهم بين ٧ ملايين و٨ ملايين نسمة (٢) يعطون وهم أنهم يشكلون كتلة متجانسة. لكن الجماعة المسيحية الأناضولية قد تفتت بالمعنى الحرفى للكلمة بعد ذلك بأربعة قرون. وفى عام ١٤٥٣، عندما تسقط القسطنطينية، لن نجد فيها غير ٤٠.٠٠٠ من المؤمنين (بالمسيحية).

وهذا التحول، فى حد ذاته، ليس فيه ما يدعو إلى الاستغراب. فالشرق الأوسط وشمال أفريقيا سوف يشهدان تحولات مثيرة مثله. لكنه، فى التاريخ التركى، شىء فريد. فالبلقان المحتلة بلا انقطاع تقريباً على مدار خمسمائة سنة سوف تبقى فى الواقع مسيحية، فيما عدا ثلاثة أقاليم تأخذ شكل جيوب: ألبانيا والبوسنة ودوبروچا. وروميليا (٣) التي تسقط دفعة واحدة تقريباً، سوف تستفيد على الفور من تنظيم فعال، هو تنظيم جهاز الدولة العثمانية، الذى يحمى

هويتها المسيحية ^(٤). ولن يحدث شيء من ذلك في الأناضول، التي لا يتم الفوز بها عبر أية معركة حاسمة، بل يهزما تاكل متواصل. فالفوضى التي غرق فيها الإقليم قبل التوحيد العثماني وتدفقات وارتكاسات السلالات الحاكمة التي هزته والهجرات غير المنتظمة التي اجتازته سوف تشكل هناك عقبة أمام المؤسسات التي سوف يحافظ الإسلام العثماني من خلالها فيما بعد على المسيحية.

ومن المؤكد أن تاكل الجماعة المسيحية في الأناضول لم يكن مفاجئاً. فقبل أن يحتل الأتراك السلاجقة الأناضول بشكل حاسم، كانوا يعرفون الإقليم بالفعل، حيث مارسوا من حين لآخر غاراتهم انطلاقاً من ممتلكاتهم الفارسية ^(٥). وعندما يغزونه بشكل نهائي، كان بالإمكان أن يكتسبوا صبغة بيزنطية. إلا أنهم على العكس من ذلك تماماً سوف ينزعون الطابع الهيليني عن الشعوب التي يخضعونها وسوف يؤسلمونها شيئاً فشيئاً. وكتاب العجائب الذي كتبه ماركو پولو عن هذا البلد ^(٦) يروى كيف أن الأتراك كانوا هناك أقلية في عالم ظل يونانياً وأرمنياً بعد قرنين من معركة ميونتزيكرت. ولم تكن العلاقات الطائفية مصطبغة بروح العداءة وبلاستبعاد اللذين سوف تكتسبهما بعد ذلك بوقت طويل. وبشكل لا مفر منه تؤدي الغارات وسبى النساء والتنازل إلى خلق أواصر دم، قرابة بين المسلمين والمسيحيين سوف تختفي تماماً عندما تأخذ الطوائف في الانعزال إحداها عن الأخرى، ولم يكن العوام وحدهم هم الفاعل الوحيد لهذا الاختلاط. فالعائلات الأرستقراطية المسلمة التي سوف تحكم في القرن الرابع عشر «سلطنة روميه» كانت في نصفها يونانية الأصل ^(٧).

فهل كان الأتراك يكونون احتراماً لا حد له للعنوا السابق المهزوم؟ بعد ثلاثة قرون من فتحها، سوف يواصلون تسمية بلادهم بـ «رومية»، حتى عندما تحرص الجماعة المسيحية، منذ الحملات الصليبية، على تسميتها بـ «تركيا». ومن المؤكد أن الأتراك السلاجقة لم يفاقموا بالفعل الأحوال المعيشية للمسيحيين، لكنهم ترددوا كثيراً في تجنيدهم كموظفين. ومنذ تولد سلطتهم على الأناضول وابتعاد الخطر البيزنطي، تأخذ العلاقات بين الطوائف في الاستقرار ^(٨). على أن السلاجقة لم يستولوا على القسطنطينية، بحيث إن الأناضول تجد نفسها معزولة بخط حدود. وانقطاع الاتصالات مع المدينة التي كانت المنارة الروحية لغالبية السكان الأرثوذكس في الأناضول، يحفز فصيلاً أول بينهم إلى تبني اللغة التركية والدين الإسلامي.

وفيما بعد سوف يتدفق من الشرق ومن الغرب غزاة عديون لن يتأخروا في الدخول في نزاع: بنو تركمانيون، صليبيون، ممالك مصر، مغول مشبعون بالمسيحية في ظل هولاكو

ومشبعون بالإسلام بعد ذلك فى ظل تيمور لىك. كلهم على أساس مقاومة بيزنطية منظمة من حصون القسطنطينية ونيقية وتريبيزوند. ويؤدى تصادم الرايات إلى تعزيز الأناضول. والجماعة المسيحية فى الإقليم، المقسمة بالفعل بين أعراق^(٩) ومطقات متباينة، لا تصمد جيداً لتحول التحالفات المحلية مع هذا الغازى أو ذاك كما لا تصمد جيداً للقمع الذى ينزل بها بشكل قاتل عندما يخسر الغازى الحليف المعركة. وتذهب التقديرات إلى أنه عشية هذه الهزات الكبرى، نحو عام ١٢٠٠، كانت نسبة ٤٣٪ من السكان ماتزال مسيحية (١٠). وآخر هذه الهزات، فى نهاية القرن الرابع عشر، هو غزو المغولى تيمور لىك، الذى يعمق الأسلمة التى كان هولاء قد حاول على العكس من ذلك تثقيدها (١١). وعلى مدار قرون التفكك هذه، تمحى الحدود فى آسيا الصغرى، وتنتفتح الهضاب. وهناك يوسع التركمانيون المسلمون مجال نشاطهم البدوى ويتكاثرون بسرعة. وفى إثرهم تفرض نفسها اللغة التركية، التى تحل تدريجياً محل اليونانية، على الأرمنية وعلى الفارسية، كما يفرض نفسه الدين الإسلامى.

هجرة الأتراك وتحول المسيحيين إلى اعتناق الإسلام

هل سيسوق الأتراك أمامهم الجماعات السكانية المحلية نفسها، أم أنهم سوف يسوقون أمامهم مجرد لغتها وديانتها؟ إن المجادلة التى أعاد مصطفى كمال فتحها ماتزال لها حاليتهما: هل الجذر الحقيقى للقوام السكانى لتركيا تركى أم هيلينى؟ هل تمت الأسلمة عن طريق الاستيراد أم عن طريق التحويل إلى اعتناق الإسلام؟

لقد أسست دولة القرن العشرين القومية شرعيتها على الفرضية القائلة بانتشار بدو تركمانيين فى آسيا الصغرى. وباسم هذه الفكرة الرئيسية، أعلنت عدم ولاء الشعوب التى لم تكن فى آن واحد تركية ومسلمة: الأرمن، اليونانيين، الأكراد. وقبل ذلك بوقت قصير، كان دعاة الجامعة التركية ودعاة الجامعة الطورانية^(١٢) قد بنوا أسطورة أمة متجانسة. إذ كيف كان يمكن لهم أن يعتبروا أنفسهم أحفاداً لـ «اللايكديش» - اليونانيين المسلمين - الذين يشير إليهم العرف الشعبى والإدارى باسم هجين بالغ الإهانة كـ «البغل»؟ وخلافاً لهم، وأصل دعاة الجامعة العثمانية الإيمان بإمبراطورية متعددة الأعراق. والحال أن هذا الشعور كان بالغ الاتساع بحيث إن جماعة تركيا الفتاة نفسها سوف تعبر عنه عندما تحرز انتصارها، فى عام ١٩٠٨. وذلك أيضاً هو موقف ذلك النائب، الحريص على الإبقاء على تعليم الأدب اليونانى

الكلاسيكي، لأنه ليس ميراث اليونانيين وحدهم، كما أنه موقف ذلك النائب الآخر الذي يعلن افتخاره بأن الجمعية الوطنية العثمانية تضم مترجم الإلياذة إلى العربية، اللبناني سليمان البستاني^(١٢).

وتؤكد عقيدة الدولة الكمالية^(١٤) بلا تردد أن القوام السكاني التركي جاء «من حركات هجرة على نطاق واسع ومن تعديلات في التركيب العرقي للسكان، لأن الأتراك لم يكتفوا قط بأن يديروا كمستعمرات غالبية البلدان المفتوحة عبر إيجاد جيوش احتلال وإرساليات فيها. فهم، على العكس من ذلك، قد أقاموا فيها، وقاموا بفلاحة الأرض، حيث خلفوا فيها ذرية وفيرة العدد، وجعلوا منها وطنهم^(١٥)». وعلى الرغم من هزال الحجة، فإن مجلة فرنسية تستضيف على أعمدها هذه الفكرة المزعجة. ويضيف المؤرخ بركان على صفحات مجلة آنال : «نرجو أن نكون قد وفقنا في إثبات وجود جماعة سكانية وفيرة العدد في الأناضول عبر الحاجة التي تحسبها الأتراك إلى الانتشار صوب الغرب والاستقرار في الأناضول الغربية وفي الجزء الشرقي من شبه الجزيرة البلقانية، وهي أقاليم حولها إلى وطن حقيقي. [...] إننا لا نعتقد أن المسلمين الذين فتحوا واحتلوا في السابق أسبانيا وجزر البحر المتوسط لم يضموا غير بضع قبائل من البربر المطرودين من أفريقيا ومن العرب البدو^(١٦)». والسؤال هو، هل تعرضت الجماعة السكانية البيزنطية التي لم يكن أمامها مكان تنزح إليه للذبح أم أنها اندمجت مع الفاتحين ؟ إن التاريخ الرسمي، العاجز عن قبول أي من الافتراضين، يؤثر الصمت.

وخلافاً لذلك، فإن مؤرخين آخرين يذهبون إلى أن التحولات إلى اعتناق الإسلام، وهي وحدها تقريباً، هي التي كان من شأنها أن تضيف على آسيا الصغرى لونها الديني الجديد. ويؤكد جيبونز: «إن يوناني بيزنطة سوف يبدون أمام التاريخ، بعد أن غيروا اسمهم وديانتهم لا أكثر، بوصفهم جنساً وأمة جديدين تحملاً واجبات جديدة، وسوف يكفلون استمرار بيزنطة، تحت مظهر إسلامي». وكانت بيزنطة جد ضعيفة، بحيث إن قبيلة من «٤٠٠ خيمة» سوف تغلبها. ويستطرد جيبونز: «إن من الخطأ اعتبار العثمانيين أتراكاً. وقد جرى تكرار هذا الخطأ كثيراً بحيث إن العثمانيين أنفسهم قد وقعوا ضحية له، بينما كانوا يعتبرون أنفسهم دائماً مختلفين عن الأتراك^(١٧)».

وربما تقدم الديموغرافيا مرشحاً لحساب جرعة الهجرة وجرعة التحول إلى اعتناق الإسلام. إن أحد الشهود الأوائل، العمري، وهو رحالة عربي في بداية القرن الرابع عشر، يقدر

عدد التركمانيين بما بين ١٥٢٠٠٠ و ٥٥٥٥٠٠ نسمة (١٨). أما كاهن، المتخصص فى التاريخ قبل العثمانى، فهو يقدم رقم ٢٠٠٠٠٠ إلى ٣٠٠٠٠٠ تركمانى ويتحدث عن بضعة عشرات آلاف من التتار وعن بضعة آلاف من الفرس. أولئك هم كل المسلمين الذين، على موجتين، سوف يغزون الأرياف فى الفترة الممتدة من القرن الحادى عشر إلى القرن الثالث عشر.

وقلة الأعداد لا تحتل الجدل: «من الصعب بشكل عام تصور أن انزياحات الشعوب فى ذلك العصر كان يمكن لها أن تؤثر دفعة واحدة على أكثر من عدة عشرات آلاف من الأفراد، وعلى الأكثر على مائتى ألف أو ثلاثمائة ألف، حتى وإن كانت النصوص توحى بجماهير ضخمة». (١٩) وهل من الضرورى أن نذكر بأن كل هجرة إنما تكون محددة بمدى سعة المستودع الذى يغذيها ؟ لقد كان اقتصاد البرارى التى جاء منها هؤلاء البدو مختزلاً. وفى أية حالة لم يكن بوسعه إعاشة جماعة سكانية كثيفة، ومن ثم، لم يكن بوسعه إفراز حشود ضخمة (٢٠). ونحن على ثقة من أن الهجرة قد توقفت فى القرن التالى، لأن الطاعون الديبلى فى آسيا الوسطى كان قد اختزل بشكل حاسم صفوف التركمانيين (٢١). ومن ثم فإن العنصر العرقى التركى لم يكن بوسعه بئى شكل أن يمثل نسبة الـ ٧٠٪ التى تحدث عنها منذ سنوات مؤرخ تركى (٢٢).

ومن جهة أخرى فإن هجرات بدوية أخرى قد قدمت وهماً عديداً مماثلاً، للسبب نفسه: إنها تقابل الفوضى. فالعرب فى الشرق الأدنى وفى أفريقيا الشمالية، والبربر فى أسبانيا، والهلاليون فى المغرب والمغول فى مجمل فضاء نصف العالم المعروف، كل هؤلاء الغزاة كانوا قليلى العدد، لكنهم كانوا منظمين تنظيمياً أرقى. وعندما يعبر الزعيم العثمانى أورخان (١٣٢٦ - ١٣٥٩) مضيق الدردنيل لى يتغلغل فى أوروبا، فإنه يجند قواته من الأناضول: نصف مليون رجل فيما يقال. وما كان يمكن للبدو القادمين من آسيا الوسطى أن يقدموا له هذا العدد من الرجال، حيث كانوا معزولين عن المناطق الداخلية لبلادهم. ومن ثم فإنه قد جند جنوده من صفوف الشعوب المفتوحة، خاصة اليونانيين (٢٣). لقد كانت الأسلمة تجرى على قدم وساق.

وفى وجه الأتراك الأوائل، لاشك هناك فى الوفرة المسيحية: سبعة ملايين نسمة فى ظل بيزنطة، فى القرن الحادى عشر. وفيما بعد بكثير، فى عام ١٥٢٠، بعد عصر من الفوضى وتآكل السكان، سوف يشهد تعداد عثمانى على أن نحو ٥ مليون نسمة كانوا مايذولون

يسكنون الأناضول. ولا يعنى العدد وحدة الصفوف المسيحية^(٢٤). فقد كانت بيزنطة موزعة بين شيع ولغات ومراتب اجتماعية، من الأكرستقراطية العقارية إلى الفلاحين الأقنان. والواقع أنه لم تكن هناك جبهة عسكرية حقيقية. ففي الأماكن التي حاولت فيها بيزنطة تفادي الضربات التركية، كان محاربو المعسكرين يتصالحون. إن الأكريتائى المسيحيين والمغازين المسلمين يعملون على ازدهار «ثقافة حدود بدائية»^(٢٥) حقيقية. ولم يكن هناك أى سد يقف فى طريق دخول دين جديد، وكانت الساحة مفتوحة أمام الدعوة إلى الانتقال من دين إلى دين، وكان يكفى، فى كل جيل، أن يترك مسيحي من سبعة مسيحيين ديانتهم، بملء إرادته، عن طريق التحول إلى اعتناق الإسلام، أو نون أن يكون له اختيار، بحكم ولادته من زوجة مختلطة [بين مسلم ومسيحية]، حتى يصبح الـ ٧ مليون مسيحي الذين عرفهم عام ١٠٧١ الـ ٤٠٠٠٠٠ الذين عرفهم عام ١٥٢٠ وبالمقابل، لكى يصبح الـ ٢٠٠٠٠٠ مسلم مهاجر، نون أى دعم إضافى من آسيا الوسطى، ٦٤ مليون مؤسلاً (الشكل ٢.١٧).

ومن ثم فإن المسيحيين يتحولون إلى اعتناق الإسلام بشكل فردى، وكذلك بشكل يشمل أحياناً عائلات أو قرى بأكملها. والانتقال يتم عبر الإيمان أو الانتهازية، كما يتم عبر القسر بالنسبة للأسرى المستعبدين. والشهادات جد متناقضة ومتحيزة، لكنها كلها تتحدث عن اختلاط عظيم.

وبالنسبة لماركو پولو، الرحالة المكلف من قبل البابوية، فإن المسيحيين يظلون السادة، بينما يجد الأتراك أنفسهم فى أسفل السلم الاجتماعى: «فى ولاية تركمانيا (وسط الأناضول) توجد ثلاثة أنواع من الناس: فهناك التركمانيون الذين يجلون محمداً ويتمسكون بشريعته وهم يحيون حياة البهائم فى كل شىء؛ إنهم شعب جاهل يتكلم لغة بربرية جد مختلفة عن لغات الآخرين. [...] ويتألف الآخرون من الأرمن، وهم مسيحيون غير كاملين إلى حد بعيد، ومن اليونانيين، الذين مايزالون مزبحمين فى المدن والقرى ويحيون من التجارة والحرف. وهؤلاء لهم ممتلكات عظيمة. و[الأرمن] يفرطون فى الأكل والشرب، ولديهم وفرة من النبيذ الأبيض والأحمر وهم مدمنون للسكر»^(٢٦).

أما المراكشى ابن بطوطة، «رحالة الإسلام»، الذى وصل إلى هناك من مغربه الأقصى بعد بضع سنوات، فهو ينظر نظرة جد مختلفة إلى المسيحيين الخاضعين والمستعبدين: «وأكثر الصناعات بها [لأذق، دينزىلى الآن] نساء الروم، وبها من الروم كثير تحت الأمانة، وعليهم وظائف للسلطان من الجزية وسواها. وعلامة الروم بها القلائس الطوال. [...] وأهل هذه المدينة لا

يغيرون المنكر، بل كذلك أهل هذا الإقليم كله. وهم يشترون الجوارى الروميات الحسان ويتركوهن للفساد، وكل واحدة عليها وظيف لمالكها تؤديه إليه (٢٧)».

وتتزوج مسيحيات، أحرار أو رقيق، من أتراك. وتسهم نريتهم، المسلمة بحكم الشريعة، في زيادة صفوف الإسلام. وإن تؤدي المجازر وانزياحات الجماعة السكانية المسيحية خارج الأناضول أبداً إلى نتائج تتميز باتساع مماثل لنتائج الاختلاط [الزواجي]. وسوف تستهدف الانزياحات بشكل خاص الأرستقراطيين اليونانيين؛ وتتجنب عموماً الأرمن والعرب المسيحيين، الأقل ميلاً إلى خدمة بيزنطة. وشأنهم في ذلك شأن عرب المشرق في الزمن الغابر، فإن هؤلاء الفاتحين المسلمين لن يفرضوا الأسلمة، وذلك لحرصهم على الإبقاء على الجزية (٢٨). على أن التفسخ التدريجي للسلطة التركية، من جهة، وتفتت سلطة الكنيسة البيزنطية، من جهة أخرى، سوف يحفزان عمليات التحول إلى اعتناق الإسلام في الأراضى المفتوحة. والواقع أن المغلوبين، ورثة اليونان وروما، سوف يفقدون بشكل نهائى وهم أنهم يحتلون مركز الكون. فمن أرجاء بيزنطة الشاسعة، لا يمسك أخوتهم في الدين بعد إلا بمدينة القسطنطينية، على الجهة الأخرى من الحدود، وبمشارف نيقية وتريبيزوند. ومن ثم فإن عدداً منهم سوف يتحولون إلى اعتناق الإسلام بسبب فتور البهمة، «لأن الناس على دين ملوكهم»، كما يبين ابن بطوطة عند زيارته الأناضول في القرن الرابع عشر، وذلك قبل بضعة عقود من تعميم ابن خلدون لهذه القاعدة على البشرية برمتها (٢٩).

وإذا يجد المسيحيون أنفسهم منذ ذلك الحين معزولين عن مركزهم الروحي، فإنهم يرون أنهم علاوة على ذلك مهملون من جانب رجال دين تخلوا عن رعية فقيرة ونزحوا دون أمل في العودة إلى القسطنطينية. وكانت الكنائس الموجودة في الأرض التركية قد أصبحت جد فقيرة بحيث إنه لم يكن بوسع رجال الدين الأرثوذكس الحفاظ هناك على مقامهم (٣٠). والواقع أن هؤلاء، الذين كانوا يدعون أحياناً من جانب السلاجقة إلى العودة إلى رعيته، عندما كان يتم عقد صلح مع بيزنطة، كانوا يرفضون العرض في أغلب الأحيان. ومع رفضهم العودة، كانت أراضيهم تعتبر شاغرة وعندئذ يجرى دمجها في الأوقاف، ممتلكات الإسلام التي لا يجوز نزعها، ويتم استثمارها لحساب أعمال خيرية أو مؤسسات اجتماعية وثقافية يتصل الإسلام من خلالها بالجماعات السكانية؛ وهكذا تنتقل تركة الكنيسة الأرثوذكسية إلى خدمة نشر الإسلام (٣١). كما أن الدين الجديد ينجح تماماً في احتلال الأماكن التي تركها الدين القديم، وهو ما يغرى الشعوب.

والواقع أن الإسلام المقترح على «الكفار» المهزومين كان متسامحاً إلى أبعد حد، حتى مع الهراطقة. فالسنية الرسمية لا تسود إلا في المدن حيث تصبغ الإدارة. وفي جميع الأماكن الأخرى، يتجاوز المسيحيون مع دين شعبي، متسامح، مصطبغ بالشامانية وبالبوذية وبالمناوية، بل وبالمسيحية النسطورية، وهو أمر غريب (٣٢). ويحدث أن المسلمين والمسيحيين يتقاسمون أماكن العبادة، ويعترفون بقدسين مشتركين، ويحتفلون بأعياد واحدة، بل ويشتركون في طقس التعميد. ويتقدم الإسلام بفضل تحولات صادقة إلى اعتناقه، لكنه يتقدم أيضاً بفضل مسيحية مستترة. وسوف تستمر تلك الأخيرة حتى الحرب العالمية الأولى (٣٣). وقد كان لصوفية وتوفيقية طريقتي مولوية وجلال الدين الرومي وبكتاشية حاجي بكتاش (٣٤) دور أكبر في انتشار الإسلام من دور الجزية الأميرية (٣٥). والحال أن جهاز التحولات إلى اعتناق الإسلام، بما يتميز به من اتساع وتعقيد، سوف يمتد إلى جميع الأقاليم وجميع فئات المجتمع. وهكذا نجد أن جانباً كبيراً من أتراك تركيا هم، في نهاية الأمر، من أصل بيزنطي.

وتستحق هذه التحولات إلى اعتناق الإسلام خلال الفترة الممتدة من القرن الحادي عشر إلى القرن الخامس عشر التوقف أمامها، وذلك بسبب تشابه غريب مع تجارب أخرى. فشأنها في ذلك إلى حد ما شأن التحولات في القرنين العاشر والحادي عشر إلى اعتناق الإسلام في أفريقيا الشمالية، تسنى لها أن تجد حافزاً من تفتت السلطة المركزية. فالأناضول، المتنازع عليها بلا توقف تقريباً بين الأتراك السلاجقة والبدو التركمانيين والأتراك الدانشمانيين والبيزنطيين والمغول وأرمن أرمينيا الكبرى والصغرى وفرنجة أنطاكية وإيديس ولاتين القسطنطينية، ناهيك عن دزينة من القبائل التركية المتنافسة، إنما تفرز معتقدات تليفقية قليلة الحرص على الأرثوذكسية [التمسك بعقيدة مستقيمة]، ومهيئة للتحويل بمرور الأجيال إلى العقيدة الإسلامية. والخلاصة أن تسامح الإسلام قد أضعف المسيحية. ومن المفارقات أن المسيحية لن تبقى فحسب، بل سوف تتعزز من جراء الأرثوذكسية السنية للعثمانيين، الذين سوف يتجهون إلى فرض النظام وسط كل هذه الفوضى.

نهوض الجماعة المسيحية في إطار نظام الملل العثماني

عندما يهجر البيزنطيون عاصمة الإمبراطورية الرومانية الشرقية السابقة، سوف يتركون في القسطنطينية بندراً تعساً، لا يضم أكثر من ٧٠٠٠٠ نسمة (٣٦). وغداة الفتح،

سوف تفقد أيضاً ٥٠٠٠٠ يونانى، جرى سوقهم إلى العبودية وتشيتهم عبر مختلف أرجاء الإمبراطورية. لكنها سرعان ما تزود نفسها بعدد كبير من السكان. إن قرناً من السلطة الإسلامية لا يجعل من إسطنبول المتروبول الأول فى العالم فحسب - ٧٠٠٠٠٠ نسمة (الجدول 1. VI) (٣٧) - بل يجعل منها أيضاً، وهذه مفارقة تاريخية، إحدى أكبر ثلاث مدن مسيحية: فأكثر من ثلث سكانها أرثوذكس. وحتى الحرب العالمية الأولى، نجد أن نسبة سكان إسطنبول غير المسلمين، المسيحيين واليهود، تصل إلى نحو ٤٠٪.

ومع القضاء على بيزنطة (٣٨)، سوف يسعى العثمانيون إلى كسب مشاركة أعدائهم السابقين. والإمبراطورية، المسلمة رسمياً، تتحول، من الناحية الفعلية، إلى نوع من مملكة ثنائية يونانية - تركية، سوف تستمر حتى ثورة واستقلال اليونان (١٨٢١ - ١٨٣٠) (٣٩). ومنذ غداة الاستيلاء على القسطنطينية، جرى تكريسها من خلال تنصيب بطريرك يونانى أرثوذكسى على رأس أولى الملل (٤٠) المسيحية فى الإمبراطورية. ومنذ ذلك الحين، كان رجل الدولة الرفيع المقام هذا يفرض سلطته الروحية والزمنية على جميع أرثوذكس الإمبراطورية، من البحر الأدرياتي إلى الخليج الفارسي. «فخلالاً للفترة البيزنطية، لم يعد البطريرك خادماً صاعراً للإمبراطور، بل أصبح عضواً معترفاً به ومحترماً من أعضاء بيروقراطية السلطان، ويتمتع بسلطة كاملة على أتباع ملته (٤١)». والواقع أن ترقية البطريرك وتأكيد الصدارة اليونانية على الجماعات المسيحية الأخرى إنما يدلان على تقدير استراتيجى. فالسلطان يكافئ فى شخصه رئيس الحزب المناوئ للكنيسة الرومانية [الكاثوليكية]. وذلك فى لحظة كان الخطر يجىء فيها من الكاثوليكية، من البابوية، ومن ذراعها المسلح، البندقية، اللتين تسعيان إلى طرد الإسلام من البلقان. وكانت الإمبراطورية آنذاك إمبراطورية أوروبية بالدرجة الأولى.

لكن الإمبراطورية كانت تسترشد أيضاً بحماسة روحية إسلامية: توسيع دار الإسلام على حساب دار الحرب، أى محاربة الجماعة المسيحية الخارجية. ويكتب برنارد لويس، المتخصص فى التاريخ التركى: «إن الإمبراطورية العثمانية، من تأسيسها إلى سقوطها، تكرر نفسها لتوسع الإسلام أو لحماية قوة الدين الإسلامى. وعلى مدار ستمائة سنة، كان العثمانيون بشكل شبه متصل فى حرب مع الغرب المسيحى. [...] وهذه المواجهة المتواصلة منذ زمن بعيد، والمتأصلة بعمق فى الإسلام التركى، لم يكن من شأنها ألا تؤثر على مجمل بنية المجتمع والمؤسسات التركية (٤٢)». إن النظام برمته، تنظيمه العسكرى والمدنى، تنظيمه الضريبى وهياكله العقارية، كان مدفوعاً بضرورات التوسع، بالفتح وباستيطان أراضى

العنو المسيحي. والعماد الرئيسي للبنيان يجب أن يتمثل فى زيادة سكان العالم المسلمين على حساب السكان المسيحيين. لكن السلطة العثمانية، فى جميع أصقاعها الآسيوية، بما فى ذلك الأصقاع العربية، تعمل بشكل محير فى اتجاه مضاد.

ففى اسطنبول وحتى فى أناضول مؤسمة بشكل عميق، تنبثق الجماعة السكانية المسيحية واليهودية من جديد بعد الأسلمة التى شهدتها القرون الأربعة السابقة. وتتبع الجماعة المسيحية من الداخل بفضل الأمن والاستقرار اللذين يوفرهما نظام الملل: فهى تتنقل من نسبة ٨٪ فى الأناضول فى تعدادات عام ١٥٢٠ وعام ١٥٧٠ إلى نسبة ١٦٪ فى القرن التاسع عشر (الجدول VI.2 و VI.6) ^(٤٣). والانخفاض المثير لحالات التحول إلى اعتناق الإسلام والنمو الديموغرافى يسببان هذا الانقلاب غير المتوقع. فتأسيس ثلاث ملل رئيسية، يونانية أرثوذكسية (١٤٥٤) وأرمنية (١٤٦١) ويهودية، يضع حداً للتعسف والفرغى. وكانت السلطات الدينية المسيحية واليهودية تحتكر السيطرة على شؤون العبادة والمدارس والنظام القضائى (المللى). وهى تسيطر على ملكيات أصبحت هى الأخرى غير قابلة للنزع (أوقاف) كملكيات الإسلام. ومن ثم فلم يعد هناك مبرر لحالات التحول إلى اعتناق الإسلام الناشئة عن الخوف أو عن الضغط الاجتماعى أما الحالات الناشئة عن دوافع اقتصادية فقد حدثت بالفعل قبل الاستيلاء على القسطنطينية ^(٤٤).

وخارج نظام الملل، يكتفى السلاطين العثمانيون باحترام المبادئ القرآنية تجاه غير المسلمين ^(٤٥). وهم يفعلون ذلك بإخلاص وباستقامة يزيدان عن إخلاص واستقامة أى خليفة عباسى ^(٤٦). وفى تفسيرها ^(٤٧) المواتى لأهل الكتاب، تكفل هذه المبادئ منع الإكراه فى الدين والأسلمة القسرية. على أن العثمانيين سوف يدخلون استثناء ملحوظاً مع الديقشمة، وهى صيغة سلطوية لتجنيد مسيحيين تفرض عليهم الارتداد عن دينهم.

وضعف الديموغرافيا العثمانية فى وجه جماهير الجماعة المسيحية الخارجية يملى على السلطان محاباة جماعته المسيحية فى الداخل. «استقامة أدبية» ^(٤٨) أم حكمة عسكرية ؟ إن البحر المتوسط الغربى، حيث يوجد أكثر من ٢٨ مليون مسيحي فى أواخر القرن السادس عشر، إنما يتميز بثقل مختلف عن ثقل أرض الإسلام العثمانى، التى لا تضم غير ٢٢ مليون نسمة. غالبيتهم من المسيحيين علاوة على ذلك. «رجال كثيرون من جهة ولكن نون جياد كثيرة، ومن الجهة الأخرى جياد كثيرة ولكن نون رجال كثيرين! وربما نجم تسامح الإسلام عن هذا الانعدام للتوازن: والواقع أنه سوف يسعده تماماً قبول الرجال، أى كانوا، شريطة أن يجدهم رهن إشارته» ^(٤٩).

وعلى الجهة الأخرى للبحر المتوسط، كانت حماسة دينية مصطبغة بمقاصد ميركانتيلية [تجارية] قد حركت السلطات والعوام الفقراء، عندما طردوا من أسبانيا المسلمين واليهود لأول مرة (١٤٩٢ - ١٤٩٥). إلا أنه سرعان ما سوف يؤدي انعدام توازن ديموغرافى مضاد لانعدام التوازن الديموغرافى العثمانى إلى تعزيز إعادة الفتح [الأسبانية] فى تأكيد انعدام تسامحها: فبين عامى ١٥٣٠ و١٥٩٤، تزايد عدد السكان الأسبان مرتين (٥٠). والملوك الكاثوليك يكررون الجرم بالاتجاه إلى طرد الأحفاد المورسكيين (١٦٠٩ - ١٦١١) والماران للمسلمين واليهود الذين تسنى لهم تجنب سفن الترحيل الأولى، وهو طرد سوف يتم بالرغم من تحولهم إلى اعتناق المسيحية. وبحماسة مماثلة، نجد أن الإمبراطورية العثمانية، المنخفضة السكان آنذاك، سوف تستقبل عدداً كبيراً من هؤلاء المنفيين.

والحال أن العثمانيين، المتنبهين بقوة إلى عجز ديموغرافيتهم، يسيئون فهم اختلالاتها الداخلية. وسوف يزدحون أنفسهم بأداتين موجهتين إلى إعادة تنشيط جماعتهم السكانية، السورجون والديفشirme، اللتين سوف تنتجان أثراً متأخراً على التوزيع الطائفى. فالسورجون - ترحيل جماعات بأكملها، بناءً على قرار إدارى - سيكون عليه إعادة تنشيط الأقاليم التى طالها الخراب، ومن بينها اسطنبول، وإعادة العظمة الماضية إليها. ولقد أمر السلطان بأن ترسل إليها دون نقاش عائلات، غنية أو فقيرة، من كل ولاية. [...] ولم تقتصر هذه السياسة على الأتراك والمسلمين وحدهم. فقد جرى التصريح ليونانيين ومسيحيين آخرين بالإقامة فى المدينة، وجرى أحياناً تشجيعهم على ذلك (٥١). ومن الواضح أن السورجون لم يكن على هوى الأشخاص المرحطين، لكن الدولة كان لديها مفهوم شامل عن تنظيم المكان، حركت به الأفراد كما لو كانت تحرك ببادق (٥٢). وفى نهاية المطاف، سوف يعود السورجون بنتائج غير متوقعة، مؤاتية لليهودية والجماعة المسيحية العثمانية، وذلك لجرد أنه يقرب من السلطة يهود سالونيك ويونانيي البيلوبونيز وأرمين أنجورا.

أما الديفشirme - انتزاع الأولاد المسيحيين الذين تجرى أسلمتهم وتجنيدهم قسراً، فى قوة الإنكشارية بالنسبة للأقل حظاً، وفى الإدارة بالنسبة للأسعد حظاً - فمن المؤكد أنها كانت ممارسة وحشية. على أن الجماعات السكانية المستهدفة، الألبانية أو البوسنية أو اليونانية، لن تتأخر فى أن ترى فيها وسيلة لتحسين حالتها الاجتماعية. ويقال أن الأمر كان يصل إلى حد أن قرويين فقراء كانوا يتطوعون وكانوا يلتبسون من رقيب التجنيد أخذ ابنهم بدلاً من ابن الجار (٥٣). وهكذا فإن نصف دزينة من الصنوبر العظام العثمانيين ومجموعة من كبار الموظفين نوى الأصول الألبانية أو البوسنية سوف يمرون أولاً بمهانات الديفشirme.

وتظل السلطة خاضعة لديموغرافية ضعيفة مادامت تود الحفاظ على احتكار الإسلام في أوساطها العليا. على أن المسيحيين المتحولين إلى اعتناق الإسلام في الديفشرمة سوف يسمحون بتجديد الصفوة الإسلامية. ويؤدي إلغاء الديفشرمة في عام ١٦٣٨ إلى تهديد جدى لإسلامية الصفوة، فهو يحرم الإدارة العامة والعسكريين، الذين خربت الحرب صفوفهم، من دماء جديدة تجيء عن طريق الشبان المتحولين إلى اعتناق الإسلام، وسوف نلاحظ ذلك بعد ثلاثين سنة، عندما يعين الباب العالي للمرة الأولى ترجماناً مسيحياً (١٦٦٩). وبدلاً من أن تختزل هذه الوظيفة في مجرد مهمة مترجم (ترجمان)، فإنها سرعان ما تتطابق مع وزارة الشؤون الخارجية. وسرعان ما نجد أن حائزها، وهو بوجه عام أرستقراطى يونانى قريب من البطريرك اليونانى الأرثوذكسى، يلعب دوراً حاسماً في السياسة الخارجية والداخلية. ولما لم يكن ملزماً بالارتداد عن دينه، فإنه سوف يفتح أبواب الإدارة العليا على اتساعها أمام إخوته في الدين أو أمام من يزعمون الانتماء إلى الملة اليونانية الأرثوذكسية.

والحال أن النفوذ المتنامي للصفوة الجديدة، الحديثة الانتقال إلى اعتناق الإسلام أو المسيحية دائماً، والذي كان موزعاً في البداية، سرعان ما يتجلى على مرأى وسماع من الجميع. وسوف يتجه إنكشارية الديفشرمة، المتحولون إلى اعتناق الإسلام، إلى حشد البكتاشية، أولئك التابع لأكثر الطرق الإسلامية تلقيفية، ومع محاربتهم للجماعة المسيحية المعادية، جماعة دار الحرب، فإنهم يستخدمون نفوذهم ويستفيدون من صداقاتهم لحماية الجماعة المسيحية في دار الإسلام. وفيما بعد، سوف تؤدي شبكات تضامن مختلفة إلى مد مكاسب هذه العودة للمسيحية في القمة إلى قاعدة الهرم الاجتماعى. وهكذا تنهض الديموغرافية المسيحية من جديد، إذ تحصل على دفعة قوية بفضل استقلال الملل ورعاية - أو تواطؤ - الموظفين المسيحيين بشكل متزايد.

وكان من شأن فتوحات الإمبراطورية في الأرض العربية ^(٥٤) أن تسمح، منذ عام ١٥١٧، باستمالة من الجانب الإسلامى ليس فقط للسكان وإنما أيضاً للحساسية السياسية. فقلب الإمبراطورية كان ينبض حتى ذلك الحين على ضفتها الأوروبية، إسطنبول وروميليا ^(٥٥)؛ وهو يتجه الآن نحو أقطاب أبعد، من بلجراد إلى تلمسان مروراً بالقاهرة. ولما كانت الأناضول معزولة، فإنها تشهد ديموغرافية لا تعرف انقلابات.

وقد أدى سلام زمن سليمان (١٥٢٠ - ١٥٦٦) إلى نسيان التخریب المغولى. فقد انتقل سكان الأناضول من ٥ مليون نسمة إلى ٦.٨ مليون نسمة بين ١٥٢٠ - ١٥٣٥ و ١٣٧٠ -

١٥٨٠. ولم يكن العثمانيون يحوزون الأساليب المتقدمة التي يملكها علم الإحصاء الحديث. وعلى الرغم من الأهمية البالغة للتعدادات العثمانية في القرن السادس عشر (٥٦)، فمن الضروري التعامل معها بحذر. وربما كان التعداد الثاني (١٥٧٠ - ١٥٨٠) أكمل من الأول (١٥٢٠ - ١٥٣٥)، وفي تلك الحالة سيكون نمو السكان قد بلغ في تقديره. على أننا لا نرى سبباً لتفرد تركيا في عالم بحر متوسط تفجر في كل مكان تحت تأثير توسع ديموغرافي غير مسبق. لقد كان المسيحيون يشكلون نسبة ٨٪ من سكان الأناضول. وقد تجاوز معدل ازديادهم معدل ازدياد المسلمين تجاوزاً طفيفاً (٠.٠٩٨٪ في مقابل ٠.٠٩٣٪ في السنة). وكان الوضع مختلفاً تماماً في روميليا حيث نجد أن النمو الديموغرافي الإسلامي (٠.١١٨٪) قد تجاوز بشكل محسوس النمو الديموغرافي للمسيحيين (٠.٠٥٨٪) واليهود (٠.٠٦٣٪)، وذلك بسبب هجرة الأتراك الأناضوليين والاستيطان التركي لنوروجا، الإقليم الشمالي - الشرقي لبيلغاريا.

وتشير التعدادات التي أجريت في القرن التاسع عشر إلى أن الميزة المسيحية في آسيا الصغرى سوف تستمر على مدار التاريخ العثماني. وبسبب غياب تعداد وسيط، فقد ضاعت للأسف ذكرى الديموغرافيا على مدار مائتي وخمسين سنة، لكن عمليات جزئية من شأنها أن تطلعنا على أحوال ذلك الفاصل الطويل (٥٧). فلما كانت الطوائف المختلفة قد ظلت غير متساوية أمام القانون، خاصة القانون الضريبي، فقد كان على الذميين أن يدفعوا بنقود معدنية كبيرة العيار ثمن حقهم في «الكفرة». وقوائم الجزية وقوائم الصفقات العقارية أو الأحكام القضائية، والتي تذكر كلها الديانة (٥٨)، تطلعنا على دينامية المسيحيين (الجدول 3. VI). فبدلاً من النزوح الجماعي، يبقى هؤلاء باستمرار في الأرياف والمدن. ومدن بحر إيجه، خاصة أزمير، التي يصل غير المسلمين إلى نحو ربع سكانها، تستقبل يونانيين من البيلوبونيز وأرمن من الأناضول الشرقية أو من إيران ويهوداً سيفاراديين من أسبانيا، كان أجدادهم قد استقروا في سالونيك. أما ضفاف البحر الأسود، الأقل حظاً، فهي تعاني من عواقب انعدام الاستقرار السياسي والحروب مع فارس. وهكذا يضطر المسيحيون إلى النزوح من ترابينزون؛ فمن ١٥٠٠٠ نسمة تم عددهم في عام ١٦٠٩، لن يبقى منهم غير ٢٥٠٠ في بداية القرن السابع عشر.

من التنظيمات إلى جماعة تركيا الفتاة، أوج التعددية الطائفية

على أبواب غرب يمر بثورة تكنولوجية سافرة، كانت الإمبراطورية (العثمانية) تحيا القرن الأخير من عمرها. وكان محمد على، الذى اعترف به الباب العالى والياً على مصر، قريباً من إخضاع سلطانه (٥٩). وقد انهمكت القاهرة فى الملحة الصناعية بينما سلمت اسطنبول نفسها لمبضع الجراح. ويمس إغراء الحداثة فى البداية الطوائف المسيحية واليهودية. وتنبثق توترات من تطور ذى سرعتين؛ فصدى النزعات القومية البلقانية والقوقازية يحييها. وبعد خمسين سنة من الثورة الفرنسية، كانت فكرة المساواة قد شقت الطريق الذى سوف تشقه فكرة الديمقراطية فى أواخر القرن العشرين؛ وكان الإصلاح شرطاً للمشاركة فى مجمع الأمم. وسوف يلغى العثمانيون وضعيات التمييز الطائفى عبر سلسلة من الإصلاحات الضريبية والمدنية، هى تنظيمات عامى ١٨٣٩ و ١٨٥٦. وعن طريق مفارقة مقابلة للمفارقة التى تعيد إحياء الجماعة المسيحية فى ظل سلطة الإسلام، فإن هذه الإصلاحات تمهد للعلمانية التى سوف تمحو الجماعة المسيحية نهائياً فى القرن العشرين.

والحال أن التنظيمات سوف تتروج بالنزعة العثمانية، وهى المذهب الذى يعتبر لأول مرة غير إسلامى، وعلماً، إن لم يكن معادياً للإسلام، والذى سوف يكون مصدر إلهام دستور ١٨٧٦، والذى لم يعمر طويلاً. وكان على هذا الدستور أن ينشئ ملكية مقيدة يعتبر جميع رعاياها «عثمانيين، بصرف النظر عن ديانتهم أو عقيدتهم» (٦٠). وكان بوسع المساواة أن تحفز تداخل أنماط السلوك، بل ربما تداخل الديموغرافيات.

لكن أثر التنظيمات كان مختلفاً تماماً. إن الأقليات سوف تستفيد، نون تناسب مشترك مع نسبتها الفعلية فى السكان، من تضخم البيروقراطية التى سوف يزيد عدد أعضائها نحو مائة مرة. وتظل علمنة القضاء حبراً على ورق، أما علمنة التعليم فهى تترجم، فى الواقع الفعلى، إلى الصعود الخاطف للمدارس المسيحية التى تلقى التسامح، بل التشجيع، من جانب رجال التنظيمات. وفى المقابل، فإن الإلزام بأداء الخدمة العسكرية لا ينيخ بعد بكله إلا على المسلمين، ذلك أن أفراد الأقليات قد سارعوا إلى قبول الاستعاضة عن أداء الجزية القديمة بالبديل العسكرى (رسم الإعفاء من أداء الخدمة العسكرية)، حيث لا يوجد فرق بين مبلغ الأولى ومبلغ الثانى. وأخيراً، فإن الإدارة الجديدة للولايات تسقط تحت وصاية الجمعيات

العامة، والتي يجد فيها غير المسلمين أنفسهم مناظرين للمسلمين المنتخبين، أى ممثلين بدرجة تفوق نسبتهم فى السكان^(٦١). ولم يكن ذلك الإجراء محايداً بالنسبة للديموغرافيا، فهذه الجمعيات تقرر شؤون الإدارة والتجهيزات المحلية؛ فمن الصحة إلى الثقافة، تعدل كل ما من شأنه التعجيل بتحقيق تحول. وهكذا فإن التنظيمات، دون أن تربط الأقليات ربطاً أوثق بالإمبراطورية، تسهم فى تعزيز ديناميتها الديموغرافية. وتثبت ذلك تعدادات القرن التاسع عشر.

والحال أن تعداد عام ١٨٢١، الموجه بشكل رئيسى إلى إحصاء الرجال، المسلمين القادرين على حمل السلاح وغير المسلمين الخاضعين لأداء الجزية، يكشف عن نسبة ١٢٪ للمسيحيين فى الأناضول، فى مقابل نسبة ٨٪ فى القرن السادس عشر^(٦٢). وهذا التوزيع النسبى للطوائف يبدو معقولاً لأن المسلمين والمسيحيين على حد سواء كانوا مهتمين، لاعتبارات مختلفة، بالتهرب من هذا التعداد. ومن جهة أخرى، فإن تعدادات أواخر القرن تؤكد صعود الأقليات. والواقع أن تعدادات وتقديرات السكان، التى يحفزها تحديث جهاز الدولة واهتمام الدول الأوروبية بالأقليات الدينية، سوف تتكاثر خلال النصف الثانى للقرن التاسع عشر، من البلقان إلى طرابلس الغرب^(٦٣). إن تعدادى ١٨٨١ - ١٨٨٢ و ١٩٠٦ - ١٩٠٧ وكذلك تعداد عام ١٩١٤ سوف تقدم أداة استثنائية لإعادة رسم صورة الجماعة المسيحية فى شرقى البحر المتوسط، التركى^(٦٤) والعربى^(٦٥)، عشية الكارثة التى تنذر بالوقوع فى تركيا.

وحول عام ١٨٨١، تتحدد تلك اللحظة من التاريخ العثمانى التى سوف يبلغ فيها غير المسلمين، اليونانيون والأرمن خاصة، أوجهم الديموغرافى. فهم يمثلون آنذاك نسبة ٢١٪ من السكان على أرض تركيا الحالية (الجدول VI. 4 a b c). وقد تعزز مجمل سكان الولايات الأناضولية تعززاً قوياً بين ١٨٢١ و ١٨٨١ و ١٨٩٣ (١٧.٠٪ فى السنة)^(٦٦). لكن المسيحيين (١٩.٠٪)، وهذا واقع ثابت فى التاريخ العثمانى، سوف يتزايدون بنسبة أسرع من نسبة تزايد المسلمين (١٥.٠٪).

على أن تصادم النزعات القومية سرعان ما سوف يهدد الجماعتين المسيحيتين، فمذابح الأرمن فى ١٨٩٤ - ١٨٩٦ سوف تمس فى البداية ديموغرافيتهم، لكن أعدادهم سوف تزيد مع ذلك بنسبة ٤.٨٪ فى السنة بين عام ١٨٨١ وعام ١٩٠٦ (الجدول VI. 5). ثم تؤدى حرب البلقان (١٩١٢) إلى اختزال نمو اليونانيين (٤.٤٪ بين عامى ١٩٠٦ و ١٩١٤).

وبالنسبة لهؤلاء ولأولئك، فإن هذا التراجع الديموغرافى كان نتاجاً للنزوح بشكل خاص (٢٠٠٠ ر. ٢٠٠٠ نازح)^(٦٧)، والذي يتجاوب هو نفسه مع انعدام الأمن؛ وسوف ينزح اليونانيون والأرمن إلى اليونان ومصر وسوريا وأوروبا الغربية وروسيا، أو إلى أماكن أبعد، فى الأمريكتين. أما اليهود، وهم الوحيدون الذين يتزايدون بين الأقليات، فسوف يشهدون خلافاً لذلك ثلاثة عقود من النهوض الديموغرافى المماثل لنهوض المسلمين.

وتحافظ العاصمة على تراثها الكوزموپوليتى. فكما فى عهد سليمان القانونى، يمثل السكان غير المسلمين فيها أكثر من ٤٠٪ من السكان (الجدول VI.6)^(٦٨). على أن ظاهرة جديدة ترجع إلى أواخر القرن التاسع عشر: الهجرة، خاصة إلى اسطنبول، من جانب جماعات سكانية مسلمة هاربة من عالم الحدود المسيحى^(٦٩). وتتدفق هذه الجماعات من روميليا والجبل الأسود وصربيا والبوسنة وبلغاريا وThessaly فى البلقان. كما تهاجر عدة عشرات آلاف من المسلمين اليونانيين من كريت و٥٠٠,٠٠٠ شركسى من القوقاز. ويصل إجمالى الفارين إلى نحو مليونى نسمة. وهذه الهجرات فى الاتجاه المضاد^(٧٠) تتطابق مع تغير سياسى جذرى.

ولنتوقف أمام العلاقات التى تسنى قيامها بين السياسة والديموغرافيا فى الإمبراطورية فى نهاية القرن تلك. إن السياسى أكثر حساسية دائماً للانقطاعات مما للاتجاهات المتواصلة منذ زمن بعيد. وفى أوساط السلطة، يجرى إيلاء انتباه عظيم إلى التدفقات الإسلامية. فهذه التدفقات، الفارة من أقاليم مهزومة عسكرياً، ما كان لها أن تمر دون أن يلحظها أحد، لأنها تجتاح العاصمة. وفى المقابل، فليس هناك ما يدعو إلى الانزعاج بالمرّة من نمو طبيعى أعلى للطوائف المسيحية، فما أكثر إفلاته من المراقبة المباشرة، وعشية التبدل الهائل للمشهد، فإنه يبلغ مع ذلك نسبة ١٢٪/٠، فى حين أن النمو الطبيعى للمسلمين لا يدنو إلا من نسبة ٩٪/٠. ويتضاعف المسيحيون فى خمسين سنة، بينما يتضاعف المسلمون فى خمس وسبعين سنة. ونحن نعرف أن النولة كانت تبدو آنذاك فى مظهر أكثر سلفية. وثبتت هذه الأرقام أن راديكالية السلطان عبد الحميد (١٨٧٦ - ١٩٠٩) لا ترجع إلى التعزز المفاجئ للتفوق العددي الإسلامى بفضل الهجرة من البلقان. فالتحول الإيديولوجى الرسمى كان أسبق، لأنه حدث فى الوقت الذى كانت الديموغرافية المسيحية فيه مازال الأكثر دينامية. ومن ثم فإن إعادة الأسلمة كانت سياسية قبل أن تكون ديموغرافية.

والواقع أن الديموغرافيا المتمايزة تجد مصدرها فى التراتب الذى أسسه نظام الملل.

ففى مجتمع عثمانى يتخذ طابعاً هيراركياً قوياً، ويضع الوظيفة العسكرية على قمة الهرم، نجد أن الغالبية المسلمة لا تمارس عين الأنشطة التى تمارسها الأقليات المسيحية واليهودية. فالزراعة والجيش ترجعان أساساً إلى المسلمين، بينما ترجع الصناعة والتجارة والخدمات إلى الأقليات. أما فيما يتعلق بالإدارة، فإن الاختلاط الطائفى كان قد أدخل إليها منذ القرن السابع عشر. وهذا التقسيم، الذى يخل إلى حد ما اعتباراً من النصف الثانى للقرن التاسع عشر، والذى كان المسلمون يعتبرونه امتيازاً، إنما يلحق الضرر بهم. فالحرب تقتل لكن الضريبة لا تقتل. ولما كانت [الحرب] نشاطاً نبيلاً، فقد كانت ترغب المسلمين على مدة خدمة عسكرية جد طويلة، تصل إلى عشرين سنة أو أكثر، وتنخفض إلى اثنتى عشرة سنة فى عام ١٨٢٩، عندما يجرى إغراق قوة الإنكشارية فى حمام من الدماء. وهذا الإلزام، الذى يبعد الرجال الشبان عن أسرهم، إنما يفتزل نسبة الزيجات ونسبة المواليد بين المسلمين، إذ كان بالإمكان تعبئة نسبة ١٢٪ من الرجال ^(٧١). وسلسلة النزاعات المسلحة التى عرفها التاريخ التركى تزيد من نسبة الوفيات المرتفعة والمحسوسة بالفعل فى زمن السلم. أما الأوبئة فقد كانت أكثر قتلاً بكثير بين صفوف المسلمين مما بين صفوف المسيحيين واليهود، لنفس الأسباب كما فى العالم العربى ^(٧٢).

وعلى الرغم من أن مبدأ الجزية كان تمييزياً إلى أكبر حد ممكن، فإن الجزية أقل فداحة من الحرب. وقد أعفى من أداء هذه الضريبة رجال الدين والإدارة وأولئك الذين يقدمون عملاً يحقق نفعاً عاماً: الأمن، صون الطرق والجسور، تربية الصقور. والواقع أن نحو الثلث فقط هم الذين كانوا يؤدون (الجزية) من الناحية الفعلية ^(٧٣). ولما كانت الأقليات المسيحية واليهودية فى مأمن من العبوديات العسكرية، فقد كانت أمامها فرصة لحراك اجتماعى أعظم، يشجع عليه شبه الاحتكار الذى تتمتع به فى القطاعات الأكثر دينامية فى المجتمع والاقتصاد. «إن عبقريتها التجارية تتيح لها الاحتكار الفعلى للتجارة ولجزء ملحوظ نسبياً من ثروات البلاد. [...] والحق أن مواهب الأرمنى كانت ضرورية لسادته، ويشير التسامح العام الذى يوفره التركى له إلى أنه كان يدرك هذا الواقع. والواقع أن التابع الأرمنى المسيحي والمتقف والسيد المسلم والمزارع كانا يعيشان جنباً إلى جنب حيث تنشأ بينهما علاقات جد هشة، إلا أنها لا يعوزها توفير منافع متبادلة ^(٧٤)». وهكذا فإن هذه الأقليات يتسنى لها أن تتشكل فى طبقة متوسطة مؤثرة. ومن جهة أخرى فإن الحماية التى تتمتع بها من جانب الدول الأوروبية تعزز دورها ^(٧٥).

فهل تحمل الديموغرافيا أثر المستوى المعيشي الأعلى الذي تتمتع به الأقليات؟ إن الأقليات تستفيد منه، في اسطنبول على أية حال. ففي ١٨٧٦ - ١٨٧٩، تتجاوز نسبة وفيات المسلمين إلى حد بعيد (٠/٠٢١) نسبة وفيات الأقليات (٠/٠١٢)، خاصة نسبة وفيات النساء. وكما في الولايات العربية، فإن أمية الغالبية الساحقة للمسلمين تتعارض مع أشكال التقدم الحاسم الذي حققته الطائفتان الأخريان خلال القرن التاسع عشر، خاصة بفضل المؤسسات التي أنشأها المبشرون المسيحيون والتحالف الإسرائيلي العالمي (الجدول ٧.٦). ولا يمكن للحالة الصحية إلا أن تتأثر بذلك. على أن معدل الوفيات لا يفسر كل شيء. فالدينامية الضعيفة للجماعات السكانية المسلمة إنما تتبع أيضاً من معدل إنجاب أكثر انخفاضاً. وهذا الواقع يستثير الدهشة في أيامنا، فقد اعتدنا الربط بين الإسلام والانفجار الديموغرافي.

وقد جرى مؤخراً إثبات الابتسار العظيم لبعض العينات العشوائية الماثوسية في الأسر المسلمة في اسطنبول في أواخر القرن التاسع عشر^(٧٦). وقد صدم بالفعل آنذاك بعض المراقبين، الذين رده إلى التجنيد وخاصة، «إلى الوسائل الضارة التي تستخدمها النساء التركيات من الطبقات الاجتماعية الأدنى لتجنب إنجاب الكثير من الأطفال^(٧٧)». والحساب، المستحيل في تلك الأزمنة، سوف يثبت بعد مائة سنة أنهم كانوا على حق: فمعدل الإنجاب في الولايات العثمانية يتباين عكسياً مع نسبة المسلمين^(٧٨).

لكن حيوية ديموغرافية استثنائية لا يمكنها ضمان الخلود للمسيحيين. فبقاؤهم السياسي كان من الصعب تصويره خارج قالب المؤسسي الذي صيغ بآداة منذ الاستيلاء على القسطنطينية. ومنذ الاستهلاات الأولى للدولة القومية، سوف تتفكك الجماعة المسيحية العثمانية. وفي عام ١٩١٤، قبل اختفاء الأقليات، نجد أنها (الأقليات) قد تجاوزت ٣ ملايين نسمة. وعلى الرغم من انتشارها في كل أرجاء تركيا، فقد كانت قريبة من تشكيل كتلتين متماسكتين، من جهة، نجد اليونانيين: وإذا يتجمعون في اسطنبول وفي أوروبا التركية وعلى سواحل بحر إيجه والبحر الأسود، فإنهم يضيئون أيضاً بضع جماعات في الأناضول الداخلية، حتى قلب بلاد الأرمن. ومن جهة أخرى، نجد الأرمن، الذين يمتد وجودهم من القوقاز إلى البحر المتوسط. وكانت المدن والقرى التي يختلط فيها المسيحيون مع المسلمين الأتراك والأكراد، عديدة. وإذا كان اليونانيون يجهلون غالباً اللغة التركية^(٧٩)، فإن نصف الأرمن يستخدمونها^(٨٠). على أنهم ظلوا بعيدين عن اتحاد وثيق.

وسرعان ما سوف تحدث المواجهة بين عدة نزعات قومية. وكان بعضها محروماً من ركيزة إقليمية محددة، كالنزعة العثمانية - التي تحلم بأن توحد حول السلالة الحاكمة كل المسلمين والمسيحيين واليهود العثمانيين، الأتراك أو غير الأتراك - ونزعة الجامعة الإسلامية - التي تحلم بحشد جميع مسلمي العالم حول السلطان - ونزعة الجامعة التركية - التي توسع الساحة القومية لتشمل جميع أتراك آسيا الوسطى - أو أيضاً نزعة الجامعة الطورانية الغائمة، التي تتادى بوحدة الشعوب الناطقة بلغة ذات أصل تركي، من منغوليا إلى المجر. على أن ثلاث نزعات قومية كان لها تصور إقليمي محدد. فالنزعة القومية اليونانية تمجد يونان كبرى على ضفتي بحر إيجه. والنزعة القومية الأرمنية تمجد دولة مكونة من أرمينيا الكبرى وأرمينيا الصغرى. وهذه وتلك ضحيتان لوهم ديموغرافي، منتشر بين صفوف الأقليات المسيحية الشرقية؛ فاليونانيون يبالغون في نموهم والأرمن يبالغون في عددهم. وبين كماشة الاثنين، يحتفظ الأتراك مع ذلك بالغالبية في كل مكان. وإذا يتخلون عن الاحتشاد الديني المحدد خلف راية الإسلام، فإنهم يتجمعون تحت راية نزعة قومية ثالثة، تعتبر إقليمية لأول مرة. وهكذا فإن الأناضول، التي لم يتم التنازع عليها قط منذ اختفاء بيزنطة، تجد نفسها دفعة واحدة محل اشتباه ثلاثي الأطراف (٨١).

نهاية الوجود المسيحي

منذ عام ١٨٢٠، نجد أن أرمينيا الشرقية (يريفان وقره باغ)، التي انتقلت تحت وصاية روسيا الأرثوذكسية، تعرف بعثاً قومياً ودينياً وثقافياً، وتوسعاً اقتصادياً. والحال أن أرمينيا الشرقية واليونان التي نالت استقلالها سوف تشكلان قطبين فاعلين للنزعة القومية. وهكذا فإن الأرمن واليونانيين العثمانيين سوف يجنون أنفسهم موزعين بين الولاء للإمبراطورية وطموحات جديدة إلى الاستقلال. وسوف تتفاقم هذه الطموحات حول زمن الحرب العالمية الأولى، التي سرعان ما تشهد انطفاء المذهب العثماني. وسوف يدفع أكثر من ثلاثة ملايين من المسيحيين العثمانيين حياتهم أو رحيلهم إلى المنفى ثمناً لصدام النزعات القومية وليلد تركيا الحديثة.

وفيما يتعلق بأرمن تركيا، فإن العدد الذي يقدمه أول تعداد تجريه الجمهورية: ٧٧٠٠٠ نسمة في عام ١٩٢٧، هو مرتكزنا الوحيد. فمن أي عدد سكاني كانوا الناجين ؟ هل من الـ ١٢ مليون نسمة، كما يتضح من آخر التعدادات العثمانية (١٩١٤)، أم من الـ ٢٤ مليون

نسمة في عام ١٨٨٢، كما تؤكد البطريركية الأرمنية^(٨٢)؟ إن الطائفة الأرمنية، التي كانت إلى عهد قريب الملة المصادقة (الامة المخلصة)، «من بين جميع الأمم الخاضعة للباب العالي، الامة التي لها مصالح مشتركة أكثر مع الأتراك والمهتمة بشكل مباشر أكثر على الحفاظ عليها»^(٨٣). قد جرى ترحيلها بفظاظة في عامي ١٩١٥ و١٩١٦ من تركيا صوب الهامش العربي. وهي، في خروجها، تتعرض لمذابح مازال اتساع حجمها يغذى، بعد انقضاء ثلاثة أرباع قرن، السجال بين الأرمن والأتراك. وإذا كان قد بقي مع ذلك أرمن في الأناضول بعد الترحيل والمجازر، فإن تقلبات السياسات الروسية والأمريكية والفرنسية في أواخر زمن الحرب سرعان ما سوف تسهم في التعجيل باختفائهم^(٨٤).

وحتى نقف على حجم المذبحة، لابد من معرفة عدد الأرمن الموجودين في تركيا قبل الحرب، وعدد المنفيين من تركيا بعدها. والحال أن التقديرات التي تؤيد المزاعم الأرمنية وتلك التي تؤيد المزاعم التركية متناقضة. ويشكك الأرمن في التعدادات العثمانية، فهم يقولون: إن الإلزام بدفع البديل كان يحفز المسيحيين على التهرب من موظفي الدولة. وإذا يتبنون تعدادات البطريركية، فإن تقديراتهم تتراوح في الأغلب بين ١.٨ مليون و٢.٢ مليون من الأرمن عشية الحرب^(٨٥). أما توينبي، الذي لم يكن أرمنياً، فهو يقترح رقماً كلياً يتراوح بين ١.٦ مليون و٢.٠ مليون^(٨٦). وأما فيما يتعلق بالأتراك فإنهم يقبلون اليوم كما بالأمس تعداد عام ١٩١٤، ويقدمون رقم الـ ١.٣ مليون^(٨٧). فهل يمكن البت في معركة الأرقام هذه؟ إن هذا صعب إذا ما أخذنا بعين الاعتبار تأكيدات اللجنة الأمريكية لإغاثة الأرمن والسوريين، التي بينت منذ عام ١٩١٥: «إن تقديرات الحكومة التركية تعتبر بوجه عام جد منخفضة وتقديرات البطريركية الأرمنية تعتبر أحياناً جد مرتفعة، مع ميل في الحالة الأولى إلى التقليل وفي الحالة الثانية إلى التهويل من شأن عدد وأهمية السكان الأرمن»^(٨٨).

وفي إعادة فتحه للملف في الثمانينيات، أخضع جامعي أمريكيّ البيانات العثمانية للمناهج الديموغرافية المعاصرة^(٨٩). فقد أعاد تقييم عدد السكان الأرمن بـ ١.٦ مليون نسمة واستنتج أنه لم يكن هناك تلاعب مقصود، وكل ما هناك هو أننا نجد أنفسنا أمام تقييم اختزالي عادي بالنظر إلى تقنيات التعداد آنذاك. ويطرحه عدد الأرمن الذين تم حسابهم في تركيا بعد الحرب، فإنه يتوصل من ثم إلى حدوث انخفاض سكاني قدره حوالي مليون ونصف مليون من الأشخاص، وهو ما يتناسب مع حجم المذبحة بالمعنى الدقيق للمصطلح، وكذلك مع حجم النازحين، المبعدين أو المهاجرين بحرية، وحجم المتحولين إلى اعتناق الإسلام.

والواقع أن أهمية كل من المذبحة والترحيلات كانت موضع مجادلات متزايدة الحدة. فمعد غداة الأحداث، حسب المؤرخ البريطاني توينبى والقس الألماني ليبسيوس اللاجئين في سوريا وروسيا وفارس، الذين كان قد تم حسابهم لدى وصولهم من جانب الجمعيات الخيرية، كما حسبا الأشخاص الذين بقوا في تركيا، إماً لأنهم قد أتاحت لهم الفرصة للإقامة في مدينة كبرى، اسطنبول أو أزمير، حيث «كان من الصعب قمعهم أمام كل هذا العدد من الشهود»^(٩٠)، أو لأنهم نجوا من الموت مقابل تحول إلى اعتناق الإسلام^(٩١). ويقدر توينبى عدد ضحايا المذبحة بـ ٦٦٠٠٠٠، أما ليبسيوس فيقدره بمليون نسمة^(٩٢).

أما الأطروحة التركية، التي عرضت مؤخراً، فهي تعترف بظاهرة الترحيل، وتسميها على نحو محترس بـ «إعادة التوطين». وهي تعترف باتساع حجمها: ٧٠٣٠٠٠ نسمة من الجنسين ومن جميع الأعمار وفقاً لمصدر رسمي عثماني^(٩٣)، أى نحو ٧٠٪ مرحلين من بين الأرمن^(٩٤). وقد مثل هذا الترحيل واقعاً من وقائع الحرب، كان حتماً بسبب تخاير الأرمن مع العدو الروسي. كما تعترف هذه الأطروحة بموت أكثر من ٢٠٠٠٠٠ من الأرمن^(٩٥)، لكنها تنفى أنهم ماتوا بحراب تركيا. وبعيداً عن مذبحة منظمة من أعلى، فإن موتى الحرب قد ماتوا لأسباب تتصل بها، فهم ضحايا للأوبئة أو للضعف أثناء النزوح، أو أنهم سقطوا خلال المعارك الناشبة بين جيوش وميليشيات متعارضة. وهكذا فإن مسؤولية الجيش النظامي التركي لن تكون واردة بدرجة أكبر من مسؤولية الجماعات المسلحة غير النظامية الكردية أو عصابات الطرق الرئيسية.

واليوم يضع جامعيون غربيون في ميزان واحد عذابات الأتراك وعذابات الأرمن: «إن ذكر عذابات جماعة وتجنب ذكر عذابات الجماعة الأخرى إنما يعطى تصوراً زائفاً حول ما كان كارثة إنسانية، لا مجرد كارثة عرقية»^(٩٦). وقد أعاد أحد هؤلاء الجامعيين النظر في الحسابات وتوصل إلى أن عدد الضحايا قد وصل إلى ٨٤٠٠٠٠ نسمة (الجدول 8. VI)^(٩٧). وينبغي رفع تقديره بدرجة طفيفة. فالواقع أنه في إعادة تركيبه لتعداد السكان الأرمن الذين عاشوا في تركيا عشية الحرب، حذف أرمن إسطنبول وتركيا الأوروبية^(٩٨). ويجب إعادة دمجه في الحساب، وهو ما يؤدي إلى تقدير عدد الضحايا بـ ٦٨٨٠٠٠ نسمة، وهو رقم أقرب إلى الحقيقة. ومن جهة أخرى، فإن ذلك هو حجم الضحايا الذي قدره توينبى في ذروة الأزمة.

وسوف تواصل البقايا الأخيرة للسكان الأرمن الذبول بعد الترحيلات والمذابح، وأولئك الذين سوف يرحلون لن يكون لهم حق في العودة. وفي عام ١٩٦٥، نجد أن التعداد الذي يذكر الديانة يشير إلى ٦٤٠٠٠ أرمنيا، من بينهم ٢٢٠٠٠ فقط يتحدثون بالأرمنية. والحال أن الجالية الأرمنية، التي اختفت من أرياف المهد التاريخي لأرمينيا الكبرى ولأرمينيا الصغرى، إنما تحيا الآن في العاصمة العثمانية القديمة، اسطنبول.

أما فيما يتعلق بالجالية اليونانية المزدهرة في تركيا، فقد دفعت بعد الحرب ثمن طموح الحكومة الهيلينية الزائد عن الحد. فالأمر لا يقتصر على أن هذه الحكومة قد قللت من شأن عدو تعرض للهزيمة [خلال الحرب العالمية الأولى]، بل إنها قد تصورت، بالرغم من جميع الشواهد، أن الديموغرافيا تميل إلى صف اليونانيين.

وقد ذاع عن رئيس الوزراء ايليقيثريوس فينيزيلوس قوله: «إن يونانيي أزمير، بفضل قدرتهم على الإنجاب، سوف يتزايدون إلى الدرجة التي سوف يتجاوز عندها عددهم عدد مجمل سكان الإمبراطورية التركية قبل نهاية هذا القرن (١٩١٩)».

واستقواءً بهذا اليقين الجميل وتحت مظلة قوات الحلفاء، سوف يحاول اليونانيون إعادة بناء اليونان الكبرى، بعد أن احتلوا الأناضول الغربية. وسوف تنتهي الحرب اليونانية - التركية بين عامي ١٩٢٠ و١٩٢٢ إلى هزيمة المحتلين وتجد خاتمة لها في معاهدة لوزان لعام ١٩٢٣، التي ينص أحد بنودها على تبادل ضخم للسكان: أترك اليونان في مقابل يونانيي تركيا.

لنلق نظرة إلى الوراء. عند استقلال اليونان (١٨٣٠)، فقد يونانيو اسطنبول وآسيا الصغرى عدداً من مواقعهم. فقد تعرضت ملتهم للأكلول لحساب الملة الأرمنية. على أنهم سوف يبقون على مدار قرن، بالرغم من نداءات اليونان التي كثيراً ما تعرضهم على التمرد. وبالرغم من النزعات القومية المتشددة، فإن عدداً من اليونانيين يفضلون اليسر الذي يجنونه على ضفاف البسفور أو في الأناضول على الحرية التي تم الفوز بها مؤخراً على ضفاف المورة أو إبيروس الرحيمة بدرجة طفيفة. كما يتسنى لهم تعزيز صفوفهم من خلال الهجرة القادمة من اليونان الانفصالية، لأن القادة العثمانيين كانوا يريدون الحفاظ على البنية المتعددة القوميات.

وبعد ذلك بقرن، سوف يكون مصطفى كمال أقل سخاءً. وعندئذ، فإن يونانيي تركيا سوف يعانون من حماقة الحكومة الهيلينية. وعلاوة على ذلك، فبعد إزالة الأرمن، كان أتاتورك

يريد استكمال تحقيق التجانس الإثنى الذى لم ينجز فى ظل حكم جماعة تركيا الفتاة. وقد نص الاتفاق الذى عقده مع اليونان بعد انتصاره فى عام ١٩٢٢ على تبادل السكان. إن أترك أو مسلمى اليونان الذين يصل عددهم إلى ٤٦٤.٠٠٠ نسمة، فيما عدا أترك ومسلمى ثراس الغربية، سوف يعاون إلى تركيا (١٠٠)، فى مقابل جميع يونانيين تركيا - ١٣٤٤ مليون نسمة، دون حساب يونانيين اسطنبول - الذين سوف يجرى إرسالهم إلى اليونان. وهكذا فلن يبقى فى عام ١٩٢٧ غير عشرة آلاف يونانى فى الأناضول.

وفى غالبية الحالات، كانت اللغة التى يتحدث بها الأشخاص هى التى تحدد الأشخاص الذين يجب ترحيلهم. لكن الدين، فى جمهورية موعودة بمستقبل علمانى، يلعب أيضاً دوره فى تحديد يونانيين الأناضول الداخلية. «إذا ما أخذنا المسميين «يونانيين» و«تركي» بمفهومها الغربى وليس بالمفهوم السائد فى الشرق الأدنى، فإن تبادل السكان الشهير بين اليونان وتركيا يمثل بناءً على ذلك ليس إعادة ليونانيين إلى اليونان ولأترك إلى تركيا بل ترحيلاً لأترك مسيحيين وليونانيين مسلمين (١٠١)». إن عدداً كبيراً ممن يجهلون اللغة اليونانية قد جرى ترحيلهم؛ وكانوا من جميع الوجوه أتراكاً يتبنون الديانة المسيحية. وفى هذا البلد الذى كان محكوماً إلى عهد قريب بنظام الملل حيث كان الدين يحدد الهوية، سيتعين من ثم انتظار تحقيق التجانس الدينى حتى يتسنى تأكيد العلمانية التى أعلنها رئيس عصرى (١٠٢).

وقد أبقت اسطنبول على حيوية ذكرى القسطنطينية، عاصمة الأرثوذكسية. ومن حيث المبدأ، فإن سكانها اليونانيين، الأسعد حظاً، يفلتون من المبادلة. وفى عام ١٩١٤، كان عددهم نحو ٢٠٠.٠٠٠ نسمة (١٠٣). ولكن هل يمكنهم البقاء طويلاً منكفئين على المتربول، بعد حرمانهم من مؤخراتهم الأناضولية ؟

بمرور الزمن، وبالرغم من الحماية التى توفرها معاهدة لوزان، سوف تتراجع أعدادهم تراجعاً متواصلاً: من ١٣٦.٠٠٠ فى عام ١٩٢٧ إلى ٨٠.٠٠٠ فى عام ١٩٦٥ (١٠٤). وإثر ذلك، بفضل التفجرات العديدة للتوتر بين اليونان وتركيا، خاصة أزمات قبرص، سوف تؤدى عمليات طرد اليونانيين الذين يحملون الجنسية الهيلينية (١٠٥) إلى زيادة تاكل أعدادهم. وفى أواخر الستينيات، لن يمثلهم غير عدة مئات من العجائز والسيدات المتزوجات من يونانيين يحملون الجنسية التركية. ويحكم مسلسل الجذب، تعجل عمليات الطرد هذه بخروج يونانيين يحملون الجنسية التركية. ونحن لا نعرف عددهم، الذى لا مراء فى أنه مرتفع. والواقع أن التعدادات

التركية لا تقدم اليوم أى عون لتحديد ديانة السكان - وهو متغير يعتبر منذ ذلك الحين بلا طائل حيث أن الأقليات الطائفية قد اختفت تقريباً (١٠٦) - لكن إحصاء تلامذة المدارس اليونانية، الذى هبط من خمسة آلاف فى عام ١٩٦٥ إلى ثمانمائة فى عام ١٩٨٣، يؤكد، إن كانت هناك ضرورة لذلك، الاختفاء شبه التام لطائفتهم، إن اليونانيين لا يشكلون اليوم غير ثمانية آلاف شخص.

وحتى العشرينيات، لم تكن الطائفة اليونانية والناجون الأرمن فى اسطنبول قد تلاشوا، من الناحية الديموغرافية. على أنه يبدو من المستبعد أن تكون الدولة التركية الجديدة قد تمسكت بالاتفاقات الخاصة ببيونانيى اسطنبول وحافظت على آخر من فيها من الأرمن. والواقع أنه فى هذه المدينة، التى ظلت الرئة الاقتصادية للبلاد بالرغم من نقل العاصمة إلى أنقرة، كان المسيحيون يهيمنون دائماً على الاقتصاد: لقد كانت نسبة ٥٠٪ من الاستثمارات يونانية وكانت نسبة ٢٠٪ أرمنية؛ وكان اليونانيون والأرمن يحوزون معاً تسعة أعشار الوظائف فى الاستثمارات الأجنبية (١٠٧). وكانت المشاركة التركية الضعيفة قد حسبت بالفعل المطالب الاقتصادية للنزعة القومية لدى جماعة تركيا الفتاة.

والحال أن مصطفى كمال ثم من سوف يخلفونه هم الذين، بدفعهم الأقليات إلى الرحيل، سوف يخلقون بورجوازية تركية. وهذه الطبقة الجديدة، شأنها فى ذلك شأن كوادى جبهة التحرير الوطنى فى الجزائر وكوادى الاتحاد الاشتراكى العربى فى مصر الناصرية فيما بعد، سوف تختزل مرحلة طويلة لمراكمة رأس المال باستحواذها لقاء ثمن بخس على الممتلكات التى يتركها الراحلون، وهم فى هذه الحالة من اليونانيين والأرمن (١٠٨). وسوف تبلغ التدابير التكميلية أوجها مع الضريبة المفروضة على رأس المال فى عام ١٩٤٢، ضريبة الوريثيك ويرجيسي، المحددة من زاوية الديانة والقومية. فقد جرى توزيع دافعى الضريبة إلى مسلمين وغير مسلمين ودونمة، وهم اليهود الذين تحولوا إلى اعتناق الإسلام فى القرن السادس عشر بعد مجيء مسيح غريب، هو شابأتاي زيفى. فقد بلغت الضريبة المفروضة على غير المسلمين عشرة أمثال الضريبة المفروضة على المسلمين، أما الضريبة المفروضة على الدونمة فقد كانت أعلى مرتين (١٠٩). وهذه التدابير، المصحوبة بحملات صحفية عنصرية، تتال من «اليورجيسيات والكريكوسات» (اليونانيين) و«الارتينات» (الأرمن) و«السالمونات» (اليهود)، تعجل عمليات الرحيل، التى تشمل اليهود، الذين كان النظام قد جنبهم العنت حتى ذلك الحين. ولا يزيد عدد اليهود اليوم عن عشرين ألفاً.

وبدلاً من تحقيق السكينة لآخر الباقين من الأقليات، التي اعتادت على مدار عدة قرون على الاستقلال الذاتى الإدارى والدينى فى ظل نظام الملل، أدت العلمانية إلى تشديد هشاشة وضعهم. فالمقابل المنتظر لإلغاء الخلافة الإسلامية من جانب الجمهورية، والذي يتمثل فى الطرد المؤقت - للبطريرك اليونانى الأرثوذكسى المقيم فى اسطنبول، يؤدى إلى إسقاط أحد الرموز الأخيرة. وسرعان ما يتلوه تكليف مدرسين ووكلاء مديريين أترك بالعمل فى المدارس اليونانية - إن لم يتم إغلاقها ببساطة - أو يتلوه إغلاق الجمعية الأدبية اليونانية. وتظل العلمانية انتقائية. فعلى الرغم من اعتماد قانون مدنى علمانى جديد ينطبق على جميع الأتراك، وعلى الرغم من إلغاء دين الدولة، تواصل السلطة تسجيل الديانة فى بطاقات تحقيق الشخصية وممارسة ضغوط متنوعة لإثناء غير المسلمين عن الطموح إلى عمل فى الإدارة المدنية أو العسكرية (١١٠). والواقع أن مشاركة غير المسلمين - التى تعتبر أثراً من آثار زمن التنظيمات - فى جهاز الدولة، خاصة فى مكتب الإحصاءات العثمانى - الذى ضم على التوالى مديراً يهودياً ثم أرمنياً ثم أمريكياً - يتم اختزالها بشكل ملحوظ. وحتى فى القطاع الخاص، فقد كانت المشروعات الأجنبية ملزمة بتشغيل حد أدنى من المسلمين.

ومن بين جميع الكوارث التى ميزت تاريخ الجماعة المسيحية فى بلاد الإسلام منذ الهجرة، فإن السنوات العشر التى اختفت خلالها الجاليتان الأرمنية واليونانية من تركيا، بين عامى ١٩١٤ و ١٩٢٤، كانت الأكثر جسامه. إن التكلفة البشرية، ٢ مليون نسمة، والمذبحة والمفاجأة غير المتوقعة قد قطعت بشكل حاسم مسار التاريخ الإسلامى. والمفارقة الأولى هى أن اختفاء المسيحيين يخالف التطورات التى ترسم معالمها. فالواقع أنه قد حدث فى ظل نظامين عصريين، نظام جماعة تركيا الفتاة (١١١) والنظام الكمالى، اللذين كانا مفعمين بالروح العلمانية، واللذين شكلا بديلاً راديكالياً لسلطة أضفت الشرعية على الإسلام. ولم يكن هناك ما يسمح فى اتجاهات ديموغرافيا المسيحيين بالتنبؤ باختفائهم. ومن المؤكد أنهم قد أصبحوا أقل عدداً منذ بيزنطة، حيث كانوا يشكلون كل سكان الأناضول. على أن جهاد الفتح التركى قد اختزلهم، لئن أن يمحى وجودهم.

والمفارقة الثانية هى أن الإسلام الظاهر كان يتفاخر بحياة مشتركة مع المسيحيين واليهود أما إسلام زمن الانحطاط، الذى يدرك فى أواخر القرن التاسع عشر أنه قد خسر المعركة العالمية، فإنه يكتبهم. ومن القرن السادس عشر إلى القرن التاسع عشر، قبل أن تصبح الإمبراطورية الرجل المريض الذى ترصد أحواله القنصليات الأوروبية، لا وراء فى أنها

(الإمبراطورية) قد قدمت بنية فريدة قادرة على ضمان السلم الأهلي. وقد استفادت من ذلك ديموغرافية الطوائف المسيحية واليهودية. وقد شهدت نمواً طبيعياً أكثر ارتفاعاً بفضل نظام الملل، الذى خصص الخدمة العسكرية للمسلمين ولكن مع إعفاء الأقليات فى المقابل من ضريبة الرأس، وخاصة بفضل الحراك الاجتماعى القوى الذى حول هذه الأقليات، بشكل مطرد، إلى «شعب - طبقة»^(١١٢). بل إن هذا النمو قد سمح لها بموازنة صعود السكان المسلمين الذى تضخم من جراء الهجرات القادمة من الأراضى التى خسرتها الإمبراطورية على أطرافها. وكان المسيحيون ضحايا لإفقار الشعب التركى كما كانوا، بلا مراء، ضحايا للمشاعر المتناقضة التى حفزها لدى هذا الشعب النموذج الغربى، الذى يستثير الإعجاب والمقت، والذى كان المسيحيون ممثليه الأكثر وضوحاً.

إن نزيف المذابح ومبادلة السكان قد ترك فى تركيا طوائف غير مسلمة كان عددها فى عام ١٩٢٧ مايزال يقدر بـ ٢٤٠٠٠٠ نسمة. ولولا نزوحهم، لكان فى تركيا اليوم ١٢ مليون مسيحى ويهودى تركى^(١١٣). لكنهم فى الواقع لا يشكلون غير ١٤٥٠٠٠ نسمة، أى ٠.٢٪ من السكان (الجدول 9. VI). و وراء التدابير الانتقامية المتخذة من جانب الحكومات، يمكننا التساؤل عن مصير الأقليات الشديدة الصغر. فمع اجتياز عتبة حرجة، ألا يجرى دفعها بشكل قاتل إلى دوامة الفناء؟ إن سوق الزواج يضيق، شأنه فى ذلك شأن سوق الصعود الاجتماعى. ويستمر إنجاب أطفال، ولكن لكى يشقوا طريق النزوح.

جداول وأشكال الفصل السادس

الجدول VI. 1

التوزيع المائتي في استنبول (القرن الخامس عشر - القرن السابع عشر)

1691		1550		1535 - 1520		1478		
%	السكان	%	السكان	%	السكان	%	السكان	
58,2	390000	57,7	300000	58,0	23850	60,0	47960	المسلمون
41,8	280000	38,5	200000	31,4	12542	29,6	23714	المسيحيون
		3,8	20000	10,6	42608	10,4	8326	اليهود
100,0	670000	100,0	520000	100,0	400000	100,0	80000	الإجمالي

المصدر : حسابات بالاستناد إلى دليل ماتران، الحياة اليومية مصدر سبق ذكره.

VI . 2 الجدول

سكان الأناضول في القرن السادس عشر (بالآلاف)

في 1520 - 1535							
الأعداد				النسب			
الولاية	مسلمون	مسيحيون	يهود	الإجمالي	مسلمون	مسيحيون	يهود
الأناضول	2328,5	42,5	5,5	2372,5	98,8	1,8	0,0
كرمان *	717,5	15,5		733,0	97,9	2,1	0,0
نور القاسية **	334,5	13,0		347,5	96,3	3,7	0,0
روم - إبي قديم ***	497,5	33,0		530,5	93,8	6,2	0,0
روم - إبي حديث ****	126,0	254,0		380,0	33,2	66,8	0,0
الإجمالي	4004,0	358,0	5,5	4363,5	91,8	8,2	0,0

في 1570 - 1580

الأناضول	3258,7	101,5	2,5	3362,7	96,9	3,0	0,0
كرمان *	1273,0	67,0	0,0	1340,0	95,0	5,0	0,0
نور القاسية **	544,5	21,0	0,0	565,5	96,3	3,7	0,0
روم - إبي قديم ***	857,0	91,0	0,0	948,0	90,4	9,6	0,0
روم - إبي حديث ****	296,0	290,5	0,0	586,5	50,5	49,5	0,0
الإجمالي	6229,2	571,0	2,5	6802,7	91,6	8,4	0,0

* كرماني : قونية ، أكيهيهير ، قيصريه .

* نور القاسية : كيرسيهيهير . ماراس .

* روم - إبي قديم : أماسيا ، قوكات ، كانيك .

**** روم - إبي حديث : طرابزون ، كيما ، مالاطيا .

الجدول 2 . VI (تابع)

معدل الزيادة السنوية من 1520 - 1535 إلى 1570 - 1580

(بـ 0/100)

الولاية	مسلمون	مسيحيون	يهود	الإجمالي
الأناضول	7ر1	18ر3	10ر8	7ر3
كرمان *	12ر1	30ر8		12ر7
نراقارية **	10ر3	10ر1		10ر3
روم - إى قديم ***	11ر4	21ر4		12ر2
روم - إى حديث ****	18ر0	2ر8		9ر1
الاجمالى	9ر3	9ر8	10ر8	9ر3

* كرماني : قونية، أكسيهير، قيصريه

** نراقارية: كيرسيهير، ماراس.

** روم - إى قديم : أماسيا، توكات، كانيك

*** روم - إى حديث : طرابزون، كيما، مالاطيا.

المصدر : حسابات استناداً إلى عمر برقان : مساهمة في دراسة مصدر سبق ذكره. إن هذا الجدول الذي يسمح بقياس الاتجاهات الديموغرافية في القرن السادس عشر، يجب استكماله بالبيانات المتصلة بولاية ديار بكر (تعداد 1520 - 1535 فقط) : المسلمون : 354300، المسيحيون : 59700، اليهود : 1400. عمر لطفى برقان، بحث حول البيانات الإحصائية مصدر سبق ذكره.

الرجال في بعض الولايات الأناضولية، 1831 (بالآلاف)

الجماعة	مسلمون	مسيحيون	أرمن	يهود	غجر	الإجمالي
الأعداد	1842	237	15	2	7	2102
النسب	87ر6	11ر3	0ر7	0ر1	0ر3	100ر0

* تعداد غير كامل، استناداً إلى بيانات ولايات الأناضول وسيواس وأخنة وطرابزون وكارس وسيلدير.

المصدر : كمال كريات، السكان العثمانيون مصدر سبق ذكره.

VI . 3 الجدول

تحويلات الأرض وأحكام المحاكم في القرنين السادس عشر والسابع عشر بحسب الديانة (نسبة مئوية)

فترة	تحويلات الأرض (لبن دعوى)				الدعوى القضائية			
	1592 - 1600	1688 - 1691	1592 - 1600	1688 - 1691	الدعوى القضائية	1688 - 1691	1600 - 1592	1691 - 1688
مسلمون	91	77	91	77	مدعى عليه	95	98	مدعى عليه
مسيحيون	7	23	7	23	مدعى	5	2	مدعى
يهود	2	-	2	-	مدعى عليه	-	-	مدعى عليه
الإجمالي	100	100	100	100	مدعى عليه	100	100	مدعى عليه
قيصريه	1590 - 1600	1689 - 1692	1600 - 1592	1689 - 1692	مدعى عليه	1689 - 1692	1586 - 1610	1692 - 1689
مسلمون	74	85	68	77	مدعى عليه	81	68	مدعى عليه
مسيحيون	26	15	32	23	مدعى	19	32	مدعى
يهود	-	-	-	-	مدعى عليه	-	-	مدعى عليه
الإجمالي	100	100	100	100	مدعى عليه	100	100	مدعى عليه

المصدر : ثريا فاروق، المدن وسكان المدن مصدر سبق ذكره.

الجدول 4 . VI

السكان العثمانيون بحسب الديانة والولاية (بالآلاف)

١ - تعداد 1881 / 1882 - 1893

الولاية	مسلمون	يونانيون	أرمن	آخرون	يهود	الإجمالي
اسطنبول *	425	188	152	13	45	823
إدرنه **	224	229	16	71	14	554
شاتالكا	15	36	1	6	1	59
بيجا	99	15	2	1	2	119
خوداشينديجار	1133	133	58	6	3	1333
أيدين *	1119	197	14	3	22	1355
إزميت	133	24	37	1	0	196
كاستامونو	929	15	3	0	0	947
أنقرة	736	35	68	9	0	848
قونية	877	57	10	0	0	944
أضنة	341	6	45	4	0	396
طرابزون	857	155	42	2	0	1056
العزیز	300	1	73	8	0	382
سيواس	767	38	117	5	0	926
ديار بكر	290	1	47	31	1	370
أرضروم	446	3	101	9	0	559
بيتليس	167	0	101	9	0	277
غان	60	0	60	0	0	120
حلب ***	397	4	41	22	2	466
الإجمالي	9315	1136	987	199	91	11728

* لا يشمل ذلك 131000 أجنبي في اسطنبول و 56000 في أيدين.

** سناجق إدرنه وجيليبولو وكيركليز وتيكيرداجي.

*** الجزء الأناضولي وحده.

المصادر : : حسابات بالاستناد إلى كمال كريات، السكان العثمانيون مصدر سبق ذكره، وفيثال

كينيه، تركيا الآسيوية مصدر سبق ذكره.

ب - تعداد 1906 / 1907

الولاية	مسلمون	يونانيون	أرمن	آخرون	يهود	الإجمالي
اسطنبول*	432	177	71	9	48	737
إدرنة**	335	291	25	79	22	752
شاتالكا	23	44	1	8	2	78
بيجا	141	38	2	1	3	185
خودافينديجار	1431	166	80	8	4	1689
آيدين*	1332	285	19	2	33	1670
إزميت	201	36	51	2	0	290
كاستامونو	1088	23	10	0	0	1121
أنقرة	1012	42	98	5	1	1158
قونية	1146	87	15	1	0	1249
أضنة	436	11	50	7	0	504
طرابزون	1072	215	51	2	0	1340
العزیز	391	1	74	8	0	473
سيواس	973	67	147	7	0	1194
دياربكر	316	1	52	23	1	393
أرضروم	552	6	116	2	0	675
بيتليس	198	0	95	5	0	298
شان	55	0	59	0	0	114
حلب***	441	5	58	19	2	525
الإجمالي	11571	1496	1077	187	116	14447

* لا يشمل ذلك 129000 أجنبي في اسطنبول و 57000 في آيدين.

** سناجق إدرنة وجيليپولو وكيركيليز وتيكيرداجي.

*** الجزء الأناضولي وحده.

المصادر : : حسابات بالاستناد إلى كمال كريات، السكان العثمانيون ...، مصدر سبق ذكره، وفيتال كينيه، تركيا الآسيوية ...، مصدر سبق ذكره.

ج - السكان العثمانيون في عام 1914

الولاية	مسلمون	يونانيون	أرمن	آخرون	يهود	الإجمالي
اسطنبول	560	205	83	9	52	910
إدرنة	360	225	20	4	23	631
شاتالكا	20	37	1	1	2	60
كالي - إبي سلطانية	150	9	3	1	4	166
خودافينديجار	474	75	61	3	4	616
كوتاهيه	303	9	4	1	0	317
كاريس	360	98	9	7	0	473
قره حصار إبي صاحب	278	1	7	0	0	286
أيدين	1249	299	20	5	35	1609
ميتيس	189	20	0	1	2	211
إزميت	227	40	56	2	0	325
كاستامونو	737	21	9	0	0	767
بولو	399	5	3	1	0	409
قيصرية	184	27	50	2	0	263
ايسكيسيهير	141	3	9	0	1	153
أنقرة	877	20	52	6	1	956
قونية	751	25	13	0	0	789
أنطاليا	236	12	1	1	0	249
نجة	227	58	5	1	0	291
إيسيل	102	3	0	0	0	105
أضنه	342	9	53	8	0	411
طرابزون	921	162	39	1	0	1123
كانيك	266	99	27	1	0	393
العزیز	446	1	80	11	0	538
سيواس	940	75	147	7	0	1169
ديار بكر	492	2	66	58	2	620
أرضروم	673	5	134	3	0	815
بيتليس	310	0	118	10	0	438
فان	179	0	68	11	1	259
ماراس	153	0	32	7	0	192
أورفا	149	0	17	4	1	171
حلب*	244	7	20	12	1	284
الإجمالي	12941	1549	1204	176	128	15997

* الجزء الأناضولي وحده.

المصادر : حسابات بالاستناد إلى كمال كريات. السكان العثمانيون مصدر سبق ذكره. وإيتال كينه، تركيا الاسيوية مصدر سبق ذكره.

الجدول VI. 5

معدل الزيادة السنوية لسكان الإمبراطورية العثمانية من عام 1881 إلى عام 1914
أرض تركيا الحالية

(^{0/100})

الفترة	مسلمون	يونانيون	أرمن	مسيحيون آخرون	يهود	غير مسلمين	الإجمالي
* 1906 - 1881	12,0	15,3	4,8	- 3,4	14,0	9,8	6,1
1914 - 1906	14,0	4,4	13,9	- 7,6	11,2	7,5	12,7
* 1914 - 1881	12,6	11,9	7,6	- 4,7	13,1	9,1	11,9

* لحساب هذا المعدل ، اتخذت سنة 1888 سنة إحصاء.

المصدر : الجدول VI. 4

الجدول VI. 6

نسبة غير المسلمين في الإمبراطورية العثمانية عند منطف القرن التاسع عشر
أرض تركيا الحالية

الإقليم	1881	1906	1914
استانبول	48,4	41,4	38,4
تركيا الأوروبية	61,0	56,9	45,0
الاناثاقسول	16,0	16,3	16,6
الإجمالي	20,6	19,9	19,1

المصدر: انظر الجدول 4 . VI .

الجدول ٧١. 7

التعليم المدرسي في ولاية أزمير بحسب المحافظة الدينية في أواخر القرن التاسع عشر

التعليم الثانوي		التعليم الاولي		
نسبة البنات إلى كل مائة من البنين	معدل الالتحاق (%)	نسبة البنات إلى كل مائة من البنين	معدل الالتحاق (%)	
5 59	5,7 6,6	0 53	17,8 98,0	مسلمون غير مسلمين *

* الأرشيفات اليونانية خاصة.

المصدر : فيثال كينيه ، تركيا الأسبوعية مصدر سبق ذكره.

الجدول 8. VI

أربعة تقديرات للفصايا الأرمن لترحيلات عام 1915
(بالآلاف)

المصدر	أربعة تقديرات *	يوهان ليسيوس **
السكان الأرمن قبل الترحيل	1600 إلى 2000	السكان الأرمن قبل الترحيل
اللاجئين إلى حلب ودمشق ولبنان والهند اللاجئين إلى أجزاء أخرى من تركيا اللاجئين إلى القوقاز الروسية الأرمن في المراكز التي فتحتها الروس اللاجئين إلى سالة (فارس)	486 300 183 12 9	اللاجئين حتى حدود صحراء شبه الجزيرة العربية المتحولون إلى اعتناق الإسلام في تركيا اللاجئين إلى القوقاز الروسية والإسكندرية
إجمالي اللاجئين	990	إجمالي اللاجئين والمسلمين
غير المبعدين عن اسطنبول وأنزير	150	غير المبعدين عن اسطنبول وأنزير
إجمالي الناجين	1140	إجمالي الناجين
إجمالي الفصايا المتوسط	460 إلى 860 660	إجمالي الفصايا المتوسط
		799 - 849
		205
		594 - 644
		150 - 200 200 244
		1845
		996 - 1046 1021

المصادر : * أرزك تونين، الكتاب الأزرق مصدر سبق ذكره.
* يوهان ليسيوس، أرشيفات إبانة الأرمن، باريس، باريس، 1986.

جوستين مارك كارثي ***		* كامران جوردن	
1465	السكان الارمن قبل الترحيل ***	1300	السكان الارمن قبل الترحيل
225 50 30 35 400 20 48 3	المهاجرون إلى البلدان العربية - إلى إيران - إلى فرنسا - إلى الولايات المتحدة وكندا - إلى روسيا - إلى بلغاريا - إلى اليونان وقبرص المهاجرون إلى بلدان أخرى	225 50 35 35 420 15 45 50	المهاجرون إلى البلدان العربية - إلى إيران - إلى فرنسا عام ١٩٢١ - إلى الولايات المتحدة وكندا - إلى روسيا - إلى بلغاريا - إلى اليونان وقبرص المهاجرون إلى بلدان أخرى
811	إجمالي المهاجرين بعد الحرب	875	إجمالي المهاجرين بعد الحرب
70	الارمن في تركيا ***	124	الارمن في تركيا عام 1927
881	إجمالي الناجين	999	إجمالي الناجين
584	إجمالي الضحايا	301	إجمالي الضحايا
		703	الارمن المرحلون في عام 1916

المصادر : * كامران جوردن، الملف الارمني مصدر سبق ذكره.
 * جوستين مارك كارثي، المسلمون والاقليات مصدر سبق ذكره.
 * * * * * تون اسطنبول تركيا الازمنية (104000 قبل 1914).
 * * * * * في اسطنبول خاصة.

الجدول VI. 9

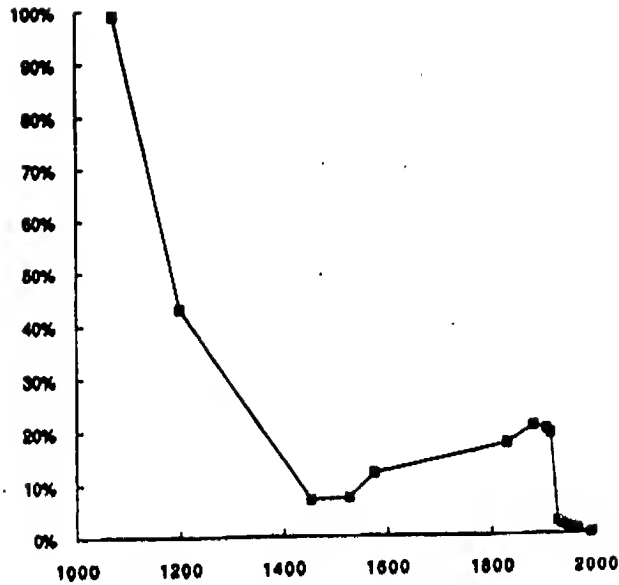
سكان جمهورية تركيا (بألف)

السنة	1914	1927	1935	1945	1955	1965	1991
المسلمون	12941	13290	15851	18511	23810	31139	56860
اليونانيون	1549	110	125	104	87	76	8
الارمن	1204	77	61	60	60	64	67
السيحيون الآخرون	176	71	41	38	62	74	50
اليهود	128	82	79	77	46	38	20
الإجمالي	15997	13630	16157	18790	24065	31391	57005
نسبة غير المسلمين (%)	19.1	23.5	9.9	5.9	14.1	8.9	2.9
البيانات من الجنسية الهولندية	N. D.	26	18	14	12	10	N. D.

المصادر : من عام 1914 إلى عام 1965، التعدادات الشامية والتركية والكنيسة الإحصائية السكانية؛ 1991، تورمان هودنز، دليل إلى الكنائس المسيحية في الشرق الأوسط، ميغان فوكس، بلا تاريخ، اليهود، إخبارية شخصية مقدمة إلى المؤلفين.

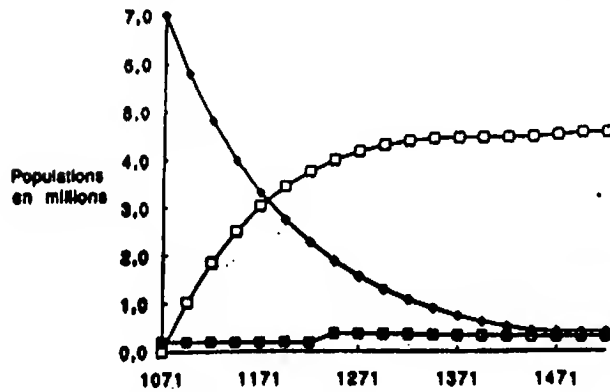
الشكل V1.1

نسبة غير المسلمين في تركيا
(من عام 1071 إلى أيامنا)



الشكل V1.2

التحويلات إلى اعتناق الإسلام في الأناضول (1071 - 1520)



● Turcs, Turcomans, Persans, Mongols □ Convertis + Chrétiens

Hypothèse : 1 non-musulman sur 7 se convertit dans chaque génération.

حواشي الفصل السادس

- 1- L'Anatolie, dont les contours varièrent avec le temps, s'entend ici comme la Turquie d'Asie actuelle (Arménie et Kurdistan compris).
- 2 - Huit millions selon Speros VRYONIS, *The Decline of Medieval Hellenism in Asia Minor and the Process of Islamization from the 11th through the 15th Century*, University of Carolina press, Berkeley, 1971; sept millions selon Josiah Cox RUSSELL. Voir aussi Speros VRYONIS, "Religious Change and Continuity in the Balkan and Anatolia from the 14th through the 15th Century", in *Islam and Cultural Change in the Middle Ages*, Speros VRYONIS (ed.), Otto Harrassowitz, Wiesbaden, 1975.
- 3 - Partie européenne de l'Empire ottoman.
- 4 - V. L. MÈNAGE, "The Islamization of Anatolia", in Nehemia LEVIZION (ed.), *Conversion to Islam*, Holmes and Meier Publishers, New York, 1979.
- 5 - Avant Mentzikert, les Seldjoukides avaient hésité entre deux proies: l'Egypte hérétique des Fraticides, et ;l'Empire byzantin des infidèles. Voir Jean- Paul ROUX, *Histoire des Turcs*, Paris, Fayard, 1984.
- 6 - Marco POLO, *Le Devisement du monde. Le livre merveilles*, Paris, La Découverte, 1980.
- 7 - Bernard LEWIS, *Istanbul et la civilisation ottomane*, Paris, Lattès, 1991.
- 8 - Claude CAHEN, art. "Dhimma", *Encyclopédie de l'Islam*, 2^e édition, Paris, 1960.
- 9 - Grecs, Arméniens et Arabes sont les principales.
- 10 - Josiah Cox RUSSELL, "The Population of the Crusader States", in Kenneth SETTON, *History of the Crusades*, vol. V, Londres, The University of Wisconsin Press, 1985, estime qu'en l'année 1200 la population chrétienne de l'Anatolie était de 3 millions et la population turque de 4 millions.
- 11 - François TAESCHNER, art. "Anadolu", *Encyclopédie de l'Islam*, op. cit.
- 12 - A l'apparition des premiers mouvements nationalistes, au tournant du xx^e siècle, certains revendiquèrent un monde turc englobant tous les peuples d'origine ethnique turque de l'Asie centrale à la Méditerranée, d'autres un monde touranien englobant tous les peuples de langue turque.
- 13- Feroz AHMAD, "Unionist Relation with the Greek, Armenian, and Jewish communities of the Ottoman Empire, 1908-1914", in Benjamin BRAUDE et Bernard LEWIS, *Christians and Jews in the Ottoman Empire*, New York, Holmes & Meir Publishers, 1982.
- 14 - "Le mélange de vérités, de demi-vérités et d'erreurs (sur l'origine du peuple turc) fut proclamé doctrine officielle et des équipes de chercheurs furent mises en place pour "prouver" les différentes affirmations "d'Atatürk",

- nous dit Bernard LEWIS, "History Writing and National Revival in Turkey", *Middle Eastern Affairs*, IV, 1953.
- 15- Ömer Lûtfi BARKAN, "Les Déportations comme méthode de peuplement et de colonisation dans l'Empire ottoman", *Revue de la faculté d'économie d'Istanbul*, tomes XI, XIII et XV, Istanbul, 1953.
- 16 - Ömer Lûtfi BARKAN, "La "Méditerranée" de Fernand Braudel vue d'Istanbul", *Annales, Economies et Civilisations*, n°2, Paris, 1954.
- 17- H.A. GIBBONS, *The Foundation of the Ottoman Empire*, Oxford, Clarendon Press, 1916.
- 18 - Speros VRYONIS, "Nomadization and Islamization in Asia Minor", *Dumbarton Oaks Paper*, 29, 1975. L.VROOMAN, "The Pre-ottoman Conquest of Asia Minor", *Muslim World*, 1931, mentionne un chiffre invraisemblable d'un million de Turcs aux frontières de Byzance, avant Mentzikert, entre 950 et 1000.
- 19- Claude CAHEN, *la Turquie préottomane*, Institut français d'études anatoliennes, Istanbul- Paris, 1988.
- 20 - Voir par exemple Marcel REINHARD, André ARMENGAUD, Jacques DUPIAQUER, *Histoire générale de la population mondiale*, Paris, Mont - chrestien, 1966.
- 21 - William MCNEIL, *population and Politics since 1750*, Charlottesville, University press of Virginia, 1990.
- 22 - Osman TURAN, "L'islamisation dans la Turquie du Moyen Age", *Studia Islamica*, n°10, 1959.
- 23 - H. A. GIBBONS, *The Foundation...*, *op. cit.*
- 24 - Claude CAHEN, "Le problème ethnique en Anatolie", *Cahiers d'histoire mondiale*, vol. II, n°2, 1954. Voir également son commentaire de Speros VRYONIS, "The Decline of Medieval Hellenism...", *op. cit.*, dans *International Journal of the Middle East*, n°4, 1973, où il lui reproche une sous- estimation des faiblesses de Byzance.
- 25 - Paul WITTEK, *La Formation de l'Empire ottoman*, Londres, Variorum Reprints, 1982.
- 26 - Marco POLO, *Le Devisement du monde...*, *op. cit.*
- 27 - IBN BATTUTA, *Voyages - II. De La Mecque aux steppes russes*, paris, La Découverte, 1990.
- 28 - Voir chapitre I.
- 29 - IBN BATTUTA, *Voyages - II. De La Mecque aux steppes russes*, *op. cit.*, et IBN KHALDUN, *La Muqaddima*, trad. de Vincent Monteil, Beyrouth, Publications de l'Université libanaise, 1968.
- 30 - Claude CAHEN, *La Turquie préottoman...*, *op. cit.*
- 31 - Speros VAYONIS, *The Decline of Medieval Hellenism...*, *op. cit.*
- 32 - W.C. BRICE, "The Turkish Colonization of Anatolia", *Bulletin of the John Ryland Library*, n°38, 1955- 1956.
- 33 - R. M. DAWKINS, "The Crypto- Christians of Turkey", *Byzantion*, n°8, 1933.
- 34 - Ces ordres originaires du Khorassan devinrent très populaires en Anatolie à partir du XIII^e siècle.

- 35 - Claude CAHEN, *La Turquie préottomane*, op. cit.
- 36 - Les Turcs musulmans qui cohabitaient avec les chrétiens jouissaient de certains droits: mosquée, soumission à l'autorité d'un juge musulman; Robert MANTRAN, *La Vie quotidienne à Istanbul au siècle de Soliman le Magnifique*, Paris, Hachette, 1990.
- 37 - Robert MANTRAN, *La Vie quotidienne à Istanbul...*, op. cit., et Bernard LEWIS, *Istanbul et la civilisation...*, op. cit.
- 38 - Hors l' "empire" de Trébizonde, qui survécut jusqu'en 1461.
- 39 - Dimitri KITSIKIS, *L'Empire ottoman*, Paris, Presses universitaires de France, 1985. pour Claude CAHEN: "Présenter l'Empire ottoman comme un empire gréco-turc est une vue un peu simpliste mais non dépourvue de réalité", Claude CAHEN, *La Turquie préottomane...*, op. cit.
- 40 - Voir chapitre V.
- 41 - Kemal KARPAT, "Millet and Nationality: The Roots of the Incongruity of Nation and State in the Post-Ottoman Era", in Benjamin BRAUDE et Bernard LEWIS, *Christians and Jews...*, op. cit.
- 42 - Bernard LEWIS, *Islam et Laïcité. La naissance de la Turquie moderne*, Paris, Fayard, 1988. Voir aussi Bernard LEWIS, "Some Reflexions on the Decline of the Ottoman Empire", *Studia Islamica*, 1959.
- 43 - Pour le xvi^e siècle, Ömer Lûtfi BARKAN, "Contribution à l'étude de la conjoncture démographique des pays méditerranéens au xvi^e siècle", *Actes de l'Union internationale pour l'étude scientifique de la population*, Londres, 1969. Pour le xix^e siècle, Kemal KARPAT, *Ottoman Population, 1830- 1914, Demographic and Social Characteristics*, Madison, The University of Wisconsin press, 1985.
- 44 - Robert MANTRAN, *Histoire de l'Empire ottoman*, Paris, Fayard, 1990, et Kemal KARPAT, "Millet and Nationality...", op. cit.
- 45 - Benjamin BRAUDE, "Foundation Myths of the Millet System", in Benjamin BRAUDE et Bernard LEWIS, *Christians and Jews...*, op. cit.
- 46 - Bernard LEWIS, *Islam et laïcité...*, op. cit.
- 47 - Il y a plusieurs interprétations du Coran, dont quatre codifiées: les rites hanbalite, malékite, chaféite et hanéfite.
- 48 - Bernard LEWIS, *Islam et laïcité...*, op. cit.
- 49 - Fernand BRAUDEL, *La Méditerranée et le monde méditerranéen sous Philippe II*, Paris, Armand Colin, 1966.
- 50 - Marcel REINHARD, André ARMENGAUD, Jacques DUPAQUIER, *Histoire générale...*, op. cit.
- 51 - Bernard LEWIS, *Istanbul et la civilisation...*, op. cit.
- 52 - Ömer Lûtfi BARKAN, "Les déportations...", op. cit.
- 53 - V.L. MÊNAGE, art. "Devshirme", *Encyclopédie de l'Islam*, op. cit.
- 54 - Voir chapitre V.
- 55 - Bernard LEWIS, *Islam et Laïcité...*, op. cit.
- 56 - Ömer Lûtfi BARKAN, "Contribution à l'étude de la conjoncture démographique des pays méditerranéens au xvi^e siècle", *Actes de l'Union*

- internationale pour l'étude scientifique de la population, Londres, 1969, ainsi que l'article "Defdar-i Khakanî", *Encyclopédie de l'Islam*, 1960, "Research on the Ottoman Fiscal Surveys", in M.A. Cook, *Studies in the Economic History of the Middle East*, Londres, Oxford University Press, 1970, et "Essai sur les données des registres de recensement dans l'Empire ottoman au xv^e et xvi^e siècle", in *Journal of the Economic and Social History of the Orient*, n°1, La Haye, 1958.
- 57- Cem BEHAR, *The 1300 (1883) and 1332 (1905) Tahrirs as Sources for Ottoman Historical Demography*, Bogaziçi University, Istanbul, s.d.
- 58- Suraiya FAROQHI, *Towns and Townsmen of Ottoman Anatolia*, Londres, Cambridge University Press, 1984.
- 59- Passé à quelques lieues d'Istanbul, le traité de Kutahya (1833) reconnaissait à Muhammad Ali la souveraineté sur la Syrie et la Cilicie.
- 60- Robert DAVIDSON, "Turkish Attitudes Concerning Christian-Muslim Equality in the XIXth Century", *American Historical Review*, LIX, 1954.
- 61- Paul DUMONT, "La période des *Tanzimat* (1839-1878)", in Robert MANTRAN, *Histoire de l'Empire ottoman*, *op. cit.*
- 62 - kemal KARPAT, *Ottoman Population 1830 - 1914*, *op. cit.*
- 63 - Le détail des recensements et estimations est dans Kemal KARPAT, *Ottoman Population 1830- 1914*, *op. cit.* Salaheddine Bey (1867), Ritter (1872-1874). recensement de 1881/1882- 1893, estimations de 1894, 1895, 1896, 1897, recensement de 1906- 1907, estimations de 1914.
- 64 - Entre 1906 et 1914, la province d'Edirne passa de 1,334 million à 631000 habitants à la suite de pertes territoriales. Notre reconstitution porte sur le territoire de 1914. Pour la province d'Alep, des estimations additionnelles furent tirées de Vital CUINET, *La Turquie d'Asie*, Paris, E.Leroux, 1896, afin de tenir compte des populations scindées, après la guerre, entre la Turquie et la Syrie.
- 65 - Voir chapitre V.
- 66 - Taux calculé avec 1888 comme année de référence du recensement de 1881/1882-1893 (recommandation de Kemal KARPAT dans, *Ottoman Population...*, *op. cit.*
- 67 - Robert MANTRAN, *Histoire de l'Empire ottoman...*, *op. cit.* Ce chiffre comprend, outre l'émigration grecque et arménienne, celle d'Arabes chrétiens.
- 68 - Sans les étrangers, en majorité chrétiens.
- 69 - Robert MANTRAN, *Histoire de l'Empire ottoman...*, *op. cit.*, et Kemal KARPAT, *Ottoman Population...*, *op. cit.* Sur 2 millions d'immigrants

musulmans, les trois quarts se sont installés dans la partie turque, le quart restant dans les provinces arabes: Syrie, Liban, Jordanie, Palestine, Irak. Sur les 300000 émigrés chrétiens de l'empire, les trois quarts proviendraient de Turquie, le reste des provinces arabes.

70 - La balance migratoire compensa la croissance naturelle plus faible des musulmans; c'est pourquoi la répartition confessionnelle changea peu.

71 - Plus de 52000 *Piyadé et Müsellem*, 10000 timariotes en service et 10000 valets qui leurs sont affectés, soit un total de 72000 militaires entre 1520 et 1535 in Ömer Lûtfi BARKAN, "Essai sur les données statistiques...", *op. cit.*

72 - Voir chapitre V et Kemal KARPAT, *Ottoman Population...*, *op. cit.*

73 - Kemal KARPAT, "Millets and Nationality...", *op. cit.*

74 - Arnold TOYNBEE, *Les Massacres arméniens*, Paris, Payot, 1916.

75 - Sur les capitulations, voir chapitre V.

76 - Alan DUBEN et Cem BEHAR, *Istanbul Households - Marriage, Family and Fertility, 1880 - 1940*, Cambridge, Cambridge University Press, 1991.

77 - Nassau SENIOR, *A Journal Kept in Turkey and Greece*, Londres, 1856, cité par Richard CLOGG, "The Greek Millet in the Ottoman Empire", in Benjamin BRAUDE et Bernard LEWIS, *Christians and Jews...*, *op. cit.* En outre, "l'avortement et la prévalence choquante d'un crime contre la nature parmi les musulmans" furent avancés par le consul d'Angleterre comme des facteurs significatifs de la faible croissance démographique chez les Turcs dans un passage de son rapport (qui fut expurgé plus tard dans la version imprimée officielle).

78 - En rapportant les enfants de moins de 10 ans aux femmes d'âge fécond (20 à 50 ans), on obtient un indicateur de la fécondité des dix années précédentes. Nous l'avons calculé pour chaque province de l'empire (1894) et mis en relation avec la proportion de non- musulmans. Les deux indicateurs sont en liaison positive étroite: corrélation pondérée égale à + 0,50.

79 - Dans les années 50, les Grecs commenceront à étudier le turc, Alexis ALEXANDRIS, *The Greek Minority of Istanbul and Greek-Turkish Relations 1918 - 1974*, Athènes, 1982.

80 - Benjamin BRAUDE et Bernard LEWIS, *Christians and Jews...*, *op. cit.*

81 - Bientôt trois Fois et demi, si l'on pense aux revendications présentées à la conférence de Sèvres par les Kurdes, qui réclamaient en Turquie le même territoire que les Arméniens.

82 - Justin MCCARTHY, *Muslims and Minorities, The Population of Ottoman Anatolia at the End of the Empire*, New York, New York University Press, 1983.

83 - Abdolonyme UBICINI et Pavet de COURTEILLE, *Etat Présent de l'Empire ottoman*, Paris, Dentu, 1876.

- 84 - Retrait des Russes, après le traité de Brest-Litovsk en 1918, de l'Arménie turque qu'ils occupaient depuis 1916; refus par le Sénat américain en 1920 de la proposition du président Wilson de créer un Etat arménien indépendant sous mandat américain, incorporant les quatre vilayets turques à forte population arménienne d'Erzurum, Trébizonde, Van et Bitlis; occupation de la Cilicie mise sous mandat français, puis retrait des troupes françaises en 1921.
- 85- Gérard CHALIAND et Yves TERNON, *Le Génocide des Arméniens*, Bruxelles, Editions Complexe, 1980.
- 86 - Arnold TOYNBEE, in *Livre bleu...*, *op. cit.*
- 87- Kamuran GÜRÜN, *The Armenian File - The Myth of Innocence Exposed*, New York, 1985. Au recensement de 1914, on avait dénombré 1,204 million d'Arméniens; le chiffre de 1,3 million tient compte de la croissance naturelle et du classement de 60000 Arméniens protestants dans la millet protestante.
- 88 - Arnold TOYNBEE, in *Livre bleu...*, *op. cit.*
- 89- Justin McCARTHY, *Muslims and Minorities...*, *op. cit.*, corrige simplement, à l'aide du modèle des "populations stables", les pyramides d'âges et les rapports de masculinité, dont déficience est habituelle de nos jours dans les pays en développement. L'intérêt de son travail réside en ce que les calculs sont faits par vilayet.
- 90 - Gérard CHALIAND et Yves TERNON, *Le Génocide des Arméniens*, *op. cit.*
- 91 - Toynbee et Lepsius n'avaient évidemment pas les moyens d'estimer le chiffre des convertis: leur conversion fait de ces derniers des Turcs et les soustrait à la statistique des minorités. Leurs descendants crypto-arméniens de la région d'Antioche sont encore officiellement musulmans, utilisent l'arabe comme langue parlée et paratiquent en secret, dit-on, la religion chrétienne.
- 92 - Gérard CHALIAND et Yves TERNON, *Le Génocide des Arméniens*, *op. cit.*, estiment de 1,2 à 1,5 million le nombre des victimes.
- 93 - Rapport du ministère ottoman de l'Intérieur au grand vizir du 7 décembre 1916, in Kamuran GÜRÜN, *The Armenian File...*, *op. cit.*
- 94- Proportion tenant compte des seules personnes qui risquaient la déportation, soit l'ensemble des Arméniens, à l'exception des résidents d'Istanbul et de Smyrne, et de quelque 200000 personnes qui s'étaient déjà réfugiées dans le Caucase russe.
- 95 - Kamuran Gürün estime les Arméniens réfugiés dans le Caucase et en Russie à 420000, soit deux fois plus que Toynbee (183000) ou Lepsius (244000). Il estime, d'après le recensement turc de 1927, à 124000 ceux qui sont demeurés en Turquie, chiffre supérieur à celui qui est présenté dans les tableaux de ce recensement, selon le critère de la religion (77000) ou celui de la langue (65000).
- 96 - Justin McCARTHY, *Muslims and Minorities...*, *op. cit.*
- 97 - *Ibid.*
- 98- Les massacres sont estimés par l'équation suivante: (Arméniens d'Anatolie en 1914) + (Arméniens d'Istanbul et de Turquie d'Europe en 1914) - (Arménines émigrés) - (Arménines d'Anatolie en 1927) - (Arménines

d'Istanbul et de Turquie d'Europe en 1927). Sans doute par inattention, MCCARTHY a oublié le terme (Arménines d'Istanbul et de Turquie d'Europe en 1914).

99 - Richard CLOGG, "The Greek Millet...", *op. cit.*, in Benjamin Braude et Bernard LEWIS, *Christians and Jews...*, *op. cit.*

100 - *Annuaire statistique de Turquie*, Ankara, 1930.

101 - Bernard LEWIS, *Le Retour de l'Islam*, Paris, Gallimard, 1985.

102 - Avant celui d' "Atatürk", le qualificatif préféré de Mustafa Kemal était "Ghazi" (vainqueur de la guerre sainte), en hommage à sa victoire contre les Grecs. En outre, "aujourd'hui encore dans la république laïque, le mot Turc est, selon une convention communément admise, appliqué aux seuls musulmans. Les citoyens non musulmans sont réputés citoyens turcs, mais ne se dénomment pas eux-mêmes turcs, et leurs voisins ne les désignent pas sous ce vocable. (...) L'immigrant non turc mais musulman acquiert, lui, très rapidement une identité turque"; in Bernard LEWIS, *Le Retour...*, *op. cit.*

103 - En 1923, ils étaient 250000 (estimations "brutes" du patriarcat grec orthodoxe de Constantinople); l'augmentation est vraisemblable du fait de l'installation de 38000 Grecs dans la ville sous occupation alliée. Ils furent attirés par le mirage de la "Grande Grèce".

104 - La population musulmane de Grèce, favorisée par sa forte fécondité, a moins décliné. Des 141000 musulmans dénombrés en 1940, il en restait 125000 vers 1980 (68% de Turcs, 22% de Pomaks et 18% de Tziganes). Sur les musulmans de Grèce, voir Panayote Elias DIMITRAS, "Minorités, un plus ou un moins pour la Grèce?", *L'Événement européen*, Paris, octobre 1991.

105 - Les Grecs helléniques ne différaient en rien des Grecs turcs, sauf par leurs ancêtres, originaires des provinces de l'empire incorporées à la Grèce après 1830.

106- La communauté arabe chrétienne fut victime à la fois de l'homogénéisation religieuse et linguistique et de la conjoncture politique; la cession à la Turquie en 1938 du *sandjak* d'Alexandrette, qui faisait partie de la Syrie sous mandat français, la poussa à l'exode.

107 - Alexis ALEXANDRIS, *The Greek Minority...*, *op. cit.*

108- Les spoliations s'étendirent même aux campagnes, voir Daniel PANZAC, "L'enjeu du nombre. La population de la Turquie de 1914 à 1927", *Revue des études méditerranéennes et sur le monde musulman*, n° 50, Aix-en-Provence, 1988.

109 - Bernard LEWIS, *Islam et Laïcité...*, *op. cit.* Sur les *dönme*, voir Edgard MORIN, *Vidal et les siens*, Paris, Seuil, 1988.

110 - Les non-musulmans de 18 à 45 ans qui furent enrôlés dans l'armée ont été cantonnés dans des camps spéciaux au cours de la Seconde Guerre mondiale.

111 - Lepsius aurait affirmé qu'Enver Pacha, Talaat Pacha et Djemal Pacha, les membres du triumvirat responsable des massacres arméniens de 1915, étaient en fait des athées, et qu le combat opposa des Turcs à des Arméniens et non des musulmans à des chrétiens. Voir *Mayrig*, film d'Henri Verneuil (1991).

112 - Selon l'expression d'Abraham LÈON, *La Conception matérialiste de la question juive*, Etudes et documentations internationales, Paris, 1968.

113 - Dans l'hypothèse d'une croissance naturelle alignée sur celle des chrétiens du Liban.

تعليقات الفصل السادس

- ١ - إن الأناضول، التي تبدلت حدودها مع الزمن، إنما تقهم هنا بوصفها تركيا الآسيوية الحالية (بما في ذلك أرمينيا وكوبستان).
- ٢ - ثمانية ملايين وفقاً لسيبيروس فريونيس، وسبعة ملايين وفقاً لجوسيا كوكس رسل.
- ٣ - الجزء الأودوي من الإمبراطورية العثمانية.
- ٥ - قبل ميتزنيكيرت، كان السلاجقة قد تردوا بين فريستين: مصر الفاطميين المتكثرة لمذهب السنة، وإمبراطورية الكفار البيزنطية.
- ٩ - كان اليونانيون والأرمن والعرب هم أهم هذه الأعراق.
- ١٠ - يرى جوسيا كوكس رسل أن سكان الأناضول المسيحيين كانوا يتألفون في عام ١٢٠٠ من ٢ ملايين نسمة، بينما كان السكان الأتراك يتألفون من ٤ ملايين نسمة.
- ١٢ - عند ظهور الحركات القومية الأولى، عند منطف القرن العشرين، نادت بعض الحركات بعالم تركي يشمل جميع الشعوب ذات الأصل العرقي التركي من آسيا الوسطى إلى البحر المتوسط، ونادت حركات أخرى بعالم طوراني يشمل جميع الشعوب ذات اللغة التركية.
- ١٤ - يذكر لنا برنارد لويس: «أن خليط الحقائق وأنصاف الحقائق والأخطاء» حول أصل الشعب التركي قد أعلن مذهباً رسمياً وجرى تشكيل فرق باحثين لـ «إثبات» مزاعم [أتاتورك] المختلفة.
- ١٨ - يذكر سيبيروس فريونيس رقماً لا يصدق هو مليون تركي على حدود بيزنطة، قبل ميتزنيكيرت، بين عامي ٩٥٠ و ١٠٠٠.
- ٢٨ - انظر الفصل الأول.
- ٢٤ - إن هذه الطرق المنحدرة من خراسان سوف تصبح جد شعبية في الأناضول اعتباراً من القرن الثالث عشر.
- ٢٦ - إن الأتراك المسلمين الذين تعايشوا مع المسيحيين كانوا يتمتعون بحقوق معينة: حيازة مسجد، والخضوع لسلطة قاض مسلم.
- ٢٨ - خارج «إمبراطورية» تريبيزوند، التي دامت حتى عام ١٤٦١.
- ٢٩ - يرى كلود كاهن أن: «تصوير الإمبراطورية العثمانية على أنها إمبراطورية يونانية تركية هو نظرة تبسيطية إلى حد ما لكنها لا تقتصر إلى سند من الواقع».
- ٤٠ - انظر الفصل الخامس.

٤٧ - هناك عدة تفسيرات للقرآن تعتبر أربعة منها مقننة: مذاهب ابن حنبل ومالك والشافعي وأبي حنيفة.

٥٤ - انظر الفصل الخامس.

٥٩ - إن معاهدة كوتاهية (١٨٢٣)، التي جرى التفاوض عليها على بعد عدة فراسخ من اسطنبول، قد اعترفت لمحمد على بالسيادة على سوريا وقيليقيا.

٦٤ - بين عامي ١٩٠٦ و ١٩١٤، انتقلت ولاية ادرنة من ١,٣٢٤ مليون نسمة إلى ٦٣١,٠٠٠ نسمة إثر خسائر إقليمية. وتتصل إعادة التركيب التي قمنا بها بارض عام ١٩١٦. وفيما يتعلق بولاية حلب، استخلصنا تقديرات إضافية من فيثال كينييه، «تركيا الآسيوية»، باريس، ١٨٩٦، حتى نأخذ بعين الحسبان الجماعات السكانية المقسمة، بعد الحرب، بين تركيا وسوريا.

٦٥ - انظر الفصل الخامس.

٦٦ - معدل محسوب يتخذ من سنة ١٨٨٨ سنة إحالة اعتماداً على تعداد ١٨٨١/١٨٨٢ - ١٨٩٣.

٦٧ - يشمل هذا الرقم، علاوة على النزوح اليوناني والأرمني، نزوح العرب المسيحيين.

٦٨ - بون الأجانب، وغالبيتهم من المسيحيين.

٦٩ - من بين مليونين من المهاجرين المسلمين، أقام ثلاثة أرباعهم في الجزء التركي، بينما بقى ربعهم في الولايات العربية: سوريا، لبنان، الأردن، فلسطين، العراق. ومن بين الـ ٢٠٠,٠٠٠ نازح مسيحي عن الإمبراطورية، جاء ثلاثة أرباعهم من تركيا، وجاء ربعهم من ولايات عربية.

٧٠ - عوض ميزان الهجرة نمو المسلمين الطبيعي الأضعف: وهذا هو السبب في أن التوزيع الطائفي لم يتغير كثيراً.

٧١ - أكثر من ٥٢,٠٠٠ من البياده والمسلمين، و ١٠,٠٠٠ تيماري في الخدمة و ١٠,٠٠٠ مساعد من الملحقين بهم، أي إجمالي ٧٢,٠٠٠ عسكري بين عامي ١٥٢٠ و ١٥٣٥.

٧٢ - انظر الفصل الخامس وكمال كريات، «السكان العثمانيون...» مصدر سبق ذكره.

٧٥ - حول الامتيازات، انظر الفصل الخامس.

٧٧ - علاوة على ذلك، نجد أن «الإجهاض والقلبة المزعجة لجريمة ضد الطبيعة بين المسلمين» قد جرى تقديمها من جانب قنصل إنجلترا كعاملين هامين للنمو الديموغرافي الضعيف لدى الأتراك في فترة من تقريره (تم تهنيتها فيما بعد في النسخة المطبوعة الرسمية).

٧٨ - عندما ننسب الأطفال الذين تقل أعمارهم عن عشر سنوات إلى النساء اللواتي في عمر الخصوبة (٢٠ إلى ٥٠ سنة)، نحصل على مؤشر لخصوبة السنوات العشر السابقة. وقد حسبناه بالنسبة لكل

ولاية من ولايات الإمبراطورية (١٨٩٤) وريطناه بنسبة غير المسلمين. ويعتبر المؤشران على ارتباط إيجابي وثيق: ارتباط متزن يساوي + ٥٠.

٧٩ - في الخمسينيات، بدأ اليونانيون دراسة التركية.

٨١ - وسرعان ما سوف تصبح محل اشتباه ثلاث مرات ونصف مرة، إذا ما أخذنا في اعتبارنا المطالب التي قدمت إلى مؤتمر سيلر من جانب الاكراد، الذين طالبوا في تركيا بذات الأرض التي طالب بها الأرمن.

٨٤ - انسحاب الروس، بعد معاهدة بريست - ليتوفسك في عام ١٩١٨ من أرمينيا التركية التي كانوا يحتلونها منذ عام ١٩١٦؛ رفض مجلس الشيوخ الأمريكي في عام ١٩٢٠ اقتراح الرئيس ويلسون الداعي إلى إنشاء دولة أرمنية مستقلة تحت انتداب أمريكي، تشمل ولايات أرومروم و تريبيزند وفان وبيتليس التركية الأربعة التي توجد بها جماعات سكانية أرمنية قوية؛ احتلال قيليقيا التي وضعت تحت الانتداب الفرنسي، ثم انسحاب القوات الفرنسية في عام ١٩٢١.

٨٧ - في تعداد عام ١٩١٤، كان عدد الأرمن ١,٢٠٤ مليون نسمة؛ ويأخذ رقم ١,٢ مليون بعين الحسبان النمو الطبيعي وإدراج ٦٠,٠٠٠ أرمني بروتستانت في المسلة البروتستانتية.

٨٩ - بمساعدة نموذج «الجماعات السكانية المستقرة»، تصحح جوستين ماك كارشي، «المسلمون والأقليات...» مصدر سبق ذكره، بشكل بسيط أهرام الأعمار وعلاقات الذكورة، والتي يعتبر تصورها معتاداً في أيامنا في البلدان النامية. وتكمن أهمية عملها في أن الحسابات قد أجريت بحسب الولاية.

٩١ - من الواضح أن توينبي ولييسبيوس لم تكن لديهما وسائل لتقدير عدد المتحولين إلى اعتناق الإسلام: فتحولهم يجعل منهم أتراكاً ويخرجهم من إحصاء الأقليات. ومن الناحية الرسمية ما يزال أحفادهم نورو الأصل الأرمني المستقر يعتبرون مسلمين، وهم يستخدمون العربية كلغة حديث، ويقال إنهم يمارسون الديانة المسيحية سرّاً.

٩٢ - يقدر جيران شاليان وإيف تيرنون، «إبادة الأرمن»، مصدر سبق ذكره، عدد الضحايا بما يتراوح بين ١,٢ مليون و ١,٥ مليون.

٩٤ - نسبة تأخذ في الحسبان مجرد الأشخاص الذين تعرضوا للترحيل، أي مجمل الأرمن، فيما عدا سكان إسطنبول وأزمير، ونحو ٢٠,٠٠٠ شخص كانوا قد لجأوا بالفعل إلى القوقاز الروسية.

٩٥ - يقدر كاموردان جوردون عدد الأرمن اللاجئين إلى القوقاز وروسيا بـ ٤٢٠,٠٠٠ نسمة، أي بأكثر مرتين من تقديري توينبي (١٨٢,٠٠٠) أو لييسبيوس (٢٤٤,٠٠٠). ووفقاً للتعداد التركي لعام ١٩٢٧، يقدر بـ ١٢٤,٠٠٠ نسمة عدد أولئك الذين ظلوا في تركيا، وهو رقم أعلى من الرقم الوارد في جداول هذا التعداد، وفقاً لمعيار الديانة (٧٧,٠٠٠) أو وفقاً لمعيار اللغة (٦٥,٠٠٠).

٩٨ - قدرت المذابيح وفقاً للمعادلة التالية: (أرمن الأناضول في عام ١٩١٤) + (أرمن اسطنبول وتركيا الألبانية في عام ١٩١٤) - (الأرمن النازحين) - (أرمن الأناضول في عام ١٩٢٧) - (أرمن اسطنبول وتركيا الألبانية في عام ١٩٢٧). ولا مرأى في أن ماكارتشي قد نسيت، بون قصد، حد (أرمن اسطنبول وتركيا الألبانية في عام ١٩١٤).

١٠٢ - قبل لقب «أتاتورك»، كان لقب مصطفى كمال المفضل هو «الغازي» (ظافر الحرب المقدسة)، الذي لقب به تحية لانتصاره على اليونانيين، وعلاقة على ذلك، فإن كلمة تركي، في الجمهورية العلمانية اليوم أيضاً، لا تنطبق إلا على المسلمين، وذلك وفقاً لعرف معترف به من الجميع. ويعتبر المواطنون غير المسلمين أتراكاً، لكنهم لا يسمون أنفسهم أتراكاً، ولا يسميهم جيرانهم بهذا الاسم. [...] أما المهاجر غير التركي ولكن المسلم فإنه يحصل بسرعة بالغة على هوية تركية؛ في برنارد لويس، «عودة الإسلام»، مصدر سبق ذكره.

١٠٣ - في عام ١٩٢٢، كان عددهم ٢٥٠٠٠٠ نسمة (تقديرات «إجمالية» للبطريركية الأرثوذكسية اليونانية في القسطنطينية)؛ وتعتبر الزيادة مرجحة بحكم إقامة ٢٨٠٠٠ يوناني في المدينة تحت احتلال الحلفاء. وقد اجتذبهم سراب «اليونان الكبرى».

١٠٤ - إن الجماعة السكانية المسلمة في اليونان، المحظوظة بحكم خصوصيتها القوية، قد اضمحلت على أية حال. فمن ١٤١٠٠٠ مسلم تم تعدادهم في عام ١٩٤٠، لم يبق غير ١٢٥٠٠٠ نحو عام ١٩٨٠ (٦٨٪ أتراك، ٢٢٪ بوماك و ١٨٪ غجر).

١٠٥ - إن اليونانيين الهيلينيين لم يكونوا يختلفون في شيء عن اليونانيين الأتراك، إلا من حيث أسلافهم، المنحدرين من ولايات الإمبراطورية التي أدمجت في اليونان بعد عام ١٨٣٠.

١٠٦ - كانت الجماعة العربية المسيحية ضحية في أن واحد لعملية تحقيق التجانس الديني واللغوي والسياق السياسي؛ وقد دفعها إلى النزوح التنازل لتركيا في عام ١٩٣٨ عن سنجق الإسكندرون، الذي كان جزءاً من سوريا في ظل الانتداب الفرنسي.

١٠٨ - لقد امتدت الاستيلاءات إلى الأرياف نفسها.

١١٠ - جرى عزل المسلمين الذين تتراوح أعمارهم بين ١٨ و ٤٥ سنة والمجندين في الجيش في معسكرات خاصة خلال الحرب العالمية الثانية.

١١١ - أكد ليسبيوس أن أنور باشا وطلعت باشا وجمال باشا، أعضاء الثلاثي الحاكم المسؤول عن مذابح الأرمن في عام ١٩١٥، كانوا في الواقع ملحدين، وأن المعركة كانت بين أتراك وأرمن لا بين مسلمين ومسيحيين.

١١٢ - بحسب تعبير أبراهام ليون.

١١٢ - بافتراض نمو طبيعي مواز للنمو الطبيعي لمسيحيي لبنان.

الفصل السابع

إسرائيل والديموغرافيا الفلسطينية

«يتحدد طابع دولة من الدول في المقام الأول بتركيبها الديموغرافى، بمستوى ووحدة سكانها».

أبا إيبان، وزير الشؤون الخارجية الإسرائيلية (١٩٦٦ - ١٩٧٤)، دافار، ٢٥ أغسطس ١٩٦٧، نقلاً عن صبرى جريس، العرب فى إسرائيل.

«لن هجرة يهودية كبرى إلى إسرائيل تواصل الاتساع، دون نمو ملحوظ لمعدل المواليد اليهود فى البلد، فسوف يكون محكوماً علينا بأن نصبح أقلية، حتى ولو أحبط جيشنا القومى تهديدات الديكتاتوريين العرب بالقضاء على إسرائيل. إن إهمال هذا الخطر يساوى قول: بعدى الطوفان».

ديفيد بن جوريون، رئيس وزراء إسرائيل (١٩٤٨ - ١٩٦٣)، هاريتز، ١٧ نوفمبر ١٩٦٧، نقلاً عن صبرى جريس، العرب فى إسرائيل.

البحر المتوسط ملاذ وممر. وبعد العرب، رست عدة شعوب على ضفته الجنوبية: الفرنجة، الأتراك، المغول، الفرنسيون من جديد، يصحبهم هذه المرة إيطاليون وأسبان ثم يهود. والحال أن الشعوب التى جاءت من أوروبا قد عادت إلى قارتها الأصلية، لأنها لم تكن مستعدة لتبنى لغة أو ديانة مضيفيها، ولم تكن مستعدة لقطع الصلات مع المتروبول. أمّا الشعوب التى جاءت من آسيا فهى تشكل اليوم بضع قطرات فى دماء مضيفيها. فما الذى سوف يحدث

اليهود الذين جاؤا إلى الشرق الأدنى في آن واحد من أوروبا ومن بقية العالم العربى، والذين لا متروبول لهم ؟ من الواضح أن من السابق لأوانه كثيراً استشفاف الخاتمة: إن المغامرة التي بدأت على مشارف القرن العشرين سوف تتكشف نتائجها في الأجل الطويل.

نزعة قومية خالقة للديموغرافيا

كان ثيودور هرتزل، مؤلف كتاب الدولة اليهودية والاب المؤسس للصهيونية، يحلم برسم مشروعه على خريطة فلسطين. وسعيًا إلى ذلك، دق باب حامى الأماكن المقدسة، السلطان عبد الحميد. ومتوهمًا ليونة في شخص محادثه العثماني - ألم يكن عمه قد منح لرعاياه المسيحيين في جبل لبنان مزايا شبه دولة (١) - تخيل أن يوسع الإمبراطورية التنازل عن جزء جديد من سلطتها.

لكن النواة اليهودية لم تكن آنذاك تملك وزن الموارنة. فهي تنحدر جزئيًا من بضع مئات من العائلات التي لم تغادر فلسطين قط والتي انضمت إليها في القرن السادس عشر فرع من الهجرة الكبرى التي قام بها مستبدلو إعادة الفتح الأسبانية. وفي عام ١٨٥٢، كان اليهود يشكلون ١٢٠٠٠ نسمة، أى ٤٪ بالكاد من سكان سناجق القدس وعكا ونابلس. وتلوح في الأفق بالفعل هجرة جديدة، تساعد على إغراء هذه النواة. وفي الربيع الأخير من القرن التاسع عشر، كان يوسع موجة أولى من القادمين غير المسلمين الإقامة في فلسطين حتى مع أن أكثر أحفاد عثمان إسلامًا [عبد الحميد الثاني] كان يحكم بيد يبدو أنها حديدية. وبالنظر إلى بعد اسطنبول، فمما لا مراء فيه أنه قد أسى تقدير حجم حركات السكان وأنه لم يول اهتمام يذكر للصفقات العقارية التي أدت شيئًا فشيئًا إلى نقل أرض العرب إلى اليهود.

وحتى قبل المؤتمر الصهيونى الأول، الذى عقد في بال في عام ١٨٩٧، كانت الجماعة السكانية اليهودية في سناجق القدس وعكا ونابلس الثلاثة قد بدأت تنمو عن طريق الهجرة وليس فقط بحكم نموها الطبيعي، الناشء عن ارتفاع معدل المواليد وانخفاض معدل الوفيات (الجدول VII.1). ويقدر اتساع الإضافة الأجنبية، سوف تصبح السناجق العثمانية الثلاثة فلسطين. فهذا الاسم الرومانى، الذى كان قد اختفى من الجداول الإدارى ومن الاستعمال العام منذ العصر العباسى (٢)، يصبح منذ ذلك الحين موعوداً بمستقبل سياسى عاصف. إن ٨٤٢٠٠ يهودى (٣) سوف يجتازون البحر المتوسط بين عامى ١٨٥٠ و١٩١٤، حيث يفعل ذلك ٤٤٠٠٠

منهم بعد عام ١٨٩٧، لكى يصلوا بشكل شرعى وسلمى إلى بلد لم يتسن للصليبيين اختراقه إلا بشكل عاصف.

على أن كثيرين سوف يواصلون الرحلة ويعودون إلى بلدانهم الأصلية. ويفعل ذلك البعض لأنهم لم تكن لديهم غير نية أداء الحج هناك، ويفعله البعض الآخر لأن الأرض المقدسة قد خيبت آمالهم. وهكذا فإن «معاودة النزوح» التى تزج كثيراً قادة إسرائيل اليوم، كانت ممارسة عادية بالفعل. والواقع أن ديفيد بن جوريون، رئيس أول حكومة لإسرائيل، قد بالغ فى تقدير تقلب مهاجرى ما قبل الانتداب البريطانى (١٩١٩ - ١٩٤٨) هؤلاء، فهو يرى أن ثمانية من كل عشرة أفراد كانوا يرجعون فوراً إلى أوروبا، أو كانوا يتجهون إلى أمريكا، فى الأسابيع أو الأشهر التالية لوصولهم. وبعد ذلك بقرن، فإن عديدين من اليهود السوفييت سوف يشقون طريقاً مماثلاً. والمحصلة أن ٢٣.٠٠٠ من المهاجرين فى العصر العثمانى سوف يستقرون فى فلسطين. وسوف يحصل كثيرون منهم على الجنسية العثمانية.

والحال ان وصول الموجتين الأوليين من اليهود، وهو عمل تأسيسى للاستيطان اليهودى فى ظل الانتداب، إنما يتميز بثقل سياسى أكثر مما يتميز بثقل ديموغرافى. فهاتان الموجتان لا تقدمان غير مساهمة متواضعة فى إعادة صوغ الخريطة العرقية. فالواقع أن فلسطين، بعيداً عن أن تكون البلد الخالى من البشر الذى تصوره أولئك المتجهون إلى صهيون، كانت فى واقع الأمر موطناً لجماعة سكانية عربية هامة. وعند نشوب الحرب العالمية الأولى، كان هناك ٦٠.٢٠٠ مسلم و٨١.٠٠٠ مسيحى، إلى جانب ٦٠.٠٠٠ يهودى، يحمل ٢٩.٠٠٠ منهم الجنسية العثمانية^(٤). وفى نهاية الأمر، فإن هذه الأرض كانت تشبه غيرها من الأراضى، فى الفسيفساء الطائفية للإمبراطورية التى يهيمن عليها الإسلام. وكان الوجود اليهودى فيها أقل رسوخاً مما فى العراق وفى اليمن، لكنه كان أكثر رسوخاً مما فى بقية سوريا (التاريخية).

وسوف يؤدى اختيار المعسكر الردى، معسكر دول وسط أوروبا، إلى انخراط العثمانيين فى صفوف خاسرى الحرب الكبرى (الحرب العالمية الأولى). وسوف يكون تقسيم الإمبراطورية المهزومة مصحوباً بالقضاء الوحشى، فى الأناضول، على الديانة السماوية الثانية، وبالإضعاف البطيء لها فى المشرق. فالجماعة المسيحية سوف تتحسر فى كل مكان لكن الإسلام سوف يؤكد حيويته الديموغرافية^(٥). باستثناء فلسطين التى تبخر منذ ذلك الحين ضد التيار، والتى يصبح الإسلام فيها، تدريجياً، ديانة أقلية. ولنتوقف قليلاً لنتساءل: لو كانت الإمبراطورية، التى يحكمها آنذاك رجال جماعة تركيا الفتاة، قد اختارت الوفاق الثلاثى بدلاً

من التحالف الثلاثي، أو لو كانت قد التزمت الحذر وظلت خارج المعسكرين، فهل كان يمكن أن تسمح باستقرار جسم غريب «كافر» وقوى في مدينة الإسلام المقدسة الثالثة، في اللحظة ذاتها التي كانت تسعى فيها إلى احتواء فيض جماعتها المسيحية؟ الأرجح أنها ما كان يمكن لها أن تسمح بذلك. إن القمع الذي ينزل على يهود فلسطين في ١٩١٤ - ١٩١٨ لا يسمح للشك بأن يحوم. ولم يكن لدى رجال تركيا الفتاة أي مبرر لأن يكيلوا بمكيالين، لأن يستخدموا معيارين مختلفين. فبحماسة واحدة سوف يستأصلون شائفة النزعتين القوميتين الأرمنية واليونانية، وسوف يحيدون النزعة القومية العربية، ويقاومون صعود النزعة القومية اليهودية. وتجد الصهيونية نفسها طريفة، شأنها في ذلك شأن جميع الحركات غير التركية وغير المسلمة المنشطرة عن المركز. والأرجح أن هذا الترحيل الجماعي والهروب إلى مصر سوف يؤدي إلى خسارة الجماعة السكانية اليهودية في فلسطين لنسبة ٤٠٪ من أعدادها خلال الحرب.

إن تصريح بلفور لعام ١٩١٧، والذي صدر في معمان العمل العسكري، معروف للجميع. فالتاج البريطاني، الذي لم يكن قد تم التنازل له عن أية صلاحية في الأقليم، يعد الحركة الصهيونية بخلق وطن قومي يهودي في فلسطين. وقد جرى التمسك بهذا التعهد؛ فهو يسمح ليهود عام ١٩١٨ الذين لا يزيد عددهم عن ٥٩٠٠٠ بأن يصبحوا الـ ٦٥٠٠٠٠ إسرائيليين الذين تضمهم الدولة العبرية، عند مولدها، في ١٤ مايو ١٩٤٨. وفي المقابل، فإن الألعاب البهلوانية العديدة التي تلجأ إليها بريطانيا العظمى بعد أن أصبحت قوة انتداب لا تنتقل إلى الأحفاد. فمن كتاب أبيض إلى آخر (١٩٢٢ و ١٩٢٩)، نسي العالم وساطتها المستحيلة في المواجهة بين النزعتين القوميتين العربية واليهودية. فبين الغالبية العربية والأقلية اليهودية، تبت لندن في النزاع مستلهمة الكتاب المقدس، ولكن بأسلوب بيلاطس البنطي لا بأسلوب سليمان.

إن زيادة السكان اليهود عشرة أضعاف تدين بالقليل جداً لنموهم الطبيعي وتدين بالكامل أوبالكامل تقريباً للهجرة. فعشية المحرقة النازية، وجد اليهود، المضطهدون في أوروبا، أن طرق النزوح إلى العالم الجديد مغلقة في وجوههم. وبفضل النشاط المكثف من جانب الحركة الصهيونية في أوروبا، حيث وجدت معاداة السامية أصداء متصاعدة، إن لم تكن في السلطة بالفعل، وبفضل رعاية سلطة الانتداب (البريطاني على فلسطين)، استقبلت سواحل فلسطين نحو نصف مليون من اللاجئين (اليهود). وهم لا يدفعون السكان الذين يمدون جنودهم في البلاد إلى الرحيل، لكن وصولهم الجماعي يخلق التوتر الحاد الذي سوف يؤدي إلى هذه النتيجة.

ومن هيرنان كورتيس (الفتاح الأسباني للمكسيك) الذي أحرق سفنه لكي يغرس رجاله إلى الأبد إلى البوير الذين دفنوا في الترانسفال ماضيهم الهولندي كمنبوذين فابتكروا لغة لهم، يضم التاريخ حشداً لا نهائياً من الأمثلة التي تؤدي فيها نواة من المهاجرين إلى إنشاء دولة. وفي هذا الإقليم، فإن ذلك هو ما فعله العرب ثم الأتراك. ولكن بفارقين دقيقين، إذا ما قارناهم باليهود: فالعرب الذين يفتحون الشرق الأدنى ثم المغرب، شأنهم في ذلك شأن الأتراك الذين يستولون على الأناضول، لم يكونوا قط جد عديدين ولم يسعوا إلى الانعزال هناك. على العكس تماماً، فقد قاموا في البداية بالتغلغل وقلبوا المؤسسات المحلية ثم اختلطوا بالسكان المحليين إلى أن أصبح الجميع في نهاية الأمر متشابهين. واليوم يعتبر الأناضوليون أنفسهم أتراكاً بينما يعتبر المغاربة أنفسهم عرباً. ولم يحدث شيء من هذا في فلسطين، حيث حل المهاجرون محل السكان السابقين.

ولا يمر ذلك دون مقاومة. لقد أشير كثيراً إلى «مسارعة كبار ملاك الأرض العرب إلى بيع ملكياتهم للمنظمات الصهيونية. [...]». وقد جرّت هذه المشتريات من جهة أخرى إلى مضاربة عقارية من أكثر المضاربات العقارية ربحية [...]». وهو ما يعني أن الصهيونيين قد اشتروا أرضهم المقدسة بثمن باهظ^(٦)، لكن الفلسطينيين لم يكونوا كلهم كبار ملاك ولم يراكموا كلهم أرباحاً. وتنهض حساسية قومية في آن واحد ضد استحواذ البريطانيين على السلطة واستحواذ اليهود على الأرض؛ ويثور الفلاحون وعوام المدن. على أن تمردات ١٩٢٠ - ١٩٢١ وثورة ١٩٣٦ - ١٩٣٩ لن تتجحا لا في الإطاحة بالانتداب البريطاني ولا في الإطاحة بهجرة الهجرة (اليهودية). ويترك السكان العرب المبادرة السياسية لكبار الإقطاعيين، وبعضهم جبناء، بينما يولى بعضهم الآخر وجوههم شطر هنتر. ويبعداً عن الأشكال المرئية للاحتجاج، لا يتأخر السكان عن الرد عن طريق الديموغرافيا.

إن معدلات مواليد ووفيات الجماعتين السكانييتين (الجدول VII. 2) ^(٧) التي تعد سلطة الانتداب لها بيانات سنوية تتميز بدقة مدهشة بالنسبة للعصر وللإقليم، تتميز ببعض السمات الكلاسيكية للديموغرافيا المتمايزة: تفوق النمو الطبيعي للعرب على النمو الطبيعي للقادمين الجدد، وذلك بالرغم من أن معدل الوفيات يعتبر أعلى بين الأرائل. لكن الأرقام لا تفصح عن كل جوهرها إلا إذا قارن المرء فلسطين بمحيطها العربي، الذي كان آنذاك أقل عرضة للخطر. فهي تبين أن الفلسطينيين، منذ زمن الانتداب، وبشكل غير واع دون شك، سوف يجدون في الواقع سلاحاً في العائلة الكثيرة العدد، فكما لو كانوا يريدون القبض على ذراع الميزان الذي يميل

لحساب اليهود، يرتفع معدل مواليدهم آنذاك، ثم يستقر بشكل ثابت، فوق كل قاعدة مألوفة. ففي أدنى مستوى له، في عام ١٩٤٢، يصل إلى ٠/٠٠٤٥، وفي ذروته، يصل إلى ٠/٠٠٦٠. (٨) ومع معدل مواليد وسطى نسبته ٠/٠٠٥٥، أي ٨ إلى ٩ أطفال لكل امرأة، فمن المؤكد أننا نجد أنفسنا أمام رقم قياسي عالمي آنذاك. أما العالم العربي - الإسلامي، وهو مزبغة معدلات إنجاب بالغة الارتفاع، فإنه يبدو أقل خصوبة بالمقارنة (مع فلسطين): ففي الفترة نفسها، يبلغ معدل المواليد ٠/٠٠٤٤ بين مسلمي مصر (١٩٤٤ - ١٩٤٨) و ٠/٠٠٤٠ في سوريا. بل إن الجزائر، التي سوف تتفدى نضالاتها التالية على معدل المواليد القوي، يتم تجاوزها (٠/٠٠٤٢ بين عامي ١٩٢٦ و ١٩٤٩ بين المسلمين). ومن ثم فإن الفلسطيني ينفصل آنذاك ولوقت طويل، عن جيرانه (٩). ومنذ ذلك الحين، يجري تحديث الترسانات في الشرق الأوسط، لكن هذا السلاح «التقليدي» هو السلاح الوحيد الذي لا يصبح عتيقاً: ففي غزة وفي الضفة الغربية، في أعوام ١٩٨٥ - ١٩٩٠، يظل معدل المواليد كما هو.

واليوم، تحكم دولة إسرائيل سكاناً يتألفون من ٦٤ مليون نسمة (أوائل عام ١٩٩٣): ٤٢ مليون يهودي و ٢٧ مليون عربي، حيث يتوزع هؤلاء الأخيرون إلى ٧٧٠٠٠٠ مواطن إسرائيلي و ١٩ مليون منحدري من الأراضي التي تم احتلالها بعد حرب ١٩٦٧: غزة، الضفة الغربية، القدس، الجولان (١٠). وبإيقاع معدلات النمو المتوقعة، سوف يكون بوسع العرب تجاوز اليهود نحو عام ٢٠١٠ في هذا الجزء من الأرض برمته. وحتى حرب ١٩٦٧، أدت آثار قانون العودة (١١) إلى تعويض فروق معدلات المواليد: إن رصيد هجرة قوامه مليون شخص بين عامي ١٩٤٩ و ١٩٦٧ يسمح في الواقع لليهود بالاحتفاظ بنسبتهم المتقدمة بين سكان إسرائيل: ٨٨٪. لكن الاحتلال الذي يختم الحرب يُنخلُ اختلال التوازن. فدفعة واحدة، ضمن الحدود الجديدة، تهبط نسبة اليهود إلى ٦٤٪. وعلى مدار السنوات التالية، يؤدي تواصل الهجرة اليهودية، من جهة، والنزوح الفلسطيني، صوب الخليج، من جهة أخرى، إلى التخفيف مجدداً من آثار تباين معدل المواليد. على أن هاتين الحركتين للهجرة سوف تجف ينابيعهما في الثمانينيات عندما تتأكد الأزمة الاقتصادية في إسرائيل وعندما تؤدي الصدمة البترولية المضادة إلى دفع أمراء الخليج إلى اختزال تشغيل (الفلسطينيين). وعندئذ يدخل النمو المتمايز إلى الساحة السياسية. وعلاوة على الإيمان برب واحد، يتفق الخصمان منذ ذلك الحين على شيء واحد على الأقل: إنهما يعترفان معاً بالملح الديموغرافي لنزاعهما ويواجهان الزمان معاً في الأراضي المحتلة.

إن السياسيين الإسرائيليين، «صقورا» كانوا أم «حمام»، قد نفخ كل منهم بدوره في أبواق أريحا. فالأكثر تشدداً بينهم يرون أن السيطرة العسكرية على الأرض تكفل جميع الضمانات. وسعيًا إلى تجنب أخطار المستقبل، يقترح البعض حلولاً جذرية. ومثال ذلك الحاخام كاهانا. فعشية موته الدامي، نادى بمقايضة ضخمة تهدف إلى طرد الفلسطينيين^(١٢). وهي مقايضة غير متكافئة : كل عرب إسرائيل والأراضي المحتلة في مقابل اليهود القلائل الموجودين في البلدان العربية. وهذه طبعة جديدة من المقايضة اليونانية - التركية التي شهدها عام ١٩٢٣^(١٣). لكن تفكير هذا السافونارولا المسلح يتوج تقليدًا متوارثًا منذ زمن طويل. ذلك أن شخصيات معتبرة، واشتراكية أحيانًا، كانت قد نادى «بانشاء فلسطين، على الأقل فلسطين غربية خالية من العرب [...] وما من سبيل هناك إلى ذلك غير نقل جميع العرب إلى البلدان المجاورة، نقلهم كلهم بعيداً عن هذا المكان. إذ لا يجب ترك قرية واحدة، ولا قبيلة واحدة»^(١٤).

أما الحمام، في المقابل، فقد أعربوا عن الفكرة بصوت عالٍ وقوى : إن دولة إسرائيلية تتجاوز بشكل زائد عن الحد الحدود التي عرفتها في عام ١٩٤٨ سوف تضطر عاجلاً أم آجلاً إلى سداد الحساب الديموغرافي لشتره توسعها الإقليمي. بل إن دعاة الحد الأدنى يريدون رد جميع الأراضي المحتلة، فيما عدا القدس، لاستعادة النقاء الأصلي والحفاظ على روح البؤرة (اليهودية)، وهو ما يفترض غلبة العنصر اليهودي وسير العمل المنسجم للعبة ديمقراطية لا تتعرض يوماً للإزعاج من جراء عدم إئعان معارضة عربية. وهم يقولون العودة، مع تعديلات طفيفة، إلى الأراضي المحددة في عام ١٩٤٨، التي تبلغ نسبة اليهود اليوم فيها ٨٥٪. على أن إسرائيل الصغيرة هذه يتقد في أحشائها ببطه اعتقال آخر: احتواء الغالبية اليهودية المكانية من جانب أقلية فلسطينية مستندة إلى سكان الدول العربية المجاورة.

العرب الإسرائيليون: نواة متعاظمة

^(١٥) يوم ميلادها، دخلت إسرائيل حراً مع جيرانها. وفي ختام المعركة، تشير المصادر إلى أن ما بين ٦٠.٠٠٠ و ٨٤.٠٠٠ فلسطيني قد رحلوا، لكن ١٥٦.٠٠٠ أفلتوا من الاضطراب إلى النزوح. وكان يمكن لقصة هؤلاء الناجين أن تكون قصيرة لو كان القمع الذي وصفه في عام ١٩٦٨ ناثان فاينشتوك، الكاتب الإسرائيلي اليساري المتشدد، بغضب بالغ الانتقاد، قد انتهى

إلى النجاح. فقد أشار إلى أن «السياسة الزراعية التي اتبعتها السلطات الإسرائيلية منذ عام ١٩٤٨ تجاه الأقلية العربية يمكن تلخيصها في كلمتين: «التهب المنهجي». ذلك أن جميع الإجراءات التي يمكن تخيلها - إصدار قوانين جديدة، التفسير التعسفي للترتيبات الحقوقية السابقة، التعسف العسكري - قد طبقت لتحقيق هذا الهدف. إن ٧٠٠٠٠ هكتاراً من أفضل الأراضي بين الـ ١١٠٠٠٠ هكتار التي كانت تخص الفلاحين العرب في عام ١٩٤٨ قد تم الاستيلاء عليها أو مصادرتها بحيل مختلفة. والنتيجة أن ٢٤٠٠٠ قروئ قد جردوا من أراضيهم^(١٦). لكن القصة سارت في اتجاه آخر غير اتجاه التلاشي.

إن هؤلاء المنسيين، الذين جرت تسميتهم بـ «العرب الإسرائيليين»، ينضمون إلى الجماعات الأخرى ذات الاسم المزدوج الذي يجمع بين شعوب أصبحت في عدااء متبادل: «اليونانيين العثمانيين»، الذين اختفوا الآن من التاريخ، و«الآرمن الأتراك» و«اليهود العرب»، الذين اختزلوا إلى مجرد قشرة. وهذا الوضع المزعج يعود عليهم بتحدٍ مزدوج، تحدى الإسرائيليين وتحدى العرب. فلما كانت الشكوك تحيط بهم لكونهم لم يختاروا طريق النزوح، فإنهم يصبحون أكثر عرضة لها بكثير بعد حصولهم على الجنسية الإسرائيلية. وحتى الآن فإنهم نادراً ما شاركوا في الرواية، لأن نيران الحاضر كانت تتأجج دائماً في ساحة أبعد: حول الحروب العربية - الإسرائيلية، وحول الدياسبورا الفلسطينية في الأردن وفي لبنان وحول أساليب كفاحها عبر العالم، وأخيراً حول الانتفاضة في الأراضي المحتلة. وولاء هؤلاء العرب الإسرائيليين تجاه الدولة الجديدة يبدو بلا نقیصة^(١٧). ومن المفارقات أن النبذ المزدوج الذي يتعرضون له، من جانب الإسرائيليين والعرب الآخرين، يشجع بقاء هذه الجماعة الصغيرة. فالواقع أن ديموغرافيتهم، المستفيدة من سياسة إدارة الظهر التي يتبعونها بحكمة، سوف تلقى مكاسب غير متوقعة.

إن جواز سفرهم الإسرائيلي - وهو مستند سفر لا يجوز استخدامه في البلدان العربية^(١٨) - يمنعهم في المقام الأول من النزوح. ومن المؤكد أنهم يجدون بذلك أنفسهم مخزّنين من السخاء الأميري الخليجي، لكن صغوفهم لا تتعرض للاختزال. ومنذ عام ١٩٤٨، يدل غياب أية هجرة على مد الجنود ويتعارض بشكل مدهش مع النزيف المتواصل الذي كان قد أوجد دياسبورا فلسطينية وصل عددها إلى ثلاثة ملايين ونصف مليون نسمة في عام ١٩٩٠^(١٩). وفي المقام الثاني، فإن نموهم الطبيعي يتجاوز بكثير النمو الطبيعي لليهود، حتى وإن كان لا يصل إلى مستوى النمو الطبيعي للفلسطينيين الآخرين. واستناداً إلى نظام رعاية

صحية يتميز بالكفاة، فإن متوسط العمر بينهم (٧٤٣ سنة)، جد القريب من متوسط العمر بين اليهود (٧٦٧ سنة)، يعتبر رقماً قياسيماً مطلقاً بين العرب. ومعدل وفياتهم (٠.٢٤٪) أننى مرتين من معدل وفيات اليهود (٢٠)، الذين يعتبر الهرم العمرى بينهم أكثر أهمية فى الأعمار الأكبر: وهى ميزة مكتسبة لوقت طويل، لأن الهرم لا يتحول إلا ببطء.

إن إنشاء إسرائيل قد قسم الفلسطينيين إلى جماعتين. وعلى مدار زمن طويل نجد أن القدرة على الإنجاب، وهى قدرة تتميز بمحددات اجتماعية عميقة، تتبع منحنيات متوازية. فحتى عام ١٩٧٠، ترتفع على حد سواء بين العرب الإسرائيليين، مع فارق واضح فى المستوى بين المسيحيين والمسلمين (٢١)، وبين عرب الضفة الغربية وغزة. ثم يحدث تباين: انخفاض سريع عند الأوائل وحدهم، خاصة عند المسيحيين. ويتمشى ذلك مع المخطط المؤلف: فانخفاض معدل الوفيات وارتفاع مستوى التعليم قد لعبا ببساطة دورهما (٢٢).

والواقع أن المسيحيين المتجاوبين منذ زمن بعيد مع النماذج الغربية، سوف يواصلون تقيد حجم أسرهم. وقد كانوا من بين أكثر العرب انخراطاً فى السيطرة على معدل المواليد. ويتجلى اختلافهم أولاً بزواج أقل تكراراً وأقل تبيكراً، والحال أن العزوبة المستمرة، التى تشجبتها الأخلاق الإسلامية، كانت بالفعل قَدَّرَ ١٥٪ من مسيحيى الأجيال المولودة فى ظل الانتداب. وقد تجاوزت الآن نسبة ٢٠٪. أمأً فيما يتعلق بسن الزواج، فإننا نشهد تلاقياً، حيث إن المسلمين يكادون يتزوجون فى عمر متأخر شأنهم فى ذلك شأن المسيحيين. كما أن ممارسات منع الحمل موزعة بين الطوائف. ففى عام ١٩٨٢، فى قرية شفرعام، فى الجليل، كانت الأسرة المثالية تتميز بحجم واحد تقريباً فى نظر المسيحيين أو المسلمين أو الدرؤز: ٣ أو ٤ أطفال. على أن الاتجاهات الفعلية كانت أكثر اختلافاً: إن ٤٠٪ من المسيحيين، فى مقابل ٢٥٪ من المسلمين ومن الدرؤز، يمارسون بالفعل منع حمل يهدف إلى الوقف النهائى للإنجاب (٢٣). ومنذ عام ١٩٨٦، ينقلب الاتجاه بشكل محسوس: فمعدل مواليد العرب الإسرائيليين يأخذ فى الارتفاع. ومن الناحية الظاهرية، فإن الظواهر التى كان من شأنها مواصلة العمل على تخفيضه لم تتغير مع ذلك. لنتوقف قليلاً أمام التباين الواضح بهذا الشكل. إن الإحصاءات تطبع فى الذهن دائماً تصوراً سياسياً للمجتمع. والإحصاءات الإسرائيلية تبرز الاختلافات فى الطائفة والأصل والوضعية. ومثلما تدرج فى جداول منفصلة اليهود المنحدرين من أوروبا والآخرين - المؤلفين فى غالبيتهم العظمى من يهود عرب - فإنها تقدم عرب البلد بحسب ظلال طوائفهم. وكان العثمانيون قد حسبوا بالفعل المسيحيين

والمسلمين بشكل منفصل. ولم تفعل إسرائيل غير مواصلة هذا التراث. لكن إفراز الدروز من بين المسلمين يعتبر بدعة، شأنه في ذلك شأن تمييز السكان المستقرين عن البدو الرحل (أقل من ٢٨٠٠٠)، وهو تمييز يختص بصفحات جميلة من مقدمة ابن خلدون. وأحياناً ما يجرى تسجيل الأصل العرقي نفسه، كما هو الحال بالنسبة للشراكسة (٢٠٠٠ نسمة)، وهم مسلمون منحدرين من القوقاز، وتم تعريبهم منذ زمن بعيد. وصحيح أن الدروز والشراكسة قد أدخلوا إلى الخدمة العسكرية، خلافاً للمسلمين الآخرين وللمسيحيين. وربما كانت الرغبة في تخفيف الاستقطاب اليهودي - العربي لحساب تكوين أكثر تركيياً تحرك الإحصائيين، لكن الميل إلى تمييز المسيحيين ربما كان ماثلاً أيضاً.

فمنح «وضعية خاصة للطوائف المسيحية لتمييزها عن الغالبية المسلمة بهدف الحيلولة دون قيام تنظيم عربي على المستوى الوطني^(٢٤)»، بناءً على اقتراح حزب الماباي العمالي، إنما يستمد إلهامه من الحرب الأهلية في لبنان، التي كانت، في نظر إسرائيل، مجرد تناحر بين الطوائف. وهذا يعني نسيان أن المسيحيين كانوا بين أوائل المحتجين على الهجرة اليهودية وأنهم كانوا دائماً على رأس الحركات الوطنية. وليس مما لا معنى له أن الفلسطينيين قد اختاروا، ليس فقط امرأة، بل ومسيحية، هي حنان عشرواي، لكي تدبر في الكواليس محادثات الصلح في نوفمبر ١٩٩١ في مدريد.

شغل أراضي إسرائيل

من الجزائر إلى تركيا، يتميز التاريخ الطويل للأقليات غير المسلمة في البحر المتوسط العربي والتركي بحوادث إعادة تجمع. والحال أن الميرر الاقتصادي والبحث عن الأمن كانا أكثر من مرة متجاوبين مع تركيز السكان المسيحيين واليهود تركيزاً أعلى باستمرار، ومع إعادة تجمعهم في المدن. وفي هذا الصدد، فإن تاريخ دولة إسرائيل الذي مازال قصيراً يعتبر نموذجياً. ذلك أنه لم يحدث من قبل قط أن اكتسبت حركات متدفقة من أركان الإقليم الأربعة مثل هذا التزامن.

وسوف يشهد العقد التالي لإنشاء إسرائيل وصول جميع اليهود العرب والأتراك كلهم تقريباً، من بغداد حتى جنوب المغرب الأقصى، ومن اليمن حتى اسطنبول: وهم يشكلون اليوم نسبة ٥٢٪ من سكان إسرائيل^(٢٥) (الجدول 3. VII). وغالباً ما يمر توجههم إلى المدينة دون

أن يلحظ أحد ذلك. ويعاد التفكير إلى حد ما في تاريخ الكولون (الفرنسيين). فالكيوتز الرائد كان فكرة للتجميع بأكثر مما كان واقعاً ميدانياً. والواقع أن ٦٦٪ من اليهود يتجمعون اليوم في ١٢٪ من الأرض (١٩٩٠). في مناطق حضرية أساساً: في الوسط، مراكز تل أبيب والقدس وريخوفوت وبتاح - تيكفا والرملة وعسقلان. فاليهود هناك يشكلون غالبية ضخمة (٩٨٪). وما أن يقادر المرء هذه النوى المدنية، حتى يقترب من العالم العربي وذلك في أن واحد من حيث المسافة، حيث إن هذه الأرض جد محدودة، ومن حيث تنوع الديانات.

وحتى داخل حدود إسرائيل المعترف بها، فإن إسرائيل قد تركت في الواقع الديموغرافيا العربية سيادة لمناطق الاتصال. إذ لا يقتصر الأمر على أن السكان اليهود في تلك المناطق أقل ضخامة (٧٩٪ في النقب) أو متساوين مع العرب (٥٠٪ في الجليل) (٣٦) وينمون بسرعة أقل من السكان العرب، بل إنهم يهجرون الاتساع الفعلي لها: إن ٧٠٪ من يهود الشمال (الجليل، حيفا، شارون) يتجمعون في عشرة مناطق صغيرة يصل عدد السكان في الواحدة منها إلى ٢٠٠٠٠ نسمة أو أكثر، في حين أن ٧٥٪ من العرب يتجمعون في جميع المناطق الصغيرة الأخرى، تلك التي يصل عدد السكان في الواحدة منها إلى أقل من ٢٠٠٠٠ نسمة. ولما كانت هذه الدساكر والقرى أكثر انتشاراً من المدن، فإن السكان العرب هم الذين يحتلون أعماق البلد (٣٧). ولا اعتبارات تتعلق بالأمن، كانت السلطة الإسرائيلية تريد الحيلولة دون التركيز العربي. والواقع أنها قد حققت عكس ما تريد: الحصار الديموغرافي.

إن مراكز الشمال السبعة، المتاخمة للبنان، تجمع شبه إجمالي غير اليهود المؤلف من ٧٧٠٠٠٠ نسمة (٣٨). وتحيا نسبة ٨٢٪ من العرب الإسرائيليين بين ناتانيا، التي لا تبعد عن تل أبيب إلا بمسافة ٢٠ كيلو متراً، وصفد المتاخمة للحدود اللبنانية. وفي عام ١٩٧٦، وفرزاً من اختلال التوازن الناشئ، دعت السلطة العامة إلى «تهويد الجليل». والحال أن تقرير كونيك، الذي يربط صعود النشاط السياسي للعرب بصعود ديموغرافيتهم، يتصور أولاً شكلاً مستتراً للنزوح العربي، «عن طريق تشجيع وزيادة مصاعبهم في العثور على عمل في إسرائيل وعن طريق تكثيف وجود قوات الشرطة في القطاعات العربية بهدف تخويفهم» (٣٩)، ثم تحدث عودة يهودية. ويتوجب حث هؤلاء اليهود على الكف عن احتقار هذا الجليل هاجوييم، جليل الأمم هذا الذي سمي بهذا الاسم في التوراة بسبب كثرة سكانه غير اليهود، الآراميين والفينيقيين. ومن ثم فإن التقرير يقترح أن يتم استيطان ٦٠٠٠٠ هكتار من الأراضي الجيدة، التي سوف تصادر من العرب. لكن ضعفها داخلياً وبولية متنوعة، وخاصة هذا «التمشوق» للأذهان الذي

كان الآباء المؤسسون لإسرائيل قد خافوا منه كثيراً، سوف تعرقل تهويد الجليل. ومنذ التعداد الأخير (١٩٨٣) يضم الجليل (أوائل ١٩٩٢) ١٩٢٠٠٠ نسمة من السكان الإضافيين؛ من بينهم ٩٣٠٠٠ عربى. وإن يتأثر الميزان الديموغرافى بالرغم من تدفق اليهود السوفييت نحو تلك المنطقة.

فما الذى سوف يكون عليه المستقبل؟ قبل أن نسأل الخرائط، يجب أن نراجع قصة التنبؤات الخاصة بالسكان. ففى إسرائيل كما فى بلاد أخرى، تعتبر التوقعات الديموغرافية فى أن واحد حسابية جد صارمة وانعكاساً للسيكولوجية الجماعية، والافتراضات الخاصة بالاتجاهات المستقبلية للإنجاب والهجرة هى التى تحدد النتيجة. لكن المتخصص يصوغها إما فى لحظة تقاؤل عام أو فى زمن انعدام لليقين. وعندما تحفل إسرائيل بذكرى مرور عشر سنوات على قيامها، فى عام ١٩٥٨، بعد عامين من انتصار سيناء الخاطف، نجد أن النبوة كانت نبوة استبشار، وارتياحاً إلى الهزيمة العسكرية التى لحقت بالرئيس جمال عبد الناصر، يصل المهاجرون جماعات، والحال أن الإنجاب اليهودى، جد المنخفض فى أوروبا أو فى أمريكا، يرتفع هنا مع وصول يهود العالم العربى. وتأخذ التوقعات الديموغرافية ذلك فى الحسبان. ومن ثم يجرى التنبؤ بنمو للسكان اليهود جد سريع من شأنه أن يؤدى إلى تراجع السكان العرب من ١١٪ فى عام ١٩٥٨ إلى ١٠.٤٪ فى عام ١٩٧٠. (٣٠)

وبعد ذلك بعشر سنوات، أدت حرب يونيو ١٩٦٧ إلى توسيع المساحة التى تسيطر عليها إسرائيل. ويضطر الديموغرافيون الإسرائيليون إلى إعادة النظر فى حساباتهم من جديد. فهم يتجنبون ضم كل سكان الأراضى المحتلة، لكنهم يضمون إلى سكان إسرائيل جماعتين سكانيتين عربيتين جديدتين، جماعة مدينة القدس العتيقة، التى تم الاستيلاء عليها من الأردنيين، وجماعة الجولان، التى تم الاستيلاء عليها من السوريين، وذلك قبل وقت طويل من الضم الرسمى لهاتين المنطقتين فى ١٩٨٠ و ١٩٨١. والأثر المباشر لإعادة التحديد الإحصائى هذه هو رفع نسبة العرب إلى ١٤.١٪، أما الأثر المتأخر فهو ضم قدرتهم على الإنجاب، جد المرتفعة آنذاك. ويكشف باحث ديموغرافى إسرائيلى عن المستقبل الجديد. إن انقلاب المنظورات مذهل: ففى أفق عام ١٩٩٣، سوف يكون العرب ٢٠.٦٪، أى أكثر من ساكنين بين كل خمسة من السكان (٣١). وفى وحدة الحساب نفسها، أى إسرائيل فى حدودها المعترف بها، فإن العرب، الذين كان تقاؤل حسابات عام ١٩٥٨ قد اختزلهم إلى ٩٪ فى عام ١٩٩٣، سوف يكونون فى الواقع ١٧٪، أى أكثر مرتين تقريباً (٣٢).

وقد نشأت مساجلة منذ غداة حرب ١٩٦٧ بين «أنصار التمسك بالأراضي» - أولئك الذين تعتبر الأراضي بالنسبة لهم، حتى وإن كانت مأهولة بالعرب، ضمانات لتفوق إسرائيل ومن ثم للسلم - والمدافعين عن «الغالبية الديموغرافية» - أولئك الذين يتوجب في نظرهم للسعى إلى تكوين جماعة سكانية يهودية إلى أقصى درجة ممكنة أن يحتفظ بلألويته. وتتميز هذه المساجلة النشرة التي سوف يكرسها دوف فريدلاندر وكالفن جولدشيدر لسكان إسرائيل، في ذات اللحظة التي يتخذ فيها الرئيس السادات خطوة واسعة تجاه الصلح (٣٣). وينكب الكاتبان على استعراض سيناريوهات مختلفة مؤطرة بافتراض قوى، هو افتراض أن تضم إسرائيل كبرى كل الأراضي المحتلة، وبافتراض ضعيف، هو افتراض إسرائيل صغرى لا تضم إليها غير القدس والجولان. وحتى في هذه الأرض الأخيرة، فإن الصعود العربي لا مفر منه: ١٨٢٪ في عام ١٩٩٠ و ٢١٢٪ في عام ٢٠١٠. وهكذا فإن عشرين سنة قد أدت إلى تهديد وهم التآكل العربي مع التاكيد من أن ما هو ماثل ليس أقل من قنبلة. وفي غمرة المفاوضات في كامب ديفيد، ينقل الإحصائيون إلى مناحم بيجين الرسالة الضمنية التي تدعو إلى التخلص من المكاسب الإقليمية. ومن ثم فإن واقعية العلماء وجهامة المتمسكين بإسرائيل كبرى سوف تؤثران على المفاوضات. «إن الحقائق الديموغرافية للحياة في إسرائيل وفي هذه الأراضي تحول إلى الأبد دون ضم أو دمج غزة والضفة الغربية في دولة إسرائيل» (٣٤).

وفي أواخر الثمانينيات، يخطط المسؤولون الإسرائيليون (٣٥) لتحقيق توازن لميزان الهجرة: فالقادمون لا يصلون إلا ببطء غداة عملية احتلال لبنان، المسماة بعملية «السلام في الجليل» (١٩٨٢)، وذلك إلى درجة أن عمليات الهجرة المضادة (النزوح) تصل إلى تجاوزهم منذ عام ١٩٨٥ (٣٦). إلا أنه بعد ذلك بوضع سنوات، يؤدي انهيار ما سمي بالشيوعية، في إثيوبيا ولكن خاصة في أوروبا الشرقية، إلى كسر حواجز أخرى. إن ١٨١.٠٠٠ مهاجر، من القلاشا وخاصة من السوفييت، سوف يقيمون في عام ١٩٩٠، وسوف يقيم ١٥١.٠٠٠ خلال عام ١٩٩١ ويصل ٧٧.٠٠٠ مهاجر فقط في عام ١٩٩٢، (ليس معروفاً كم من بينهم سيقوم بصفة نهائية في إسرائيل) (٣٧): أى أكثر من الذين أقاموا خلال السنوات الثلاث والعشرين السابقة منذ حرب ١٩٦٧ (١٩٦٧ - ١٩٨٩). ومستقبل الهجرة غير مؤكد. فهل سيواصل المهاجرون التدفق بهذا المعدل؟ وإلى متى؟ وكَم من سوف يبقون منهم بالفعل: الثلث كما حدث خلال العقد؟ وهل سوف يحافظون على معدل الإنجاب جد المنخفض الذي عرفوه في روسيا التي جاؤا منها؟

فى آخر التوقعات المنشورة (٢٨)، يرصد الديموغرافيون الإسرائيليون تيارات الهجرة الجديدة ويقدرّون أن ما بين ٥٠٠٠٠٠ و ٨٠٠٠٠٠ يهودى من الاتحاد السوفيتى السابق سوف يكون بوسعهم الاستيطان قبل عام ١٩٩٥. وفى عام ٢٠٠١، لابد أن عرب إسرائيل الصغرى سوف يتجاوزون عتبة المليون نسمة (٣٩). وسوف يمثلون عندئذ ما بين ١٦٪ و ١٧٪ من السكان، أى نسبة أعلى بشكل محسوس من اليوم، وذلك بالرغم من الهجرة اليهودية. وعلاوة على ذلك، فخلال السنوات العشر الأولى من القرن القادم، سوف يصبح الفلسطينيون الأغلبية فى الكيان الأوسع المؤلف من إسرائيل والأراضى المحتلة. والهجرة الجديدة، أى كان إيقاعها وحجمها، لن تؤثر عملياً على هذه النتيجة (٤٠).

والمكان ليس مشغولاً بشكل متجانس. وإذا ما وسعنا التوقعات إلى الذكرى المثوية لإنشاء إسرائيل، فى عام ٢٠٤٨، وهو أفق جد بعيد بالنسبة للباحث الديموغرافى، لكنه قريب على مستوى حياة بلد ما، فسوف نشهد احتداداً لتشوهات ترسم بالفعل (الجدول VII.4). وياقتراض عدم نجاح إعادة توزيع قسرية للمهاجرين الجدد فى تعديل هذه الاختلالات، فإن مجمل الشمال (٥١٠٠ كم^٢) - الجليل، مديرية حيفا ومركز شارون - سوف يرتد إلى تراثه التوراتى ليصبح «أرض الأمم». وعندئذ فإن العرب سوف يتجاوزون اليهود بدرجة طفيفة. وفى النقب، الذى تغطى اتساعاته الصحراوية أكثر من نصف إسرائيل (١٢٨٠٠ كم^٢)، يمكن للعرب أيضاً أن يلامسوا الغالبية. وفى الوسط، على مساحة تقل عن ٣٠٠٠ كم^٢، فإن مدن وأرياض تل أبيب والقدس وكذلك مناطقها الداخلية الأكثر قرباً منها تحتفظ وحدها بالتجانس الذى حلم به الآباء المؤسسون لإسرائيل، حيث تصل نسبة العرب إلى ٦٪.

وخلال الحملات الصليبية، فعلى هذه النقطة نفسها من الخريطة تركّز رهان رئيسى. وبعد بضع سنوات قليلة فقط من فتح القدس وإقامة المملكة اللاتينية فى شريط قريب من شريط إقليم الوسط الحالى فى إسرائيل، اضطر الفرنجة إلى كفالة أمنه والسيطرة، وصولاً إلى ذلك، على هذين الجناحين المتمثلين فى الجليل شمالاً والنقب جنوباً. ولابد للمقارنة أن تتوقف هنا. فخلافاً للفرنجة، وهم مستوطنون أيضاً، نجد، فى داخل حدود إسرائيل، أن غالبية فى الواقع هى التى تملئ قانونها على أقلية، وهذه وتلك يفصل بينهما تمايز أساسى فى الهوية.

لكن ديموغرافية إسرائيل تندرج ضمن دائرتين أوسع، الدائرة المحددة بحدود فلسطين

فى ظل الانتداب، والدائرة التى تشكل مجمل الشرق الأدنى، بل المجمل العربى - الإسلامى. وفى الدائرة الأولى، فإن اللعبة الديموغرافية محسومة سلفاً. وهى محسومة سلفاً فى الدائرة الثانية من باب أولى. إلا أنه هنا يتوجب على الجماعة الجديدة نيل الاعتراف بها. وقد سمحت الحرب لها بالعزلة، أما الصلح فسوف يفرض التبادل. وعندئذ فإنه لا مراء فى أن إسرائيل سوف يتعين عليها اكتشاف المورد الذى يمثله مواطنوها العرب. إن الطابع المختلط للأقاليم التى يشكلون نسبة متنامية منها، والمتصلة بالدول المجاورة، يمكنه أن يجعل منها مناطق عازلة مثلما يمكنه أن يجعل منها أماكن مرور. وغداً، بحسب ما يمكن أن يقرره السياسيون، فإنها سوف تشكل إما سوراً أو جسراً يربط أقلية شرقى البحر المتوسط اليهودية ببقية الفسيفساء الطائفية الشرقية.

جداول الفصل السابع

الجدول VII. 1

معدل الزيادة بحسب الطائفة في فلسطين (1860 - 1949)
(^{0/100})

السنة	مسلمون	مسيحيون	يهود	الإجمالي
1860	10,4	16,4	7,4	10,8
1882	10,8	21,7	21,1	12,2
1895	12,3	15,8	32,6	13,5
1905	23,7	17,7	87,1	26,8
1914	- 15,2	- 35,0	- 9,5	- 16,7
1918	12,1	19,7	119,6	23,2
1922	21,5	22,2	69,1	28,2
1931	24,7	37,8	156,2	54,6
1936	25,5	24,2	57,5	34,6
1939	30,5	29,8	39,2	33,1
1946	- 196,7	- 156,9	173,4	- 31,6
1949	30,9	3,0	53,7	43,7

المصدر : تعدادات التوزيع العرقية والدينية.

الجدول 2 . VII

معدلات المواليد والوفيات بحسب الطائفة (1924 - 1991)

(⁰/100)

معدل الوفيات				معدل المواليد				السنة
يهود	مسيحيين	دروز	مسلمون	يهود	مسيحيين	دروز	مسلمون	
12,6	16,8	19,3	29,9	38,3	40,4	39,0	55,5	1924
15,1	18,8	32,5	31,2	33,2	37,2	59,3	54,7	1925
12,1	17,9	34,9	28,6	36,0	40,0	55,0	60,2	1926
13,4	20,1	28,1	33,0	35,1	38,9	50,3	56,1	1927
12,1	18,9	21,0	35,1	35,4	40,4	45,6	60,9	1928
11,8	17,9	26,7	31,7	34,1	37,9	43,7	57,7	1929
9,6	16,2	19,2	27,9	33,4	39,0	45,0	60,3	1930
9,7	15,7	16,5	29,6	32,7	39,0	51,7	60,3	1931
9,7	15,9	22,3	26,3	29,2	36,4	43,7	49,0	1932
9,3	14,0	17,6	24,1	29,2	36,0	47,0	49,8	1933
9,5	16,2	31,0	26,7	30,0	33,5	41,8	46,6	1934
8,5	13,9	21,0	23,5	30,6	34,4	42,8	52,6	1935
8,8	12,6	20,1	20,0	29,7	36,2	51,0	53,1	1936
7,7	14,0	22,8	24,9	26,5	33,6	44,1	49,8	1937
8,1	12,5	16,8	18,7	26,3	34,4	42,4	47,2	1938
7,6	11,5	17,6	17,4	23,0	31,3	40,9	46,4	1939
8,2	12,2	18,1	24,7	23,7	31,1	50,8	47,4	1940
7,9	11,1	21,4	21,4	20,7	29,1	44,5	49,2	1941
8,6	12,1	18,4	19,9	22,7	27,8	35,1	45,2	1942
7,7	11,6	13,1	19,0	29,0	32,6	49,0	52,4	1943
7,1	10,1	17,5	17,3	30,2	31,0	44,6	53,7	1944
6,7	9,9	12,9	16,7	30,3	32,7	45,0	54,2	1945
6,4	9,1	17,0	15,9	29,1	33,3	47,0	54,2	1946

6,2				30,0				1947
6,7				26,3				1948
6,8		غير اليهود		30,0	غير اليهود			1949
6,5		9,5		33,0	43,2			1950
6,4		8,8		32,7	46,5			1951
6,8		11,5		31,6	45,6			1952
6,3	8,3	8,8	10,4	30,2	32,5	54,0	53,1	1953
6,4	9,4	9,2	9,8	27,3	33,6	48,0	48,8	1954
5,8	7,0	9,3	9,1	27,2	34,8	44,5	50,1	1955
6,3	8,1	8,7	9,8	26,7	33,8	47,1	51,7	1956
5,9	7,3	8,2	8,0	25,9	34,4	48,0	46,3	1957
5,8	6,9	6,8	6,4	22,5	34,9	46,7	51,7	1962
6,7	5,9	5,3	6,1	22,5	30,4	43,6	51,0	1967
7,3	7,0	5,3	5,8	24,3	26,9	42,7	49,5	1972
7,4	6,7		5,6	25,0	25,6		46,3	1975
7,1	6,3		4,9	25,1	25,5		47,0	1976
7,2	6,4	5,0	5,0	23,6	24,6	41,8	44,6	1977
7,2	6,0		4,7	22,3	23,7		42,6	1978
7,1	6,2		4,3	22,0	23,1		42,1	1979
7,2	6,1	4,4	4,2	22,0	22,1	39,2	38,9	1980
7,1	5,7	4,0	3,9	21,4	20,0	36,1	37,3	1981
7,4	5,9	4,0	3,8	21,8	20,3	36,0	37,3	1982
7,5	5,9	4,5	3,7	22,0	20,3	35,8	36,6	1983
7,3	5,8	3,6	3,7	21,6	19,2	32,7	36,0	1984
7,2	5,2	3,4	3,7	21,6	18,3	31,6	34,8	1985
7,5	5,6	3,4	3,4	21,2	22,0	30,8	33,8	1986
7,3	5,3	3,6	3,4	20,5	22,3	30,5	34,4	1987
7,2	5,4	3,1	3,5	20,2	22,1	30,5	35,5	1988
7,0	5,4	3,6	3,3	19,7	22,8	30,8	36,2	1989
6,8	4,8	3,4	3,2	19,4	22,2	31,0	36,8	1990
6,7	4,7	3,3	3,1	18,5	21,0	29,1	37,4	*1991

* المعدلات محسوبة عن الأشهر التسعة الأولى من عام 1991

المصادر: بالنسبة لفترة الانتخاب، جوستين ماك كارثي، سكان فلسطين.... مصدر سبق ذكره.

اعتباراً من عام 1948، مكتب الإحصاءات المركزي، الملخصات الإحصائية الإسرائيلية، القدس، 1950-1991.

الجدول 3 . VII

اليهود في البلدان العربية وفي تركيا نحو عام ١٩٤٨ وهجرتهم إلى إسرائيل (١٩٤٨ - ١٩٨٦)
(بالآلاف)

البلد	اليهود في عام ١٩٤٨	١٩٤٨ - ١٩٥١	١٩٥١ - ١٩٦٠	١٩٦٠ - ١٩٦٤	١٩٦٤ - ١٩٦٦	١٩٦٦ - ١٩٦٨	١٩٦٨ - ١٩٦٩	الاجمعي
تركيا ١٩٤٥	٧٧,٠	٣٤,٥	٦,٩	٤,٨	٩,٣	٣,١	٦٠,٤	
سوريا ١٩٤٨	٣١,٠	٢,٧	١,٩	٣,١	٠,٩	٠,٨	٨,٥	
لبنان ١٩٤٨	٥,٢	٠,٢	٠,٨	٠,٢	٢,١	٠,٦	٤,٠	
الأردن ١٩٤٨	٠,٢						٠,١	
العراق ١٩٤٧	١٢٠,٠	١٢٣,٣	٣,٠	٠,٥	٦,١	٠,٩	١٢٩,٤	
اليمن الشمالي ١٩٤٨	٤٦,٠	٤٥,٠	٠,٨	٠,٥	٠,١		٤٦,٤	
اليمن الجنوبي ١٩٤٨	٥,٠	٣,٣	٠,٤	٠,٢	٠,٣		٤,٢	
شبه الجزيرة العربية ١٩٤٨	٠,٢	٠,٢					٠,٢	
مصر ١٩٤٧	٦٧,٠	٨,٨	١٧,٥	٢,٢	٧,١	٠,٥	٣٠,٠	
ليبيا ١٩٤٨	٣٨,٠	٣١,٠	٢,١	٠,٣	٢,١	٠,٢	٣٥,٨	
تونس ١٩٤٦	٧٤,٠	١٣,٣	٢٣,٦	٣,٨	٧,٧	٢,١	٥٢,٢	
الجزائر ١٩٤١	١٣٠,٠	٣,٨	٣,٤	٩,٧	٣٠,٢	٢,١	٢٣,٧	
العرب الأقصى ١٩٤٨	٢٦٥,٠	٢٨,٣	٩٥,٩	١٠٠,٤	٣٠,٢	٧,٨	٢٦٥,٧	
الإجمالي العربي	٨٥٨,٦	٢٩٤,٤	١٥٦,٣	١٢٢,٩	٥٩,٣	١٨,١	٦٦٠,٦	
إجمالي المهاجرين		٦٨٦,٧	٢٩٤,٥	٢٢٨,٠	١٩٧,٨		١٢٥٠,٣	

المصدر: مكتب الإحصاءات المركزي، الهجرة إلى إسرائيل - ١٩٨٦، القدس: تقديرات السكان، الموسوعة اليهودية، مصدر سبق ذكره.

الجدول 4 . VII

أعداد وتوقعات السكان اليهود والعرب في إسرائيل بحسب الأقاليم الكبرى * (1948 - 2048)
(بالآلاف)

السنة	1948	1961	1972	1983	1990	1995	2000	2005	2010	2015	2020	2025	2030	2035	2040	2045	2048
الضغال																	
اليهود	228	602	780	937	1089	1273	1308	1339	1367	1391	1412	1430	1446	1458	1468	1475	1478
العرب	128	208	320	465	583	687	782	876	969	1059	1145	1225	1300	1368	1430	1485	1509
الوسط																	
اليهود	471	1252	1734	2182	2594	3085	3221	3352	3477	3597	3711	3820	3924	4023	4116	4206	4248
العرب	15	21	25	39	54	67	80	96	112	130	148	168	189	211	233	257	269
الجنوب																	
اليهود	1	79	171	231	264	304	308	311	313	315	315	315	314	312	310	307	306
العرب	13	18	30	44	72	88	104	121	139	158	178	198	219	239	260	281	291
الإجمالي																	
اليهود	700	1933	2685	3350	3947	4663	4838	5003	5158	5303	5439	5566	5683	5793	5894	5988	6032
العرب	156	247	375	548	708	842	966	1093	1221	1347	1471	1592	1708	1819	1924	2023	2069

* الشمال : محافظات الجليل وحيفا، مركز شافرن، الوسط : محافظة القدس وكل أيبب والوسط (باعدة شافرن) ومركز عسقلان، الجنوب : مركز بنر سبتع.

الجدول VII . 4 (تابع)

أعداد تقيعات السكان اليهود والعرب في إسرائيل بحسب الأقاليم الكبرى * (1948 - 2048)
(بالآلاف)

النسبة المتوزعة للعرب	1948	1961	1972	1983	1990	1995	2000	2005	2010	2015	2020	2025	2030	2035	2040	2045	2048
الشمال	36,0	25,7	29,1	33,2	34,9	35,0	37,4	39,6	41,5	43,2	44,8	46,1	47,3	48,4	49,4	50,2	50,5
الوسط	3,1	6,1	4,1	8,1	2,0	2,1	2,4	2,8	3,1	3,5	3,8	4,2	4,6	5,0	5,4	5,8	6,0
الجنوب	92,9	18,6	14,9	16,0	21,4	22,4	25,2	28,0	30,8	33,5	36,1	38,6	41,1	43,4	45,6	47,7	48,8
الإجمالي	18,2	31,1	12,3	14,1	15,2	15,3	16,6	17,9	19,2	20,3	21,3	22,2	23,1	23,9	24,6	25,3	25,5

* الشمال : محافظات الجليل وجنوب ووسط وشمال القدس وكل أيب والوسط (ماعدا شارون) ومركز عسقلان، الجنوب : مركز بئر سبع.

المصادر : تقيعات إجمالي السكان : حتى عام 2005، مكتب الإحصاءات المركزي، المنشورة الشهرية للإحصاءات، ملحق، أكتوبر 1991 (ماعدا القدس الشرقية والحولان بالنسبة

للعرب).

بالنسبة للفترة من عام 2010 إلى عام 2048، استقراء الاحتمالات الديمغرافية لمعدل الزيادة خلال فترة 1990 - 2005 .
بالنسبة لسكان الأقاليم، مكتب الإحصاءات المركزي، الملخصات الإحصائية الإسرائيلية، القدس 1991، استقراء تقيعات النسب.

حواشي الفصل السابع

- 1- La Moutassarifiya du Mont-Liban, voir chapitre V.
- 2 - Bernard LEWIS, "La Carte du Proche-Orient", *Le Débat*, n°58, Paris, 1990.
- 3 - Ces chiffres et les suivants de la période ottomane sont tirés de Justin MCCRATHY, *The Population of Palestine. Population Statistics of the Late Ottoman Period and the Mandate*, New York, Columbia University Press, 1990, et de Roberto BACHI, *The Population of Israel*, CICRED, Paris, 1974.
- 4 - Les chiffres sont contestés. Voir une fourchette:

Source	musulmans	chrétiens	juifs	dont juifs ottomans
Recensement ottoman	515 481	69 456	?	31 671
McCARATHY (rec. corrigé)	602 377	18 012	60 000	38 754
Bachi (sources diverses)	525 000	70 000	94 000	?

- 5 - Voir chapitre VIII.
- 6 - Nathan WEINSTOCK, *Le Sionisme contre Israël*, Paris, Maspero, 1969.
- 7- On trouvera ces taux par exemple dans Justin McCARTHY, *The Population of Palestine...*, *op. cit.*
- 8 - Peut-être plus encore si l'on tient compte d'un sous-enregistrement des filles à la naissance: 91,4 filles enregistrées en 1926 pour 100 garçons, au lieu d'une valeur normale de 95,3, d'où un taux de natalité probablement égal à 63,5 ‰.
- 9 - Voir chapitres IV et VIII.
- 10 - La statistique esraélienne agrège aux Arabes israéliens les habitants de Jérusalem- Est et du Golan. Ils sont au contraire confondus dans ce chapitre avec les populations des autres territoires occupés, car aucune annexion n'a été reconnue par la communauté internationale.
- 11 - Loi de 1950, offrant à tout Juif le droit d'immigrer en Israël, complétée en 1952 de la loi de la citoyenneté, qui permet à tout Juif immigré de devenir citoyen dès son arrivée.
- 12 - Georges DUSSAULT, "Israël: l'enjeu démographique", *L'Afrique et l'Asie modernes*, n°143, 1984-1985.
- 13 - Voir chapitre VI.
- 14 - M. J. Weitz, membre du parti gouvernemental MAPAMMAPI en 1967, déclaration faite à *Davar* (le quotidien officiel de la centrale syndicale Histadruth), 29 septembre 1967, cité par Eli LÖBEL, *Les Juifs et la Palestine*, introduction de Sabri GERIES, *Les Arabes en Israël*, Paris, Maspero, 1969.
- 15- 840000 selon Elias SAMBAR, *Palestine 1948. L'expulsion*, Les livres de la revue d'études palestiniennes, Washington, 1984; 750000 selon Georges

KOSSAÏFI, "L'enjeu démographique en Palestine", in Camille MANSOUR (éd.), *Les Palestiniens de l'intérieur*, Les livres de la revue des études palestiniennes, Washington, 1989. L'Israélien Roberto BACHI donne l'estimation la plus basse: 614000 à 626000, *La Population d'Israël*, op. cit.

16- Nathan WEINSTOCK, *le Sionisme...*, op. cit. Sur le même sujet, voir notamment, Sabri GERIES, *Les Arabes...*, op. cit., Camille MANSOUR (éd.), *Les Palestiniens de l'intérieur*, op. cit., et Charles KAMEN, "After the Catastrophe II: The Arabs in Israel", *Middle Eastern Studies*, janvier 1988.

17 - "Le comportement des Arabes, confie l'un d'eux, ne justifie pas les mesures de répression appliquées contre eux. La souveraineté de l'Etat d'Israël, les institutions publiques ou le pouvoir même n'ont jamais été mis en cause. Les Arabes d'Israël ont observé un calme presque total depuis qu'ils sont devenus citoyens de l'Etat d'Israël. Plus des trois quarts des votes arabes allaient aux partis sionistes: MAPAI, MAPAM, Akhduth Haavoda, Heruth, et même aux partis religieux juifs. Le MAKI (Parti communiste), qui défendait au grand jour les intérêts arabes, ne recueillait que le cinquième des voix. Le comble de l'ironie fut la prorogation du gouvernement militaire sur les Arabes, obtenu à l'aide des voix de parlementaires arabes." Sabri GERIES, *Les Arabes...*, op. cit.

18 - Sauf, depuis peu, pour accomplir le pèlerinage à La Mecque.

19 - Effectif des Palestiniens résidant hors des frontières du mandat (Israël, Gaza, Cisjordanie).

20 - Faible mortalité des Arabes israéliens, mais non égalité avec les Juifs.

<i>Mortalité infantile (0/100)</i>	<i>Juifs</i>	<i>Arabes</i>	<i>Surmortalité arabe</i>
1970 - 1972	16, 8	26, 1	55%
1980 - 1982	11, 0	22, 4	104%
1987	7, 8	15, 3	96%

Source: *Statistical Abstract of Israel*, n°41, Jérusalem, 1990

21 - Voir chapitre VIII.

22 - Au chapitre VIII, nous expliquons pourquoi ces facteurs n'ont pas joué dans les territoires occupés.

23 - M. Al-HAJ, *Social Change and Family Processes. Arab Communities in Shefar- A'm*, Boulder et Londres, Westview Press, 1987.

24 - Doris BENSIMON et Eglal ERRERA, *Israéliens, des Juifs et des Arabes*, Complexe, Bruxelles, 1986.

25- Sergio DELLA PERGOLA et U.O. SCHMELZ, "Residential Distribution Aspects of Immigrants Absorption in Israel", *Séminaire sur les phénomènes migratoires, l'urbanisation et la contre-urbanisation*, Amalfi, 1991.

- 26 - District du Nord, sauf le Golan. Dans le Nord au sens large (Galilée, Haïfa, Sharon), c'est-à-dire dans l'ensemble des districts où les Arabes sont fortement représentés, les Juifs sont 65%.
- 27 - Dans les localités de moins de 20000 habitants, on compte (fin 1990) 437000 Arabes pour 326000 Juifs.
- 28 - Sans Jérusalem- Est et le Golan.
- 29 - Doris BENSIMON et Eglal ERRERA, *Israéliens...*, op. cit.
- 30 - Benjamin Gil, *Projections of the Population of Israel (1955 - 1970)*, Jérusalem, 1958. Ce rythme de baisse supposait qu'en 1993 les non- Juifs seraient 9, 2%; à comparer avec les 17, 3% que trouvera Roberto Bachi pour la même année.
- 31 - Roberto Bachi, *The Population of Israel*, CICRED, 1974. En fait Bachi avait surestimé la croissance relative des Arabes: ils seront 15, 3% de la population d'Israël, de Jérusalem - Est et du Golan à la mi- 1993.
- 32 - 9%: extrapolation en 1993 de la projection de 1958; 17, 3%: chiffre projeté par Bachi en 1993, moins Jérusalem- Est et le Golan.
- 33 - Dov FRIEDLANDER et Calvin GOLDSHEIDER, *The Population of Israel*, Columbia University Press, New York, 1979.
- 34 - Nick EBERSTADT et Eric BREINDEL, *Realities behind Comp David: Demographic Aspects of Politics of Peace in the Middle East*, Center for Population Studies, Harvard University, Harvard, 1978.
- 35 - *Projection of Population in Israel up to 2010- Based on the Population in 1985*, Central Bureau of Statistics, Jérusalem, 1988.
- 36 - Sur une période plus longue, entre 1978 et 1989, Israël a enregistré 217000 immigrants pour une balance migratoire de 85000, soit 39%; Central Bureau of Statistics, *Monthly Bulletin of Statistics*.
- 37 - Central Bureau of Statistics, *Monthly Bulletin of Statistics*. Jérusalem, décembre 1991.
- 38 - Central Bureau of Statistics, *Monthly Bulletin of Statistics*. Jérusalem, octobre 1991.
- 39 - Le million pourrait être franchi plus tôt, car une sous- estimation entache ces projections, effectuées pourtant en 1991, au terme de six années de redressement continu de la fécondité arabe: elles tiennent compte de ce phénomène pour les chrétiens mais non pour les musulmans.
- 40- Dans l'ensemble formé par Israël et les territoires occupés, 500000 immigrants supplémentaires de l'ex- Union soviétique rejoindraient de 5 ans seulement la date du dépassement par les Palestiniens.

تعليقات الفصل السابع

١ - متصرفية جبل لبنان، انظر الفصل الخامس.

٤ - الأرقام محل جدل. وإليك نموذجاً للتباينات:

المصدر	المسلمون	المسيحيون	اليهود	من بينهم يهود عثمانيون
التعداد العثماني	515481	69456	?	31671
ماك كاثي (تعداد مصحح)	601377	81012	60000	38754
باشي (مصادر مختلفة)	525000	70000	94000	?

٥ - انظر الفصل الثامن.

٨ - ربما كان أكبر إذا ما أخذنا بعين الاعتبار انخفاضاً في تسجيل البنات عند الميلاد: ففي عام ١٩٢٦ جرى تسجيل ٩١٤ بنتاً في مقابل كل مائة ولد، وذلك بدلاً من قيمة عادية قدرها ٩٥٣، ومن هنا معدل مواليد من المرجح أنه يساوي ٠/٠٠٦٣.

٩ - انظر الفصلين الرابع والثامن.

١٠ - تضم الإحصاءات الإسرائيلية إلى العرب الإسرائيليين سكان القدس الشرقية والجولان. ونحن خلافاً لذلك نضمهم في هذا الفصل إلى سكان الأراضي المحتلة الأخرى، لأن الأسرة الدولية لم تعترف بأي ضم.

١١ - قانون عام ١٩٥٠، الذي يمنح كل يهودي حق الهجرة إلى إسرائيل، والمستكمل في عام ١٩٥٢ بقانون المواطنة، الذي يسمح لكل يهودي مهاجر (إلى إسرائيل) بأن يصبح مواطناً منذ وصوله.

١٢ - انظر الفصل السادس.

١٤ - م. ج. فايتس، عضو حزب المابام - الماباي الحاكم في عام ١٩٦٧، تصريح أدلى به لصحيفة «دافار» (الصحيفة اليومية الرسمية لاتحاد الهستادروت النقابي)، ٢٩ سبتمبر ١٩٦٧.

١٥ - ٨٤.٠٠٠ وفقاً لإلياس سنير و ٧٥.٠٠٠ وفقاً لجورج قصيفي. ويقدم الإسرائيلي ديبيرتو باشي التقدير الأكثر انخفاضاً: من ٦١٤.٠٠٠ إلى ٦٢٦.٠٠٠.

١٧ - «يذكر أحد العرب الإسرائيليين أن أسلوب العرب لا يبرر التدابير القمعية المتخذة ضدهم. فسيادة دولة إسرائيل والمؤسسات العامة أو السلطة نفسها لم تتعرض قط لتهديد. وقد راعى

عرب إسرائيل سكانية شبه تامة منذ أن أصبحوا مواطنين في دولة إسرائيل. وأكثر من ثلاثة أرباع أصوات العرب تنذهب في الانتخابات لأحزاب صهيونية: المايباي والماپام وأحزاب هاعقودا وحيروت، بل ولأحزاب دينية يهودية. أما حزب ماكي (الحزب الشيوعي)، والذي يدافع على الملا عن مصالح العرب، فإنه لم يحصل إلا على خمس أصوات (العرب). وتكمن نزوة المفارقة في تمديد الحكم العسكري المفروض على العرب، والذي تم التوصل إليه بمساعدة أصوات البرلمانيين العرب، صبري جريس، «العرب...» مصدر سبق ذكره.

١٨ - اللهم إلا لأداء فريضة الحج إلى مكة، والذي أجيئ منذ وقت قصير.

١٩ - عدد الفلسطينيين المقيمين خارج حدود الانتداب (أي خارج إسرائيل وغزة والضفة الغربية).

٢٠ - معدل وفيات العرب الإسرائيليين الضعيف، ولكن عدم التساوى مع اليهود.

معدل وفيات الأطفال (‰)	اليهود	العرب	تفوق معدل وفيات العرب
1970 - 1972	16,8	26,1	55%
1980 - 1982	11,0	22,4	104%
1987	7,8	15,3	96%

المصدر: الملخصات الإحصائية الإسرائيلية رقم 41، القدس، 1990.

٢١ - (انظر الفصل الثامن).

٢٢ - في الفصل الثامن، نشرح السبب في عدم تأثير هذه العوامل في الأراضي المحتلة.

٢٦ - المنطقة الشمالية، ما عدا الجولان، وفي الشمال بالمعنى الواسع (الجليل، حيفا، شارون)، أي في مجمل المناطق التي يعتبر العرب ممثلين فيها بقوة، تبلغ نسبة اليهود ٦٥٪.

٢٧ - في النواحي التي تضم الواحدة منها أقل من ٢٠٠٠٠ نسمة، نجد (في نهاية عام ١٩٩٠) ٤٢٧٠٠٠ عربي في مقابل ٢٢٦٠٠٠ يهودي.

٢٨ - لوز القدس الشرقية والجولان.

٣٠ - إن هذا الإيقاع للانخفاض يفترض أن غير اليهود سوف يمثلون في عام ١٩٩٣ نسبة ٩,٢٪؛ وتجب مقارنة هذه النسبة بنسبة الـ ٣,٢٧٪ التي يتوقعها روبرتو باشي بالنسبة للسنة نفسها.

٣١ - الواقع أن باشي قد بالغ في تقدير النمو النسبي للعرب، فهو يرى أنهم سوف يمثلون نسبة ١٥,٢٪ من سكان إسرائيل والقدس الشرقية والجولان في منتصف عام ١٩٩٣.

٣٢ - ٩٪: استقراء لما سيكون عليه الحال في عام ١٩٩٣ وهو مستمد من إسقاط لما كان عليه الحال في عام ١٩٥٨: ٣,٢٧٪ : رقم يتوقعه باشي بالنسبة لعام ١٩٩٣، ماعدا القدس الشرقية والجولان.

- ٣٦ - على مدار فترة أطول، بين عامي ١٩٧٨ و ١٩٨٩، سجلت إسرائيل ٢١٧.٠٠٠ مهاجر بالنسبة لميزان هجرة قدره ٨٥.٠٠٠، أي ٣٩٪.
- ٣٩ - من الممكن اجتياز المليون بسرعة، لأن تقديراً منخفضاً يشوب هذه التوقعات، التي أجريت على أية حال في عام ١٩٩١، في ختام ست سنوات من النهوض المستمر للخصوبة العربية : وهي تلخذ بعين الاعتبار هذه الظاهرة بالنسبة للمسيحيين، ولكن ليس بالنسبة للمسلمين.
- ٤٠ - في الكيان المؤلف من إسرائيل والأراضي المحتلة، أدى وصول ٥٠٠.٠٠٠ مهاجر إضافي من الاتحاد السوفيتي السابق إلى تأجيل التجاوز من جانب الفلسطينيين لمدة خمس سنوات فقط.

الفصل الثامن

الجماعة المسيحية فى القرن العشرين:

اضمحلال أم خسوف؟

«يتألف تاريخ العروبة من حلقات متصلة، ويشكل سلسلة مترابطة. وإذا ما أخذنا بعين الاعتبار أن رابطة اللغة والثقافة العرييتين فى هذه البلدان هى أوثق مما فى أى مكان آخر من العالم، وأن التسامح الدينى قد ولد وترعرع وقام دائماً بين المنتمين إلى مختلف الأديان فى البلدان الشقيقة المجاورة، فسوف يتأكد المرء من أن عبارتى - «المصريون عرب» - تتناسب مع صلات القربى هذه».

مكرم عبيد،

مناضل قبلى بحزب الوفد (١).

كانت الإمبراطورية العثمانية ملائمة لديموغرافيا الأقليات المسيحية واليهودية؛ لكن الفاصل الكولونيالى وخاصة الاستقلالات كانت غير ملائمة لها. فاليهود سوف يختلفون تقريباً من البلدان العربية تحت الضغوط المتعددة التى ستحيط بإنشاء إسرائيل فى عام ١٩٤٨. على أن أى تحول سياسى لن يتمكن من تمييز تاريخ الجماعة المسيحية الشرقية بالدقة نفسها. فهذه الجماعة لم تعرف لا المذابيح ولا عمليات الطرد التى أدت إلى محو الجماعة المسيحية من تركيا. فعلى العكس من ذلك، تبدأ فى الانقلاب بهدوء، لصالح المسلمين، الدينامية القديمة التى كان ثقل الجماعة المسيحية قد زاد بفضلها على نحو بطىء فى ظل السلطة الإمبراطورية. ومنذ الحرب العالمية الأولى، يلعب التقاء استثنائى دوره: التقاء معدلات الوفيات، وتلاحق معدلات الإنجاب والنزوح. وتصبح هذه السمات الكبرى للديموغرافيا المتميزة ذات أهمية حالية أيضاً.

تفتت الإحصاء وذبول الجماعات المسيحية

من بين جميع الدول العربية التي تحيا فيها الآن جماعة مسيحية، فإن مصر وحدها هي التي كانت توجد في القرن الماضي ضمن جودها الحالية تقريباً. وتسمح تعداداتها بتتبع تقدم الطوائف الثلاث منذ عام ١٨٨٢. وفي المقابل، في شرقي السويس، نجد أن خطوط الحدود، المألوفة اليوم، قد ولدت من تمزيق الإمبراطورية العثمانية، ثم من حرب ١٩٤٨ بين إسرائيل وجيرانها. وفي أماكن كثيرة، نجد أن التقسيم الإداري العثماني قد اقترن على نحو بالغ الدقة بخطوط التوزع العرقية - اللغوية أو الدينية. أما التقسيم الذي فرضته الدول المنتدبة فقد استجاب لاعتبارات عسكرية واقتصادية بدلاً من الاعتبارات السوسيوإقليمية؛ وقد اخترق الجماعات البشرية المتجانسة. وسعيًا إلى اقتسام مناطق النفوذ والأسواق والبترو، أعاد المهندسون البريطانيون والفرنسيون تشكيل الولايات العثمانية تشكيلًا جديدًا مختلفًا. على أن يوسع المرء مع ذلك إعادة تكوين صورة السكان للعصر في التقسيم الحالي بين الدول القومية (الجدول 1. VIII) بفضل التعدادات التي تتابعت من عام ١٨٨١ إلى عام ١٩١٤.

لقد جمعت الإدارة التركية حشدًا من البيانات إلا أنها لم تستشعر أية ضرورة لنشرها^(٦)؛ وهكذا ظلت صورة المجتمع سرًا. وأخيراً تؤدي أعمال عالم تركي معاصر^(٧) إلى كشف الستار عن هذه الأرقام التي رقدت في زوايا النسيان منذ ثلاثة أرباع قرن. وهي تصحح، بشكل جد محسوس بالنسبة لهذا الموضوع أو ذاك، الأرقام التي كانت الأدبيات قد روجتها حتى الآن، والتي ترجع كلها إلى مراقبين أوروبيين. فهؤلاء المراقبون، وهم أعضاء في جمعيات علمية أو ديبلوماسيون، كانوا على علم بوجود بيانات تركية، إلا أنهم لم يكونوا على علم بنتائجها المحددة. وبحكم التعاطف الشخصي، أو لمجرد أنهم كانوا يجدون بشكل أسهل مقدمين للمعلومات بين صفوف النخبة المسيحية، فقد كانوا ميالين غالباً إلى التهويل من ثقل الجماعة المسيحية^(٨). على أن البانوراما التفصيلية التي رسمتها البيانات العثمانية عشية الحرب العالمية الأولى هي آخر بانوراما تقدم صورة كلية لتوزيع الطوائف.

ولتوضيح هذا التوزيع وتقديم بانوراما معاصرة في نهاية القرن العشرين، كان يتعين على الدول القومية التي قامت على الأراضي العربية للإمبراطورية أن تستأنف العرف العثماني في إحصاء البشر بحسب ديانتهم. والحال أن بعض الدول تفعل ذلك، وبعضها الآخر لا يفعله.

وسوف يحتفظ العراق وسوريا بهذه العادة حتى صعود حزب البعث إلى السلطة في الستينيات: فالعلمانية التي يعلنها تزيل من الإحصاء كل إشارة طائفية. وفي لبنان، حيث يعتبر الدين المعيار الأساسي لتوزيع الأنوار السياسية والمهام الإدارية، فإن ما يجري تحريره منذ انتهاء الانتداب الفرنسي (١٩٤٢) هو مجرد إجراء تعداد، ذلك أن شفافية الأرقام قد أصبحت موضع رهان كبير. أما إسرائيل، جد الدققة في تحديد الانتماء الديني لرعاياها، فإنها تفقد الحرص على التفصيل بالنسبة للأراضي المحتلة منذ عام ١٩٦٧. وفي النهاية، فإن مصر والأردن وحدهما هما اللذان حافظا على تراث إحصاء طائفي (الجدول 2. VIII).

لقد كان فجر القرن العشرين العصر الذهبي بالنسبة للجماعة المسيحية العربية. وكشاهد على تأصل عميق وعلى إرادة في النهضة^(٥)، فإنها تسهم في تعزيز الفكرة الجديدة عن الأمة العربية. والواقع أن احتضار الإمبراطورية قد جر إلى احتضار جماعة مسلمة (أمة إسلامية) منظمة، كانت قد أبقت لزمن طويل على المسيحيين في وضعية الذميين المتناقضة: خضوع حقوقى مع صدارة اقتصادية وثقافية. وكان الخط الشريف لعام ١٨٣٩ وتنظيمات عامى ١٨٥٦ و١٨٦٧ قد استعادت منذ وقت قصير المساواة في الوضعية. لكن هذه الإصلاحات التي سرعان ما يلغها السلطان عبد الحميد سوف تسير في الاتجاه المضاد للهدف الأصلي منها وسوف تكون مصحوبة بتوترات. وفي قضاء عالم يتطلب إعادة صوغ له، يتقدم خليفتان رئيسيان. ولا يعد لا الأول ولا الآخر بمستقبل سار للجماعة المسيحية العربية: فالأول يخطط لبناء تركيا، والآخر يخطط لإعادة تنشيط الإسلام.

وفي مواجهة النزعة القومية التركية الوليدة، التي تحذف من مشاريعها التجديدية الأراضي العربية للإمبراطورية، وفي مواجهة الأصولية الإسلامية التي تستبعد من المناقشة غير المسلمين، تطرح الطبقة المثقفة المسيحية المشرقية أشكالا أخرى للتجمع القومى، إن بعض «أنصار النزعة العثمانية» سوف يحتفظون بتعلقهم بـ «الرجل المريض»، الذى يسعون إلى رد الحياة إليه؛ ومن هؤلاء، مثلاً، سليمان البستاني، الوزير وعضو الديوت العثماني^(٦). وفي نهاية القرن العشرين التي نعاصرها، والثرية بحالات التحرر من الأوهام فيما يتعلق بالدولة القومية في الشرق الأدنى، ربما تستعيد النزعة العثمانية شيئاً من فتوتها: إن عدداً من المثقفين المسيحيين أو اليهود المنحدرين من الإقليم يحيون في كتاباتهم إمبراطورية متعددة القوميات يحنون إليها^(٧). كما أن عدداً من النزعات القومية المنشطرة عن المركز، كالنزعة القومية اللبنانية أو الآشورية، إلخ، قد اكتسبت عدداً من الأنصار منذ نهاية الحرب العالمية الأولى.

وعلى نطاق أوسع، سوف يبرز عدد من الرواد الذين يعلنون تأكيداً لهوية جديدة عبر الارتباط باللغة المشتركة بين المسيحيين والمسلمين: وهكذا تولد «العروبة» بين الطائفتين بشكل متزامن. ويكتب المسيحي بطرس البستاني (١٨١٩ - ١٨٨٣): «يا أبناء العرب، فلتعلموا من شأن اللغة العربية وسوف يكتب لكم البقاء لقد كان العرب ملوكاً تحت الخيمة؛ فهل تصبحون عبيداً في قصوركم؟».

إن المكاسب التي كان يوسع الجماعة المسيحية الشرقية انتزاعها من صلاتها مع أوروبا، والانفتاح الاقتصادي، ومفهوم العصرية، لم تكن قد أدت بعد إلى الإساعة إلى علاقاتها ببيتها المسلمة. والواقع أن التدخل الفرنسي والبريطاني في شؤون الإقليم لم يكن يتميز آنذاك بالاتساع الذي سرعان ما سوف يتميز به في ظل الانتداب. وتستفيد الديموغرافيا المسيحية من هذا الوضع الملائم، ويصل ثقلها إلى أوج لم تعرفه قط منذ زمن الحملات الصليبية: ٢٦٤٪ من سكان الشرق الأدنى (سوريا ولبنان وفلسطين في عام ١٩١٤) و ٨٠٪ في مصر، ولكن مجرد ٢٢٪ في العراق حيث كان عدم التسامح المفلو، قبل ذلك بخمسمائة سنة، قد أدى إلى تهيمش الجماعة المسيحية بشكل لا يمكن علاجه. وفي هذا البلد الأخير، تتقدم الجماعة المسيحية بشكل طفيف حتى عام ١٩٦٠ (٣١٪). وفي البلدان الأخرى، تهبط نسبتها: ١٠٪ في مجمل الشرق الأدنى^(٨) (لبنان، سوريا، إسرائيل، الأردن) في عام ١٩٩٠، و ٥٪ في مصر. ولم يكن ذلك نتيجة لأي عنف، بل نتيجة للتفاعل الحر للقوى الديموغرافية (الجدول 3. VIII، الشكل 1. VIII).

نحو المساواة الطائفية في وجه الموت

في مصر^(٩) في بداية القرن كما قبل ذلك^(١٠)، كان المسيحيون يتمتعون بحالة صحية أفضل من حالة المسلمين. ونحو عام ١٩٠٠، كانت خريطة معدل الوفيات وخريطة الجماعة المسيحية تكشفان عن تمارض حاد، فالأقاليم الأكثر مسيحية هي الأقاليم الأضعف في معدل وفيات أطفالها، أكان ذلك في الدلتا أم في صعيد مصر (الجدول 4. VIII). فهل يعني ذلك أن الجماعات السكانية المسيحية كانت تتميز بمعدل وفيات أضعف، أم أنها ببساطة كانت تسكن الأقاليم المتميزة بمعدل وفيات معتدل بالنسبة لجميع السكان، أكانوا مسلمين أم مسيحيين؟ ومع الوقت، تضيق الهوة بين الطائفتين: فنحو عام ١٩٢٠، يختفى معامل الارتباط

الإقليمي، لكن تفوق معدل وفيات المسلمين لا يكتفى على الأرجح. والواقع أن بيانات الحالة المدنية، المنشورة اعتباراً من عام ١٩٤٤ بحسب الانتماء الطائفي، تقدم البرهان^(١١) على أن هذا المعدل المتفوق للوفيات قد دام في مصر (الجدول 5. VIII). ويقرر انخفاض معدلات الوفيات جد المرتفعة التي عرفها الماضي، فإن ميزة المسيحيين على المسلمين تخف، ويبدو^(١٢) أنها قد اختفت خلال السبعينيات.

وفيما يتعلق بفلسطين، فإن لدينا معلومات أدق^(١٣)، وذلك بفضل سلاسل بيانات الحالة المدنية التي ترجع إلى زمن الانتداب، والتي كشفت إسرائيل مواصلتها بعد عام ١٩٤٨. ففي السنوات السابقة على إنشاء إسرائيل، كان متوسط العمر بين المسيحيين يزيد بنحو عشر سنوات عن متوسط العمر بين المسلمين والدروز^(١٤). ومن المؤكد أن الطائفة المسيحية قد استفادت من ميزة جغرافية، تتمثل في انفراسها الحضري الراسخ: ٧٥٪ يسكنون المدن من بين اليهود والمسيحيين في عام ١٩٣١، في مقابل أقل من ٣٠٪ من بين المسلمين والدروز^(١٥). كما أن المسيحيين كانوا يتمتعون بميزة سوسولوجية: فمعدل تعليمهم المدرسي في عام ١٩٤٣ قد بلغ بالفعل نسبة ٩٠٪، في مقابل مجرد ٢٥٪ بالنسبة للمسلمين^(١٦). وتشير الإحصاءات الإسرائيلية إلى أن المسلمين، حتى في أيامنا حيث انخفض معدل وفيات الأطفال بين الطائفتين انخفاضاً ملحوظاً^(١٧)، لم يلحقوا بالمسيحيين تماماً (الجدول 6. VIII). على أن تخلفهم لا يزيد عن أربع سنوات ونصف سنة، بينما كان يتجاوز ٩ سنوات في ١٩٧٠ - ١٩٧٤.

أما لبنان الستينيات فهو يقدم صورة تباينات أكثر وضوحاً بشكل محسوس، مع تفوق في نسبة وفيات أطفال المسلمين بنسبة ٥٠٪ (الجدول 7. VIII). والواقع أن العوامل الاجتماعية والجغرافية للنمو المتمايز قد تميزت بتوزيع متباين. وإذا كان الشيعة اللبنانيون قد تمكنوا من توحيد صفوفهم تحت راية المستضعفين في الأرض^(١٨)، فإن ذلك لا يرجع إلى مجرد أن عقيدة الشيعة كانت دائماً إسلاماً متمرداً. فمع ركيزة فلاحية جردت من الأرض على أيدي إقطاعيات محلية في الجنوب وفي البقاع، تركز طائفتهم علامات مستوى متدنٍ من النمو أقلت منها الآخرون: العشائرية الكابحة، مستوى الدخل المنخفض، الأمية السائدة، الموقع البعيد عن طرق المواصلات الرئيسية. ومع المطالب المدنية للطبقة العاملة المنظمة في نقابات، تتجاوب، بشكل عفوي أكثر، صيحات الريف الشيعي؛ على سبيل المثال، الهبة الفلاحية التي قام بها زارعو التين في الجنوب (١٩٧٣).

وفى بداية الثمانينيات، بالمقابل، فى العاصمة، حيث تؤدي الحرب التى تخلق مواجهة بين المسلمين والمسيحيين إلى وضعهم أمام ضغوط وجودية واحدة، يبدو أن المسلمين والمسيحيين قد كفوا عن التمايز. ويشير استقصاء منشور حول الحالة الصحية لسكان بيروت فى عام ١٩٨٤ إلى أن الاستجابات المتقاربة لهؤلاء ولأولئك فى المسألة الصحية (١٩) يمكنها تفسير مستوى متقارب لمعدل وفيات الأطفال والأحداث. وحول عام ١٩٨٠، يموت ٠/٠٥٠ إلى ٠/٠٦٠ من المواليد الجدد قبل بلوغ الخامسة من العمر، بصرف النظر عن الطائفة التى ينتمون إليها (٢٠). ولا تتوافر أية بيانات لتقدير تباينات معدلات الوفيات بحسب الديانة فى البلدان الأخرى، العراق والأردن وسوريا.

النموذج الاسرى الغربى: أشكال تبنيه وأشكال مقاومته

فى العصر العثمانى، من المرجح أن معدل مواليد المسيحيين كان أعلى من معدل مواليد المسلمين (٢١). ويشهد القرن العشرون انقلاب العلاقة. فمعدل المواليد بين المسلمين يرتفع، بما يشكل نتيجة لاستقرار الأسرة؛ فالواقع أن الطلاق يصبح نادراً، بعد أن كان يؤدي فى السابق إلى إبعاد ثلث النساء المسلمات وهن فى ريعان عمر الإنجاب (٢٢). وفى اللحظة نفسها، يبدأ المسيحيون فى الحد من عدد مواليدهم.

مصر

فى مصر، منذ الأربعينيات، يتجاوز معدل المواليد بين المسلمين معدل المواليد بين المسيحيين بنسبة ٢٠٪. ومع تواصل ملحوظ، تستمر الهوية أيضاً فى إيماننا (الجدول 8. VIII) (٢٣). والاستثناء الوحيد هو فترة ١٩٥٤ - ١٩٥٨. وفى بداية الثورة الناصرية، ينخفض معدل المواليد بين المسيحيين بينما يبقى على حاله بين المسلمين. وكانت القطيعة السياسية جذرية بما يكفى لإثارة الفوضى فى الإدارات، ويمكننا تصور أنها قد أدت إلى اضطراب تسجيل الحالة المدنية، وليس إلى اضطراب معدل المواليد نفسه. ولكن، إن كان الأمر كذلك، فلماذا حدث ذلك بالنسبة للبعض وليس بالنسبة للبعض الآخر؟ إن بعض الأحداث تؤثر على معدل المواليد، لأنها تحفز ألاماً جماعية. والناصرية تمر مر الكرام على المسلمين، الذين لا تهدمهم من حيث كونهم طائفة، لكنها تدفع المسيحيين إلى وبق التكاثر، وهو علامة بين علامات أخرى على انزعاجهم.

وكانت السلالة التي أسسها محمد على فى عام ١٨٠٥ قد حافظت، خلال قرن ونصف قرن، على مناخ وفاق طائفى. وقد شارك الأقباط المصريون فى بناء الاستقلال المصرى بدعمهم لانتفاضة أحمد عرابى (١٨٨٢)، ثم بتقديمهم كوادرمناضلين إلى حزب الوفد الذى أسسه سعد زغلول^(٢٤). لكن ثورة ١٩٥٢ تستثير تحفظهم: فقد كان بين الضباط الأحرار عدد كبير من المتعاطفين مع الإخوان المسلمين، بل إن عدداً كبيراً منهم كانوا أعضاء سابقين فى الجماعة، كثيرون السادات، الذى سوف يصبح رئيساً للجمهورية فيما بعد. وسرعان ما تحد الجمهورية من قوتهم. فهى، لكونها علمانية، تحل المحاكم الطائفية، بما يؤدى إلى إخضاع المسيحيين لقانون مدنى مصطبغ بالشريعة الإسلامية. وهى، لكونها مؤيدة للمساواة، تعزز مكافحة الأمية بفرضها دراسة القرآن على طلاب التعليم العام. ومصر التى سرعان ما تسمى اشتراكية فى ظل رئاسة جمال عبد الناصر تصدر قوانين تأميم (١٩٦٤) وقوانين إصلاح زراعى تؤدى إلى كسر طبقة من رجال الأعمال ومن كبار ملاك الأرض ذات مكون مسيحى قوى^(٢٥).

وعندئذ فإن الانزعاج المسيحى يجر إلى «عودة» جماعية إلى لبنان لجماعة مسيحية مستقرة (فى مصر) منذ القرن السابع عشر. أمّا الأقباط، الراسون على ضفاف النيل منذ زمن سحيق، فهم يختارون شكلاً آخر للانكفاء الطائفى: إنهم يهجرون الأقاليم التى تتميز فيها أعدادهم بأعلى مستوى من الضعف للتجمع فى القاهرة وفى ملاذاتهم فى صعيد مصر - الدنيا وأسيوط وبنى سويف - حيث تتعزز كتلتهم. ويعد ذلك بجيل، تصبح مدن الأقاليم هذه مراكز نشاطية إسلامية وإبعاد طائفى. وتؤدى اليوم حالات إحراق كنائس ومتاجر الأقباط إلى دفعهم إلى التجمع فى أحياء وإلى شق الطريق إلى المنفى. ويعد سبعة قرون من المملوك ببيرس، يتجدد الخوف الطائفى.

لقد تفوق الأقباط على المسلمين فى تقليل معدل مواليدهم فى أزمنة لم تكن أساليب منع الحمل الحديثة موجودة فيها. وعندما تظهر هذه الأساليب، فإنهم سوف يبقون ببساطة على تفوقهم، لكنهم لن يزيده. ولا مراء فى أنهم كانوا أقل ميلاً من المسلمين إلى التجديد فى هذا المجال. وفى ٢٦ مارس ١٩٦٤، أعلن الرئيس عبد الناصر أمام مجلس الأمة تأييده لسياسة حد من المواليد. وشأنه فى ذلك شأن الرئيس التونسى بورقيبة فى اللحظة نفسها، اجترأ على تحدى التقاليد، سابقاً بذلك البلدان العربية الأخرى بعشر سنوات. والحال أن الهيراركية القبطية قد استقبلت بفتور هذا التوجه، الثورى بالنسبة لذلك الزمن. وهى، فى ذلك، لم تفعل

سوى مشاطرة أخلاق الكنائس المسيحية الأخرى التى يمثل منع الحمل بالنسبة لها انتهاكاً لوصايا مقدسة مختلفة. لكن قلق الأقلية الحاد يعزز تحفظها، فقد أعلن أحد ممثليها البارزين: «إننا نتقاسم بالفعل المصاعب التى تواجهها جميع الأقليات فى العالم، فهل يتعين علينا زيادة هذه المصاعب بتقليل أعدادنا؟ إننا لو شجعنا تحديد النسل، لتعرضنا لخطر انتحار عرقى» (٢٦).

ولابد هنا من مناقشة مسألة تعرضت لنقاش حاد: هل تكذب علينا الإحصاءات المصرية؟ كيف لا يكون عدد الأقباط سوى ثلاثة ملايين فى هذا البلد الذى يواصل حمل اسمهم فى جميع اللغات، ماعدا اللغة العربية؟ إن إيجيبت، تسمى بالعربية مصر، وهو ما كان يعنى فيما مضى «عاصرة» أو «تخوم بلد». لكن اسمها فى جميع اللغات الأخرى يكشف عن نسب اشتقاقى واضح أعاد اكتشافه بالفعل ثوانى، الرحالة العلامة لعصر التنوير. فقد قال: «يزعمون أن اسم الأقباط يرجع إلى مدينة كويتوس التى لانوا بها، خلال أعمال الاضطهاد التى مارسها اليونانيون؛ لكننى أعتقد أن له أصلاً طبيعياً أكثر وقديماً أكثر. ويبدو لى أن المصطلح العربى، قبطى، هو تحويل واضح للمصطلح اليونانى، أيجوڤتيوس، اچيبسيا» (٢٧). فهل يمكن من ثم أن نصدق أن مصر التى صاغتها دائماً، بعيداً عن الاسم، ثقافة هؤلاء السكان الأوائل المتمسكين بنسب فرعوى، لا تضم منهم اليوم غير نسبة تتراوح بين ٥٪ إلى ٦٪ من سكانها؟

فى كتاب جيد التوثيق من جهة أخرى، يمكن للمرء إذاً أن يقرأ دون شكل آخر للبرهنة، مادام هناك اعتراف واسع بتزييف الإحصاءات: «إن تعداد عام ١٩٧٦ يقدرهم بمليونين ونصف مليون نسمة، وهو رقم من المؤكد أنه غير مناسب. ولا مراء فى أن الواقع أقرب من ٧ مليون إلى ٨ مليون» (٢٨). وهناك دراسة أخرى مكرسة للأقلية المسيحية الأوفر عدداً فى عالم الإسلام العربى تستبعد بظاهر اليد نفسه قرناً من العمل الإحصائى فى مصر: «إن مسألة عددهم مسألة مرتبكة. فتعداد عام ١٩٨٦ يرى أنهم يشكلون نسبة ٨٪ من المصريين (أى نحو ٢٣٠٠٠٠٠ نسمة) (٢٩)، وهو ما يعتبر أفضل من نسبة الـ ٦٢٪ التى يتحدث عنها تعداد ١٩٧٦، إلا أنه تبقى نكتة: إن التلاعبات المنهجية إلى هذا الحد أو ذاك من جانب الموظفين المسلمين وحجز المعلومات من جانب الأقباط تجعل هذا الرقم (رقم تعداد عام ١٩٨٦) قليل المصدقية. والحال أن الكنيسة، على أساس سجلات التعميد التى تحوزها، تعلن وجود ١١ مليوناً من المؤمنين، لكن التقدير يبدو هذه المرة مفتعلاً. ونحن نقترح، كافتراض متوسط، عدد

٧ إلى ٨ مليون قبطى، (٢٠). أما الصحافة الغربية الكبرى، التى تجد صعوبة فى الاعتراف بأن الأقلية أقلية، فهى غالباً ما تردد هذه التقديرات المبالغ فيها. والميل إلى التضخيم العددي ليس جديداً. وقد أوضح بالفعل بيير روندو فى تعليقه على تقديرات ر.ب. إدلبى، الذى ذهب إلى أن مصر لا بد وأنها كانت تضم ٣ مليون مسيحي فى عام ١٩٥٢: «إن هذه الأرقام تبدو جد مفتعلة» (٢١).

وإذا كان هناك تقليل إحصائى، فإنه يكتسب على أية حال استمرارية ملحوظة: فالواقع أن التعدادات تشير، منذ عام ١٨٨٢، إلى اضمحلال يتميز بانتظام تام. على أن النظم السياسية التى تتعاقب كانت أكثر تقلباً تجاه الأقباط. ولو كانت قد سعت إلى التلاعب بالأرقام، فإن بعض الحكومات كان من شأنها أن تقدر عدد الأقباط بأعلى مما هو عليه فى الواقع، وكان من شأن البعض الآخر تقدير هذا العدد بأقل مما هو عليه بالفعل. فالانتداب البريطانى مثلاً كان سيجد مصلحة فى تضخيم تقدير عدد أفراد الطائفة التى كان يعتمد عليها أحياناً، خاصة فى تجنيد موظفيه. وبالمقابل، فى يومنا هذا، فإن المعنيين أنفسهم قد يميلون إلى إخفاء هويتهم الدينية فى كل مكان يخشون فيه من تجليات إعادة أسلمة تعتبر فائرة أحياناً. وإذا كانت الأرقام زائفة، فإننا نتوقع من ثم قطيعة للاتجاهات التى ترسمها قبل وبعد النظام الناصرى. إلا أنه لا وجود لمثل هذه القطيعة، وهو ما يثبت قريبا من الحقيقة.

وهناك دليل أكثر حسماً: إن سجلات الحالة المدنية من جهة والتعدادات من الجهة الأخرى تعتبر منسجمة تماماً عندما تسجل الأولى معدل مواليد أكثر ضعفاً بين الأقباط وعندما تسجل الثانية نمواً أكثر بطناً بينهم. ولو كانت الطائفة القبطية تضم اليوم ثمانية ملايين نسمة بدلاً من ثلاثة ملايين، فإن مواليدها السنويين الـ ٩٠.٠٠٠ يتطابقون مع معدل مواليد قدره ١١.٠٪ بدلاً من ٣.٠٪. ومثل هذا المعدل جد المنخفض للمواليد من شأنه أن يكون غير منسجم بالمرة مع بقاء ثقل الأقباط فى السكان. وقد يكون، كما يزعم البعض، أن بعض الأقباط يخفون هويتهم الدينية، وقد يكون أيضاً أن عدم وضوح للأسماء يدفع بعض موظفى التعداد إلى تسجيل الديانة الإسلامية من تلقاء أنفسهم على البطاقات، ولكن كيف يمكن لهذا الإخفاء أن يؤثر بتواتر واحد وعلى الأجل الطويل على عمليتين مستقلتين، هما عملية التعداد الدورى للسكان وعملية تسجيل المواليد، والتى تجرى من جهة أخرى فى ذات الوقت تقريباً الذى يجرى فيه عمل دينى تماماً، هو التعميد ؟

إن اضمحلال البطيء لأقباط مصر، الذين هبطوا من نسبة ٨٪ إلى نسبة ٦٪ فى قرن

واحد، ليس فى الواقع نتيجة لآية مؤامرة إحصائية؛ إنه النتيجة الديموغرافية لأشكال التقدم الاجتماعى التى حققتها طائفتهم (٣٢). والامثلة متوافرة، وليس فى الشرق وحده، على طوائف تصبح موضعاً لمزاد ديموغرافى، وكان الأقلية لابد لها من أن تقترب أكثر ما يمكن من الأغلبية حتى تستحق الاهتمام. إن الكولون الفرنسيين فى الجزائر، واليونانيين والأرمن فى تركيا، والأشوريين - الكلدانيين فى العراق، قد بالغوا كلهم فى تقدير قواهم؛ وقد تجرعوا كلهم الكأس المر من جراء ذلك.

الفلسطينيون

إن ما كان فارقاً خفيفاً فى مصر يصبح تبايناً صارخاً لدى الفلسطينيين: فمعدل المواليد يفصل بين الطوائف فصلاً جذرياً. وقد رمز إنشاء إسرائيل إلى قطعة فى تاريخ السكان الفلسطينيين. فنحن نعرف كيف أنه قد أخل بتوزيعهم السكانى وبوسعنا أن نتصور دون صعوبة أنه قد مس مجمل التكاثر. لكن الانقلاب قد مس أيضاً الإحصاء، بحيث إن المنحنيات التى ترسمها المؤشرات تمزج بالتغير الديموغرافى آثار التحول الإدارى. وقبل عام ١٩٤٨، كانت السجلات البريطانية ترصد مواليد كل سكان فلسطين. ومنذ عام ١٩٤٨، تقدم الإدارة الإسرائيلية بيانات الحالة المدنية بحسب الطائفة (٣٣). وهى تتصل بذلك الجزء من الفلسطينيين الذى يحمل الجنسية الإسرائيلية (١٢٪) وتتصل، بعد عام ١٩٦٧، بفلسطينى الاراضى المحتلة (٢٩٪).

وهذه السلسلة الطويلة بشكل غير عادى تقدم لنا بعض اليقينيات. فلوأ، منذ سبعين سنة على الأقل، كانت الأسر المسيحية فى فلسطين محدودة أكثر بكثير من الأسر الدرزية، وكانت هذه الأخيرة محدودة أكثر من الأسر المسلمة الأخرى. وفى ظل الانتداب، ترك الانتماء إلى الطوائف بصمته القوية على المعايير الأسرية: فقد كان المسيحيون ينجبون فى المتوسط ٥ أطفال وكان المسلمون ينجبون ٨ أطفال. وفى ظل الإدارة الإسرائيلية، تتسع الهوة فى البداية قبل أن تضيق. وفى بداية السبعينيات، ترتفع الخصوبة بين المسلمين إلى أكثر من ٩ أطفال للمرأة (٣٤). كما لو أن الأسرة الكثيرة العدد تقدم لهم ملاذاً بشكل أكثر تواتراً مما هو الحال بالنسبة للمسيحيين، الذين تتخفص خصوبتهم على العكس من ذلك.

وفى أن واحد تتركز التعاسات والمرارات فى الضفة الغربية وغزة. ويحبط تمردهما ما

يعتقد الديموغرافيون أنه قانون: فالواقع أن السكان فيهما يحتفظون في آن واحد بثلاثة أرقام قياسية يستحيل أصلاً أن تتساق: التعليم (٣٥)، الطابع الحضري (١٠٠٪ في غزة)، وخصوصية الإنجاب (الجدول 9.VIII). وفي ظل أي نظام آخر، أي حيث لا تبلغ التوترات الطائفية والسياسية تلك الدرجة من الحدة، فإن تقدم التعليم المدرسي وانخفاض معدل الخصوبة يسيران جنباً إلى جنب. وينجم هذا وذلك عن تعديل للدوار الأسرية، خاصة لوضع الطفلة: إن دخولاً سابقاً للأولاد إلى الحياة العملية كان يناسب في السابق ذرية وفيرة العدد؛ وتكاليف مدة دراسة طويلة تثني منذ ذلك الحين والوالدين عن ذلك. وفي الأراضي المحتلة، فإن التحمل الجزئي لفنقات التعليم من جانب وكالة غوث وتشغيل اللاجئين، وهي وكالة متخصصة من وكالات الأمم المتحدة، يخفف العبء الاقتصادي الذي يمثله أطفال المجتمعات المعاصرة.

على أن ذلك لا يعني أن الأسرة الوفيرة العدد تشكل، في الضفة الغربية كما في غزة، مصدر الثراء الذي كانت في أرياف الزمن السابق. فالأطفال الذين يتراوح عددهم بين ثمانية وتسعة والذين تلدهم امرأة فلسطينية لا يمثلون بعد مورداً اقتصادياً، بل يمثلون فعلاً سياسياً^(٣٦). وفي عام ١٩٨٩، حينما أخذت تتصاعد منذ أكثر من عام صيحات الانتفاضة وحينما بدا أن علمانية منظمة التحرير الفلسطينية تتلاشى أمام إسلامية حماس، فإن الخصوبة تصل في غزة إلى قمة مطلقة: فالمرأة الفلسطينية، إذ تنجب في تلك السنة ٩ أطفال في المتوسط^(٣٧)، تقدم مساهمة كبرى في معركة البشر.

وينجب الفلسطينيون الذين يحملون الجنسية الإسرائيلية أطفالاً أقل مرتين إلى ثلاث مرات بحسب ما إذا كانوا مسلمين أم مسيحيين. ولم يحدث قط ولا في أي مكان أن كانت التباينات بين الجماعات يمثل هذه القوة. وما يقرها هو الوضع السياسي، وأكثر مما يقرها الانتماء الطائفي. فعلى رأس القائمة تجيء غزة، المدينة - المخيم حيث يتأبد عدم الاستقرار. ثم تجيء الضفة الغربية، التي تحتفظ على الرغم من كل شيء ببعض سمات بلد مهيكّل. وبعثاً أخيراً العرب الإسرائيليون الذين يميل جيلهم الثاني، الخصيب اليوم، إلى التوافق مع الاتجاهات السائدة لمجتمع أصبح فيه، بالرغم منه، أحد العناصر المكونة له.

فكيف لا يمكننا الاعتراف في هذه المنحنىات، حيث تأخذ العناصر المكونة للسكان الفلسطينيين في التباين اعتباراً من عام ١٩٨٠، بالصدى الذي تتجاوب به الخصوبة مع السياسة؟ نحو هذا التاريخ يميل فصيل نحو الإخوان المسلمين، ثم نحو سديم الجهاد الإسلامي، لكي ينجب حركة المقاومة الإسلامية، الأشهر تحت اسمها المستمد من

أحرفها الأولى، حماس، والواقع أن أحد المنشورات الأولى التي أعلنت وجودها من خلالها، في عام ١٩٨٨، هذه الحركة التي تضم شبيبة غزة والضفة الغربية، قد نادى بصدارة الإسلام في النضال من أجل فلسطين: «لقد تبنت منظمة التحرير الفلسطينية فكرة دولة علمانية وهو ما يتعارض تماماً مع فكرة الدين. إن إسلامية فلسطين تشكل جزءاً من ديننا. وعندما تتبنى منظمة التحرير الفلسطينية الإسلام قاعدة للحياة، فإننا سوف نكون جنودها (٣٨)». وربما بسبب الإهمال، يجد المسيحيون من ثم أنفسهم مستبعدين من الدفاع عن القضية الوطنية بالرغم من بروز ممثليهم السياسيين والمثقفين.

ويتجه المسيحيون بشكل مطرد إلى خيار النجاح الفردي. أمّا السكان المسلمون في غزة والضفة الغربية من جهة، وعرب إسرائيل من الجهة الأخرى، فهم يعلقون كلهم آمالهم على الأسرة. إلا أنه في حين أن الأوائل يراهنون على البعد الضخم لرابطة الرحم، فإن الآخرين، والمسيحيين من بينهم خاصة، يراهنون على الصعود الاجتماعي لابنائهم، والمتناقض، كما نعرف، مع أعدادهم.

لبنان

في لبنان، يعتبر الإسلام والمسيحية أكثر تركيبياً مما في مصر أو في فلسطين. وعشية حرب ١٩٧٥، نجد أن موارد لبنان، المشبعين بروح الجبل، قد حافظوا على خصوصية مرتفعة نسبياً (الجدول 10. VIII). وقد تعززت هذه الخصوصية من جراء خوفهم من أن يصبحوا أقلية في بلد كانوا يحوزون فيه دستورياً الغالبية النسبية في البرلمان والولاية الأولى في الدولة. والواقع أن القانون الانتخابي قد ثبت عدد النواب وتوزيعهم الطائفي (٣٩)، في حين أن الميثاق الوطني (١٩٤٣) - وهو اتفاق تم شفهياً بين الماروني بإشارة الخوري والسني رياض الصلح - قد منح رئاسة الجمهورية لماروني، ورئاسة الحكومة لسني ورئاسة مجلس النواب لشيوعي. وهذه التوزيعات للولايات والسلطات تستلهم توزيعات السكان التي أظهرها تعداد عام ١٩٢٢ وعام ١٩٣٢ (٤٠). وكان لابد من انتظار الاتفاقات التي تمت في الطائف (٤١) في عام ١٩٨٩، بين الباقيين من مجلس النواب اللبناني الأخير المنتخب في عام ١٩٧٣، لتعديل بعض هذه الترتيبات، في ظروف درامية. والحال أن الاتفاق المعقود في قلب شبه الجزيرة العربية الوهابية، التي تعتبر شكلاً من أشكال الشيوعية الإسلامية (٤٢)، والذي كان موجهاً إلى

استعادة الوفاق الطائفي في لبنان، قد سجل بشكل مكتوب لأول مرة الصادرة المسيحية (رئاسة الجمهورية). وتم منح التساوى البرلماني للمسلمين^(٤٣)، دون تعديل توزيع الولايات العليا.

إلا أنه في حين أن السياسة قد جمعت الاختصاصات الطائفية، فإن الديموغرافيا الطائفية كانت قد تحركت منذ زمن طويل. وهذا هو السبب في أن التعداد أصبح عملية لا دستورية، دون أن يتم قط كتابة الحظر الذي ينال منه بأكثر مما حدث مع الميثاق الوطني نفسه: فلن يتم إجراء أى تعداد للسكان بعد تعداد عام ١٩٣٢، وذلك خوفاً من أن يكشف ما حدث من تغير. ومن المؤكد أنه كان هناك إدراك واسع بإعادات التوزيع الديموغرافية الجارية، مما دفع الرئيس شهاب مثلاً، في عام ١٩٦٠، إلى تدشين التساوى بين المسلمين والمسيحيين في تولي الوظائف العامة^(٤٤)، لكن هذا الإدراك ظل غير معلن.

ومن المؤكد أن ثقل المسيحيين في السكان قد انخفض. ونحن نعرف أن معدل مواليدهم قد واصل انخفاضه^(٤٥)؛ فمع خصوبة تصل إلى ٢.١ طفل للمرأة في منتصف الثمانينيات^(٤٦)، يشكل مسيحيو لبنان أول جماعة سكانية عربية تصل إلى نهاية انتقالها الديموغرافي، في حين أنهم يحيون على بعد بضع خطوات من جنوب في ثروة خصوبته، جبل عامل اللبناني وغزة والضفة الغربية الفلسطينيتين. وقد زاد النزوح من حدة آثار هذه الخصوبة الضعيفة.

على أن المسيحيين مازالوا يشكلون اليوم نحو ٤٣٪ من السكان^(٤٧)، والواقع أن انزعاج طوائفهم في البلدان المجاورة قد أدى، بما يمثل مفارقة، إلى تعزيز وضعهم في لبنان. وفي الخمسينيات والستينيات، أكد التدفق الواسع للقادمين، خاصة المسيحيين، من سوريا ومصر والعراق أن بيروت مازال ملاذاً. وقد عاود التفكير في ذلك بشير الجميل، الذي انتخب رئيساً للجمهورية اللبنانية، عندما أعلن في ١٤ سبتمبر ١٩٨٢، يوم اغتياله: «إن لبنان وطن لجميع المسيحيين، للمسيحيين غيرنا إذا ما أرادوا ذلك. ومن واجبنا حمايتهم. إننا نريد أن نبقى دائماً في هذا الشرق. إن لنا بلداً يمكننا العيش فيه مرفوعى الهامة دون أن يجيء أحد ويأمرنا: «سر على الجانب الأيسر» كما كان يحدث في زمن الأتراك. إننا نرفض العيش في وضعية الذميين»^(٤٨).

ولبننة المسيحيين العديدين المهاجرين من البلدان المجاورة تؤدي إلى انقراضهم في لبنان. وليس مما لا معنى له أن الرئيس فؤاد شهاب (١٩٥٨ - ١٩٦٤)، ولمه رجل الدولة

اللبناني الوحيد الذي لبث فوق الزمر، قد ناضل في آن واحد من أجل الرقي الاجتماعي للمسلمين - على سبيل المثال عندما طلب إلى بعثة IRFED، هي بعثة الـ IRFED، إعداد تقرير تفصيلي عن الحالة الاجتماعية والاقتصادية للبلاد، وهو أول تقرير يوضح التفاوتات الطائفية^(٤٩) - وشجع الديموغرافيا المسيحية، بفضل التوسع في منع الجنسية اللبنانية^(٥٠).

أما أفراد الطائفة الأرثوذكسية اليونانية، فعلى غرار إخوتهم الفلسطينيين في الملة^(٥١)، ولكن خلافاً للموارنة، سرعان ما يقتفون أثر التجارب التي تمت في شمالي البحر المتوسط. وقد يبدو ذلك من المفارقات لأنهم، لكونهم الورثة الروحيين لبيزنطة - ولنزاعاتها مع روما - يعتبرون الأكثر «شرقية» بين مسيحيي المشرق، والأكثر تعايشاً مع جيرانهم المسلمين. فخلال الغزوات الصليبية، ظلوا أوفياء تجاه النظم المحلية الإسلامية. ولكونهم تحديداً لم يكونوا مشبوهين بأى ولاء للكنيسة اللاتينية فإنهم لم يستشعروا أية حاجة للاعتصام بحاجز جبلي وتسنى لهم الازدهار في الأقاليم الساحلية إلى جانب السنيين. ومن ثم فقد شكوا معهم نواة المدن الساحلية، بدءاً ببيروت، التي سوف تتسع في منتصف القرن التاسع عشر بفضل انفتاحهم على أوروبا. ومن بيروت وحلب ودمشق واللاذقية ويافا، سوف يسيطرون على الدوائر التجارية على نطاق الإمبراطورية (العثمانية). وكان بطريركهم، بعد السلطان، أحد أعلى شخصيات النظام مرتبة.

وسوف يؤدي تمزيق المجال العثماني وإنشاء لبنان الأكبر (١٩٢٠) بشكل أكيد إلى اختزال الصلاحيات السياسية والاقتصادية على حد سواء لأفراد الطائفة الأرثوذكسية اليونانية^(٥٢). واستباقاً لمسيحيي الشرق العربي شرقي السويس، سوف يجدون أنفسهم الطائفة الثانية بين الطوائف المسيحية والطائفة الرابعة بين طوائف الدولة الفتية. وإذا وجدون أنفسهم منفصلين من جراء الحدود الجديدة عن إخوتهم في الدين وشركائهم التجاريين في فلسطين (١٩٤٨) وفي سوريا (١٩٥٢)، فإنه يتعين عليهم تبديل انتشارهم. وسوف يفعلون ذلك بالاتجاه إلى العالم الغربي.

أما أفراد الطائفة الكاثوليكية اليونانية، القريبون بحكم التاريخ من الأرثوذكس، والذين لم ينفصلوا عنهم إلا بشكل متأخر^(٥٣)، والموجودون مثلهم في بيروت كما على طريق المورد الذي يربط دمشق بالبحر المتوسط^(٥٤)، فإنهم لا يختلفون عنهم كثيراً من حيث الديموغرافيا. ومقتاتان الطائفتان، اللتان تتقبلان بهدوء وضعهما كاثلية، ممثلتان بشكل واسع في الطبقة المثقفة والبورجوازية التجارية، وبدلاً من اللعب بورقة العدد، الخاسرة سلفاً، فإنهما تسعىان

إلى تأييد ميزة وضع أعلى. وهناك تلعب المرأة في ذلك دوراً اجتماعياً كما تلعب دوراً أسرياً والطفل وريث: ولا حاجة إلى إرتجاب أطفال كثيرين.

وعلى الجانب الإسلامي، فإن اتجاهات التكاثر تتباين أيضاً بشكل شديد الوضوح^(٥٥). إن السنة اللبنانيين، «أهل المدن» الذين لا توجد لهم جنود جبلية^(٥٦)، هم بالنسبة إلى الشيعة كالأرثوذكس بالنسبة إلى الموارنة. ومنذ عام ١٩٧٠، يبدون أمارات أكيدة للمالتوسية. وفي هذا، بعد جيلين من أجيال اسطنبول^(٥٧)، يتجاوزون ببضع مسافات سنني العالم كله^(٥٨). ولما كانوا أقلية شأن كل الأقليات الأخرى في لبنان، فإن طائفتهم تستشعر أنها قوية بغالبية لا تنفد في الإسلام، على أبواب البلد نفسها. ولما كانوا متحررين من هاجس العدد، فإنهم يتبنون بعض قيم المجتمع المتعدد الطوائف لزمان ما قبل الحرب، وهي القيم التي هيمن عليها آنذاك الانفتاح المسيحي على الغرب^(٥٩).

وفي الوقت نفسه، فإن الصعود الشيعي كان يتهيأ في المخدع. فهذه الطائفة التي كانت غالبية في زمن الفاطميين، والتي تعرضت فيما بعد للمكابدات على أيدي المالك الذين أجبروها على الانزواء في جبل عامل والبقاع، إنما تنهض من سبعة قرون من الامحاء. ويتواصل نهوضها الديموغرافي حتى أيامنا: ففي حين أن البلد في مجمله يبرز باعتباره الأقل خصوبة في العالم العربي، فإن الشيعة الريفيين يبقون على هامش الحركة العامة تقريباً. وفي عيد ميلادهم الثلاثين، تعتبر الزوجات الشابات في جنوبي لبنان أمهات لـ ٥ أو ٦ أطفال للواحدة^(٦٠). وفي الخمسين من العمر، يكون لمن تكبرهن ٨ أطفال. وعلى غير العادة، فقد أخطأ قولني، الذي كان قد تتبأ بقنائهم المرجح: «في هذا العصر، لا يوجد بعد غير خمسمائة أسرة من المتأولة [الشيعة] الذين لانوا بالمسيح اللبناني وفي لبنان الموارنة؛ ولما كانوا مبعدين من أرضهم الأصلية، فمن المرجح أنهم سوف ينتهون إلى الفناء وإفناء اسم هذه الملة نفسه معهم»^(٦١).

لقد بدأ التوسع الشيعي في السنوات التي سبقت حرب ١٩٧٥ - ١٩٩٠. فعندئذ تترك بعض الأسر الجيوب الإقطاعية والفقيرة التي تحيا فيها في الجنوب وفي البقاع لكي تستقر في ضواحي بيروت. وكانت العاصمة لا تضم من الناحية العملية شيعة قبل إعلان لبنان الأكبر. فقد كان عددهم فيها ٨٠ في عام ١٨٩٥ ثم ١٥٠٠ في عام ١٩٢٠^(٦٢). وفي عام ١٩٥٠، كانت طائفتهم ماتزال جد متواضعة: ٢٨٠٠٠ نسمة، أي ٦٪ من السكان^(٦٣). وفي عام ١٩٧٥، قدر

عددهم بـ ٢١٦.٠٠٠ نسمة ^(٦٤)، أى ٢٩٪ بالفعل من سكان بيروت الكبرى. وسوف تؤدي الممارك العسكرية والانهيار الاقتصادى التالى إلى توسيع النزوح.

وبعد عام ١٩٧٥، تحت ضغوط الحرب، تهبط جماعات سكانية مارونية وشيعية من الجبال. وينشئ الفريقان ضواحي بدلاً من احتلال المدينة فى قلبها، والتي تركت للسادة القدماء الأماكن، أى للأرثوذكس اليونانيين فى الجهة الشرقية، وللجنة فى الجهة الغربية. إلا أنه لم يكن هناك أى شيء مشترك بين الحركتين. فالموارنة قد وطدوا ووسعوا تماماً انفراساً متحقّقاً بالفعل منذ بضعة أجيال، فى حين أن الشيعة قد اكتشفوا المدينة عند انسحابهم إليها تحت ضغط المحتل الإسرائيلى. وقد تمكن البعض من الإقامة فى الشقق الفاخرة أحياناً التى هجرها ملاك مسيحيون غالباً، بينما اضطر الغالبية إلى بناء حزام البؤس المتمثل فى الضاحية الجنوبية. وقد قلب الجميع المحتوى الاجتماعى لغربى العاصمة، فى هجرة لم تأخذ أكثر من عشر سنوات. ولا مراء فى أن التاريخ سوف يرى فى هذه الحركة إحدى التحولات الكبرى للقوام السكانى اللبناني.

وتفشى لنا البيانات اللبنانية بعض الأسرار عن الديموغرافيا المتمايزة. إن الطريق الحديث الذى تهمشت عبره الجماعة المسيحية الشرقية إنما ينبع بشكل أو بآخر من قربها من الجماعة المسيحية الغربية. وكان هذا القرب فى السابق سياسياً، وهو ثقافى منذ هذه اللحظة. فالموارنة والكاثوليك والأرثوذكس اليونانيون لم يكتفوا بتبنى نموذج الأسرة المحدودة الغربية - على الرغم من أنهم فعلوا ذلك متأخرين. ذلك أنهم قد اقتفوا أثر الأساليب نفسها، بتبنى القيم نفسها. وفى بداية السبعينيات، على غرار الفرنسيين فى القرن الأخير ولكن فى عصر «الحبة» (حبة منع الحمل)، كان مسيحيو لبنان يحذون من خصوبتهم عبر أساليب طبييعية ^(٦٥)، وهى الأساليب الوحيدة التى لا تتعارض مع الأخلاق التى يعلنها البابا. أمّا المسلمون، الشيعة والسنة على حد سواء، فقد كانوا أكثر اعتياداً بالفعل على الأساليب الحديثة لمنع الحمل، وذلك بالرغم من خصوبتهم الأعلى بكثير.

إن وضعية الأقليات المسيحية قد سمحت لها فى ظل العثمانيين بممارسة - وأحياناً بشبه احتكار - بعض الأدوار الاقتصادية. ومن جهة أخرى، فإن انتماعها إلى الجماعة المسيحية قد جعلها منفتحة منذ وقت مبكر على المجتمعات التى كانت تجيء منها آنذاك الأشكال الأهم للتقدم المادى. وقد حافظت هذه المجتمعات على علاقات وثيقة مع مسيحي الشرق، خاصة عبر النشاط المدرسى والجامعى الذى بذلته الإرساليات الكاثوليكية

والبروتستانتية ^(٦٦)، والذي تمثلت نتيجته الأولى فى مولد نخبة مسيحية. لكن هذه النتيجة تعمق، فى أساس مجتمعات الشام نفسه، تفاوتاً أمام التعليم كان حاسماً فى الحوار الطائفى، وذلك لمجرد أنها قد أطلقت العملية الديموغرافية التى سوف تحول التوازنات بين الطوائف. الاندراج فى أنشطة القطاع الثالث (التجارة والخدمات، إلخ) والتحول الحضرى، الوضع الاجتماعى الميسور، التعليم المدرسى، بما فى ذلك تعليم النساء: إن المسيحيين، بأسرع من المسلمين، سوف يجمعون كل عوامل الانتقال الديموغرافى المبكر هذه. على أن الأسباب الواحدة تؤدى إلى نتائج متعارضة: فهى تؤدى فى العصر العثمانى إلى تسارع ديموغرافى، وتؤدى فى القرن العشرين إلى تباطؤ.

بحثاً عن إخوانهم فى الدين

المسيحيون الشرقيون بادئ ذى بدء أهل استقرار، وهو استقرار فى المدينة. ومما لا وراء فيه أن انفراسهم قد حماهم على مدار أكثر من ألف سنة. وحتى منتصف القرن الماضى، لم يعرفوا من الناحية العملية حركات كبرى، باستثناء السوريين الذين استقروا فى القاهرة أو فى الإسكندرية منذ مائة عام خلت. على أن النزوح السوري - اللبناني اعتباراً من عام ١٨٦٠، ثم ضغط مدن الهلال الخصيب والنيل، سوف يؤديان إلى قلب صورة الأمور: فالיום، ربما كان الحراك هو الذى يحفظ دينامية طوائفهم.

إن القاهرة تفصل مصر. ففى الشمال، نجد أن الجماعة المسيحية تعتبر الآن شبه غائبة، إلا فى المدن. وهى تؤلف نسبة ١٥٪ فقط من سكان الدلتا ^(٦٧). ومما لا وراء فيه أنه قد مر وقت طويل على انسحابها من أرياف مصر السفلى، فى حين أن المدينتين المولودتين من القناة، بورسعيد والإسماعيلية ^(٦٨)، تشهدان منذ ثلاثة أرباع قرن فقط نزوحها البطيء. وكانت هاتان المدينتان تضمان ربع المسيحيين عشية الحرب العالمية الأولى؛ وهما لا تضمان منهم اليوم غير ٤٪ بالكاد. والواقع أن الإسماعيلية لم تشهد فقط ميلاد شركة قناة السويس، التى كانت مقراً لها، بل شهدت أيضاً مولد الإسلام السياسى الحديث: فهناك أسس حسن البنا، فى عام ١٩٢٨، جماعة الإخوان المسلمين. وسرعان ما انساب هذا التيار فى العالم العربى كله ^(٦٩)، ناسباً إلى نفسه بسرعة كمبادئ ثابتة النضال من أجل إعادة العسل بالقانون الإسلامى، الشريعة، وبناء اقتصاد إسلامى متحرر من «الصليبيين»، أى من المهيمنين

الأجانب عليه. وتصبح القناة، التي كانت رمزاً شائناً لهذه الهيمنة، أحد المسارح الأولى لنشاط الإسلام السياسى. وفى جهة غربية أبعد، تشهد الإسكندرية نفسها شحوب لوحة الألوان الطائفية التي كان لورانس داريل قد استمد منها ألوانه جد المفعمة بالحياة فى رباعيته (٧٠). كما أن سكانها غير المسلمين، الذين انخفضوا من ٢٦٪ إلى ٦٪ من السكان بين عامى ١٩٢٧ و١٩٨٦، قد فقدوا تنوعهم الواسع. فعلاوة على اليهود (كانوا ٢٤٦٩٠ فى عام ١٩٣٧ وأصبحوا ٦٤ فى عام ١٩٨٦)، رحل أجانب عديون. وهكذا فإن الحاضرة المطلة على البحر المتوسط، التي لم تكن تضم أكثر من ١٠٠٠٠٠ أجنبى من سكانها الـ ٧٠٠٠٠٠ عشية الحرب العالمية الثانية (٧١)، إنما تتحول إلى قرية ضخمة تضم نحو ثلاثة ملايين نسمة، لا يشكل فيها الأجانب بعد غير نواة صغيرة قوامها ١٠٠٠٠ نسمة (٧٢).

ورأى الجنوب من القاهرة، تعتبر الجماعة المسيحية أفضل انغراساً. فهي تشكل عشر السكان. وشأنها فى ذلك شأن المسلمين، فقد حافظت على رصيد ريفى راسخ: إن ٧٠٪ من مسلمى الصعيد (٧٣) و٦٣٪ من المسيحيين يقيمون فى الأرياف (الجدول 11. VIII). وقد مر وقت طويل بالفعل على الزمن الذى كان فيه حضورها أكثر رسوخاً إلى حد ما فى المدينة (٧٤). على أن تقيراً يعلن عن نفسه فى مصر الوسطى، وهى موقع وجود قبلى قوى: إن نسبة المسيحيين تنخفض وطابعهم الريفى يبهت؛ فهم يتجمعون الآن فى المدينة. وهذا التطور المزيج محسوس بشكل خاص فى المحافظات الأربع الأكثر قبليّة: أسيوط والمنيا وسوهاج وقنا. وقد كشف تعداد عام ١٩٦٠ فى الصدارة الاضمحلال النسبى. والحال أن هجرة أقباط الوادى سوف تتسارع عندما توسع الحركات الإسلامية شبكتها وعندما يصعد بعض القرييين منها إلى الإدارة العليا (٧٥). أمّا الساحات الجامعية التى سوف يقابل فيها دعاة الإسلام الجدد الجمهور الأفضل، مثلما هو الحال فى جامعات القاهرة، فهى بالتحديد ساحات أسيوط والمنيا وسوهاج. والحال أن تنظيم الجهاد، الذى إنشئ فى الإسكندرية فى عام ١٩٧٥، سوف يعاود بسرعة صعود مجرى النيل لى يذش فى مصر الوسطى سلسلة من الاعتداءات على ممتلكات الأقباط وأماكن عبادتهم وتجارهم أو دورهم السكنية الخاصة.

وفى ملتقى طرق المصرين (مصر العليا ومصر السفلى)، فى مشارف العاصمة، تتباين محافظتنا الجيزة والقليوبية تبايناً غربياً: فلما كانتا مصبين لفيضان الهجرة من مصر الوسطى والسفلى، فإنهما تعتبران الإقليمين الوحيديين اللذين تنمو فيهما نسبة المسيحيين. والحال أن الحاضرة الكبرى وضواحيها، إذ توفر للأقباط الأمن العدى وإمكانات سوق على

مستوى ديناميتهم الاقتصادية، إنما تجمع بالفعل نسبة ٢٨٪ من الأقباط (٢١٪ من المسلمين). وفي منظور جد بعيد، هل تصبح القاهرة ملاذهم الحقيقي؟

أما تاكل الطوائف المسيحية في سوريا، والأكثر مفاجأة، فهو يرجع إلى أصل آخر. فمن عام ١٩٤٨ إلى عام ١٩٦٠، تاريخ آخر تعداد بحسب الطائفة، انتقلت نسبتهم في إجمالي السكان من ١٤٪ إلى ٧٫٩٪^(٧٦) (الجدول ١٢. VIII). ولا يرتفع معدل زيادتهم فوق مستوى الصفر إلا في دمشق وفي محافظة الحسكة بفضل الهجرات القادمة من بقية سوريا في الحالة الأولى، ومن تركيا في الحالة الثانية. وفي جميع الأماكن الأخرى، تنخفض الأرقام المطلقة. وخلافاً للحال في مصر، فإن هذا الانخفاض ليس مصحوباً بأي تركيز في المكان. فأولئك الذين يغادرون مواطنهم من مسيحيين سوريا لا يستقرون لا في دمشق ولا في حلب، المكانين الرئيسيين للتجارة وتولى الوظائف العامة والثقافة، بل يستقرون في باريس أو ميلانو أو ديترويت أو أستراليا.

والواقع أن سوريا قد دخلت منذ نيل الاستقلال (١٩٤٢) في واحدة من تلك الفترات المتميزة بانعدام الاستقرار السياسي التي كشفت لنا أحداث كثيرة من أحداث التاريخ التركي والتاريخ العربي أثارها على الأقليات الطائفية. ومن المؤكد أن المسيحيين، وغالبيتهم من الملة اليونانية، الأرثوذكسية أو الكاثوليكية، لم يرتاحوا إلى حسنى الزعيم (١٩٤٩)، أحد رؤساء سوريا العابرين، الذي استمد إلهامه من الفكر ومن الفعل السياسي لاتاتورك. وفي غضون بضعة سنوات، نجد أن أقوى بورجوازيات حلب ودمشق المسيحية سوف تشق طريقها إلى بيروت، ومعها رؤوس أموالها.

وشأنه في ذلك شأن إنشاء لبنان الأكبر (١٩٢٠) على أراض تطالب بها سوريا لنفسها، فإن نزوح البشر والثروات يفسر السبب في أن الحفاظ العنيدة تجاه لبنان قد ظلت المبدأ السياسي الثابت الوحيد في برنامج حكام سوريا. والحال أن انعدام الاستقرار، اليسارى أحياناً واليعنى أحياناً أخرى، يفضى إلى النظام البعثي (١٩٦٢ ثم ١٩٧٠). فهذا النظام، الذي يحرص في البداية على اختزال الإخوان المسلمين، لا يزعج الجماعة المسيحية بصفتها هذه^(٧٧). إن البعث السوري، العلماني رسمياً، قد ضم بين مؤسسيه مسيحيين، كتب أحدهم، وهو ميشيل علق^(٧٨): «نحن نعتبر العروبة جسماً روحه الإسلام^(٧٩)». وسرعان ما يضع هذا الحزب الجانب الرئيسى من السلطة في أيدي العلويين، وهم فرع منشق متطرف من الإسلام^(٨٠). وفوق النزاعات، القاتلة أحياناً، تتمكن أقليات الشرق الأدنى من استعادة تضامن عرضى في وجه الغالبية الوحيدة في الإقليم، الإسلام السننى.

أما العراق فهو البلد الوحيد الذي لم تضمحل جماعته المسيحية، على الأقل حتى عام ١٩٦٥، تاريخ آخر تعداد يبين الانتماء الطائفي. وهي تدشن في السنوات العشرين التالية للحرب العالمية الثانية إعاة انتشار جذرية. فهل كف الشمال عن أن يوفر لها قرصاً اقتصادية أم أن التعايش مع الاكراد أصبح مستحيلاً؟ إن ما يبقى هو أن نصف المسيحيين سوف يرحلون في أقل من عشرين سنة عن محافظتي نينوى (الموصل) ودهوك متجهين إلى العاصمة، حيث تتجمع، في عام ١٩٦٥، نسبة ٥١٪ من مسيحيي البلد (الجدول VIII. 13). أما الآشوريون النساطرة^(٨١)، فسوف يعانون خلال فترة ما بين الحريين من المهانات على أيدي الأتراك كما على أيدي العراقيين. فالنساطرة، الذين انحازوا إلى الروس والطفاء في ١٩١٤ - ١٩١٨ ضد العثمانيين، قد قدموا بعد ذلك يد العون إلى سلطة الانتداب البريطانية سعياً إلى الحفاظ على نظام ترعزعه الانتفاضات الكردية والشيعية بشكل متواصل. وعندما تحين ساعة الاستقلال في العراق (١٩٣٠)، يجدون أنفسهم ملزمين بتقديم الحساب للسلطات الجديدة. وإذا تعرضون للمذابح على أيدي المسلحين الاكراد غير النظاميين في عام ١٩٣٣، بمساعدة العسكريين العراقيين^(٨٢) التي لم يوافق عليها الملك فيصل، فإنهم يشقون طريقهم إلى المنفى. ولا يتعرض الكلدانيون لمثل هذا المصير، لكنهم يتركون هذه المنطقة التي تتميز بانعدام الأمن متجهين إلى الاستقرار في بغداد.

وبين عامي ١٩٧٥ و١٩٩٠، استقبلت القارات الخمس نازحين لبنانيين، ساعين كلهم إلى ملاذ، مؤقتة بالنسبة للبعض، وأطول أمداً بالنسبة للبعض الآخر، وربما نهائياً. ومن المؤكد أن الحرب كانت السبب الدافع إلى ذلك. فالحروب غالباً ما تؤدي إلى النزوح، ويتم ذلك دائماً تقريباً بالاتجاه إلى الملاذ الأقرب. وخلال أقسى المعارك، خاصة قبل تدخل الجيش السوري (١٩٧٦)، وجدت أسر عديدة في الواقع ملاذاً مؤقتاً في دمشق. لكن عمليات الرحيل سرعان ما تمضى إلى أماكن أبعد وتصبح أكثر تركّزاً. وهي لا تكتسب أبداً تقريباً الطابع المألوف اليوم بشكل محزن، لانكفاء غير منظم من جانب جماعات سكانية أخذة في الانسحاب. وإذا كان اللبنانيون قد جعلوا من الاستقرار في الخارج ردهم المتكرر على انعدام أمن السياسة والاقتصاد، فإن ذلك يرجع إلى أن آبائهم وأجدادهم كانوا قد شقوا الطريق إلى النزوح. وكان ذلك نوعاً من لقاء جديد مع التاريخ، مجرد تعجيل، جد قوي، لتراث مجرة متواصل منذ أجيال أيضاً^(٨٣). والواقع أن لبنان كان قبل الحرب بالفعل واحداً من أندر بلدان العالم التي يعتبر عدد المنحدرين منها، أكانوا حاملين لجنسياتها أم لا، كثيراً خارج الحدود كثرت على أراضيها.

والواقع أن الحرب الأولى بين الطوائف في تاريخ لبنان الحديث، في عام ١٨٦٠، هي التي أعطت إشارة الرحيل للوحدات الأولى من النازحين^(٨٤). والحال أن النزوح، الذي يشكل مؤشراً على تزايد الضغط الديموغرافي في الجبل وعلى البحث عن ساحات تجارية أوسع من الشام^(٨٥)، سرعان ما يؤدي إلى تشكيل شبكات عبر قارية. وهو يتواصل حتى عام ١٩٧٥، حيث لا تشكل أزمة ١٩٢٩ والحريان العالميتان غير فترات الانقطاع الوحيدة لتجاره (الجدول 16. VIII). وخلافاً لكثير من حالات النزوح العربية في القرن العشرين، والتي تتجارب مع طلب يد عاملة في الخارج ومع رفض الشقاء في الداخل، فإن النزوح اللبناني قبل عام ١٩٧٥ قد تجاوب بشكل خاص مع استراتيجية مستثمر. وهذا هو السبب في أنه سوف يظل كثيفاً خلال فترتي الازدهار الكبيرين، قبل الحرب العالمية الأولى وفي ظل ولايتي الرئيسين شهاب (١٩٥٨ - ١٩٦٤) وشارل حلو (١٩٦٤ - ١٩٧٠)^(٨٦).

فما هو التكوين الطائفي للنزوح، وعبر الحذف الذي يمثل، كيف عدل توزيع اللبنانيين الذين ظلوا في البلد^(٨٧)؟ إن النازحين، إذ يتركون عالماً يعتبر فيه الانتماء الديني مصدر الهوية، إنما يستقرون في أراض تتميز بالعلمانية، والإحصاء الوحيد الذي من شأنه أن يوضح دون تحيز توزيعهم الطائفي، إحصاء البلد الذي يستقبلهم، إنما يحيل الانتماء الديني إلى المجال الخاص. ومن ثم فإنه لا يقدم لنا أي عون. أما الإحصاء اللبناني فقد توقف في عام ١٩٣٢. وفي ذلك التاريخ، كان المسيحيون يشكلون نسبة ٨٥٪ من الدياسبورا (الجدول 17. VIII)^(٨٨). وكان الموارنة يمثلون الغالبية في هذه النسبة، حتى وإن كان الأرثوذكس والكاثوليك اليونانيون قد أبدوا ميلاً أقوى إلى الرحيل. ويستمر هذا الواقع حتى الاستقلال على الأقل، ومن الأرجح حتى انبثاق اقتصادات الخليج الريعية. والحال أن الجاليات اللبنانية الضخمة التي تشكلت آنذاك في الأمريكيتين أو مصر أو أستراليا ونيوزيلنده كانت تتميز بغالبية مسيحية، فيما عدا أفريقيا الغربية التي كانت فيها شيعية أساساً. ويتعزز الوضع الاقتصادي للجماعة المسيحية التي بقيت في لبنان، وإن لم يكن ذلك إلا بفضل رؤوس الأموال التي يستثمرها أبناء عمومته المهاجرون إلى أمريكا. لكن ديموغرافيتها تضعف: على نحو مباشر، من جراء النزيف الناشئ عن الهجرة، وعلى نحو غير مباشر، من جراء انخفاض لمعدل المواليد يفاقم الآن الرخاء الاقتصادي^(٨٩).

وكانت الخمسينيات والستينيات فترة إعادة توزيع استثنائية. فبينما كانت تتواصل موجة نزوح إلى الخارج مازال ذات غالبية مسيحية، تؤدي ثلاثة تيارات للهجرة إلى تعديل

التوازنات الطائفية في لبنان. إن اللبنانيين الذين تركوا مصر التي استقر فيها أجدادهم، شأنهم في ذلك شأن السوريين الذين تركوا بلادهم عند فحص نتائج التأميمات، كانوا يتميزون بغالبية مسيحية. أما الفلسطينيون، بالمقابل، والذين دفعهم النزوح في مناسبتين إلى الهجرة إلى البلدان المجاورة (١٩٤٨ و ١٩٦٧)، فقد كانوا في غالبيتهم العظمى مسلمين (٩٠). وفي بداية السبعينيات، وصل عددهم إلى قرابة ٣٥٠٠٠٠ نسمة (٩١). وإلى أعداد المسلمين تضاف، بشكل مؤقت، هجرة اليد العاملة السورية غير المؤهلة - ٢٨٠٠٠٠ نسمة في الفترة نفسها (٩٢).

على أن توزيعين جديدين، أحدهما إقليمي والآخر وطني، سوف يعطيان للنزوح اللبناني في السنوات التالية وجهة جديدة. وأولهما هو انفجار الربيع البترولي. والقرار الذي سوف يتخذه أمراء الخليج باستثمار أو بإنفاق جزء هام منه في بلدانهم إنما يخلق في الواقع واحدة من أوسع أسواق العمل المهاجر في العالم، هي السوق الثالثة بعد الولايات المتحدة وأوروبا الغربية. ولما كان ملوك النفط محرومين من السواعد ومن الكفاءات الفنية وحائزين لرؤوس أموال ضخمة، فإنهم يطلبون السواعد والكفاءات الفنية على حد سواء. والحال أن الفلسطينيين، الذين كان فرع من شتاتهم قد استقر في الكويت وفي العربية السعودية منذ عام ١٩٤٨، إنما يتصدرون الوقوف على أبواب الفريوس. ونحو أواخر الستينيات، يتلوهم مصريون وسوريون ولبنانيون، إن إقتصروا على الإشارة إلى البلدان العربية المتعددة الطوائف. أما المعجل الثاني للنزوح اللبناني فهو انهيار الأمن، ثم انهيار الاقتصاد وأخيراً انهيار الهياكل الاجتماعية وهياكل التضامن الطائفي نفسها، وهي الانهيارات التي ميزت سنوات الحرب الأهلية الخمس عشرة. لقد هيمن الرعب على بيروت منذ عام ١٩٧٥ لكن الليرة اللبنانية لم تتعرض للانحياز إلا في عام ١٩٨٤، وهو الحدث الذي خسر البلد بعده في أن واحد رساميل منظمة التحرير الفلسطينية وما يهبط عليه من عائدات النفط (٩٣). وتنتظر المعارك داخل الطوائف عام ١٩٨٨ (بين الشيعة) وعام ١٩٨٩ (بين الموارنة). وهذا التراكم للانتكاسات يعيد للنزوح كثافته التي شهدتها السنوات الأولى من هذا القرن.

على أن التغير لم يكن عديداً فحسب، ذلك أن التكاليف على الخليج، خلافاً لحركات النزوح التي سبقتها، إنما يجد جنوده بشكل واسع بين صفوف السكان المسلمين. على أن البيانات الجادة تعوزنا من جديد لرسم ميزان طائفي. والسبب في ذلك ليس هو علمانية البلدان المضيفة، فكلها هذه المرة تعتبر الإسلام ديناً للدولة، بل الحالة الرثة لإحصاءاتها عن السكان (٩٤).

إن الحرب الأهلية في لبنان لم تقُد إلى مجرد إحياء تراث النزوح. فقد أعادت تنشيط التضامنيات الطائفية العتيقة. وبين عامي ١٨٦٠ و١٩٧٥، كان البناء الوطني للبنان الأصغر ثم للبنان الأكبر قد مارس، وإن كان بشكل غير ناجز بالفعل، عمله. فالاختلاط كان قد تسرب شيئاً فشيئاً في كل قضاء، إن لم يكن في كل قرية^(١٥). إلى الدرجة التي تسنى فيها للجميع أو للجميع تقريباً التفاوض بجيرانهم المنتمين إلى ديانة أخرى.

والحال أن السنوات العشر الأولى للحرب قد اجتاحت من الناحية العملية هذا القرن من تعلم الحياة المشتركة. إن «معزلاً» مسيحياً، مطلقاً على نفسه بين قديشة ونهر الكلب، يجد نفسه خالياً من أي عنصر إسلامي ليستعيد، مع تباين طفيف في الظلال، الحدود الطائفية التي ترجع إلى ما قبل عام ١٨٦٠. وتحدث عملية مماثلة في الشوف، حيث يعتبر الجبل الآن درزياً بشكل يكاد يكون موحداً، وفي البقاع الأوسط والشمالي، حيث يهيمن الإسلام الشيعي لون منازع تقريباً. وإذا يبحث السكان عن ملاذ لدى ذويهم، فإنهم يستعيدون بشكل طبيعي تماماً مهد عائلاتهم، أي أنهم يخترقون، في الاتجاه المضاد، طرق الهجرة التي كانت قد قادتهم قبل ذلك صوب هذه المصاهر التي صارتها كل بلدة.

إلا أن هناك تطوراً لم تعطله الحرب: استقطاب بيروت. فالعاصمة وضواحيها لا وراء في أنها تضم اليوم ثلاثة أرباع اللبنانيين. وفي المجال المختزل لكتلة كانت موزعة في السابق بين سيدين، السني والأرثوذكسي اليوناني، تتواجد من ثم، لأول مرة بما يتناسب مع أهميتها الفعلية، كافة الطوائف التي تشكل لبنان. وبالرغم من ضعف انحدار الحواجز التي أقيمت خلال المعارك، فإن بيروت تحقق الامتزاج الذي رقصه الجبل.

جداول وأشكال الفصل الثامن

الجدول 1 . VIII

تناظر التقسيمات الحالية والعثمانية في الهلال الخصيب

البلد في حدوده في عام 1992	التقسيم العثماني من عام 1881 إلى عام 1893
العراق	ولاية بغداد (كاملة).
إسرائيل	ولاية الموصل (كاملة).
الأردن وفلسطين	ولاية البصرة (ماعدا الكويت *).
	ولاية بيروت : سنجد عكا.
	متصرفية القدس : قضاء يافا.
	ولاية بيروت : سنجد البلقاء.
	متصرفية القدس : قضاعات القدس والخليل وغزة.
	ولاية دمشق : سنجد معان. **
لبنان	ولاية بيروت : سنجد بيروت ، قضاء طرابلس وعكار.
	ولاية دمشق : قضاعات حاصبيا وراشيا وبعبك والبقاع.
	متصرفية جبل لبنان **.
سوريا	ولاية بيروت : سنجد اللاذقية ، وقضاء صافيتا وقلعة الحصن.
	ولاية حلب : سنجد حلب.
	ولاية دمشق : قضاعات دمشق وديما ووادي الشام ونبق وحماء وحران.
	سنجد دير الزور.

* لا يقدم تعداد (1881 - 1893) تفاصيل ولاية البصرة.

** لم يجر تعداد لسنجد معان و متصرفية جبل لبنان . وقد استعرنا الأرقام هنا من ف.

كينييه ، سوريا ، لبنان مصدر سبق ذكره.

VIII . 2 الجدول

آخر عملية رسمية تقدم التوزيع الطائفي

البلد	تاريخ وطبيعة العملية	الدافع لوقف مسلسل العملية
مصر العراق	تعداد عام 1986 تعداد عام 1965	مسلسل العملية مستمر أعد تعدادا عام 1977 وعام 1987 في ظل نظام علماني بعثي.
الأردن لبنان	تعداد عام 1979 تعداد عام 1932 *	مسلسل العملية مستمر من شأن أى تعديل للتوزيع الطائفي للسكان أن يهدد التوزيع الطائفي للسلطات والذي حدده الميثاق الوطني لعام 1943.
سوريا الضفة الغربية	تعداد عام 1960 التعداد الأردني لعام 1960	أعد تعدادا عام 1970 وعام 1981 في ظل نظام علماني بعثي. لاتقدم التقديرات الإسرائيلية التوزيع الطائفي.
غزة	التعداد العثماني لعام 1914	لم تجر الإدارة المصرية تعداداً لسكان غزة، ولاتقدم التقديرات الإسرائيلية التوزيع الطائفي.
إسرائيل	تعداد عام 1983	مسلسل العملية مستمر

* قدم تعدادان إداريان تقديرات في عامي 1943 و 1956.

VIII . 3 الجدول
مسيحيو البلدان العربية من عام 1894 إلى أيامنا
أ - الأعداد المطلقة

السنة	مصر	العراق	الأردن	سوريا	فلسطين*	لبنان
1894		31775	39269	176828	42871	418702
1907	913592					
1914		32493	49520	134546	69456	502101
1917	1026107					
1922					71464	335668
1927	1181910					
1931					88907	
1932						392544
1937	1304000					
1943						544822
1945				414907		
1946					145063	
1947	1501635	156258				
1948				436510		
1949					93000	
1950			49475			
1956						769558
1960	1905182			361064		
1961			82174		96355	
1965		248737				
1966	2018562					
1972					76502	
1975						998000
1976	2285620					
1979			153182			
1983					99525	
1986	2829349					

ب - نسبة إلى إجمالي السكان

السنة	مصر	العراق	الأردن	سوريا	فلسطين *	لبنان
1894		2,16 %	8,96 %	10,88 %	13,30 %	60,47 %
1907	8,14 %					
1914		2,16 %	9,06 %	10,13 %	11,26 %	57,64 %
1917	8,07 %					
1922					9,50 %	55,11 %
1927	8,34 %					
1931					8,60 %	
1932						49,9 %
1937	8,19 %					
1943						52,07 %
1945				14,07 %		
1946					7,59 %	
1947	7,92 %	3,24 %				
1948				14,07 %		
1949					5,26 %	
1950			8,25 %			
1956						54,66 %
1960	7,33 %			7,91 %		
1961			6,89 %		3,23 %	
1965		3,09 %				
1966	6,74 %					
1972					2,04 %	
1975						42,90 %
1976	6,24 %					
1979			4,23 %			
1983					2,10 %	
1986	5,87 %					

* فلسطين في ظل الانتداب البريطاني : الكيان الذي يتكون الآن من إسرائيل والضفة الغربية وغزة . البلدان الأخرى في حدودها الحالية.

الجدول 4 . VIII

نسبة المسيحيين ومعدل وفيات الاطفال في مصر
1902 - 1934

معدل وفيات الاطفال (‰)					
1934 - 1930	1929 - 1920	1919 - 1910	1909 - 1902		الوحدات
178 179	186 198	231 214	261 232	1 2	الوحدات ١ الوحدات ٢
257 235	289 274	320 304	337 292	١ ٢	الوحدات ١ الوحدات ٢

- ١ : محافظات يمثل فيها المسيحيون أقل من ١٥ %.
- 2 : محافظات يمثل فيها المسيحيون أكثر من ١٥ %.

VIII . 5 الجدول

المعدل الإجمالى لجميع الوفيات بحسب الطائفة فى مصر
(1944 - 1980)

تفوق معدل وفيات المسلمين	المعدل الإجمالى للوفيات (‰)		الفترة
	المسيحيون	المسلمون	
39,5 %	18,1	25,2	1948 - 1944
30,4 %	15,0	19,5	1953 - 1949
72,7 %	10,3	17,8	1958 - 1954
42,1 %	11,9	17,0	1960 - 1959
7,3 %	12,4	13,3	1974
- 2,7 %	10,6	10,3	1980

المصادر : بيانات الحالة المدنية والتعدادات المصرية.

الجدول 6 . VIII

وفيات الأطفال المسلمين والمسيحيين في إسرائيل (1955 - 1989)

تفوق وفيات المسلمين	تخلف المسلمين بالأعوام	معدل وفيات الأطفال (0/100)		السنوات
		المسلمون	المسيحيون	
31,5 %	—	60,6	46,1	1955 - 1959
10,1 %	5,4	46,4	42,1	1960 - 1964
32,9 %	7,1	43,8	32,9	1965 - 1969
36,9 %	9,1	40,4	29,5	1970 - 1974
53,9 %	8,8	32,1	20,9	1975 - 1979
28,8 %	6,2	23,0	17,8	1980 - 1984
43,4 %	4,6	17,3	12,1	1985 - 1989

المصادر: الملتصقات الإحصائية الإسرائيلية ، 1990.

VIII . 7 الجدول

وفيات الاطفال بحسب الطائفة في لبنان (استقصاء عام 1971)

تفوق وفيات المسلمين	نسبة الاطفال الميتين (‰)		عمر الأم
	المسلمون	المسيحيون	
114,0 %	66,6	31,1	24 - 20
2,3 %	36,1	35,3	29 - 25
81,0 %	71,2	39,4	34 - 30
40,1 %	95,3	68,0	39 - 35
41,5 %	87,3	61,7	44 - 40
62,0 %	147,4	91,0	49 - 45

المصدر : الاسرة في لبنان ، الجمعية اللبنانية لتنظيم الاسرة، بيروت ، 1974 ، مجلدان.

الجدول 8 . VIII

المعدل الإجمالي للمواليد بحسب الطائفة في مصر (1944 - 1980)

تفوق مواليد المسلمين	المعدل الإجمالي للمواليد (‰)		الفترة
	المسيحيين	المسلمون	
29,4 %	33,8	43,7	1948 - 1944
34,5 %	33,3	44,8	1953 - 1949
73,0 %	24,6	42,5	1958 - 1954
39,5 %	31,4	43,8	1960 - 1959
30,5 %	29,0	37,9	1974
26,0 %	30,8	38,9	1980

المصادر : بيانات الحالة المدنية وتعدادات السكان (بيانات غير مصححة).

VIII . 9 الجدول

مؤشر خصوبة الفلسطينيين (1925 - 1990)

تفوق خصوبة المسلمين	المؤشر التركيبي للخصوبة (عدد اطفال كل امرأة)			الفترة
	المسلمون	الدروز	المسيحيون	
49 %	8,69	7,62	5,83	جميع الفلسطينيين 1925 - 1929
45%	7,98	6,88	5,52	1930 - 1934
46 %	7,47	6,64	5,10	1935 - 1939
64 %	7,44	6,72	4,55	1940 - 1944
76 %	8,13	7,08	4,62	العرب الإسرائيليون 1955 - 1959
100 %	9,33	7,79	4,67	1960 - 1964
117 %	9,22	7,30	4,26	1965 - 1969
151 %	8,57	7,14	3,42	1970 - 1974
132 %	7,25	6,91	3,13	1975 - 1979
132 %	5,51	5,41	2,37	1980 - 1984
88 %	4,70	4,19	2,49	1985 - 1989

الأراضي المحتلة

الفترة	الضفة الغربية	غزة
1969 - 1986	7,63	7,74
1970 - 1974	7,92	8,38
1975 - 1979	7,96	9,01
1980 - 1984	7,13	8,25
1985 - 1990	7,23	8,71

المصدر : من عام 1932 إلى عام 1944 : جوستين ماك كارثي، مصدر
سابق ذكره. من عام 1955 إلى عام 1990 : الملخصات الإحصائية الإسرائيلية،
المجلد 4 ، القدس ، 1990.

VIII . 10 . الجدول

الخصوبة بحسب الطائفة في لبنان (1971)

المسلمون			المسيحيين		
الدروز	الشيعة	السنة	الآخرين	الموازنة	
					معدل الخصوبة في عام 1970، بالنسبة لكل ألف من النساء المتزوجات
300	300	380	158	158	15 - 19
316	443	378	400	343	20 - 24
300	463	355	252	350	25 - 29
154	360	324	198	202	30 - 34
150	281	230	68	113	35 - 39
56	172	74	19	65	40 - 44
					العدد النهائي المتوسط للأطفال بالنسبة لكل امرأة
5 ر 33	8 ر 49	6 ر 91	5 ر 14	5 ر 20	النساء المتزوجات اللواتي تتراوح أعمارهن بين 45 و 49 سنة
3 ر 56	6 ر 58	5 ر 18	3 ر 33	3 ر 81	المؤشر الفعلي
15 %	17 %	20 %	12 %	10 %	أساليب منع الحمل المستخدمة
33 %	10 %	20 %	32 %	10 %	الحبوب العزل

المصدر: ج . كامى، الدين والخصوبة، التباينات بين المسيحيين والمسلمين العرب، دار نشر جامعة كمبريدج، كمبريدج، 1981.

الجدول 11 . VIII

التوزيع الطائفي بحسب المحافظة فى مصر (1986)

المحافظة	المسلمون	المسيحيون	آخرون
القاهرة	5436780	565101	5409
الإسكندرية	2713749	182294	416
بورسعيد	377730	16095	16
السويس	311011	13786	55
دمياط	738079	1751	16
الدقهلية	3457715	35304	187
الشرقية	3369380	41333	711
القليوبية	2417819	89948	21
كفر الشيخ	1784454	11266	29
الغربية	2815099	47722	174
المنوفية	2182246	40707	81
البحيرة	3205880	44792	57
الإسماعيلية	525667	15546	10
الجيزة	3534542	14898	180
بنى سويف	1359842	79046	31
الفيوم	1487569	54466	223
المنيا	2160359	480592	85
أسيوط	1810739	395588	88
سوهاج	2141482	307343	55
قنا	2091479	153860	53
أسوان	751691	41678	10
البحر الأحمر	81369	3547	0
الوادى الجديد	109391	1751	0
مطروح	155561	1551	0
شمال سيناء	168990	652	6
جنوب سيناء	24708	217	0
الإجمالى	45213331	2774034	7913

المصدر : تعداد السكان.

الجدول 12. VIII

التوزيع المائتي بحسب المحافظة في سوريا (1948 و 1960)

تعداد عام 1960				التقدير الإداري لعام 1948				
الإجمالي	اليهود	المسيحيين	المسلمون	الإجمالي	اليهود	المسيحيين	المسلمون	
4565121	5067	361064	4198464	3057456	32510	436510	2588436	سوريا
529963	2392	45641	481838		15862	75122	560486	مدينة دمشق
455396	7	23839	431510	651470		49026	178915	دمشق
380471	0	61975	318420	227941	0	2034	149732	حمص
313101	0	24283	288815	170766	0	82500	391253	حماه
515568	0	44967	470598	473754	1	128627	777877	اللاذقية
1242547	1852	87210	1153267	920972	14468	45744	104128	حلب
309494	816	58262	250339	151946	2074	4597	228640	المسكة
351977	0	3118	348842	233322	85	8826	80773	دير الزور
92011	0	5109	86902	89609	10	21034	116632	السويداء
162923	0	6660	156263	137676	10			درعا

الجدول 13 . VIII

التوزيع المائتي بحسب المحافظة في العراق في تعدادي عام 1947 وعام 1965

1965				1947				
الإجمالي	اليهود	المسيحيون	المسلمون	الإجمالي	اليهود	المسيحيون	المسلمون	
2045375	2616	127140	1915619	816917	775442	37059	702316	<p>بغداد نينوى + دهوك النجف + القادسية ذي قار اليعفر ميسان كركوك كربلاء ديالى بابل أربيل السليمانية واسط الأنبار</p>
888601	49	69014	819538	595153	10345	77386	507422	
543228	51	604	542573	378117	825	285	377007	
498850	17	1835	496998	371872	652	939	370281	
669479	260	15929	653290	368707	10537	8868	349302	
345467	19	2615	342833	307009	2131	3401	301477	
473626	32	13960	459634	285974	4042	7808	274124	
339854	0	22	339832	274264	39	15	274210	
397363	6	1207	396150	272221	2851	839	268531	
448168	10	657	447501	261206	1865	212	259129	
356293	47	8731	347515	239775	3109	8051	228615	
399768	29	2402	397337	226399	2271	566	223562	
334331	20	664	333647	224930	349	340	224241	
307012	25	3958	303029	192922	1442	10489	180991	
8047415	3182	248737	7795496	4815466	118000	156258	4541208	الإجمالي

VIII. 14 الجدول

التوزيع المائتي لسكان الاربن (الحدود الحالية) بحسب المائتي (1950 - 1979)

المنطقة	1950		1961		1979	
	المسلمون	المسيحيون	المسلمون	المسيحيون	المسلمون	المسيحيون
البلقاء	212734	30364	464279	47057	1228385	68344
عمان			390510	41792	1089025	61676
البلقاء			73769	5265	139360	6668
عجلون، اربيد	223343	12278	262728	11166	587991	13769
الكرك	95896	6652	63953	3257	119480	4591
معان	18552	181	46406	503	71802	2016
الإجمالي	550525	49475	837366	61983	2007658	88720

الجدول 15. VIII

التوزيع المائتي السكان العرب في الضفة الغربية ونقرة بحسب المائنة

١٩٩٠		١٩٧٢		١٩٦١		المنطقة
المسيحيون	المسلمون	المسيحيون	المسلمون	المسيحيون	المسلمون	
١٤٦٠٠	١٣١٧٠٠	١١٨٠٠	٧٤٤٠٠	٤٢٦١٨	٣٠١٦٤٨	القدس
٦٧٥٠	٩٤٨٢٥٠	٤٤٠٨	٦٢٢٥٥٧	٣٢٣٧	٤٥٧٧٣١	بقية الضفة الغربية
	٨٩٥٤٠٠		٥٩٥٩٠٠			غزة *

* لم يحسب تعداد غزة خلال فترة إدارة مصر لها، وتوزيعها المائتي غير معروف.
المصادر: ١٩٦١، تعداد الأردن؛ ١٩٧٢ و ١٩٩٠، الإحصاءات الإسرائيلية.

VIII.16 الجدول

النزوح اللبناني (1860 - 1987)

الفترة	العدد السنوي	المعدل الوسطي
1860 - 1899	3000	0,8%
1900 - 1913	15000	3,4%
1914 - 1918	0	0,0%
1919 - 1938	4400	0,6%
1939 - 1945	0	0,0%
1946 - 1958	3 500	0,3%
1959 - 1962	14 700	0,8%
1963 - 1972	5 200	0,3%
1975 - 1979	53 200	2,0%
1980 - 1983	33 000	1,1 %
1984 - 1987	68 400	2,3 %

المصادر: 1860 - 1958: ا. سافا، النزوح، مصدر سبق ذكره؛ 1959 - 1972: ي. كريباج وف. فارح، الوضع، المجلد ٢، مصدر سبق ذكره؛ 1975 - 1987: ب. لبكي، «النزوح الخارجي»، مغرب - مشرق، العدد 125، باريس، 1989.

حاشية: 1860-1958 = النزوح (حالات الخروج النهائي)؛ 1958 - 1987 = صفى النزوح (حالات الخروج - حالات النحول).

الجدول 17. VIII

البنانيون في لبنان وفي الشتات، بحسب تعداد عام 1932

الناطق	الأعداد المطلقة في عام 1932		المساهمة في الشتات
	في لبنان	في الخارج	الميل إلى النزع
المارونية	227800	12397	49 %
الارثوذكس اليونانيون	77312	57031	22 %
الكاثوليك اليونانيون	46709	29627	12 %
البروتستانت	6869	2931	1 %
الارمن	31992	2424	1 %
مسيحيون مختلفون	6264	434	0 %
إجمالي المسيحيين	396946	215844	85 %
السنة	178130	17205	7 %
الشيعة	155035	10910	4 %
الدرزي	53334	8750	3 %
إجمالي المسلمين	386499	36865	14 %
يهود آخرون	9981	1677	1 %
الإجمالي	793426	254386	100 %

المصدر: أ. د. فهدا، التوزيع الطائفي في لبنان، مصدر سبق ذكره.

VIII. 18 الجدول

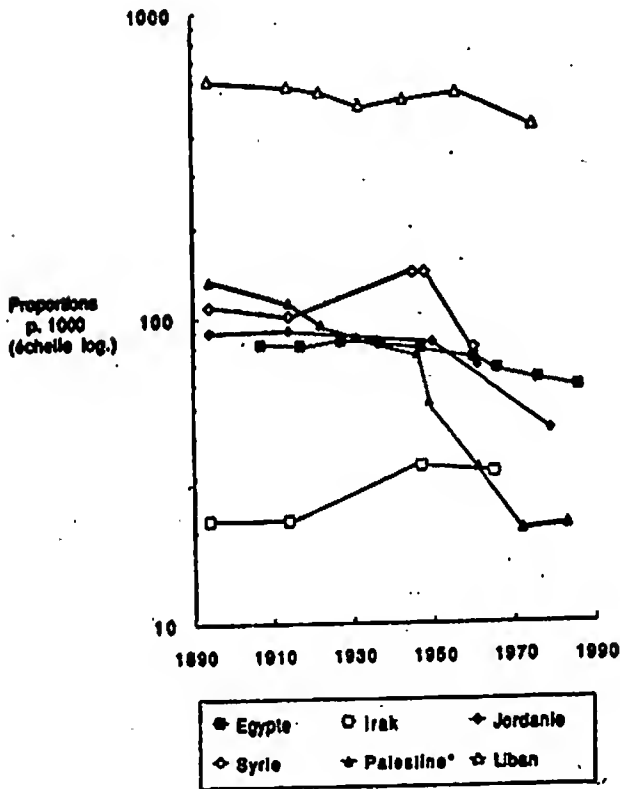
الجماعة المسيحية الشرقية بحسب الكنييسة والبلد (تقدير في عام 1992)
(بالآلاف)

الكنيسة	مصدر *	لبنان	سوريا	المراق	الأردن	إسرائيل	الأراضي المحتلة	تركيا	مجملا الشرق الأوسط
القطبية (جميع الملل) الأرثوذكسية اليونانية المارونية الكاثوليكية اليونانية الأرمنية الرسولية الكنماتية الكاثوليكية اليعقوبية اللاتينية البوشتاتنية السورية الكاثوليكية الاسطورية الأرمنية الكاثوليكية العدد المطلق للمسيحيين النسبة في السكان	316,1 4,2 2,4 4,5 7,2 0,5 0,2 3,6 19,8 12,2 0,0 0,6 3160,3 5,7 %	2,1 322,5 537,0 279,2 214,8 5,4 16,1 3,2 22,1 21,5 5,4 21,5 1400,4 43,8 %	0,0 483,3 26,9 107,4 107,4 6,4 85,9 10,7 19,3 21,5 16,1 23,6 847,4 6,4 %	1,1 0,5 0,0 0,4 15,0 234,1 22,3 3,1 3,5 33,3 52,6 3,3 279,1 4,4 %	1,1 75,2 0,0 20,4 3,2 0,0 2,0 32,2 4,1 0,0 0,0 0,4 137,1 4,2 %	0,8 32,4 7,2 43,0 3,3 0,0 0,1 12,9 4,4 0,1 0,0 0,1 101,3 2,1 %	2,7 40,4 0,3 4,3 2,8 0,0 2,4 14,8 4,7 0,5 0,9 0,3 69,7 3,8 %	0,0 13,1 0,0 0,0 64,4 37,6 5,4 4,9 6,1 0,0 4,8 13,1 0,2 %	312,3 97,7 573,8 459,2 416,2 252,9 166,7 86,0 82,9 79,7 75,0 54,7 6127,2 3,8 %

* تم التوصل إلى العدد الإجمالي للمسيحيين باستقراء تعداد عام 1986.
المصدر : استخلاص قام به المؤلفان من بيانات قمتها نورمان أ. هورنر، دليل إلى الكنائس المسيحية مصدر سبق ذكره.

VIII الشكل

نسبة المسيحيين في البلدان العربية في المشرق
(1890 - 1990)



حواشي الفصل الثامن

- 1- In Anouar ABDEL-MALEK, *Anthologie de la littérature arabe contemporaine*, vol. II, Paris, Seuil, 1965.
- 2 - Voir chapitre V.
- 3- Kemal KARPAT, *Ottoman Population, 1830- 1914, Demographic and Social Characteristics*, Madison, The University of Wisconsin Press, 1985.
- 4 - Pour le Mont- Liban, nous avons eu recoure aux chiffres de Vital CUINET, *Syrie, Liban et Palestine. Géographie administrative, statistique et raisonnée*, Paris, E. Leroux, 1896.
- 5 - La *nahda* compte de nombreux écrivains chrétiens.
- 6 - Feroz AHMAD, "Unioist Relation with the Greek, Armenian, and Jewish Communities of the Ottoman Empire, 1908- 1914", in Benjamin BRAUDE et Bernard LEWIS, *Christians and Jews in the Ottoman Empire*, New York, Holmes and Meir Publishers, 1982.
- 7 - Georges CORM, *L'Europe et l'Orient*, Paris, La Découverte, 1989, ou Edgard Morin, *Vidal et les siens*, Paris, Seuil, 1988.
- 8 - Liban, Syrie, Israël, Jordanie.
- 9 - Héritière de Muhammad Ali, sa statistique publie depuis 1907 des annuaires d'une remarquable tenue, rédigés en français jusqu'en 1952, y compris donc sous le mandat britannique: souvenir des missions scientifiques envoyées en France au XIX^e siècle. Les décès y sont répartis avec un luxe de détails selon la préfecture et la cause, mais seulement à partir de 1944 selon la confession, et avec irrégularité.
- 10 - Voir chapitre V.
- 11 - Les taux bruts de mortalité fournis au tableau VIII. 4 sont tirés de l'état civil, sans ajustement. Durant la période nassérienne, la mortalité chrétienne paraît anormalement faible, probablement à cause de non - déclarations.
- 12 - Les données en notre possession ne fournissent qu'un seul taux pour les quinze dernières années, celui de 1980.
- 13- Mais pas nécessairement plus fiables: dans la Palestine sous mandat britannique, les décès étaient sous-enregistrés. L'espérance de vie à la naissance s'en trouve surestimée, mais les différences confessionnelles sont respectées.
- 14- Georges KOSSAÏFI, *Contribution à l'étude démographique de la population palestinienne*, université de Paris I, 1976, vol. I.
- 15- Department of Statistics, *A Survey of Palestine*, Anglo-American Committee of Inquiry, Jérusalem, 1946, vol. I.
- 16- Taux à 5-14 ans, Georges KOSSAÏFI, *Contribution à l'étude démographique...*, *op. cit.*
- 17 - Les Arabes israéliens jouissent Sans doute de la mortalité infantile la

plus faible de toutes populations arabes. Elle dépasse toutefois sensiblement celle des Juifs de même nationalité. Voir chapitre VII.

18 - C'est le nom qu'adopta le mouvement chiite de l'imam Moussa sadr dans les années 70.

19- Hoda ZURAYK, Haroutune ARMENIAN et al., *Beirut 1984: A Population and Health Profile*, American University of Beirut, Beyrouth, 1985.

20 - Philippe FARGUES et Myriam KHLST, "Child Mortality in Beirut: Six Indirect Estimates Based on Data Collected at the Time of a Birth", *Population Studies*, vol 43 /3, Londres, 1989.

21 - Voir chapitre V et VI.

22 - Philippe FARGUES, "Un siècle de transition démographique en Afrique méditerranéenne, 1885 - 1985", *Population*, n°2, Paris, 1986.

23 - Les naissances sont légèrement sous- enregistrées à l'état civil égyptien. Des redressements sont proposés dans *The Estimations of Recent Trends in Fertility and Mortality in Egypt*, Committee on Population and Demography, Washington, National Academy Press, 1982.

24 - Pierre RONDOT, "L'évolution historique des coptes d'Egypte", *Cahiers de l'Orient contemporain*, n°2, Paris, 1950.

25 - Laurent et Annie CHABRY, *Politique et minorités au Proche -Orient*, Paris, Maisonneuve et Larose, 1984.

26 - Otto F.A. MEINARDUS, *Christian Egypt. Faith and Life*, Le Caire, The American University in Cairo Press, 1970.

27 - VOLNEY, *Voyage en Egypte et en Syrie*, Paris, Mouton, 1959.

28 - Laurent et Annie CHABRY, *Politique et minorités...*, op. cit.

29 - Le chiffre réel du recensement de 1986 est 2 829 349 chrétiens de tous rites, coptes et non- coptes.

30 - christian Cannuyer, *Les Coptes*, Bruxelles, Brepols, 1990.

31 - Pierre RONDOT, *Les Chrétiens d'Orient*, Paris, Peyronnet, 1955.

32- Il y a un demi-siècle, quelques, conversions à l'islam survenaient encore, trop rares pour expliquer la baisse de la proportion. "(Des coptes) ne voient plus de raison de continuer à appartenir à une secte qui les différencie des voisins sans rien leur donner en retour", notait Charles ISSAWI, cité par Pierre RONDOT, qui observait que "chaque année plusieurs centaines de coptes passent à l'islam", *Les Chrétiens d'Orient*, op. cit.

33 - Les séries qui permettent de calculer l'indice synthétique de fécondité, naissances par confession et âge de la mère dans la population arabe israélienne, ne sont en fait disponibles qu'à partir de 1955.

34 - Aucune population nationale ne semble avoir jamais connu une telle fécondité. Le Kenya, qu'on présentait comme un record vers 1980, avait alors un indice égal à 8, 5.

35 - Les Palestiniens sont, avec les Libanais, les plus éduqués des Arabes, particulièrement les femmes.

36 - Voir chapitre VII.

37 - En 1990, la fécondité augmenta encore à Gaza, pour atteindre 9,6 enfants par femme.

38- Cité par Jean- François LEGRAIN, "Mobilisation islamiste et soulèvement palestinien, 1987 - 1988", in *Intellectuels et militants de l'Islam*

contemporain, sous la dir. de Gilles KEPEL et Yann RICHARD, Paris, Seuil, 1990.

39 - Jusqu'aux accords de Taef : 54 députés chrétiens (30 maronites, 11 grecs orthodoxes, 6 grecs catholiques, 4 arméniens orthodoxes, 1 arménien catholique, 1 protestant, 1 représentant des autres minorités) et 45 musulmans (20 sunnites, 19 chiïtes, 6 druzes).

40 - Voici ces répartitions (en %), assez dissemblables comme on peut le vérifier.

Communauté	1922	1932
CHRÉTIENS		
Maronites	32,7	28,8
Grecs orthodoxes	13,4	9,8
Grecs catholiques	7,0	5,9
Autres	2,1	6,8
MUSULMANS		
Sunnites	20,5	22,4
Chiïtes	17,2	19,6
Druzes	7,2	6,8

Source: Saïd HIMADEH, *Economic Organization of Lebanon and Syria*, Beyrouth, American University of Beirut, 1936.

41 - Localité d'Arabie Saoudite.

42 - L'Arabie Saoudite est également un allié de L'Occident et une puissance régionale qui aspire à jouer un rôle d'arbitre dans divers conflit interarabes, au Liban notamment.

43 - Les accords de Taef ont porté à 54 le nombre des députés musulmans.

44 - En fait, les chrétiens conservèrent la première place dans l'administration: en 1978, ils détenaient 53% des postes de la fonction publique. Boutros LABAKI, *Education et mobilité sociale dans la société multicommunautaire du Liban. Approche socio-historique*, Francfort, Deutsches Institut für Internationale Pädagogische Forschung, 1988.

45 - L'enquête effectuée en 1987 par Robert Kasparian indique à la fois une natalité basse (8,0% de moins de 5 ans dans la population totale, soit un taux brut de natalité d'environ 16 ‰) et une fécondité légitime encore modérée:

3,3 enfants en moyenne au 15^e anniversaire du mariage dans les cohortes 1970-1974. La nuptialité féminine est en effet devenue particulièrement tardive: 26,5 ans en moyenne au premier mariage. On ne dispose pas de données comparatives sur les musulmans. Robert KASPARIAN, *Enquête sur la famille chrétienne au Liban*, Beyrouth, Centre d'études et de recherches sur l'Orient chrétien, 1990.

46 - Le rapport de *l'Enquête sur la famille chrétienne...*, *op. cit.*, ne fournit pas les naissances par période et par âge des femmes. La pyramide des âges permet cependant une estimation de la fécondité, en multipliant par 7 le rapport des enfants de moins de 5 ans aux femmes de 15 - 49 ans.

47 - Estimation de Salma HUSSEINI MOUSSAWI pour 1975, *Redistribution de*

la population du Liban pendant la guerre civile (1975 - 1990), Ecole des hautes études en sciences sociales, thèse de doctorat, Paris, 1992.

48- Cité par Jean- Pierre PÉRONCEL- HUGOZ, *Une croix sur le Liban*, Paris, Lieu commun, 1984. Béchir Gemayel ignorait- il que la période turque avait été favorable à la démographie chrétienne?

49 - En réalité, des disparités régionales furent mise en évidence. Mais elles reflétaient des inégalités confessionnelles. Mission IRFED - Liban, *Besoins et possibilités de développement au Liban*, 2 vol., Beyrouth, 1961.

50- Les chrétiens gagnaient souvent les procès en intégration dans la nationalité libanaise, pourvu qu'ils pussent prouver qu'un de leurs ancêtres avait habité le territoire qui forma plus tard le Liban.

51 - C'est aussi le cas des chrétiens de Jordanie et de Syrie. L'unique indice que l'on possède sur leur fécondité (rapport enfants / femmes : voir tableau VIII. 16) révèle une différence très profonde dans le premier pays, où ils sont majoritairement orthodoxes, mais plus atténuée dans le premier pays, Ou ils sont majoritairement orthodoxe, mais plus atténuée dans le second, qui possède une plus grande diversité et d'importantes communautés catholiques rurales.

52 - May DAVIE, "Ville, notables et pouvoir : les orthodoxes de Beyrouth au XIX^e siècle", communication au colloque *Bourgeoisies et notables au Maghreb et au Machrek*, Grasse, 1991.

53 - Voir chapitre V.

54 - Dans la ville de Zahlé notamment.

55 - L'enquête libanaise de 1971 donnait aux druzes une fécondité très modérée, inférieure à celle des maronites, *Al -Usra fi Lubanan (La Famille au Liban)*, Association libanaise pour le planning familial, 2 vol., Beyrouth, 1974. Peut-être les druzes fermés aux adhésions depuis qu'en 1043 le calife Mukтана Baha Eddin les décréta closes, possèdent-ils la démographie fragile de nombreux isolats?

56- Exception faite des population sunnites du Dennyé et du Djebel Qammoua.

57 - Alan DUBEN et Cem BEHAR, *Istanbul Households. Marriage, Family and Fertility*, 1880- 1940, Cambridge, Cambridge University Press, 1991.

58 - A l'exception des Bosniaques en Yougoslavie et des Bulgares, Youssef COURBAGE, "Les transitions démographiques des Muslumanns, en Europe orientale", *Population*, Paris, n° 3, 1991.

59 - Les écoles religieuses chrétiennes - Collège protestant, Notre- Dame de Jarnhour, Sœurs de Nazareth, etc. - et le lycée franco- libanais de Beyrouth ont toujours reçu les faveurs de la bourgeoisie sunnite, grande ou petite.

60- C'est la fécondité observée en 1984, *Family Planning in Rural Lebanon; 1983 - 1984*, Lebanon Family Planning Association, Beyrouth, 1985. Cette enquête ne fournit pas les données qui permettraient de comparer la fécondité des deux régions couvertes- Sud et Beqaa Ouest, à forte majorité chiite - avec celle des familles chrétiennes; Robert KAS PARIAN, *Enquête sur la famille chrétienne...*, op. cit.

- 61 - VOLNEY, *Voyage..., op. cit.*
- 62 - Leïla TARAZI FAWAZ, *Merchants and Migrants in XIXth century Beirut*, Cambridge, Harvard University Press, 1983.
- 63- Etienne de VAUMAS, "La répartition confessionnelle au Liban et l'équilibre de l'Etat libanais", *Revue de géographie alpine*, vol. XLIII / III, Grenoble, 1955
- 64- Salma HUSSEINI MOUSSAWI, *op. cit.* Voir aussi les travaux de Abdo KAHN, in Nabil BEYHUM, *Reconstruire Beyrouth. Les paris sur le possible*, Lyon, IRMAC, 1991.
- 65 - La méthode Ogino chez les chrétiens du Liban, le coït interrompu chez les Français.
- 66- Boutros LABAKI a récemment publié un inventaire du rôle des institutions religieuses, chrétiennes et musulmanes, dans la promotion de l'enseignement au Liban: *Education et mobilité..., op. cit.*
- 67 - Alexandrie non comprise.
- 68 - Villes fondées en 1860 et 1863 par la Compagnie du canal de Suez.
- 69 - Elle comptait 2 millions d'adhérents en 1948, dont 1 million en Egypte. *Atlas mondial de l'islam activiste*, Paris, la Table ronde, 1991.
- 70 - "Alexandrie, si paisible en apparence, n'était pas un endroit sûr pour les chrétiens", écrivait cependant l'auteur du Quatuor d'Alexandrie, *Justine*, Paris, Buchet - Chastel, 1957.
- 71 - Au recensement de 1937, Alexandrie comptait 597 385 nationaux et 88 351 étrangers, dont 36 822 Grecs, 22 881 Britanniques et 14 030 Italiens.
- 72 - 10 834 étrangers au recensement de 1986, sur 2 896 459 habitants.
- 73 - L'ensemble de la Moyenne et de la Haute- Egypte, qui commence à Giza et finit à Assouan.
- 74- Voici ce que Jacques BERQUE écrit de la fin du siècle dernier: "Le copte, qui est le plus vieux paysan d'Egypte, exerce des métiers de circonstance. Par exemple tout ce qui touche au cadastre et au fisc : compromettante spécialité. Lui qui tient de plus près que tout autre à la glèbe immémoriale, se laisse parfois tenter par l'expatriation du langage et des conduites (...) Sa communauté dispersée mais solidaire n'en introduit pas moins sa contribution, une nuance - et parfois un contraste - dans la cité musulmane. Un axe secondaire qui cherche sa voie", *L'Egypte, impérialisme et révolution*, Paris, Gallimard, 1967.
- 75 - Assassiné en 1981 par des islamistes, le président Anouar el- Sadate avait nommé en 1973 à Assiout un gouverneur, Muhammad Uthman Ismail, dont Gilles KEPEL rappelle qu' "il s'emploie (jusqu'en 1982) à encourager les Jamaat islamiyya afin qu' elles luttent contre les communistes", avant d'ajouter que "le prodigieux développement des associations islamistes universitaires est cependant dû à la dynamique propre qu'elles ont su impulser", *Le Prophète et pharaon. Les mouvements islamistes dans l'Egypte contemporaine*, Paris, La Découverte, 1983.
- 76 - On ne sait pas quelle est la proportion actuelle.
- 77- Malgré quelques avatars, cités par Christian LOCHON, *Les Communautés*

chrétiennes en Syrie à la fin du XIX^e siècle, communication aux Journées de l'association Française pour l'étude du monde arabe et musulman, Tours, 1991.

78 - Il appartiendra à l'aile pro- irakienne du parti.

79 - Cité par Olivier CARRE, *L'Utopie islamique dans l'Orient arabe*, Paris, Presses de la Fondation nationale des sciences politiques, 1991.

80 - Les alaouites forment une branche des chiïtes. Fondée par Muhammad Ibn Nuçair (884), qui se disait incarnation de l'Esprit saint, la communauté rejette diverses obligations rituelles de l'islam. Elle ne survit qu'en Syrie, et en faible nombre au Liban et en Turquie. Louis MASSIGNON, art. "Nusairiya", *Encyclopédie de l'Islam*, op. cit.

81 - Les Assyriens, groupe ethnique pratiquant encore un dialecte araméen, se répartissent entre deux Eglises: les nestoriens, séparés de Rome, et les chaldéens, retournés à Rome. En Irak, elles sont respectivement dans des proportions de 10% et 90%.

82 - Pierre RONDOT, *Les Chrétiens d'Orient*, op. cit.

83 - Généralisant un peu vite à l'Orient entier la spécificité libanaise, Etienne de Vaumas notait: "L'Orient est infiniment moins enraciné à son sol que le paysan d'Occident, sa communauté compte infiniment plus pour lui que la terre. (...) De là cette tendance à former des diasporas répandues dans le monde entier", Etienne de VAUMAS, "La répartition confessionnelle..", op. cit.

84 - Voir chapitre V.

85- Boutros LABAKI a bien montré la diversité des causes de cette émigration, "L'émigration libanaise en fin de période ottomane (1850 - 1914)", Hannon, *revue libanaise de géographie*, vol. XIX, Beyrouth, 1987.

86 - 15000 et 8000 départs par an, respectivement: Yousef COUR BAGE et Philippe FARGUES, *La Situation démographique au Liban*, vol. II, beyrouth, Librairie orientale, 1974.

87- Les maronites du Liban se sentent forts de leurs émigrés outre-Atlantique. Comme la mémoire libanaise s'est estompée au fil du siècle, ils tendent à surestimer le nombre des Libanais - de cœur ou de fait- parmi ces émigrés. D'autres émigrés libanais dont le départ est plus récent, les chiïtes en Afrique, conservent une solidarité communautaire active.

88 - Par nature, l'émigré ne peut pas être recensé directement dans le pays de départ. Il lui faut un répondant, le plus souvent familial. Tout le monde n'en a pas, en particulier l'émigré ancien. Le recensement a très vraisemblablement sous-évalué l'émigration (254000 en 1932), mieux estimée par Elie SAFA, *L'Emigration libanaise*, Beyrouth, université Saint - Joseph, 1960: 1214500 en 1959.

89 - Nous avons vu que c'était l'inverse au siècle passé: chapitre V.

90 - Les chrétiens représentent aujourd'hui 2,1% des Arabes qui résident en Israël et dans les territoires occupés et 4% en Jordanie.

91- L'UNRWA décomptait au Liban les résidents palestiniens des camps: 130 500 en 1970. Vivant hors des camps, la majorité des Palestiniens échappait à la statistique.

92 - Youssef COURBAGE et Philippe FARGUES, *La Situation démographique*

au Liban..., op. cit., vol. II.

93 - Transférée à Tunis en 1982, la centrale palestinienne retira ses capitaux des banques libanaises; à partir de 1984, la crise des économies du Golfe limita par ailleurs les remises d'épargne des émigrés.

94 - Koweït et Bahraïn font exception. L'un et l'autre produisent une bonne statistique de leurs ressortissants étrangers. Le détail en est toutefois trop grossier pour nous renseigner sur la composition confessionnelle de la diaspora libanaise. On sait seulement que la proportion de chrétiens parmi les étrangers (toutes nationalités confondues) était de 23,5% au dernier recensement de Bahraïn (1981) et qu'elle a évolué de la manière suivante à Koweït : 1957: 10,5%, 1965: 10,0%, 1970: 8,7%, 1975: 8,6%, 1980: 11,0%, 1985: pas d'information sur la religion. La coïncidence entre la remontée de la proportion de chrétiens au Koweït et la guerre civile au Liban est trop ténue pour constituer un signe.

95- Le *caza* est la plus petite division administrative : le Liban en compte 24. Tous étaient effectivement mixtes avant 1975. Cela ne veut pas dire que les villages eux-mêmes l'étaient tous.

تعليقات الفصل الثامن

٢ - انظر الفصل الخامس.

٤ - بالنسبة لجبل لبنان، لجأنا إلى الأرقام التي قدمها فيتال كينيه.

٥ - ضمت النهضة كتاباً مسيحيين عديدين.

٨ - لبنان، سوريا، إسرائيل، الأردن.

٩ - إن مصر، وريثة محمد علي، قد نشر جهازها الإحصائي منذ عام ١٩٠٧ كتاباً سنوية تتميز بمستوى رائع من الضبط، محررة بالفرنسية حتى عام ١٩٥٢، ومن ثم حتى في ظل الانتداب البريطاني؛ وهو ما يشكل أثراً من آثار البعثات العلمية التي أرسلت إلى فرنسا في القرن التاسع عشر. وقد جرى توزيع المتوفين في هذه الكتب السنوية بوفرة من التفاصيل بحسب محل الوفاة وسببها، إلا أنه لم يجر توزيعهم بحسب الطائفة إلا اعتباراً من عام ١٩٤٤، وبصورة غير منتظمة.

١٠ - انظر الفصل الخامس.

١١ - إن المعدلات الإجمالية للوفيات والمقنمة في الجدول VIII.4 مستمدة من بيانات الحالة المدنية، دون تعديل. وخلال الفترة الناصرية، تظهر وفيات المسيحيين ضعيفة بشكل غير عادي، والأرجح أن ذلك يرجع إلى حالات من عدم الإعلان عنها.

١٢ - إن البيانات التي لدينا لا تقدم غير معدل واحد بالنسبة للسنوات الخمس عشرة الأخيرة، هو معدل عام ١٩٨٠.

١٣ - لكنها ليست بالضرورة أكثر أهلية للاعتماد عليها: ففي فلسطين في ظل الانتداب البريطاني، كان هناك انخفاض في تسجيل المتوفين. ومعدل الحياة عند الميلاد يبدو مبالغاً في تقديره، لكن الاختلافات الطائفية قد روعيت.

١٦ - معدل ٥ - ١٤ سنة.

١٧ - لا مراء في أن العرب الإسرائيليين يتمتعون بأضعف معدل وفيات الأطفال بين جميع الجماعات السكانية العربية. على أنه يتجاوز بشكل محسوس معدل وفيات الأطفال عند اليهود الذين يحملون الجنسية نفسها. انظر الفصل السابع.

١٨ - ذلك هو الاسم الذي تبنته حركة الإمام موسى الصدر الشيعية في السبعينيات.

٢١ - انظر الفصل الخامس والسادس.

٢٣ - يتميز المواليد بتسجيل منخفض بدرجة طفيفة في سجلات الحالة المدنية المصرية.

٢٩ - الرقم الفعلي لتعداد عام ١٩٨٦ هو ٢٨٢٩٣٤٩ مسيحياً من جميع الممل، الاقتباط وغير الاقتباط.

٢٢ - على مدار نصف قرن وحالات قليلة للتحويل إلى اعتناق الإسلام ما تزال تحدث، وهي جد نادرة بحيث لا يمكنها تفسير انخفاض النسبة. ويلاحظ شارل عيسوى: «أن [عدداً من الأقباط] لا يرون بعد سبباً لمواصلة الانتماء إلى طائفة تميزهم عن جيرانهم دون أن تعطيهم شيئاً في المقابل»، ويلاحظ بيير روتو، الذي يورد هذه الجملة، «أن عدة مئات من الأقباط يتحولون كل سنة إلى الإسلام».

٢٣ - لم تتوافر السلاسل التي تسمح بحساب المؤشر التركيبي للخصوبة والمواليد بحسب الطائفة وعمر الأم في السكان العرب الإسرائيليين إلا اعتباراً من عام ١٩٥٥.

٢٤ - لا يبدو أن أية جماعة سكانية قومية قد عرفت قط مثل هذه الخصوبة. إن كينيا، التي جرى تقديمها على أنها تتميز بمؤشر قياسى نحو عام ١٩٨٠، كان مؤشرها آنذاك يساوى ٨٠.

٢٥ - إن الفلسطينيين، مع اللبنانيين، هم الأكثر تعلماً بين العرب، خاصة النساء.

٣٦ - انظر الفصل السابع.

٣٧ - في عام ١٩٩٠، زادت الخصوبة زيادة أكبر في غزة، لتصل إلى ٩٦ أطفال للمرأة الواحدة.

٣٩ - حتى اتفاقيات الطائف: ٤٥ نائباً مسيحياً (٣٠ مارونياً، ١١ أرثوذكسياً يونانياً، ٦ كاثوليك يونانيين، ٤ أرمن أرثوذكس، أرمني كاثوليك، بروتستانتى، ممثل للأقليات الأخرى) و ٤٥ مسلماً (٢٠ سنياً، ١٩ شيعياً، ٦ دروز).

٤٠ - إليكم هذه التوزيعات (بنسب مئوية)، جد المتباينة كما يمكن للمرء أن يتحقق من ذلك.

الطائفة	1922	1932
المسيحيين	32, 7	28, 8
الموارنة	13, 4	9, 8
الأرثوذكس اليونانيون	7, 0	5, 9
الكاثوليك اليونانيون	2, 1	6, 8
آخرون		
المسلمون	20, 5	22, 4
السنة	17, 2	19, 6
الشيمة	7, 2	6, 8
الدروز		

المصدر: سعيد حمادة: تنظيم لبنان وسوريا الاقتصادى، بيروت، الجامعة الأمريكية في بيروت، ١٩٣٦.

٤١ - بلد بالعربية السعودية.

٤٢ - إن العربية السعودية هي أيضاً حليف للغرب وقوة إقليمية تطمح إلى لعب دور الحكم في مختلف النزاعات العربية - العربية، خاصة في لبنان.

٤٣ - أدت اتفاقيات الطائف إلى زيادة عدد النواب المسلمين إلى ٥٤.

٤٤ - الواقع أن المسيحيين قد احتفظوا بالصدارة في الإدارة: ففي عام ١٩٧٨، كانوا يحوزون نسبة ٥٣٪ من المناصب في الوظائف العامة.

٤٥ - يشير الاستقصاء الذي قام به روبير كاسباريان في عام ١٩٨٧ في أن واحد إلى معدل مواليد منخفض (٨٠٪ من الأقل من ٥ سنوات في إجمالي السكان، أي معدل مواليد إجمالي قدره نحو ٠.١٦٪) وخصوبة مبررة أكثر اعتدالاً: ٣.٣ أطفال في المتوسط في العيد الخامس عشر للزواج في جماعات ١٩٧٠ - ١٩٧٤. والواقع أن زيجات الإناث قد أصبحت متأخرة بشكل خاص: ٣٦ سنة في المتوسط عند الزواج لأول مرة. ولا نملك بيانات مماثلة بشأن المسلمين.

٤٦ - لا يقدم تقرير «استقصاء حول الأسرة المسيحية...» مصدر سبق ذكره، المواليد بحسب الفترة وبحسب عمر الزوجات. على أن هرم الأعمار يسمح بتقدير للخصوبة، بضرب علاقة الأطفال الذين تقل أعمارهم عن ٥ سنوات بالزوجات اللاتي تتراوح أعمارهن بين ١٥ و ٤٩ سنة في رقم ٧.

٤٧ - تقدير سلمى الحسيني الموسوي بالنسبة لعام ١٩٧٥.

٤٨ - هل كان بشير الجميل يجهل أن الفترة التركية كانت مؤاتية للديمقراطية المسيحية؟

٤٩ - الواقع أنه قد جرى إظهار التباينات الإقليمية. لكنها تعبر عن تفاوتات طائفية.

٥٠ - الواقع أن المسيحيين يكسبون غالباً الدعاوى الخاصة بالحصول على الجنسية اللبنانية، شريطة تمكنهم من إثبات أن أحد أجدادهم قد سكن الأرض التي شكلت فيما بعد لبنان.

٥١ - تلك أيضاً هي حالة مسيحيي الأردن وسوريا. والمؤشر الوحيد الذي نحوزه حول خصوبتهم (علاقة الأطفال/ الزوجات: انظر الجدول VIII. 16) يكشف عن اختلاف جد عميق في البلد الأول، حيث يعتبرون أرثوذكس في غالبيتهم، لكنه أخف في البلد الثاني، الذي يتميز بتنوع أكبر وبوجود طوائف كاثوليكية ريفية هامة.

٥٢ - انظر الفصل الخامس.

٥٤ - في مدينة زحلة خاصة.

٥٥ - ينسب استقصاء عام ١٩٧١ اللبناني إلى الدرزي خصوبة جد معتدلة، أدنى من خصوبة الموارنة. فهل يمكن اعتبار أن الدرزي الذين لا يمكن للأغراب الانتماء إليهم منذ أن قرر الخليفة المكتشي بهاء الدين في عام ١٠٤٣ أن يكونوا جماعة لا تسمح بانتماء الأغراب إليها يتميزون بالديمقراطية الهشة التي تميز العديد من الجماعات التي لا تقبل انتماء الأغراب إليها؟

٥٦ - فيما عدا الجماعات السكانية السنية في ديتيا وجبل قموعة.

٥٨ - فيما عدا البوسنيين في يوغوسلافيا والبلغار.

٥٩ - إن المدارس الدينية المسيحية - الكلية البروتستانتية، كلية نوتردام لوجمهور، كلية أخوات الناصرة، إلخ - والليسيه الفرنسي - اللبناني في بيروت قد نالت دأشاً حظوة البورجوازية السنية، الكبيرة أو الصغيرة.

٦٠ - تلك هي الخصوية المرصودة في عام ١٩٨٤، «تنظيم الأسرة في الريف اللبناني: ١٩٨٢ - ١٩٨٤»، رابطة تنظيم الأسرة في لبنان، بيروت، ١٩٨٥. ولا يقدم هذا الاستقصاء البيانات التي تسمح بمقارنة خصوية الإقليميين اللذين شملهما الاستقصاء - الجنوب والبقاع الغربي، المتميزين بغالبية شيعية - مع خصوية الأسر المسيحية.

٦٥ - أسلوب أوجينو عند مسيحيي لبنان، الجماع غير المتواصل عند الفرنسيين.

٦٦ - نشر بطرس لبكي مؤخراً بياناً بدور المؤسسات الدينية، المسيحية والإسلامية، في تعزيز التعليم في لبنان.

٦٧ - الإسكندرية خارج الدلتا.

٦٨ - مدينتان أنشأتها شركة قناة السويس في عامي ١٨٦٠ و ١٨٦٣.

٦٩ - كانت تضم مليونين من الاتباع في عام ١٩٤٨، من بينهم مليون في مصر.

٧٠ - لقد كتب مؤلف رباعية الإسكندرية على أية حال، أن «الإسكندرية، جد الهائلة من الناحية الظاهرية، لم تكن بلداً آمناً بالنسبة للمسيحيين».

٧١ - في تعداد عام ١٩٣٧، ضمت الإسكندرية ٩٧٣٨٥ مصرياً و ٨٨٣٥١ أجنبياً، من بينهم ٣٦٨٢٢ يونانياً و ٢٢٨٨١ بريطانياً و ١٤٠٣٠ إيطالياً.

٧٢ - ١٠٨٣٤ أجنبياً في تعداد عام ١٩٨٦، من ٢٨٩٦٤٥٩ ساكناً.

٧٣ - مجمل مصر الوسطى والعليا، التي تبدأ من الجيزة وتنتهي في أسوان.

٧٤ - إليكم ما يكتبه جاك بيرك عن أواخر القرن الماضي: «إن القبطي، وهو أقدم فلاح في مصر، يمارس مهناً ظرفية. على سبيل المثال، كل ما يتصل بالمساحة والضرائب: وهو تخصص يعرضه للشبهات، وعلى الرغم من أن ارتباطه بالأرض الأزلية يكاد يفوق ارتباط أي أحد آخر بها، فإنه يستسلم أحياناً لإغراء الاغتراب عن لغته ومعاملاته. [...] إن طائفته المبعثرة ولكن المتضامنة تقدم مع ذلك مساهمتها، التي تشكل فارقاً دقيقاً - وأحياناً تبايناً - في المدينة المسلمة. إنها محور ثانوي يبحث عن طريقه». «مصر، الإمبريالية والثورة»، باريس جاليمار، ١٩٦٧.

٧٥ - إن الرئيس أنور السادات، الذي اغتيل في عام ١٩٨١ على أيدي إسلاميين، كان قد عين في عام ١٩٧٣ في أسبوط محافظاً، هو محمد عثمان إسماعيل، الذي يذكر جيل كيبيل أنه «اجتهد (حتى عام ١٩٨٢) في تشجيع الجماعات الإسلامية حتى تتأصل ضد الشيوعيين»، وذلك قبل أن يضيف أن «التطور الهائل للجماعات الإسلامية الجامعية إنما يرجع على أية حال إلى اللينامية الخاصة التي تمكنت من حفزها».

٧٦ - لا تعرف النسبة الحالية.

٧٧ - بالرغم من بضع كوارث، أشار إليها كريستيان لوشون.

٧٨ - كان ينتمى إلى جناح الحزب الموالي للعراق.

٨٠ - يشكل العلويون فرعاً من الشيعة. والحال أن الطائفة، التي أسسها محمد بن نصير (٨٨٤)، الذي زعم أنه تجسيد للروح القدس، إنما ترفض العديد من فرائض الإسلام الشعائرية. وهي لا توجد إلا في سوريا، وبلعدها ضعيفة في لبنان وفي تركيا.

٨١ - إن الآشوريين، وهم جماعة عرقية ما تزال تستخدم لهجة آرامية، موزعون على كنيسة: كنيسة النساطرة، المنفصلين عن روما، وكنيسة الكلدانيين، الذين رجعوا إلى روما. وفي العراق يمثل النساطرة نسبة ١٠٪ من الآشوريين بينما يمثل الكلدانيون نسبة ٩٠٪ منهم.

٨٢ - في تعميمه الخصوصية اللبنانية بشكل سريع إلى حد ما على الشرق برمته، يلاحظ إيتيان دو ثومار إن الشرقى أقل تجزراً في أرضه إلى أبعد حد من فلاح الغرب، وطائفتهم أهم بالنسبة له إلى أبعد حد من الأرض [...] ومن هنا ذلك الاتجاه إلى تشكيل دياسپورات منتشرة في العالم كله.

٨٤ - انظر الفصل الخامس.

٨٥ - لقد بين بطرس لبكي بوضوح تنوع أسباب هذا النزوح.

٨٦ - ١٥٠٠٠ و ٨٠٠٠ راحل في السنة بحسب الترتيب.

٨٧ - يشعر مواطنو لبنان أنهم أقوى بمهاجريهم إلى ما وراء المحيط الأطلسي. وبما أن الذاكرة اللبنانية تبهت على مر القرن، فإنهم يميلون إلى المبالغة في تقدير عدد اللبنانيين - هوى أو فعلاً - بين هؤلاء النازحين. ويحتفظ نازحون لبنانيون آخرون يعتبر رحيلهم أحدث، وهم الشيعة في أفريقيا، بتضامن طائفي نشيط.

٨٨ - بحكم طبيعة الأمور، لا يمكن إسخال النازح في التعداد على نحو مباشر في البلد الذي يرحل عنه. ولا بد له من مسؤول يتوب عنه في الإدلاء بالبيانات، وهو في أغلب الأحيان على ارتباط عائلي به. والجميع ليس لهم مثل هذا المسؤول، خاصة النازح القديم. والأرجح أن التعداد قد قلل من حجم النزوح (٢٥٤٠٠٠ في عام ١٩٣٢)، الذي قدره إيلي صفاء تقديراً أفضل، «النزوح اللبناني»، بيروت، جامعة سان جوزيف، ١٩٦٠: ١٢١٤٥٠٠ في عام ١٩٥٩.

٨٩ - لقد رأينا أن العكس كان في القرن السابق: الفصل الخامس.

٩٠ - يمثل المسيحيون اليوم نسبة ٢١٪ من العرب المقيمين في إسرائيل وفي الأراضي المحتلة ونسبة ٤٪ في الأردن.

٩١ - حسمت وكالة غوث وتشغيل اللاجئين التابعة للأمم المتحدة في لبنان عدد المقيمين الفلسطينيين في المخيمات: ١٣٠٠٠٠ في عام ١٩٧٠. أما غالبية الفلسطينيين، التي تحيا خارج المخيمات، فلم تدخل في الإحصاء.

٩٣ - إن القيادة الفلسطينية، التي انتقلت إلى تونس في عام ١٩٨٢، قد سحبت رساميلها من البنوك اللبنانية؛ واعتباراً من عام ١٩٨٤، أدت أزمة اقتصاديات الخليج من جهة أخرى إلى الحد من تحويلات مدخرات النازحين.

٩٤ - تعتبر الكويت والبحرين استثناءً. ويقسم البلد الأول والبلد الثاني إحصاءً جيداً لسكانهما الأجانب، على أن تفاصيله جد مشوشة بما لا يسمح لنا بالوقوف على التكوين الطائفي للدياسبورا اللبنانية. وكل ما نعرفه هو أن نسبة المسيحيين بين الأجانب (يجرى الخلط بين جميع القوميات) كانت ٢٢٪ في التعداد الأخير للبحرين (١٩٨١) و أنها قد تطورت على النحو التالي في الكويت: ١٩٥٧: ١٠٪، ١٩٦٥: ١٠٪، ١٩٧٠: ١٧٪، ١٩٧٥: ١٦٪، ١٩٨٠: ١١٪، ١٩٨٥: لا توجد أية معلومات عن الديانة. والتلازم بين زيادة نسبة المسيحيين في الكويت والحرب الأهلية في لبنان جد رهيف بالنسبة لتشكيل علامة.

٩٥ - القضاء هو أصغر وحدة إدارية؛ ويوجد في لبنان ٢٤ قضاء. وكانت كلها مختلطة من الناحية الفعلية قبل عام ١٩٧٥. وهذا لا يعني أن القرى نفسها كانت كلها مختلطة.

المحتويات

٧	إلى القارئ
١١	تمهيد
الفصل الأول : قيام الإسلام في الشرق العربي	
١٧
٢٠	حالة الجماعات المسيحية عند وصول العرب
٢٣	سبعة قرون من الأسلمة
٢٣	تحقيق التجانس البني لشبه الجزيرة العربية
٢٤	العراق من الهجرة إلى المغول
٢٧	تمايش المعتقدات في الشام
٢١	الانتشار السريع للإسلام في مصر
٢٧	غزاة أم محزون ؟
٢٩	مجتمع يصبح مسلماً بالتدريج
٤٤	جداول وأشكال الفصل الأول
٤٨	حواشي الفصل الأول
٥٢	تعليقات الفصل الأول
الفصل الثاني : نزح المسيحية من أفريقيا الشمالية	
٥٥
٥٦	القرطاجتان
٥٨	انقلابات القبائل، تحولات الأفراد من دين إلى آخر
٦٣	الهالبيين والموحدين
٦٨	بقاء اليهودية
٧٠	حواشي الفصل الثاني
٧٣	تعليقات الفصل الثاني
الفصل الثالث : جماعتان مسيحيتان وجهاً لوجه في زمن الحروب الصليبية.	
٧٥
٧٦	مشتل دول مسيحية

٨١ الاستيطان الأوربي المستحيل في الأرض المقدسة

نهاية الحملات الصليبية والمغول : الجماعة المسيحية الشرقية تجد نفسها

٨٥ من جديد وحيدة مع الإسلام

٨٩ حواشي الفصل الثالث

٩٣ تعليقات الفصل الثالث

٩٥ الفصل الرابع : الإسلام تحت الهيمنة الاستعمارية في المغرب

٩٧ حلم إعادة المسيحية

١٠٠ تخليق مجتمع استيطاني

١٠٤ عسكريون ومستوطنون وكاهنون في وجه ديموغرافيا الإسلام

١١٢ الإسلام دين وحيد بعد ألف وثلاثمائة سنة

١١٥ جداول وأشكال الفصل الرابع

١٢٥ حواشي الفصل الرابع

١٢٩ تعليقات الفصل الرابع

١٣١ الفصل الخامس : النهوض المسيحي في الشرق العربي العثماني

١٣٣ السياسة وإحصاء البشر

١٣٥ الركود الديموغرافي النسبي

١٤٢ الانتشار المسيحي الجديد في الشام

١٤٧ أوراق الأقليات الرابعة

١٥٦ جداول وأشكال الفصل الخامس

١٦٨ حواشي الفصل الخامس

١٧٣ تعليقات الفصل الخامس

الفصل السادس : من الإمبراطورية المتعددة القوميات والطوائف

١٧٧ إلى الجمهورية العلمانية : اختفاء المسيحية من تركيا

١٧٨ تحول الجماعة المسيحية إلى أقلية

١٨٠ هجرة الأتراك المسيحيين إلى اعتناق الإسلام

١٨٥ نهوض الجماعة المسيحية في إطار نظام الملل العثماني

١٩١	من التنظيمات إلى جماعة تركيا الفتاة . أوج التعددية الطائفية
١٩٦	نهاية الوجود المسيحي
٢٠٤	جداول وأشكال الفصل السادس
٢١٨	حواشي الفصل السادس
٢٢٦	تعليقات الفصل السادس
٢٣١	الفصل السابع : إسرائيل والديمقراطية
٢٣٢	نزعة قومية خالصة للديمقراطية
٢٣٧	العرب الإسرائيليون : نواة متعاطفة
٢٤٠	شفل أراضي إسرائيل
٢٤٦	جداول الفصل السابع
٢٥٢	حواشي الفصل السابع
٢٥٥	تعليقات الفصل السابع

الفصل الثامن : الجماعة المسيحية في القرن العشرين :

٢٥٩	اضمحلال أم خوف
٢٦٠	تفتت الإحصاء ونبول الجماعات المسيحية
٢٦٢	نحو المساواة الطائفية في وجه الموت
٢٦٤	النموذج الاسرى القوي : أشكال تبنيه وأشكال مقاومته
٢٦٤	مصر
٢٦٨	السلطانيون
٢٧٠	لبنان
٢٧٥	بحثاً عن إخوانهم في الدين
٢٨٢	جداول وأشكال الفصل الثامن
٢٠٣	حواشي الفصل الثامن
٢١٠	تعليقات الفصل الثامن

تصويبات

ص	س	خطا	صواب
77	1	يخيون في	يحيون مع المسيحيين في
274	9	اضطر	اضطرت
282	16	حاصبيا	حصبايا
315	2	تحولات	تحويلات

الإشراف الفني: حسن كامل
تصميم الأساسي للخلاف : أسامة العبد

تم طبع هذا الكتاب من نسخة قديمة مطبوعة

